

من أول نظرة

في الجنس والحُب والزواج

الطبعة الأولى
١٣٩٦هـ - ١٩٦٦م

الطبعة الثانية
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الرابعة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعتم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيدي بويه المصري -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فساكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

أنيس منصور

من أول نظرة

في الجنس والحُب والزواج

دار الشروق

أحبك ... أحبك

من القصص الغريبة في « ألف ليلة وليلة » قصة القصر الذي وضع عليه عدد كبير من الأقفال .

يقال : كانت في الأندلس مدينة اسمها لبطه . وفي المدينة قصر . وعلى القصر حراس وعلى باب القصر قفل . والناس حريصون على أن يظل هذا القصر مقفلا . وكلما جاء ملك استجاب لرغبة الناس فوضع قفلا على القصر . وتوالى الملوك وتعددت الأقفال حتى صارت أربعة وعشرين قفلا . ثم جاء ملك أجنبي وحكم هذه المدينة . ولأنه أجنبي لم يكن حريصا على أن يظل القصر مقفلا . وحذره الناس وأخافوه ولكنه أصر . وحطم هذه الأقفال . ودخل القصر وهناك وجد صورا للفرسان العرب وحيولهم وأسلحتهم معلقة على الجدران ، وكتابا يقول : « إن الذي يفتح هذا الباب سيقتله الغزاة العرب » .

وجاء طارق بن زياد . وحكم البلاد واستولى على المدينة وعلى القصر . ووجد أحجارا كريمة وعشرات التيجان ووجد منضدة الملك سليمان . ووجد خرائط الكرة الأرضية وكتابا في تحويل المعادن إلى ذهب .. ووجد مرآة من ينظر فيها يرى الدنيا كلها .

أما هذا الملك الذي فتح القصر وعرف مستقبل هذه البلاد فقد قتله القائد العربي طارق بن زياد ..

انتهت القصة وأدرك شهر زاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح ..
والغريب في هذه القصة أن هناك قصرا ساحرا أو مسحورا . الناس يريدون أن يعرفوا ما به ولكنهم يخافون . فلما جاء واحد وأراد أن يعرف ما به وعرف ، كان جزاؤه القتل .. كان جزاؤه ما لقيه آدم وحواء عندما أكلا من « شجرة المعرفة » المحرمة فهبطا من السماء إلى الأرض ..

ومن العجيب أيضا أن هذا الملك الذى تنبأ بمحىء العرب ، قتله العرب ! لماذا قتلوه مع أنه لم يكن سببا في تعطيل دخولهم أو مقاومتهم .. وهذا هو الظلم الوحيد في القصة : إن الرجل الذى عرف وتنبأ عوقب مع أنه لم يرتكب جريمة ..

فهذا القصر المسحور يلتف حوله الناس ، ويطلقون خيالهم يفعل مايشاء .. وكان من الممكن أن يفتحوا القصر ويعرفوا الحقيقة . ولكن يبدو أن الناس يفضلون الخيال الذى يعذبهم . على الواقع الذى يريحهم !
إن هذا القصر المسحور كالحب .. كقلب المرأة ! .

الناس يقتربون منه ويستريحون إلى أنه : لغز .. فإذا حاول إنسان أن يقترب منه عاقبه على ذلك ..

فالرجل الذى يريد أن يعرف المرأة يتعذب . والذى تريد أن تقترب من الرجل تتعذب .. كأن العذاب هو ثمن حب المعرفة .. أو حب الاستطلاع .. ولكن الذى يفتح أقفال هذا اللغز أو هذا القلب الإنسانى يجد الكثير من الكنوز .. ويجد خريطة العلاقات الإنسانية .. ويجد قواعد للعلاقات الإنسانية .. ويجد المرأة التى إذا نظر فيها عرف نفسه .. وعرف غيره .. والمرأة الموجودة في قلوب المحبين من نوع خاص .. إنها مرآة تجعل الصغير كبيرا ، والكبير صغيرا .

ومن الغريب أن شهر زاد يدركها الصباح وتنام بعد كل قصة .. ولكن ..
قصة المرأة أو قلب الرجل يجب ألا تنام بعدها شهر زاد .. إنها قصة أيقظت
الإنسانية وهدت حيلها .. فلا استراح الذى عرفها ، ولا استراح الذى وقف
عند بابها .

والذين فى داخل القلب يريدون أن يخرجوا ، والذين فى خارجه يريدون
أن يدخلوا ..

ولو كان القلب الإنسانى مثل هذا القصر ، يفتح ولا يقاوم ، لكان أمر
القلب .. ولكن القلب الإنسانى يقاوم ويدوخ .. ولا يسهل فتحه .. وليست
أقفاله أربعة وعشرين .. بل أربعة وعشرين مليوناً ، كلما انفتح قفل ظهر
آخر .. إنها ملايين الأشياء التى بين الناس .. وهى ملايين الألغاز
والصعوبات .. النفسية والجسمية .. والاجتماعية .. وكل العلم والفن والتاريخ
والأدب محاولات لفتح هذه الأقفال ودخول هذا القلب الإنسانى دون أن
تسيل قطرة دم .. ولكن كيف تخوض فى الدم ولا تلوث ؟ كيف تخوض فى
الوحل ولا تتسخ ؟ .. كيف تكون هناك علاقة إنسانية ولا تكون حيوانية فى
نفس الوقت ؟ ..

إن الكاتب الألمانى هوفمان له قصة خرافية تقول : إن أحد الرهبان اكتشف
مادة سحرية إذا شربها الإنسان صار شريراً .. وإذا شربها إنسان آخر أصبحت
أفكارها متشابهة . وفى نفس الوقت أصبحت عدوين .. يحاول كل منهما أن
يتخلص من الآخر . ولكى يتخلص منه لا بد أن يقترب منه .. وأن يلتصق
به .. تماماً كالذى يريد أن يخنق إنساناً بيديه ، لا بد أن يقترب منه .. وأن
يلف يديه حوله .. وأن يميته .. أى لا بد أن يكون قريباً جداً .. ليكون بعيداً
جداً بعد ذلك ..

أليس هذا من أوجاع الحب ؟ ..

وأعود مرة أخرى إلى « ألف ليلة وليلة » ففيها قصة عن الرجل العادل
معن بن زائدة فقد أهدى ثلاث غانيات ثلاثة سهام ذهبية .. وقررت
الغانيات الثلاث أن يقلن في هذه السهام الذهبية شعرا .. فقالت واحدة :

يركب في السهام فصول تبر ويرمى للعدا كرما وجودا
فللمرضى علاج من جراح وأكفان لمن سكن اللحودا

وقالت الثانية :

ومحارب من فرط جود بنائه صيغت فصول سهامه من عسجد
عمت مكارمه الأحبة والعدا كيلا تعوقه الحروب عن النداء

وقالت الثالثة :

ومن جوده يرمى العدا بأسهم من الذهب الابريز صيغت فصولها
لينفقها المجروح عند دوائه ويشترى الأكفان منها قتيلاها

والمعنى الذى أعجبت به الفتيات الثلاث هو أن معن بن زائدة رجل
كريم . وهو بالفعل قد اشتهر بالكرم .. وقد بلغ من كرمه أن أعطى سلاحه
الذهبي للغانيات .. وأصبح أمامهن أعزل من السلاح ..

والحب كهذه السهام الذهبية ..

والسهام مهما كانت مادتها فهي موجهة .. سواء كانت من فضة أو من
ذهب أو من نحاس .. فهي توجع .. ولكن هذه السهام الغرامية تشبه الحقن
الطائرة .. التى يطلقها الصيادون فى الغابة على الوحوش .. فهم بدلا من أن
يطلقوا الرصاص أو السهام على الوحوش فتموت ، فإنهم يطلقون عليه حقنا
من البنج .. لاتكاد الحقنة تصطدم بالحيوان حتى توجعه .. ثم بعد ذلك يفقد
الإحساس بها وبأى شىء آخر .. وهنا يقبض عليه الصياد ، وبعد أن يكون

قد دخل القفص يسترد وعيه من جديد ..

فالحب هو هذه السهام الذهبية .. فكل إنسان مروجع من الحب ..
ولكنه في نفس الوقت يريد .. وينسى به كل شيء .. والحب نفسه أعلى من
الذهب ..

فالحب هو النشوة الذهبية على شكل سهم ينطلق من قلب إلى قلب .. أو
من جسم إلى جسم ..

وليس نوعا من الكرم أن يكون الحب من ذهب .. ولكن الكرامة هي
التي تجعل الفريسة تطالب بأن تقع ضحية لأغلى أنواع السهام ..
فالمرأة تفضل أن تموت بسهم من ذهب ، على أن تموت بسهم من
فضة ..

إنها تفضل أن يكون السلاح غاليا ، الأسلوب غاليا ، الثمن باهظا ..
إن هذا هو الذي يرضى كبرياءها وينفخ غرورها .. فإذا ماتت في
الحب .. ماتت بأغلى سهم .. بأغلى ثمن ..

* * *

ولكن ما هو الحب ؟ ..

من الذي يجيب عن هذا السؤال ؟ ..

ومن الذي يقول لنا ما صناعة الحب .. ماهو أسلوب الحب مع من
نحب ؟ ..

هناك ملايين الإجابات من ملايين الناس العارفين والذين لا يعرفون ..
وسوف تكون هناك ما لا نهاية له من الإجابات عن هذا السؤال .. وسوف
يقرأ الناس ويفكرون ويتساءلون أيضا : إن كان الذي قرأوه عن الحب

والحبين معقولاً أو واقعياً أو نافعا ! .

هناك اثنان من أساتذة الحب ..

لا أقول إنهما « الاثنان » الوحيدان . وإنما هما اثنان أعجبت بهما واسترحت إليهما : الشاعر اللاتيني أوفيد والعالم النفسى الكبير ايريش فروم .. أحدهما أستاذ قديم جدا .. ربما كان أقدم أستاذ للحب .. لفن الحب .. وأسلوب الحب .. والاستيلاء على المحبوب .. وكيف يمكن التعامل معه ، قبل ذلك وبعد ذلك .

هذا الأستاذ الكبير هو الشاعر اللاتيني القديم أوفيد ولد قبل الميلاد بثلاثة وأربعين عاما ، ومات بعد الميلاد بثمانية عشر عاما .. أحب عشرات المرات وعاكس ألوف المرات .. وتزوج ثلاث مرات .. وكان يتمنى لو طال عمره ليتزوج مئات المرات ..

وقد سجل الشاعر أوفيد كل فلسفته فى الحب فى كتابه المشهور « فن الحب » .. ولا يمكنك أن تقلب فى صفحاته دون أن تضحك ودون أن تختلف معه أيضا ! .

وأوفيد لا يضيع وقته ولا وقت القارئ .. انه يهجم على القارئ .. ويمسكه من ذراعه .. ويشده .. ويفتح عينيه ويقول له : امش ورائى .. وأنا أقودك إلى شاطئ الأمان .. فالحب بحر .. وأنا ملاحه البارع .. ويقول أوفيد : إننى أعلم أن الذئاب والصقور ليست لها شعبية .. ولكنى ذئب معجب بالصقور ..

والحب فن .. كما أن الملاحة وقيادة السفن فن .. وفلاحة الأرض فن .. فإذا رأيت فتاة أعجبتك .. يجب أن تصارح نفسك بسرعة : هذه الفتاة يجب أن تكون لى .. تحت سيطرتى . يجب أن أرتبط بها . وهذا هو سر النجاح فى الحب .

وسوف تجد صعوبة فى العثور على فتاة تعجبك .. ولكن هذه الصعوبة

مؤقتة . صحيح أن السماء لا تمطر الشقراوات واسمراوات .. ولكن يجب أن تبحث .. يجب أن تهرش رأسك وأن تفتح دماغك وتفكر .. أين تكون الفتيات ؟ .. هذا هو السؤال ؟ ..

إنهن في الحفلات . وفي أيام الأعياد والمباريات وفي المسارح .. هذه هي السوق . وأنت المشتري . وهذا هو البحر وأنت الصياد .. وكأى صياد يجب أن تجهز شباكك . وكل نوع من السمك له شبكة وله طريقة . وله مكان وله موسم . وكل صياد له أسلوب . ولكن الصيادين جميعا يتفوقون في شىء واحد : الانتظار والصبر والسرعة .. والصياد يجب أن يتأكد من شباكه ويجب أن يعرف طبيعة الفريسة . والصياد البارع هو الذى يعرف أين ومتى وكيف .. وهو الذى ينجح في الحب ..

وفي الأعياد والمواسم والحفلات تختلط كل أنواع الأسماك من كل الأحجام والألوان . كن قريبا من الفريسة . لا ترفع عينيك عنها . لاحظ ما الذى يهيمها . اقترب منها أكثر . حاول أن تلمسها وليكن اعتذارك رقيقا . هذا الاعتذار يجب أن تكون قد فكرت فيه . واجعل اعتذارك خليطا من المعاكسة ومنتهى الأدب . هذا فن ويجب أن تكون عينك مثل النحلة تنتقل من شعرها إلى ذيل فستانها . وعندما تشغل الفريسة بالنظر إلى الآخرين ، لاتشغل غيرها . إذا اهتمت بالخيل او الممثلين ، راقبها .

ويجب أن تقول لنفسك طول الوقت : أيتها الجميلة سوف تكونين لى ، كما كانت أمك فى فراش أبيك . هذا مؤكد .

وإذا لاحظت أن هذه الجميلة تنظر إلى أحد الخيول فى السباق ، اسأل عن اسم الحصان . وعن صاحبه . وليكن ذلك بصوت مرتفع يلفتها إليك . لا تنظر إليها إذا نظرت إليك . امش ورائى وأنت تصل إلى ماتريد . وإذا خرجت تابعها . سوف تتعثر فى مشيتها . هذا ضرورى . وإذا لم يكن فى

الأرض طوبة واحدة ، فإن المرأة تسقط هذه الطوبة من حقيبتها لكي تتعثر ، وتمتد إليها الأيدي والعيون . يجب أن تكون يدك أطول الأيدي . أما عينك فهما منذ البداية قد التصقتا بكل جسمها .. فإذا تعثرت امتدت يدك وساندها .. مع الاعتذار لها كأنك أنت الطوبة . أو كأنك الذى وضعت الطوبة .. وبسرعة ارفع ثوبها عن الأرض حتى لاتتعثر مرة أخرى .. أنت الآن إنسان سعيد لقد رأيت جانبا من ساقها .. وهذا يتوقف على سرعتك فى النظر وفى رفع الثوب ..

وبسرعة جدا ادخل فى حديث . اخترع أى كلام . عليك أن تدعى العلم والمعرفة . فالعلم نفسه لا يهتم المرأة ، المرأة تفضل الذين يدعون العلم ، ويتكلمون كالعلماء . لأن العلماء أنفسهم لا يحسنون الكلام . والمرأة تفضل الممثلين على الذين ألفوا الكلام للممثلين .. تفضل المطربين على الذين ألفوا لهم الأغاني ..

وإذا أحسست بشيء من الاضطراب ضع فى رأسك هذه الفكرة بسرعة جدا : لاتوجد امرأة لا يمكن الاستيلاء عليها ، وأنت تستطيع ذلك .. وأنه أسهل للإنسان أن يعتقد أن الطيور لا تغرد فى الربيع .. والفراشات لا تحوم فى الصيف ، والأرانب تطارد الثعالب من أن يتصور لحظة واحدة أن قلب المرأة لا يهتز أمام إنسان يعاكسها بألفاظ جميلة ..

قد تتصور أنها لاتريدك .. أنت مغفل .. فى أعماق كل امرأة أنها تريد أن تستسلم . فالمرأة ممثلة بطبيعتها . وإذا لم نتقدم نحن منها ، فسوف تلقى بنفسها علينا .. تحت أقدامنا بعد ذلك ..

وإذا كنت تعرف خادمتها .. صادقها ..

وإذا كنت تعرف صديقتها صادقها ..

وإذا كانت مرتبطة بأحد غيرك ، ابعد عنها .. فالطائر المربوط من أحد جناحيه ، لا يخلق بعيدا ..

وفن الصيد مثل فن فلاحة الأرض .. والفلاح البارع هو الذى يعرف أن هناك وقتا لحرث الأرض .. ووقتا لوضع البذرة .. ووقتا للحصاد .. وهو القادر على أن يراعى هذه القواعد .

ولاتنس .. لاتنس أبدا : الوعود .. الوعود .. وعشرات الألوف من الوعود .. وآه لو كانت عندى عشرات الألسنة .. عشرات الألوف من الألسنة لجعلتها كلها فى خدمة الفتاة التى اخترتها هدفا لحبى .. يجب أن يكون الإنسان مليونيرا فى وعوده . إنك لن تخسر شيئا . قل ما تشاء ولكن يجب أن تصدق أنت ماتقوله . فالأمل عند المرأة هو أعظم إله .. والأمل إله كذاب .. وكلنا آلهة لأننا جميعا كاذبون ! .

ولا تيأس .. سوف يلين لك كل شيء .. الحديد نفسه يتآكل .. الأرض نفسها تنشق تحت المحراث .. الماء يفتت الصخر .. إن طروادة نفسها ، قد استسلمت فى النهاية ..

وكل امرأة مهما كانت ليست إلا طروادة وقلاعها مهما كانت منيعة سوف تستسلم آخر الأمر .

حاول دائما أن تكون قريبا منها .. كلمها أو اكتب لها . وإذا طلبت ألا تكتب لها لاتصدقها إنها سوف تبكى إذا توقفت عن الكتابة . وإذا كتبت فلا تكتب كما لو كنت تخطب فى الجماهير .. كن رقيقا .. كن ناعما .. كن هادئا كالصياد . وفى الوقت المناسب كن صقرا .. كن ذئبا .. لاتضيع الفرصة المتاحة لك .. ولاتهم بمظهرك .. كن بسيطا فقط .. كم من قلوب سقطت ببساطة ، وبسبب البساطة .

إن البطل بتسوس قد استولى على قلب إريان لأنه لم يهتم بشعر رأسه اهتماما زائدا .. فقد كان شعره منكوشا ، ولكنه كان نظيفا معطرا ..

واجعل أظافرك نظيفة وضع عطرا في فك .. ولا ترتد حذاء كبيرا .. أكبر من قدميك .. فالمرأة تنظر إلى حذائك قبل أن تنظر إلى وجهك .. ولاتندهش ولا تناقش هذا الموضوع الآن . سوف يكون عندك فيما بعد وقت تناقش فيه وجه الشبه بين جزمتهك ووجهك وعقل المرأة ..

واعلم : أن المرأة تحب أن تكون ضحية .. ولذلك يجب أن تغدر بها . فهي غادرة بطبعها . وأنت وهي في سباق مع الغدر .. من الذى يغدر أولا .. كن أنت الغادر الأول قبل أن تكون الضحية ..

إن مصر الفرعونية قد عاشت تسع سنوات تقاسى من القحط .. فلذهب تراسيوس يقول لأحد ملوك مصر : إن حال مصر لن ينصلح إلا إذا ذبحتم رجلا أجنبيا ..

فقال له الملك : فعلا .. إذن لتكن أنت أول ضحية من أجل مصر !!
وذبحوه ..

فلا تكن أنت الضحية ..

وأنا أعلم أنه ليس من السهل على الرجل أن يبكى .

فالمرأة أستاذة البكاء .. ولكن دموع الرجل أقوى أثرا في نفس المرأة .. هنا فقط تستطيع أن تستدير وتضع أصبعك في عينك .. إنها دموع واحدة أو دمعتان .. وبعدها تنهار المرأة ..

وإذا كنت تتحدث إلى المرأة ، فلا تضع لمستقبلكما مشاريع خرافية .. لا تكن مثل الفتى ايكاروس الذى أراد أن يطير . فوضع لذرعيه ريشا طويلا .

وألصق هذا الريش بالشمع .. وحذره أبوه ألا يقترب من الشمس في طيرانه .
حتى لا يذوب الشمع في حرارتها .. وحذره ألا يقترب من البحر ، حتى لا
يذوب الشمع في بخار الماء .. ولكن ايكاروس طار فوق البحار وقريبا من
الشمس .. فتساقط ريشه .. وسقط ..

ولاتنس أن المرأة متقلبة ..

ولذلك يجب مراعاة أساليب الاستيلاء على قلبها .. فكل أرض تصلح
لنوع معين من الأشجار .. وكل سمكة لها ماء حلو أو ماء مالح .. وصيد
الصغيرة يختلف عن صيد الكبيرة .. كل فريسة لها أسلوب تقع به ..

وليس جسم المرأة فقط هو الذى يجب أن تغزوه وإنما عقلها أيضا ..
والبطل عوليس لم يكن جميلا ، كان فصيحاً ..

كانت كاليبسو تطلب إليه أن يروى لها القصة الواحدة ألف مرة ..
لتسمعه .. وكان يروى القصة الواحدة كل مرة بأسلوب مختلف .. وفي إحدى
المرات أمسك عودا من الحطب وراح يرسم على رمل الشاطئ كيف سيستولى
على حصون طرواده .. فجاءت موجة ومسحت الرسم ..

فقالت له كاليبسو: إن البحر سوف يقضى على الجميع .. فاحترس !
وكان لابد أن يقول لها عوليس : ولكنك الشاطئ الذى يحمى الجميع
من البحر ! .

وشعرت كاليبسو بأن قلبها يذوب من أجله لأن المرأة تحب المديح ..
ولاتشبع من الكلام الحلو .. لاهى تشبع من كلام حلو يقوله الرجل ولاتشبع
من كل شيء تقوله ضد الرجل ! .

والكلام هو « الطعم » الذى يجب ألا ينجتنى من سنارتك .

والصقور والذئاب ليست لها شعبية ، ولكن الحمامة الوديعه هي التي تفوز
بقلب الجميع .. لأنها رقيقة ومسالمة . وفي نفس الوقت ضحية للصقور ..
والمرأة تحب أن تلعب دور الحمامة .. وليلعب الرجل دور الصقر . وتستسلم
له في النهاية . فتفوز وتثير شففته في نفس الوقت .

وتقوم بدور الضحية مع أنها هي الصقر الذي له ريش الحمامة !
والأغنياء ليسوا في حاجة إلى نصائح .. فهداياهم فصيحة وبلغه
ومقنعة ! ..

ويقول الشاعر أوفيد : إنني شاعر الفقراء ..

وإذا تمكنت من قلب الفتاة ، اختف عن أنظارها بعض الوقت ..
ستثيرها . ستقلق عليك . ستفكر فيك . ستعرف قيمتك ..

ولاتنس أن الفلاح الناجح هو الذي يريح التربة بعض الوقت . والتربة
إذا استراحت بعض الوقت كانت خصوبتها أقوى .. وغلتها أعظم ..

وكذلك قلب المرأة يجب أن تبتعد عنه بعض الوقت .. سوف يكون
استعدادها للعطاء أكثر . وللاستسلام أعمق ..

فعندما ابتعد البطل عوليس عن زوجته بنيلويه عشرين عاما انشغلت عنه
كل هذه السنوات الطويلة .. ولكن عندما جاء كانت عند قدميه ..

وإذا قاومتك المرأة وضافت بك ثم نظرت إلى نفسها في المرآة ووجدت أن
ملاحها ليست جميلة .. ثم إذا ضحكت وتظاهرت بالفرحة بلقائك ورأت
ملاحها جميلة في المرآة فإنها سوف تستسلم لك ..

إن الفتاة الإغريقية « بالامس » عندما راحت تنفخ في الناي ، ونظرت
إلى وجهها في المرآة ، وجدت أن النفخ يفسد ملامح وجهها فحطمت

النأي ، وعدلت نهائيا عن هذا النوع من الموسيقى .. خوفا على جبال وجهها !
وكذلك كل امرأة ..

والشاعر أوفيد لا يفوته أن يعلمك كيف تتخلص من المرأة .. فهو يقول
لك :

ولا تنس أن المرأة لاتطبق أن ينشغل عنها الرجل . ولا تطيق أن يهملها ..
إذا أردت أن تهرب من المرأة انشغل عنها . والحب لايجب العمل ..
لاشيء يقتل الحب إلا العمل .. فالعمل يأخذك من قلبك ويأخذك بعيدا عن
قلب المرأة ولاتصدق أن المرأة تحب أن ينشغل عنها الرجل ولو كان ذلك بالله
أو بالعلم .

إن المرأة تغار من الكتاب الذي يقرؤه الرجل . ومن القلم الذي يمسكه .
إن المرأة تريد الرجل الذي يتفرغ لها .. ولذلك ينجح العاطلون في
الحب . ولا ينجح العلماء والعباقرة ..

فوراء كل رجل عظيم امرأة تعيش في ظل عظمته .. ولكنها تمنى في
نفس الوقت ألا يكون عظيما ليتفرغ لها ..
إن العظمة تهم الرجل ولاتهما .
إن المجد يهم المرأة ولكنه ليس أملاها .

إن أورفيوس ذلك النافخ في النأي ، والذي سحر الأسماك فخرجت من
البحر تزحف وراءه على الشاطئ ، وتركت الطيور أو كارها لتستمع إلى
موسيقاه .. هذا الساحر قد شغل الكائنات كلها عن حياتها وعن صغارها ..
أحبته النساء وعندما انشغل عنهن ، قتلنه ! .

هذه نصائح شاعر الفقراء الذين لا يملكون إلا عقولهم وحيلهم من أجل

الاستيلاء على المرأة .. فهم أصحاب هدف واحد هو الاستيلاء على المرأة بالحيلة والخديعة من أجل الحب .. أو من أجل الجنس ..

والشاعر أوفيد : صياد حب ولكنه ليس محبا . إنه لا يناقش معنى الحب . لا يهمه . ليس عنده وقت . إنه جائع يريد أن يأكل ، وعطشان يريد أن يرتوى .. ولأنه يشكو من الوحدة فهو يريد ألا ينسى أنه رجل يبحث عن امرأة ! .

إنه صقر . ذئب . صياد . بحار . فلاح . طيب . ووحش أيضا .
والمرأة : لعبته وفريسته ! .

* * *

أما الأستاذ الثاني في الحب . فهو عالم النفس المعاصر الكبير إيريش فروم .. وهو ليس صقرا ولا ذئبا . وإنما هو مفكر يسأل : ما معنى أن يكون الإنسان صقرا أو ذئبا ؟ ولماذا ؟ .. ثم كيف نجح ؟ .. ولماذا ؟ .. ما هذا الذي يحس به ؟ .. ولماذا ؟ .. وما معنى هذه الخطوات المختلفة في الحب وما هذا الذي يشتعل في قلب الإنسان .. أو في قلبين في وقت واحد ؟ ..

والعالم إيريش فروم له أيضا كتاب جميل بنفس عنوان كتاب الشاعر أوفيد .. فعنوانه « فن الحب » .. ويستهل كتابه بهذه العبارة لكاتب قديم اسمه بارسياوس :

« من لا يعرف ، لا يحب شيئا ..
ومن لا يستطيع أن يفعل شيئا ، لا يفهم شيئا ..
ومن لا يفهم شيئا لا يساوى شيئا ..
ولكن الذي يفهم يحب ، يلاحظ .. يرى ..
وكلما كان الشيء مليئا بالمعاني ، كان الحب أقوى ..

والذى يتخيل أن كل الثمار تنضج فى وقت واحد ، لايعرف شيئا عن الفاكهة ..

فهل الحب علم ؟ .. هل هو فن « .

الناس محاصرون بالحب والكلام عن الحب : الأفلام والقصص والكتب والأغاني . كل شىء حب فى حب . ولكن أحدا لايدرى أن فى استطاعته أن يتعلم الحب ، أو كيف يحب !! .

فكل الناس الذين يتحدثون عن الحب ، يقصدون كيف يكون الإنسان محبوبا لاحبيا ، معشوقا لاعاشقا ..

والمشكلة - إذن - هى كيف يكون الإنسان محبوبا ؟ .

الرجال يريدون ذلك بأن يكون الواحد منهم ناجحا قويا غنيا .

والنساء بأن تكون الواحدة منهن جميلة أنيقة رشيقة ..

والرجل الجذاب : هو المهذب القادر على الحديث الرقيق والمسالمة أيضا ..

وأسباب النجاح فى الحياة ، هى نفسها أسباب النجاح فى الحب .. فالناجح هو الذى يكسب الأصدقاء ويكون له أثر فى الناس .. والإنسان المحبوب هو الناجح عند الجنس الآخر . أى الذى تكون له جاذبية جنسية ..

وهناك أناس يرون أن الحب شىء .. سلعة .. وأن المرأة شىء . وأن الإنسان ليس فى حاجة إلى علم لكى « يحصل » على المرأة .. أو « يوفر » لنفسه الحب .. فالحب ممارسة . لذلك من السهل على أى إنسان أن يحب ، ومن الصعب عليه أن يحب الشخص الذى يستحق الحب ..

وفى القرن العشرين استولت « عقلية السوق » والبيع والشراء على حياة الناس وتفكيرهم . ولذلك كان الحب سلعة . وكانت المرأة أيضا .. وكانت العلاقات الإنسانية نوعا من المصالح المشتركة . والصفقات . والحياة الاجتماعية هى سوق العلاقات الإنسانية . وكل شىء : بيع وشراء . ومكسب وفرصة .

ولذلك فعنى كلمة « الجاذبية » يتوقف على العصر الذى يعيش فيه ، وتتوقف على موضة العصر !

وفى عشرينيات هذا القرن ، كانت الفتاة الأوروبية أو الأمريكية التى تشرب الخمر وتدخن ، هى الفتاة المسترجلة .. أما الفتاة الغربية النموذجية : فهى الرقيقة الأنثى ..

وفى القرن التاسع عشر كان من الضرورى أن يبدو الرجل عنيفا طموحا . أما الآن فن الأفضّل أن يكون اجتماعيا صبورا ، ليكون جذابا للمرأة .. ومن الممكن أن يقع اثنان فى الحب فى وقت واحد ، إذا وجد كل منهما أن الآخر هو « الصنف » الذى يناسبه ..

إنه « منطق السوق » الذى يستولى على الناس .. وما دام النجاح المادى هو الغاية الحقيقية فليس غريبا أن يكون نوعا من البيع والشراء والمساومة والكسب .

والحب فن . ويمكن أن نتعلمه . والحب مثل الموسيقى والرسم والتجارة والخياطة والطب والهندسة .. ويمكن أن ندرسه وأن نتفوق فيه إذا عرفنا قواعده وأصوله .

فهناك خطوات ضرورية لكى نتعلم الحب أو أى فن آخر ..

أولا - يجب أن نعرف الأسس النظرية ..

ثانيا - يجب أن نفهم تطبيق هذه الأسس .

فالطبيب مثلا يجب أن يعرف وظائف الجسم الإنسانى ويعرف الأمراض المختلفة .. والذى يعرف كل هذه العلاقات أو هذه الوظائف الإنسانية ، ويعرف كل الأمراض وأعراضها ، لا يكون طبيبا ، لأنه لا بد من التجربة ..

لابد من الممارسة حتى تلتقى المعلومات النظرية ، والتجارب العملية ..

وهناك عنصر ثالث لكى ينجح الإنسان فى أى فن هو : الإصرار على التفوق فى هذا الفن . أى يجب أن يكون شاغله الوحيد هو : كيف أتفوق فى هذا الفن . ولا يكون فى حياتى كلها شىء أهم من ذلك ..

ولكن ما الذى يجعل الناس ينشغلون عن الحب ، رغم حرصهم عليه ونجاحهم أو فشلهم فيه؟ .

السبب هو أنهم ينشغلون بأشياء أخرى أهم من الحب : مثل النجاح والمركز والمال والسلطة .

ولابد أن تعرف أن أية نظرية فى الحب يجب أن تبدأ بنظرية عن الإنسان وعن الوجود الإنسانى .

والإنسان قد وجد وهو لا يعرف كيف حدث ذلك . وليس متأكدا من كل شىء . وإنما ماضيه فقط هو المؤكد . وفى مستقبله لاشىء مؤكد إلا الموت .. وبين الميلاد والموت لا يعرف الإنسان شيئا .

وسوف يموت الإنسان قبل أو بعد الذين يحبهم .

والإنسان يشعر بالوحدة فى هذه الحياة .. والوحدة ترميه على القلق أو ترميه بالقلق ويشعر بأنه منغل .. منقطع أو مقطوع عاجز .. فالعالم كله قادر . وهو وحده عاجز . وهذا يؤدي إلى شعوره بالذنب والعار أيضا . فآدم وحواء بعد أن أكلا من شجرة المعرفة وبعد العصيان - بعد أن تمردا على الطبيعة الحيوانية جعلها العصيان بشرا - شعرا بأنها عاريان . وخجلا من ذلك ! .

والإنسان يريد أن يخرج من عزلته .. فالطفل تختفى عزلته عن طريق أمه ، ولذلك فالإنسان لابد أن يكون على صلة بأحد ، على علاقة بأحد . وأن يحرص على بقاء هذه العلاقة ، وهذه العلاقة هى أن يأخذ وأن يعطى بنفس

الدرجة . بل إن الحب عطاء أكثر أو سعادة بالعطاء ..

ومن أصدق العبارات وأغربها أيضا عبارة للفيلسوف الكبير كارل ماركس يقول « خذ الإنسان كإنسان ، وعلاقته بالعالم كعلاقة إنسانية . والحب بالحب . والثقة بالثقة . إذا أردت أن تستمتع بالفن يجب أن تكون شخصا مدربا على التذوق وإذا أردت أن تؤثر في الناس يجب أن تتأثر بهم أيضا .. فالحب هو أن تعطى وأن تأخذ .. ويجب أن تعلم أن المدرس يتعلم من تلاميذه ، والممثل يتعلم من جمهوره ، والطبيب يتعلم من مرضاه » .

والعاشق يتعلم من معشوقته ، وهي منه أيضا ، فالحب علاقة تمتد فيها الأيدي لتأخذ ولتعطى في نفس الوقت .. تماما كما تتلاقى الشفاة : فأنت عندما تقبل لاتعرف إن كنت أنت الذى يقبل أو أنت الذى تقبلك فتاة .. فأنت تعطى وتأخذ في نفس اللحظة ..

ولكن ما عناصر هذه الكلمة التى تكررت عشرات المرات . ما عناصر الحب .. هذا الساحر العجيب ..

عناصر الحب هى : الاهتمام .. والمسئولية .. والاحترام .. والمعرفة .

واهتمام الأم بطفلها هذا هو الحب الحقيقى . فهى تهتم بصحته وطعامه . وهى مشغولة عليه ليلا ونهارا .. ولكن إذا قالت لنا سيدة إنها تحب الزهور جدا ، ثم نسيت أن تروىها فى أحد الأيام ، فإننا لانصدق أنها تحب الزهور . فالذى يجب هو المهتم والمهموم بمن يجب ..

وفى سفر « يونس » فى الكتاب المقدس نجد أن الله طلب إليه أن يذهب إلى أهل نينوى وأن يدعوهم إلى فعل الخير ، وأن يندرهم وأن يحذرهم من غضب الله . ولكن يونس رفض أن يذهب . فقد خشى إذا طلب الناس من الله أن يغفر لهم ويعفو عنهم ، أن يستجيب الله لدعائهم - فهو بذلك رجل

يؤمن بالقانون . ويؤمن بأن الذى أخطأ يجب أن يلتقى جزاءه . ولكنه لا يجب هؤلاء الناس . لذلك وجد نفسه فى بطن الحوت . أى فى عزلة مخيفة بسبب فقدانه الحب لأحد من الناس . وأنقذه الله . ولكن حدث بعد ذلك ما كان يخشاه . وأنبت له الله شجرة . وذبلت الشجرة . فحزن عليها . فقال له الله : كيف تحزن على شجرة لم تغرسها ، ولا تحزن على ألوف الناس فى مدينة نينوى ؟ ١٢ .

والعنصر الثانى هو المسئولية ..

والمسئولية معناها إذا سألنا أحد أجبناه ، إذا طلب منا أعطيناه فوراً . والنبي يونس ليس مسئولاً عن أهل نينوى .. إذا طلبوا إليه فلن يجيب .. ويونس مثل قابيل الذى قتل أخاه .. ولما سأله الله : ماذا فعلت بأخيك ؟ قال : وهل أنا مسئول عن أخى ؟

والأم مسئولة « جسمياً عن طفلها » .

والحب « مسئول » نفسياً « عن محبوبته » .

والمسئولية من الممكن أن ينحط معناها فتصبح نوعاً من السيطرة . ولذلك كان من الضرورى أن تتضمن المسئولية عنصراً آخر هو : الاحترام . والاحترام ليس معناه : الخوف والفرع . وإنما الاحترام معناه أن ننظر إلى الإنسان كما هو عليه وأن نحترم فرديته . والاحترام معناه أيضاً : أن ننظر إلى الإنسان الآخر على أن له حرمة . وبذلك نحترم استقلاله . فإذا أنا أحببته كنت معه شخصاً واحداً ، وفى نفس الوقت أحترمه كما هو ..

والحب كما يقول المثل الفرنسى - هو ابن الحرية - وليس ابن السيطرة والاستغلال ..

وأنت لا تحترم شخصاً لا تعرفه ..

فلاحترام أعمى والمسئولية عمياء إذا لم تكن تعرف هذا الشخص .
والمعرفة فارغة إذا لم يكن هناك اهتمام ..

والذى أحبه يجب أن أعرفه . وأعرف كل ما يدور في نفسه دون أن يصرح
لى بذلك . لأننى قريب منه .. لأننى أهتم به . لأننى مسئول عنه . لأننى احترم
همومه ، وفى نفس الوقت أرى من واجبي - واجب على وجداني - أن
أشاركه . أن أخفف عنه . أن أسعده .. وفى سعادته سعادة لى .. ولنا فى وقت
واحد .. دون أن أضغط عليه ..

فإذا كان من الضرورى أن نكسر الأشياء المغلقة لكى نعرف ما فى
داخلها ، تماما كما نكسر قشر البندق واللوز ، فى الحب ليس هذا ضروريا ..
فبين المحبين لا توجد قشور .. ولا توجد أعماق .. فكل ما عند المحبين أعماق
قريبة .. ملموسة .. مرئية .. ولذلك فأنا لا احتاج إلى أن أمزق حبيبي لأرى
جلده ، ولا أن أمزق جلده لأرى قلبه ، ولا أن أكسر قلبه لأسمع دقاته .. إننى فى
داخله فى كل لحظة وهو يتكلم بلسانى ويرى بعينى ، ويخفق بقلبي ، ويتخيل
بعقلى ، ويمشى على ساقى .. ويرانى دنياه ، وأراه دنياى .. فنحن معا دنيا
لاثنين .. وفى نفس الوقت نحن - رغم ذلك - اثنان مختلفان ! .

وفى العصر الحديث حدث شيء غريب فى الحب ، والعلاقات بين
المحبين .

فى المجتمع الرأسمالى ، ماهو المطلوب من الناس ؟ .

ما الذى تقوله الإذاعة والتلفزيون والسينما والمجلات لكل مواطن : يجب
أن يكون المواطنون متعاونين فى هدوء ، مختلفين بلا تعصب ، وأن يكون
عدددهم كبيرا ليستهلكوا أكثر .. ويجب أن تكون أذواقهم على نمط واحد ..
ويمكن التأثير عليها وتوقعها . يجب أن يشعر الناس بأنهم أحرار مستقلون ،

لايقعون تحت أى ضغط للسلطة أو المبدأ أو الضمير . وعلى استعداد لأن ينفذوا كل أوامر تصدر إليهم . والمهم جدا : أن يكونوا مسامير فى آلة كبرى دون احتكاك . أو اصطدام - وأن توجههم الدولة والهيئات والمؤسسات والشركات بلا عنف ، وبلا قائد ، وأن تدفعهم بلا هدف - إلا هدفا واحدا هو أن يكونوا طيبين نشطين عاملين ومؤمنين بالتقدم ! .

فماذا كانت النتيجة ؟ .

لقد أصبح الإنسان الحديث بعيدا عن نفسه ، وعن الناس أيضا وعن الطبيعة وتحول إلى سلعة يستثمر قدراته ، ليحصل منها على الحد الأقصى من الربح فى ظروف السوق الراهنة . وأصبحت العلاقات الإنسانية آلية أيضا . كل إنسان يبني بيته وحياته ضمن القطيع الكبير ..

وإحساسه بأنه وحده . وأنه ليس على صلة بأحد ، هو الذى يدفعه إلى أن يحشر نفسه بين الناس ، وأن يكون على مقربة منهم ، دون أن يدور بينه وبينهم كلام . المهم أن يكون « مع » أحد .. أو « بالقرب » من أحد .. أو فى « ظل » أحد .. لأنه يضيق بهذه العزلة الرهيبة التى يعيشها ..

وفى المجتمع الرأسمالى : نظام . أو قيود العمل . أو على الأصح روتين فى غاية القسوة . هذا الروتين هو وحده الذى حول الناس إلى حيوانات ، إلى آلات : الأكل والشرب والنوم واللعب فى ساعات وبنظام . إنه الحزص على أن « يؤذى » الإنسان ما هو واجب . وما هو ضرورى . فالدافع هو أن يتخلص من رغباته .

فالتخلص هو الدافع وليس اللذة ..

والكاتب الانجليزى الكبير ألدوس هكسلى فى روايته المشهورة « عالم جديد شجاع » يصف حال الناس فى المستقبل : إنهم يأكلون جيدا ، ينشطون

جميعا ، علاقتهم بالآخرين أنفه ما يكون وشعارهم لا تؤجل لذة اليوم إلى غد .

واللذة : هي اللعب والشراء والفرجة والشرب والرقص والتدخين والاجتماعات والمحاضرات والكتب والمجلات والأفلام.. فالعالم كله شيء واحد لفتح الشهية أو لإشباع الشهوة . والناس جميعا : آكلون وشاربون يائسون أيضا . لأن الآلات لا تحب ، ونحن نتبادل المصالح فقط .

حتى الحب في المجتمع الرأسمالي هو مجرد التفاهم والاتفاق في الرأي بلا ضوضاء . أو بالاكتفاء دائما بأن يكون هناك رأى واحد - كل الكتب والمجلات والأفلام تؤكد للمواطنين ذلك .

فإذا اختلف الرجل وزوجته كان ذلك دليلا على الفشل ، وبسرعة يذهب أحد الطرفين - المرأة عادة - إلى الطيب النفسى . وعند الطيب تتمدد المرأة وتتساقط منها تاريخها وأسرارها . وفي النهاية يقول لها الطيب : إن زوجك هو المريض فحاولى أن تعامليه برفق . وتذهب الزوجة وتعامل زوجها على أنه مريض .. وبذلك يصبح البيت العادى مستشفى بأمر الطيب .. وينعدم معنى الحياة ومعنى الزوجية ويتبدد الحب لا لشيء .. إلا لأن الخلاف مرض ، والاختلاف خطر ..

مع أن الحب هو الملجأ الوحيد في عواصف الحياة اليومية . والمحبان هما اثنان ضد العالم كله ..

وعدم وجود الحب هو الذى يوقعنا في كثير من الأخطاء . ويقع الناس في أخطاء جنسية ..

إنهم يتصورون أن الجنس والنجاح في الجنس هو الذى يؤدي إلى الحب ويؤكدده . ويجعله على أساس متين . مع أن العكس هو الصحيح : فالحب هو

الذى يجعل الجنس متعة . وراحة . والحب هو وحده القادر على تصحيح الأساليب التى تستخدمها فى الاستمتاع الجنسى . وهو المسئول عن الضعف الجنسى والعجز الجنسى .. بالحب يصبح الضعيف قويا ، والعاجز قادرا ويصبح البرود حرارة . والذى يجعل الجنس مؤلما هو الخوف والكراهية والعزلة . ومن الأخطاء أيضا أن نتصور : أن الرجل طفل لم يتم فطامه بعد . وهو يريد أن يكون محبوبا لامحبا معشوقا لعاشقا .. وأن يكون مركزا للعطف والحنان والدفء والإعجاب . وهذا هو حب الصغار الذين لامتولية عليهم . وهو الحب الذى لاينجح . يكفى أن يشعر الرجل بأن محبوبته لاتهتم به ولاتعجب به . أو عندما تحاول أن تمنع رجلا آخر على أن يمسه هو ويهتم بها .. ويرعاها - هنا يحدث انشقاق بين اثنين . وسبب الخطأ هو هذا التصور الموجود عند الرجل ، ودون أن يناقشه أو يفكر فيه ا .

وهذا يؤدى إلى خطأ آخر هو : تأليه الحب .. وتقديس المحبوبة نفسها أيضا .. وذلك بأن نأخذ صفة الآلهة ونعطيها للتي نحبا أو للذى نحبه .. ونبالغ فى هذه الصفات . وبذلك نخلق إنسانا لاهو إنسان ولا هو إله . وإنما هو الإثنان معا . وهذا يؤدى إلى صدمة عنيفة . عندما نكتشف أنه ليس إلهها وإنما هو إنسان . إن هناك حادثة تاريخية مشهورة عندما ذهب توماس كوك إلى جزر هاواى ورآه السكان الأصليون يدخن السيجار . واندعشوا كيف يخرج الدخان من فمه ولايحرقه . وعندما رأوه يضع يديه فى جيوب بنطلونه .. فظنوا أنه يضعها فى بطنه ويخرجها دون أن يموت .. فركعوا وسجدوا له .. ولكن عندما كان عنيفا معهم .. تشجعوا وضربوه .. سال دمه . إذن ليس إلهها .. إنه إنسان . فقتلوه .. قتلوه كإنسان وكإله أيضا وهذا ما يحدث للمحبيب الذى كإله وهو فى الحقيقة إنسان ..

إن مثل هذا الحب الملتهب الرومانسى الخيالى لا وجود له فى الواقع . إنه

موجود فقط في الأغاني والأفلام وفي الروايات . وهذه الأعمال الفنية تخلق من الناس جيلا شادا : تخلق منهم أناسا يتفرجون على المحبين والحب ولكن لا يحبون ..

وأعجب من ذلك إنهم يحبون المحبين .. يحبون الحب .. وفي نفس الوقت يطلبون أن يكون لهم مثل هذا الحب .. فإذا لم يتيسر لهم ذلك .. فإنهم يرضون بالفرجة على الحب .. والمتعة أثناء الفرجة على جنات المحبين .. مع أنه لا حب مثل ذلك في الواقع .. وأن الحب على الشاشة فقط .. أما في الحياة : فلا حب ولا محبين ..

ويقع المحبون في غلطة أخرى : إنهم يتصورون أن الحب مستحيل . وأن العذاب هو العلاقة بين الناس . وأن الواقع - إذن - أليم . فلا بد من الهرب من الواقع إلى الماضي .. أو إلى المستقبل . إلى أوهام سعيدة وراءهم أو أمامهم .. أما البحث عن شيء فيهم فهذا مالا يفعله أحد .. وعندما تخلو النفوس من الحب : تخلو الحياة من الحرارة .. وتمتلئ بالملل .. والقرف . والحب فن يجب أن تتعلمه .. وتعلمه بأن تعرف أسسه وقواعده ..

ولكى تنجح في تطبيق هذا الفن . فلا بد من شروط أخرى .. ضرورة في الحب وفي كل فن آخر ..

أول هذه الشروط أن يكون هناك نظام . فن الممكن أن ينشغل الإنسان بأي فن . ولا يراعى أن يعمل فيه بدقة . وبنظام . وبذلك يكون الإنسان هاربا . على مزاجه .. على كيفه . هذا ممكن . وليس من الممكن أن يتفوق في الفن . إننا نعرف أن دافنشي الفنان العظيم كان يعمل كأنه تلميذ مبتدئ .. ونعلم أن ميكل أنجلو نام على ظهره ينقش في كنيسة القديس بطرس شهورا طويلة حتى تصلبت عروقه .. ونعلم أن الأديب فيكتور هيجو كان شعاره : سطر كل يوم - إنه يكتب سطرا كل يوم وبنظام دقيق ..

والنظام ضرورى فى أى فن .. وفى الحياة كلها ..

وفى العصر الحديث نجد الإنسان يعمل بنظام . ثمانى ساعات فى اليوم .. لا بد أن يعملها . وبعد ذلك يستريح .. وبعد ذلك يلعب . وفى نهاية الأسبوع خارج البيت أو خارج المدينة . هذا نظام من حديد .. ولكن هذا النظام عام . إنه ليس خاصا بأى إنسان . وإنما هو مفروض عليه . ولكن فى الحب فإن النظام والانتظام فى هذه العلاقة واتباعها نحن الذين نختاره . ونحن الذين نفرضه على أنفسنا . ونراه قيذا محتماً .. أو نراه حرية منظمة .. وبلا نظام تصبح الحياة فوضى ..

وبلا نظام لا تكون هناك قدرة على التركيز ..

والتركيز هو الشرط الثانى أيضا للنجاح فى تطبيق أى فن . والتركيز نادر فى حياتنا الحديثة . فأنت تقوم بأكثر من عمل فى وقت واحد . تقرأ الصحيفة وتدخن وتشرب القهوة وتنتظر من النافذة أو تستمع إلى الراديو أو تجلس أمام التليفزيون .. كل ذلك فى وقت واحد . وهذا العجز فى القدرة على التركيز واضح جدا فى أننا لانستطيع أن نكون وحدنا . وإنما نحن حريصون على أن نكون معا نأكل ونشرب ونتكلم ونتفرج أيضا . والتدخين هو إحدى العادات التى تدل على عدم قدرتنا على التركيز : لأن التدخين يشغل اليد والفم والعين والأنف فى وقت واحد ..

ولكى تنجح فأنت فى حاجة إلى التركيز إلى أقصى درجة .. إلى أن تركز مشاعرك كلها على الفتاة التى تحبها . أن تنشغل بها . وتملأ عينيك وأذنيك ويديك وشفتيك .. وكلما ركزت عليها نجحت فى حبك .. وفى حبها أيضا ! .

وشرط ثالث : أن يكون عند الإنسان صبر وقدرة على الاحتمال . وفى نفس الوقت قبول للعذاب كضرورة للنجاح . والنجاح هو الراحة . والذى

يتعجل النتائج ليس هو الذى ينجح عادة . ولن يتعلم الإنسان أى فن ولن يتفوق فيه .. والصبر صعب جدا على الإنسان الحديث ، إنه أكثر صعوبة من قدرته على النظام والتركيز ..

والمجتمع الصناعى يدفعنا إلى الاستعجال .. فكل شىء يجب أن ينطلق بسرعة . أن يتم بسرعة . وكلما كانت السيارة والطيارة والصاروخ أسرع كانت أفضل . وهناك أسباب اقتصادية لتفضيل المواصلات السريعة . وما يصلح فى عالم السيارات ، يصلح فى عالم الإنسان . لأن الإنسان الحديث يخشى إضاعة الوقت إذا لم يتحرك أو يتصرف بسرعة . فى حين أن الوقت الذى يتوفر له بعد ذلك ، لا يستفيد منه ، وإنما يفكر فى قتله من جديد ! .

ومرة أخرى يجب أن يكون هناك شرط هام هو : الاهتمام الشديد . أن يهتم بهذا الفن وأن يهتم له .. أى أن يكون هذا الفن شاغله دائما . وإلا فلن يتفوق فيه ..

والمثل القديم يقول : إذا أنت أعطيت للعلم كل قدراتك ، أعطاك بعض أسراره ، وإذا أنت أعطيت للعلم بعض قدراتك ، لم يعطك العلم شيئا .. وكذلك فى كل فن .. وفى الحب أيضا .. وأخيرا فالإنسان لا يتعلم الفن مباشرة .. وإنما يصل إلى التفوق بأساليب غير مباشرة . فالذى يتعلم فن النجارة ، يتعلم كيف يقطع الخشب ، وكيف يسويه وكيف يصنفره وكيف يطليه .

ولذلك يجب أن يمارس الإنسان النظام والتركيز والصبر فى كل شىء .. لكى يتفوق فى الفن الذى يريده ..

وهناك تحذير هام يوجهه إلينا العالم الكبير ايريش فروم وهو : على المحب ألا يكون أنانيا .. ألا يكون مشغولا بنفسه . وألا يجعل نفسه مركز الدنيا . وأن

كل شيء يدور ويروح ويحيى من أجله .. وأن العالم كله في خدمته . وأن الفتاة التي يجلبها تقف في طابور طويل من الحاشية الغربية التي عينها لنفسه .. لأنه إذا فعل فكيف يكون موقفه إذا كان هذا هو رأى الفتاة فيه هو أيضا ، ثم إذا تواجه الاثنان وانتظر كل منهما أن ينحني للآخر ويقول :

شيك .. لبيك .. عبدك بين يديك ! .

ولم يفعل أحد منها ذلك ..

إن الغلطة مشتركة . فلا بد أن يمد أحد يده وأن يلقاه الآخر في منتصف الطريق .. المهم أن يبدأ أحد ويتبعه الثاني . فالحب : لقاء والتقاء .. وتواجد .. وتعايش .. واستمرار .. وتعديل .. وتجديد .. والتقاء واستمرار .. كما تتلاقى الأيدي في العناق .. والشفاة في القبلات .. إن الحب : اثنان .. دائما .. متفقان .. ومختلفان .. ولكن عندهما استعداد للتضحية من أجل أن يكونا اثنين .. أحيانا .. وواحدا أحيانا ..

وإلا لقينا ما يلقاه كل أنانى ..

وأورع قصة للأناية هي التي جاءت في الأساطير الإغريقية .. يقال إن أبا عنده خمسون بنتا ، وله أخ عنده خمسون ولدا . واتفق الأخوان على أن يتزوج أبناء وبنات العم ، وكانوا سعداء جميعا .. ولكن والد البنات قالت له العرافة إن واحدا من أزواج بناته سوف يقتله .. فانزعج الأب واتفق مع بناته أن يقتلن أزواجهن في ليلة الزفاف .. وفي ليلة الزفاف قتلت كل واحدة زوجها . وحملت رأسه الدامى إلى أبيها .. وشعر الأب بسعادة لاحد لها . ولكنه قرر أن يعد الرءوس . ووجد رأسا ناقصا . وعرف أن إحدى بناته رفضت أن تقتل زوجها لأنها تحبه . وأن زوجها هرب بعيدا . وغضب الأب . وغضبت آلهة الإغريق وعذبوا البنات بأن وضعوهن في بحيرة باردة . وطلبن إلى كل واحدة أن تملأ إناء مليئا بالثقوب ويسقط الماء وتظل تملؤه

ويتساقط الماء .. إلى الأبد .. أما الأب فقد عذبتة الآلهة بأن يرى شبح الزوج
الهارب كلما أغمض عينيه ، فيهب من نومه مذعورا .. إلى الأبد .. ! .
منتهى الأنانية من الأب ..
ومنتهى الطاعة العمياء من البنات ..
ومنتهى العذاب إلى الأبد .. والعذاب هو العقوبة .. أما الجريمة فهي
الأنانية وكل ذلك باسم الحب .. باسم أنواع من الحب ! .

الذی طعمه شدیداً بارقہ

الذى بين الناس

معظم العلاقات الإنسانية غير واضحة ..
ولا يوجد رأى قاطع فى هذه الصلات المعقدة بين الناس ..
بين الرجال أو بين النساء .. وأصعبها هى التى بين الرجال والنساء ..
ولا يمكن أن تكون العلاقات بين الناس سهلة وواضحة
كالتى بين قوالب الطوب فى حائط .. أو بين الأشجار فى
حديقة .. أو بين الحيوانات فى حظيرة .. وتجربتنا اليومية مع
الذين نعمل معهم أو نعيش بينهم تؤكد ذلك .. فكم من
الجهد - من أجل توضيح أتفه الرغبات ؟ .. كم من الوقت
نبدده من أجل أن نشرح قصدا شريفا ؟ .. كم من الدم نحرقه
لكى نحصل على « براءة » يومية بحسن السير والسلوك ... ؟

وهذا الغموض فى علاقات الناس هو المسئول عن ازدياد مشاكل الناس
حتى يمكن أن يقال إن التطور الإنسانى ليس فى حل مشاكل الإنسان ،
ولكن فى تعقيدها وتأجيل حلها .. ولكن الإنسانية مستمرة .. واستمرارها
لا يدل على أننا حللنا مشاكلنا ، وإنما يدل على نوع من التطور .. وعلى نوع
من تأجيل حل مشاكل أكثر صعوبة .. فالإنسان كان يركب الحمار فى تنقلاته وهو
الآن يركب الطائرات ..

والإنسان فى الحالتين لا يفهم كيف يحمله الحمار من مكان إلى مكان ..

فالإنسان لا يفهم تكوينه ولا وظائف أعضائه .. وهو الآن - أكثر الناس -
لا يعرف كيف تعمل الطائرة ..

ولكن المفهوم عند كل الناس أن الطائرة أسرع من الحمار . كيف ؟ هذه هي
المشكلة التي لا يعرفها كل الناس .. ! .

وكثير من العلاقات الإنسانية يمكن وصفها بكلمة . فيقال : حب ..
وزواج .. ويقال : حياة وموت .. ولكن تعال نشرح هذه الكلمات . ثم هيا بنا
نحلم باليوم الذي سوف نتفق فيه على معنى واحد ! .

هناك دائما مشاكل .. وهناك دائما حلما الطويل بأن نفهمها وبأن نصل إلى
رأى واحد على حلها ..

فمثلا يمكن أن يقال : إنه لا توجد امرأة متزوجة .. وإنما توجد امرأة تريد
أن تتزوج . وإذا تزوجت فهي لا تريد أن تستمر في الزواج .. ولكن لماذا
اختارت أن تتزوج ؟ إنها لم تختار الزواج .. ولكن المجتمع هو الذى اختاره .
فالمرأة لا تختار الزواج .. وإنما تختار الزوج فقط . وعندما تختار المرأة زوجها ،
فهي لا تختار أحسن الأزواج .. وإنما تختار أقربهم إليها ، وإلى ظروفها . فالمرأة
لا تستطيع أن تمد يدها عبر القارات لتجد الرجل المناسب .. ولو استطاعت
لاحتاجت إلى عمر النسور لكي تجد الرجل المناسب ، وقد تجده ولكنه لا
يجدها أولا يريد لها ..

ولذلك فالمرأة تختار الأقرب إلى اليد والعين والبيثة .. لأن هذا الاختيار
يجيء في ظروف نفسية غير عادية ، فإن الاختيار الذى تمليه العاطفة يندش
له العقل .. ولذلك فليس من الغريب أن ينظر الناس إلى كثير من الأزواج في
دهشة : ما الذى جمع الشامى على المغربى ؟ ما الذى جمع بين هذه الجميلة
وهذا الدميم ؟ ما الذى رآه الواحد فى الآخر؟ وهذه الأسئلة بالعقل .. ولكن

الموقف ليس عقليا .. أنه موقف عاطفي فقد جاء نتيجة شيء من الغموض الحار ، أو الحرارة الغامضة .. ولقد تم الاختيار والاتفاق في الشفق أو الغسق .

والذى يجعل هذا الاختيار غير دقيق ، أن هناك توعية غريبة تسبق الاختيار ، فالمجتمع من صنع الرجل ، والمجتمع الذى صنعه الرجل يقدس الرجل . ويضعه قبل المرأة بخطوة ويرفعه أعلى من المرأة درجة .. حتى بعد الموت . فأوراق البردى المعروفة باسم (كتاب الموتى) عند الفراعنة يقدس الإله أوزوريس الرجل ويطلب من كل الآلهة رجالا ونساء أن يمشوا وراء شبابه المتجدد . ووراء رجولته المضيئة .. حتى بعد أن أصبحت المرأة قادرة على العمل ، فهى لاتزال تطلب أن يكون دورها بعد الرجل . ولاتزال هذه نصيحة أمها وأبيها .

والذى يقرأ رسالة والد الملكة ماري أنطوانيت إلى عريسها المقبل يجد مثل هذه العبارات :

لقد علمناها على حبك . والإخلاص لك . وعلى أن ترعى آمالك وأحلامك .. وعلى أن تكون لك في كل لحظة عند الصحة والمرض . فأنت قدرها ياسيدى ! .

أما رسالة ماري أنطوانيت إلى أختها فتقول :

إنه مكتوب على بنات الملوك أن يعشن في أركان العالم الأربعة .. إن زواجى هذا نوع من النفى . إن أختنا التى تعيش فى نابولى معذورة عندما تقول إننا ألقينا بها فى البحر .. ولكننى أطوى خطاى وأطلب إليك أن تطوى لسانك وصدرك على سرى هذا . فحتى بنات الملوك هدايا للرجل ، وإن كانت الهدية نفسها ترفض أن تكون هدية ، وترفض الشخص الذى تهدى إليه .. ولكنها تقبل مصيرها فى النهاية ..

والنهاية هي أن الرجل سيدها وتاج رأسها .. وإن كان الرجل في كل العصور لا يزال يفضل المرأة التي ليس لها رأس ، لأنه لا يريد أن يضع التاج على كتفها .. إنه يريد أن يضعه على صدرها .. أو يوزعه على أماكن أخرى من جسمها .. ! .

والذي لا يعرفه الرجل هو أن المرأة تتلقى الكثير من الهدايا بمناسبة زواجها ، أو رغبتها في الزواج ، أو كراهيتها للزواج .. وأهم هذه الهدايا نصيحة من كل النساء قريباتها بأن تنجح بأي شكل ..

أي مطلوب من المرأة أن تنجح . وهذا الإصرار على النجاح يجعلها تستهين بالمشاكل وتهون من المصاعب وبذلك يصبح الإصرار ريشا طويلا قويا ينمو في ذراعها يجعلها تطير فوق الأرض ..

وهذا الإصرار على النجاح من جانب المرأة ، لا يقابله إصرار على النجاح من جانب الرجل أو حتى الإصرار على إتاحة الفرصة لها لكي تنجح ، كأن الزواج علاقة من جانب واحد : هو جانب المرأة دائما ! .

ولا يزال هذا المعنى مسيطرا على الأفلام والقصص : فهي جميعا تنتهي نهاية سعيدة .. أي بالزواج . ومعنى ذلك أن الزواج هو التقاء كل الخيوط البيضاء في فستان أنيق وطريحة في ليلة من ليالي العمر : يرقص فيها كل شيء على موسيقى : واثمخطري يا حلوة يازينة .. في حين أن البداية الواقعية لهذه العلاقة بين رجل وامرأة تبدأ بالزواج .. فالزواج هو الباب المفتوح على كثير من العلاقات الحارة الحادة الغامضة .. والتي لم يتسع وقت الناس لتوضيحها للرجال أو للنساء ! .

ورغم عدم الوضوح فأكثر الأحداث انتشارا هو الزواج ، وهو أهم الأحداث الاجتماعية أيضا ..

واستمرار هذه العلاقة الاجتماعية لا يدل على وضوحها ، وإنما يدل على أنه من الممكن أن تكون هناك أشياء كثيرة غامضة ولكنها لا تمنعنا من الحياة والاستمرار .. وأن أكثرنا لا يعرف كيف يصنع هذا الورق ولا هذا الخبر .. ولا كيف تعمل عيناه ولا كيف يفكر عقله .. ولا كيف يبلع ريقه .. ومع ذلك فكل شيء مستمر ومتكرر كل لحظة وطول العمر .. وعندما تحاول المرأة أن تتمرد على وضع من الأوضاع الاجتماعية .. فكل ما تفعله هو أن تنتقل إلى حل قريب منه .. تماما كما تنتقل من مقعد إلى مقعد مجاور له .. فهي تتحرك ولكنها لا تنتقل .. أو على الأصح : هي تهتز ولكنها لا تتحرك ! .

فأميرات القرن العشرين عندما تزوجن ، ماذا فعلن ؟ .

إن أميرات بريطانيا وهولندا واليونان والدمرك والسويد اخترن الرجل الذى يردنه مع اختلاف فى الدين أو فى الطبقة أو فى السن ، ونظرت العائلات المالكة إلى هذا الموقف من الفتيات على أنه تمرد خطير .. مع أنه ليس أكثر من تمرد أنيق .. تمرد فخم ، تماما كما يرفض أمير أن يركب السيارة الكاديلاك ، ويفضل عليها المرسيدس ، ويعلن أنه أمير شعبي ..

فليس هذا رفضا للفخامة ، ولكنه رفض لأعلى درجاتها فقط .. وقبول فى نفس الوقت لدرجة أخرى من الفخامة عالية أيضا . فما الذى اختارته الأميرات ؟ اختارت كل منهن حياة زوجية أعلى وأغنى .. ولكن فيها كل عناصر الحياة الإنسانية الغامضة .. كحياة البواب والسائق والجزار .. إنها نفس الروابط الحارة الحادة المتشابكة على الأرض فى شقة فى الدور الأرضى .. أو على الأرض فى شقة فى الدور المائة ..

إن الكاتبة العربية اندريه شديد تصف حال إحدى الأميرات فى مسرحيتها « برنيس المصرية » فتقول : « لقد كرهت الجدران التى تعزلى عن العالم .. كرهت السقف الذهبى .. كرهت أعمدة الرخام الخائفة القاهرة .. كل هذه

الأشياء المذهبة تشل عقلى .. إننى معزولة عن الأرض والسما .. منفية . إننى لا أرى فى هذه القصور إلا أقنعة كاذبة ، أقنعة واحدة ، إنها كجدران تعزلى عن وجوه الناس .. كم من السجون تعيشها الأميرات ؟ »

أما الذى يفعله الشبان الصغار فهو شىء آخر .. إنهم بسرعة يتزوجون وبسرعة ينفصلون ولا يمكن أن يوصف هذا السلوك بأنه تبسيط لإجراءات الزواج والطلاق .. ولكنه تبسيط لمعالجة مشاكل الزواج والطلاق . وأسهل الطرق البسيطة لحل مشكلة : تجاهلها .. وإغماض العين عنها والاستسلام للتروات .. ولا يمكن أن يكون الاستسلام لتروة ، فهما لها .. وإنما هو رفض سلبي للفهم فهو ليس هجوما على المشكلة وإنما هو انهيار أمامها ..

بذلك يصبح زواج الشبان أكثر غموضا .. انه انتقال سريع بين النزوة وتحقيقها .. ولكن هذه السرعة ليست حلا سريعا ولكنها تجاهل سريع للمشكلة .. صحيح أنه من حق كل شاب أن يتزوج والزواج ممارسة لحرية فى الاختيار . ولكن هذه الحرية حولت الشاب إلى إنسان ذليل .. إنه يختار البهولة والقذارة .. ويختار العبث بالمشاكل ..

ومع ذلك ينظر الشبان - فى أوروبا وأمريكا - إلى هذا الموقف على أنه نوع من العدل .. فهم يرفضون النظافة بالإكراه ، والزواج بالإكراه ، والصحة بالإكراه .. ويرون أن العدل الذى يختارونه هو : الحرية ورفض النظافة والصحة ..

ولكن هذا نوع من العدل الفاضح .. تماما كالفساتين المبنى جيب .. التى تختصر من الفستان مساحة من القماش تضيفها إلى الأكمام .. فأكمام الفستان متدلّية ، وذيل الفستان مرفوع .. فالذى أضيف إلى الأكمام حذف من الذيل .. منتهى العدل .. ولكنه عدل فاضح ! .

وكثيرا ماذهب الشبان إلى الكنيسة يطلبون الزواج من الفتاة التى يحبونها ..

والفتاة حامل . ومعنى ذلك أن الشاب يريد أن يعترف علنا بأنه إذا كان قد أخطأ فقد جاء يعترف بالخطأ ويصلحه وأنه لم يظلم الفتاة التي أحبها ، ولم ينكرها .. إنه عادل تماما .. ولكن بصورة فاضحة . وبسرعة ينفصل العروسان بعد ولادة أول طفل .. وطبيعي أن يحدث ذلك ، فلم يتسع لها الوقت ليفكرا في هذا الزواج أو هذا الطفل . ومن الممكن أن يسمع أحدهما يقول : لا أعرف لماذا تزوجت إنها حالة طيش .. والحقيقة أنها ليست طيشا . ولكن الطيش هو أن يدعى أى واحد منهما أنه يعرف بالضبط ما الذى أقدم عليه . والطيش أن يدعى أى شاب أنه يفهم بوضوح لماذا تزوج ولماذا انفصل عن زوجته .. ولكن عدم الفهم هو الطبيعى والغموض هو الصفة الواضحة المؤكدة لهذه العلاقات الإنسانية الملتبته كالحديد ، أى المتينة المحرقة .

وحبوب منع الحمل فى هذا العصر : هى فرصة جديدة أتاحتها العلم للأزواج أن يعيشوا بلا أولاد .. ولغير الأزواج أن يعيشوا بلا زوجة .. والأطفال هم وحدهم الذين يجعلون هذه العلاقة شيئا واضحا .. وظهور الأطفال فى حياة الزوجين ليس دليلا على شىء .. إنما دليل على أن هناك علاقة طبيعية بين ذكر وأنثى . ومهمة حبوب منع الحمل هى أنها تعطى فرصة للزوجين أن يفكرا : إن كانا يريدان أطفالا أو لا يريدان .. أو إن كانت العلاقة التى بينهما هى علاقة ذكر بأنثى أو هى شىء آخر أكثر عمقا .. فإذا اتفقا على أن الذى بينها أعمق من مجرد رجل وامرأة جاء الأطفال .. ومع ذلك فمن الممكن أن نجد رجالا ونساء يقولون : إنها لحظة جنون هى التى جعلتنا نفكر فى أن يكون لنا أطفال .. أى أن هذا القرار رغم التحفظات والموانع الطبيعية ، ليس موقفا عقليا واضحا .
وأوضح أنواع الزواج : هو زواج المصلحة ..

فالرجل الذى يتزوج امرأة لفلوسها أو المرأة التى تتزوج رجلا لفلوسه ، موقف وأضح العالم .

ولذلك ففشله مؤكد لأن العلاقات بين الرجل والمرأة ليست علاقة بائع بزبون .. وإنما هي أصعب وأعقد من ذلك بكثير.. ثم إن هناك مشاعر لا يمكن شراؤها بالفلوس ..

وإذا كان الرجل عمليا واقعيا ، فإن المرأة - كل امرأة - ماتزال حاملة خيالية دقيقة معقدة ..

وزواج نجوم السيما هو أحسن الأمثلة على ذلك .. فعندما يتزوج نجوم السيما فهو زواج يأخذ طابع التعاون بين نجمين يريدان أن يكونا نموذجا على الحب اللامع والنجاح الدائم ..

والحقيقة أن نجوم السيما يتزوجون وقد أخفوا شيئا وراء ظهورهم .. فهم جميعا يتعاونون على أن يعطى كل منهما فرصة للآخر لكي يفكر في أنسب الأوقات للانفصال من أجل فرصة أحسن .. فالنجوم يتزوجون ويتحفظون .. ولذلك فزواج النجوم أوضح النماذج الإنسانية على الفشل المتكرر .. وأساس الفشل أن كلا منهما قد وضع لنفسه الغرض من الزواج : هو الانتظار بالقرب من شخص إلى أن يجيء من هو أجمل وأغنى منه ! .

فزواج النجوم واضح النجاح وفاضح الفشل أيضا ..

وهناك عذر واحد مقبول بالنسبة للأزواج .. أو بالنسبة لكل العلاقات بين الرجال والنساء وهو أننا نعيش في عصر الإثارة الجنسية .. وليس في عصر الجنس .. فالجنس منذ ألف سنة كان أعنف وأقوى وأكثر تنوعا من الجنس الآن .. وفي استطاعتك أن ترجع إلى « ألف ليلة » .. وأن ترجع إلى شعر أبي نواس وإلى « منامات الوهراني » وإلى كتاب « الروضة العطرة » .. وإلى قصور الملوك في فرنسا .. إنها مليئة بأشكال وألوان من الجنس أكثر بكثير جدا مما جاء في مؤلفات الماركيز دي صناد . أما العصر الذي نعيش فيه فهو عصر الإثارة الجنسية .. عصر بلبلة العواطف .. وتقليب المشاعر وتضليلها .. الأغاني

مثيرة .. والمجلات والأفلام كذلك .. فثلا أفلام : رجل وامرأة .. والرقص على الهيدروجين .. وانفجار .. ووادى العرائس .. كلها أفلام مثيرة ولكنها ليست أفلاما جنسية ..

وكل من يتلمس جيبه ويجد علبة الكبريت قد اشتعلت فليديه سبب وجيه وهو أن الجو حار .. شديد الحرارة .. والذي يدل على أن الشباب اليوم في العالم كله هو في حالة إثارة جنسية ، وليس في حالة انحراف جنسى أو شذوذ ، إنه يتقدم للزواج بلا تردد . صحيح أن هذا الإقبال لا يدل على فهم واضح ولكن من المؤكد أنه عمل إيجابي واضح . وبهذا العمل القاطع ينفي الشباب عن نفسه تهمة الانحراف .. وربما كان الانحراف الوحيد الذى نسجله للشباب هو أنه يندفع بلا تفكير واضح ..

والأرقام تؤكد أن نسبة الزواج بين طلبة الجامعة في أمريكا مرتفعة جدا .. ونسبة الطلاق أيضا .. وقبل أن نخدعنا هذه الملاحظة يجب أن نتساءل : هل انتشار الزواج دليل على نضج الشبان ؟ هل انتشار الطلاق دليل على أن الشبان إنما أرادوا أن يتزوجوا ليصبحوا قادرين على الطلاق .. أى قادرين على أن يقولوا : لا .. للزوجة ولأسرتها ولطفلها وللمجتمع .. هل معنى ذلك أن الشبان في أمريكا وأوروبا يؤمنون بقداسة : لا ، أكثر من إيمانهم بقداسة : نعم .

إن فيلسوف الطلبة هربرت ماركيز يقول في كتابه المشهور « الإنسان ذو البعد الواحد » لا يمكن أن نصف نجاح الحياة عموما في أمريكا على أنها مجتمع حر .. فالنجاح لا يدل على الحرية الفردية .. بل إن هذا النجاح يرفض الحرية .. كما ينجح اللصوص وكما ينجح المخربون .. وكما ينجح الميكروب في غزو جسم مريض .. ولا يمكن أن تكون هناك حرية في أمريكا لأناس قد فضحتهم أجهزة التجسس التى توضع على النوافذ وفى السقف وعلى الأرض

وفي الأكواب والأطباق .. لا حرية في أمريكا فالحرية يجب أن تبدأ في البيت قبل الشارع .. وفي غرفة النوم قبل غرفة الطعام .. وأول مبادئ الحرية أن يعرف الإنسان بالضبط : ما الذى يريده من غيره من الناس ولماذا ؟ وكيف يصون ما يحصل عليه .. ولماذا ؟ إذن ما هذا الذى بين الناس ؟ إن الذى بين الناس هو « مؤامرة صمت » كل واحد يجرب ويسكت .. كل واحد يسمع ويسكت . ويفشل ويسكت .. وكل واحد يمضى فى طريقه .. من البيت إلى العمل .. يحمل معه هموم العمل إلى البيت .. وهموم البيت إلى العمل .. فهو « شيال الهموم » وهو « حمال الأسيه » وأقسى ما يحمله الإنسان ذهابا وإيابا أنه لا يفهم شيئا .. ولا يدري كيف يفهم ولا يتسع وقته ليفهم .. ولا يجد أحدا يدلّه على الخطأ والصواب .. ولو وجد هذا الأحد ، فإن الهموم التى يحملها على ظهره قد جفت كظهر السلحفاة ، تجعله عاجزا عن الإدراك والحركة ..

إن الأديب الأمريكى تنسى وليامز قد صور ذلك فى مسرحية « زمن التوافق » .. فأبطاله يقيمون فى بيت قائم على كهف .. وبين الحين والحين يهبط البيت قليلا وتتشقق الجدران .. فالبيت أى العلاقات الإنسانية قائمة على كهف .. وأغرب من ذلك أن كل بيوت المنطقة مقامة على كهوف ، وأن كل البيوت يصيبها نفس التشقق .. ولكن أصحاب البيوت قد اتفقوا على أن يخفوا هذه الحقيقة . لقد اتفقوا على السكوت .. تأمروا على الصمت .. حتى لا يتردد أحد فى شراء هذه البيوت .. فإذا اشتراها أناس آخرون .. تكرر نفس الموقف الصامت ..

أما هذا الكهف الذى تحت البيوت الإنسانية ، فهو الغموض العميق .. فالناس جميعا من أهل الكهف .. يعيشون فوق الكهف ..

وأعود مرة أخرى إلى « كتاب الموتى » عند الفراعنة .. فى النشيد الثانى والستين نجد فى السماء نهر النيل .. وهذا النهر يصبح ماءه باردا إذا لمسه إنسان

صديق ويصبح ملتبها إذا لمسه إنسان كاذب .. والنشيد يطلب من أوزوريس أن يجعل ماء النيل باردا على كل يد وكل إنسان .

والمصيبة أن الذى بين الناس ليس نهرا .. ولا بحرا .. إنه نهر وبحر ونار وظلام وحب وكراهية .. إنهم يمدون أيديهم إلى النهر كل يوم فلا يجدون هذا الماء .

والمرأة ليست ضعيفة وهى لذلك لا تحتاج إلى عضلات الرجل وشواربه للحمايتها . والمرأة ليست مقيدة وهى لذلك لا تحتاج إلى حصان أبيض يهرب بها من ابن عمها الذى فرضته الأسرة عليها .

ولذلك فالمرأة لا تختار الرجل القوى وإنما تختار الرجل الذى يجعلها تحس بأنها قوية ، بأنها أم ، بأنها قادرة على أن تعطى الحماية ، أن تجعل قلبها الأبيض مخبأ للرجل الذى تحبه والذى تهرب به .. « بعيد بعيد أنا وأنت .. بعيد بعيد وحدينا » إلى آخر أغنية أم كلثوم .

أما الفتيات الصغيرات فيما بين ١٠ ، ١٤ سنة فهن يفضلن الشاب الجميل .. أى الرجل الحلو .. الرجل الذى هو « وسط » بين الرجل والمرأة ولذلك فهو ليس خطرا ليس ذنبا . فالفتاة فى هذه السن ليست لها اهتمامات جنسية ولكنها فى نفس الوقت تخاف من الجنس . والشباب الحلو ، لأن فيه أنوثة هو وحده الذى يعطيها الأمان وهذا هو سر إقبال الملايين من الفتيات فى أوروبا وأمريكا على الخنافس ، فهؤلاء الخنافس نموذج للشباب الناعم : أصوات ناعمة . وحركات رقيقة . الجاكتات قصيرة والشعر طويل والبنطلونات ضيقة والابتسامة عريضة وفيهم مرح وأغانيم سعيدة . فهم مختلفون عن كل المطربين فى العالم : إنهم سعداء بحبهم فى حين أن كل المطربين يشكون من ألم الفراق ولذة التعذيب عند المحبوب .

ثم إن هؤلاء الخنافس جميعا يمثلون بالضبط كل المنوعات عند الفتيات

الصغيرات . فالآباء يمنعون الفتيات من الكلام بصوت مرتفع ومن الحركات الكثيرة ومن تساقط الشعر على الجبين وكل ذلك يفعله الخنافس وسط تصفيق وصراخ جنونى ومقابل ملايين الجنيات ونياشين وميداليات ملكية .

وانتقلت العدوى من الصغيرات إلى الكبيرات .. إلى الكبار وأصبح الانجليز لأول مرة يرددون أغاني ليست ملكية . وأعلن نقاد الموسيقى أن الخنافس قد أنعشوا التأليف الموسيقى وأن سنة ١٩٦٣ هى سنة الخنافس - تعتبر نقطة تحول في الأغنية الشعبية في إنجلترا .

والذى يستمع إلى أغاني الخنافس يجد أنها رقيقة وأنها مرحة وأنها بسيطة وأن معانيها « محزنة » مثل بنطلوناتهم . فهى بالضبط تلتصق بكل شخص وكل قلب . ولذلك تردد فيها كثيرا كلمات أنا ، وأنت .. وأنا وأنت معا وحدنا .

وهؤلاء الشبان الخنافس نموذج لملايين الشبان فى العالم كله . إنهم فقراء أولاد سواقين وفلاحين وعمال .. وقد اختاروا الشعر الطويل . إنه شعر الطفل الصغير « أوليفر تويست » بطل القصة المعروفة التى كتبها ديكنز منذ ١٣٠ عاما . وهذا الطفل يتيم وقد وقع فى قبضة النشالين وحاولوا افساده . ولكنه استطاع أن يصمد حتى النهاية . وهؤلاء الخنافس يشبهون هذا الطفل اليتيم جاءوا من أقصى ليغزوا بريطانيا ويحتلوها ويقولوا بحق : إن إنجلترا وقفت فى وجه الغزاة ألف سنة ولم تحتلها إلا هذه الخنافس وهم الذين اختاروا لأنفسهم أيضا اسم الخنافس ..

والخنافس هى أقدر الكائنات على التكيف .. وهى تعيش فى كل مكان وفى كل درجات الحرارة وقد اكتشف العلماء حفريات للخنافس فى روسيا وأستراليا ترجع إلى ٢٠٠ مليون سنة قبل ظهور الإنسان . ومن المؤكد أن الخنافس ستبقى بعد اختفاء الإنسان من الأرض سواء بهجرته إلى الكواكب

الأخرى أو بفنائه نهائيا ، وإذا كان عدد الفقرات حوالى أربعين ألفا -
السك والزواحف والطيور والثدييات - فإن الخنافس وحدها تبلغ ربع مليون
صنف .

وقد عرف الفراعنة الخنافس منذ ثلاثة آلاف سنة .. وعبدوها أيضا في
مدينة هليوبوليس .. وكانوا يعتقدون أن الخنافس هي رمز الوجود والحياة ..
بل فعل الوجود عندهم هو : الخنفساء .. وكثير من الملوك قد وصف نفسه بأنه
خنفساء : أى مبدع .. خلاق .. مجدد .

وانتقلت عبادة الخنافس وزينة الخنافس إلى كل عواصم العالم القديم .
وكل الرومان ، يعتقدون أن الخنافس من الذكور فقط . فالخنفساء هي رمز
الرجولة ولذلك كنا نجد الجنود الرومان يضعون الخنافس في خواتمهم .

وإذا أراد إنسان أن يتسلى لمعرفة تاريخ مصر الفرعونية فعليه أن يقلب في
الخننافس الصغيرة التى تركها الفراعنة . فعلى بطن كل خنفساء يجد عبارة أو
جملة أو أمنية أو تسجيلا لحادثة سعيدة أو مؤلمة ..

وكثير من قواد الفراعنة والرومان كانت أسماءهم : خنفساء - على فكرة ..
زوجة الرئيس جونسون اسمها : لايدى بيرد ومعناها خنفساء . واللورد ويفل
القائد المعروف معناه أيضا : خنفساء .

وجنون الخنافس أو الجنون بالخننافس أو مرض الخنفسية أصبح ظاهرة
اجتماعية فى أوروبا وفى أمريكا .. ولكنها ليست مرضا على أى حال .. إنها
نوع من المرح النظيف فليست حركات هؤلاء الشبان مبتذلة ولا عباراتهم
نايبة .. وإنما هم نموذج لشعور الإنسان بأنه صغير وبأنه رغم ذلك يستطيع أن
يكون مرحا . فالشعور الذى يستبد بالناس بعد الحرب هو الضياع .. فالإنسان
لايدرى إلى أين يتجه . لقد تعددت الطرق وتعددت الوسائل والغايات ..
وتحيرت الإنسانية ورغم هذه الحيرة فإنها لم تعرف اليأس .. إنها تضحك . إنها

تخفى حيرتها في ضحكتها .. وهذه الضحكة تظهر على وجوه هؤلاء الشبان ..
وعلى وجوه شبان آخرين من « الأدباء الساخطين » في إنجلترا . و « الأدباء
الصاخبين » في أمريكا .

إن علماء النفس يشكرون هؤلاء الخنافس لأنهم استطاعوا أن يطلقوا
رغبات مكبوتة في نفوس الناس ولم يكن في استطاعة علماء النفس أن
يعرفوها .. لقد عرفنا ما الذى يعجب المرأة الصغيرة .. وقبل ذلك عرفنا ما
الذى يعجب الرجل الصغير . لقد أعجب الرجال الصغار ببريجيت باردو ..
وهي نموذج للفتاة التى ليست صارخة الأنوثة بل إنها نوع آخر من الخنفساء .
شعرها طويل نظيف .. وهي أيضا « وسط » بين الشاب الحلو والفتاة ..
لقد انكشف ذوق الرجال الصغار بحبهم لبريجيت باردو .. تماما كما
انكشف ذوق الفتيات الصغيرات بحبهن للخنافس .

إن الرجال والنساء قد تقاربت أذواقهم .. فهم جميعا يفضلون : المخلوق
الجميل الذى هو وسط بين المرأة والرجل . إهم جميعا يختارون الخنافس .

إنهم جميعا يختارون ذلك النوع من الكائنات البشرية التى تنبأ بها هـ .
ج . ولز في قصته « آلة الزمن » .. فقد تخيل وجود كائنات أخرى متقدمة علينا
تهبط على الأرض فى عام ٢٨٠٠ ووصف هذه الكائنات بأنها رقيقة ناعمة
فيها طفولة وأنوثة .. وسط بين الرجال والنساء وأكثر منها علما وأصدق منها
إحساسا .

إذن هذه الكائنات التى ستهبط إلى الأرض أو التى ستنمو على الأرض ..
نوع آخر من خنافس الرجال والنساء .

لقد أعجبنى الشاعر أودن وهو يعلق على الخنافس بقوله : إننى أفضل
وجها من نوع خاص فى مكان عام على وجه عام فى مكان من نوع خاص .

أما الوجه الخاص في المكان العام : فهم الخنافس ..

وقبل أن أنهى هذه السطور لي طلب صغير : انظر إلى وجوه الناس الذين في يدهم أمور هذه الدنيا ، إنها وجوه ليست جادة فقط ولكنها مهمومة حزينة .. وجوه عرفت الشيخوخة أى عرفت نهاية الحياة رغم حرصها على حياتها وعلى حياة الآخرين .. إنهم شباب نسي أن يبتسم لأنه لم يعرف الضحك . وهو لم يعرف الضحك لأنه انتقل من الطفولة إلى الشيخوخة مرة واحدة . لقد أصبح الضحك غالبا . لقد أصبحت الراحة نادرة . الانتحار هو الباب الخلفي للراحة . الموت هو أوسع الأبواب .

هؤلاء الشبان الخنافس السعداء يؤكدون أن هناك أبوابا للراحة .. وهى أن يشعر الإنسان أنه قادر على الضحك . قادر على أن يتذكر أنه كان طفلا ومن حقه أن يكون شابا .

إن هؤلاء الشبان عبارة عن ابتسامة مغتصبة .. ضحكة مفتعلة .. ولكنها فرصة ليتعود الناس على الابتسام والضحك .. على أن يعطوا أنفسهم اجازة إجبارية من الروتين ، من الغم الروتيني .. أو الروتين الغم .

لقد جرب الناس أن يموتوا كمدا فلماذا لا يجربون أن يموتوا ضحكا ؟ .. أو أن يتعلموا الحب .. مها كان غامضا .. ومها كانت المرأة غامضة ، فليست هى الغموض الوحيد في هذه الحياة .. أو في هذا الكون ؟ .

الجنة الزائفة : ل . س . د .

جرام واحد من هذه العجينة قادر على أن يدوخ عشرة آلاف شخص .. وكيلو جرام واحد قادر على أن يحول كل سكان القاهرة إلى أناس يتشقلبون على الأرض ويرددون في نفس واحد : احنا مبسوطين كده .

هذه المادة اسمها : ل .. س .. د

وقد اكتشفها طبيب سويسرى اسمه هوفمان منذ عشر سنوات واستخلصها من نبات عش الغراب المكسيكى .. وهى مادة شفافة لا لون لها ولا رائحة .. وجربها على نفسه . ولاحظ أنه بعد نصف ساعة من ابتلاعها يرى ألوانا غريبة ويسمع أصواتا عجيبة .. بل إنه يسمع صوت الألوان ويشم رائحة الموسيقى .. وينسى من هو ولا أين هو ولا معنى لشيء مما حدث .

وأعاد التجربة . وسكت وانتشرت أخبار هذه المادة المثيرة وأمكن لعدد من العلماء أن يستحضروها فى المعامل وانتقلت المادة من سويسرا إلى أمريكا .

وفي أمريكا تحمس لها أساتذة الجامعات . وأقام أحد الأساتذة مستعمرة خاصة بالشبان .. وخاصة بالذين قرروا أن « يسافروا » إلى العالم الآخر .. وهناك سفريات سريعة .. وسفريات بطيئة . فالذى يتعاطى هذه المادة فى حقنة « يسافر » بعد دقيقتين .. والذى يتلعبها فى مادة سكرية يسافر بعد نصف ساعة .. وهذه « السفرية » تستغرق عادة ثلاث أو أربع ساعات . والكمية التى يحتاج إليها الفرد هى جزء على عشرة آلاف من الجرام ..

ولا أحد يستطيع أن يحصى بالضبط عدد الشبان والشابات الذين يتعاطون هذا العقار العجيب .. إنهم بالملايين .. وكلهم من الشباب الذى لا يتجاوز العشرين .. وليس على الشاب إلا أن يدفع دولارا ويأخذ تذكرة السفر إلى عالم آخر .. وحتى بعد أن يذهب مفعول ل . س . د . فإنه يظل سعيدا يسمع الأنغام والعطور من العالم الآخر .. تماما كالذى يهبط من الطائرة وأزيز محركاتها فى أذنيه .. أو الذى يبرح الباخرة إلى الشاطئ ويحس أن الأرض تشبه موج البحر تعلو وتهبط ..

ملايين الشباب يتمرغون على الأرض ويلتصقون بالحدران يستسلمون لهذه الجنات الزائفة . وعشرات الألوف من الأدباء والشعراء والأطباء الأمريكان يرون أن هذا سلوك طبيعى .

فليس أمام الشباب إلا أن يهربوا من المجتمع الكبير الذى يطحن القيم الإنسانية ، والذى يسحق كل شعور بالحرية الفردية .. ومادام الشبان الأمريكان يرون أن المجتمع لا يعطيهم شيئا ، وأنه يسوقهم سوقا ، ويلسعهم بكرابيج الدعاية ، ويكوبهم بالخوف من أعداء الرأسمالية فليس أمامهم إلا أن يركنوا بجوار الحوائط وإلا أن يهربوا من هذا العالم الصناعى الاحتكارى الخيف إلى عالم آخر ، ليس فيه أحد من الناس .. بل كل ما فيه أشجار زرقاء وذهبية ودامية .. وثمانين ثمر على الأوراق .. وأوراق لها أفواه .. وأفواه لها

شوارع .. وشوارع لها حدائق ثمارها من نساء جميلات .. وكل شيء نائم هادئ .. وكل شيء يغنى في هدوء .. وملايين من الصور الغريبة التي يتغذى عليها هذا الشباب الذى يشبه « طرح البحر » الأمريكى ..
وليس هذا أسلوب الهرب الوحيد الذى يلجأ إليه الشباب .. فن كل عشرين شخصا فى أمريكا ينتحر شخص حتى الموت ..
ولكن عشرة أمثال هذا العدد يحاولون الانتحار ، ويتم انقاذهم بشكل أو بآخر ..

والهرب من المسئولية نوع من الانتحار ..

وإذا كان الهرب من المسئولية سلوكا اجتماعيا عاما ، فإن هذا يعتبر نوعا من التخریب الاجتماعى .

وقد تدهش لهذا السلوك الفردى والجماعى من الشباب الأمريكى وقد تتساءل لماذا يهرب شباب أغنى دولة فى العالم .. ما الذى ينقصهم .. ما الذى ينجفهم من الحاضر والمستقبل مع أن أمريكا حلم من أحلام المعذبين فى الأرض ..

وهذه التساؤلات سببها طبعا ما نراه فى الأفلام الأمريكية : كل شيء جميل . وكل شيء سهل . وكل النساء فى جمال كانديس برجن وكل الرجال أغنياء مثل روكفلر . محبوبون للسلام مثل كيندى . ويبغضون العنف مثل مارتن كنج . وكل مشكلة لها حل : انظر ما يفعله جيمس بوند . وكل مرض يمكن علاجه بقرص سحرى ..

لا شيء من هذا فى أمريكا .. إنها جنات صناعية .. زائفة .. إنها أنواع من المخدرات الأنيقة . التى استغلت أروع ما وصل إليه الإنسان فى صناعة العدسات والصوت والضوء والطباعة .

ففي أمريكا عشرات الملايين من الجياع والمرضى . وفي أمريكا أناس لم يروا
العواصم الكبرى . وفي أمريكا أناس يساقون كالأغنام إلى ميدان القتال
وللدفاع عن قضايا لا يعرفونها وضد شعوب لم يسمعوها من قبل .. وفي
أمريكا أناس اعترضوا على الحرب .. ورفضوا الاشتراك في القتال .. ودخلوا
مستشفيات الأمراض العقلية لأنها أهون من القتال المجنون .. وفي أمريكا
هيئات منظمة لارتكاب الجريمة ضد الأبرياء .. وشركات وهمية للنصب
والاحتيال .. وفيها أعظم تجارة للرقيق الأبيض .. وفيها أعظم شبكة لتجارة
المخدرات .. وفيها يقتل كيندى في عز الظهر فلا يدري أحد من الذى قتله ..
ولا يبقى إلا أن تعلن أرملة كيندى أن زوجها انتحر .. وإلا أن تعتذر للشعب
الأمريكى الذى بدأ يضيق بالبحث عن القاتل ..
وفي أمريكا شباب ضال .. ضائع .. متشرد ..

وفي أمريكا أيضا هيئات تبحث عن أدوية لعلاج الضالين .. وشركات
تبحث عن أدوية مضادة .

وتنشر الصحف والتلفزيون هذه الاعلانات : كيف تضع وأنت سعيد !
وكيف تجد نفسك وأنت سعيد ! وكيف تكون سعيدا دون أن تدري ؟ .

ولا يهم أبدا ما الذى يصيب الفرد .. ولكن المهم جدا هو أن يشتري
الفرد هذه العقاقير .. هو أن يدفع .. هو أن تكسب هذه الشركات ولو راح
ضحيتها ملايين الناس .. إن الناس تجارة تبيعها الشركات للشركات ، يبيعها
النصابون للصوص ! .

إن أمريكا « الأخرى » هى التى يهرب منها الشبان .. وهربهم هذا يدلنا
على أعماق المجتمع الأمريكى .. على حقيقة المجتمع الذى لانراه .. والذى
يختبئ وراء الشاشة .. ووراء ناطحات السحاب .. ! .

والصورة الصادقة للمجتمع الأمريكي هي التي تظهر على المسرح .. ولا يمكن أن تظهر على الشاشة .. فى المسارح تجدد القتال والدم والعنصرية والظلم والبطش .. وتجد سخط الكتاب والفنانين على الحياة الآلية التي تطحن الإنسان فى كل أمريكا ..

ومثل هذه الصرخات الفنية العميقة لا يمكن أن تظهر على الشاشة .. لأنها تفضح المؤامرات السينائية الفخمة .. ولأنها « نغم » الناس .. وتؤكد لهم أنهم « مغفلون » .. ومثل هذه الاهانات المدروسة تطرد الناس من أمام شبك التذاكر .. ولذلك يجب أن تبقى المسرحيات كما هي .. أما الشاشة فهي « اللجنة المزورة » وهي « الفردوس » الذى يحلم به الجائعون فى أمريكا وخارج أمريكا ..

ولكن الشباب الأمريكى اعتاد على هذه الجنات التي لا يراها فى بلاده . وإن كانت الصحف والتليفزيون والكتب تؤكد له دائما كيف تصبح مليونيرا فى ٢٤ ساعة ؟ .. كيف تملك نصف الولاية وأنت بائع متجول ؟ كيف تكون عضوا فى مجلس الشيوخ وأنت رئيس عصابة ؟ .. أى أن كل شىء ممكن .. وأنه لا نهاية للطريق الذى يمشى فيه الإنسان .. وأن السماء قريبة جدا .. وأن الله إذا كان قد خلق سبع سماوات .. فإن أمريكا استطاعت أن تضيف سماء ثامنة .. هذه السماء هي التي يعيش فيها النجوم ومديرو الشركات وأعضاء الشيوخ ..

أما السماء التاسعة الجديدة .. والتي تقرب وتبعد حسب الطلب فهي من صنع هذا العقار ل . س . د .

وعشرات الكتب قد صدرت تؤكد أنه أعظم دواء .. وأعظم احتقار للمجتمع الأمريكى .. يكفي أن يبلع الشاب هذه الحبة الضئيلة جدا ليكون مثل أعظم الشيوخ وفى أحضان كواكب السينما .. مع أنه لم يبرح مكانه ولم

يتكلف إلا دولارا واحدا . وإذا كان المجتمع لا يعطيه شيئا ، ففي استطاعته أن يأخذ كل ما يريد . وفي الوقت الذي يريد .. وأن يكون مواطنا وحاكما في دقائق .. وأن يكون اللص والعسكري الذي يطارده .. ثم الذي يعانقه بعد ذلك ..

إذن لقد نجحت هذه التجربة .. وهي تجربة أن ينسحب من الحياة العامة ملايين الشبان وأن يلموا وعيونهم مفتوحة بعالم أفضل ودنيا أحسن . وجنات تجرى من تحتها أو من فوقها الأنهار دون أن يموتوا .. بل وأن يعودوا إليها كلما أرادوا ذلك ..

ومادامت التجربة الخطيرة قد نجحت في إسكات الشبان والإلقاء بهم على الأرض وفي الحدائق .. وقطعت ألسنتهم عن السخط على الانحلال والفساد والظلم في المجتمع الأمريكي وحذفتهم نهائيا من الحساب ، فلا بد من التوسع في هذه التجربة .. والتوسع في القاعدة التي تعناد على السياسة الأمريكية .

إذن لابد من تصدير هذه الجنات المزيفة إلى الخارج ..

وفي الفصل الأخير من الكتاب الذي أصدره الدكتور سيدني كوهين وعنوانه « ل . س . د . لكل الناس » تراه يقترح استخدام هذا العقار ضد العدو .. فمثلا إذا أُلقت إحدى الطائرات كميات من ل . س . د . المركز على مستودعات المياه النقية في أية مدينة ، فإن أهل هذه المدينة سيتحولون إلى جثث عاجزة عن الحركة . فكل من يشرب من هذا الماء أو يغسل به عينيه أو فمه .. أو يضعه في شراب أو طعام سوف ينهار ويحلم كما يفعل الشبان الأمريكيان .. بل إن أية طائرة تلتقي بمسحوق من هذا العقار في جو أية مدينة فإن استنشاق هذا العقار يؤتى نفس النتيجة . بل إنه من الممكن أن يحول الناس إلى جنون الضحك بلا توقف أو هيستيريا البكاء أياما .. أما القوات العسكرية فسوف تلتقى نفس المصير ..

ويرى الدكتور كوهين أيضا أن في استطاعة غواصة أن تقترب من الشاطئ وتطلق هذا المسحوق من أحد مدافعها - وتنجى الريح فتنتقل هذا المسحوق إلى المدينة أو إلى أكثر من مدينة .. والنتيجة معروفة ..

وأكثر من ذلك أنه يكفي أن يذهب وفد دبلوماسي لمقابلة رسمية في أية دولة .. وعن طريق الدخان الذي يتصاعد من السجائر يصاب هؤلاء المسئولون بجنون انفصال الشخصية .. إن الدكتور سيدنى كوهين يؤكد لنا أنه لانهاية للفوائد العظيمة التي تجنيها أمريكا من وراء استخدام هذه الحرب الكيميائية . فهي قادرة على إسكات الشبان الساخطين ، وعلى إسكات أعدائها في أى ميدان ..

ويقول أيضا - من باب الرفق بالأعداء - إنه في استطاعة أمريكا إذا أضافت بعض المواد الأخرى إلى ل . س . د أن تصيب أعداءها بجنون الضحك .. ومعنى ذلك أن تسقط المدن أمام القوات الأمريكية وتكون ضحكات الشعب المهزوم هي أعظم تحية لهم ! .

وفي نفس الوقت تكون هذه الحرب الكيميائية هي خير الطرق لكسب الحروب دون إراقة للدماء !! .

وعلى ذلك فإن أمريكا لن تحتاج إلى إطلاق رصاصة ولن يفعل العدو ذلك أيضا .. لأن نسبة التركيز العالية لهذا العقار تصيب كل من يذوقه أو يستنشقه بالاستسلام التام ..

وإذا أراد الأمريكان أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك فإنهم يستطيعون أن يحصلوا على كل المعلومات التي يريدونها من القواد العسكريين ورجال المخابرات العادية عن طريق حقنهم بهذا العقار .. وقد جرب الدكتور كوهين هذه الحقن في الحصول على المعلومات فلاحظ أن تأثير هذه الحقن هائل . فيكفي أن تسأل الجندي أو القائد عن الخطة التي كانت عنده .. فيقول كل

شئء وبالتفصيل .. ومن الغريب أن هذا العقار يقوى الذاكرة وخصوصا فيما يتعلق بالأرقام .

وكل الشبان الأمريكان الذين يتعاطون هذا العقار يذهبون من تلقاء أنفسهم إلى أقسام البوليس ويعترفون ويذكرون أسماء زملائهم . والأماكن التي يسافرون منها .. أو يسافرون وهم نائمون على أرضها .. ولذلك لا يبذل البوليس الأمريكى مجهودا كبيرا فى معرفة أسرارهم . وهو ليس فى حاجة إلى أن يضع الميكروفونات الصغيرة فى جيوب الشبان أو فساتين السيدات ليعرف أخبارهم وأسرارهم .. إن الشبان يذهبون ويعترفون ولذلك فعقار ل . س . د . أحسن مادة يمكن استخدامها لغسيل المخ ..

ومن الغريب أن عددا كبيرا من أساتذة الجامعات والمحامين والقضاة ورجال الشرطة أصبحوا من مدمنى هذه الرحلات الخيالية ! .

إذن ليس الشبان وحدهم هم الذين قرروا الهرب من الدنيا الجديدة .. بل إن هناك عددا هائلا من الرجال العقلاء أيضا .. وليس الشبان المراهقون المتعجلون للنهاية السعيدة بلا مجهود كبير بل أصحاب التجارب أيضا ..

ولو كانت أمريكا جنة لأبنائها من الشبان والرجال ، لما « رحل » منها هذا العدد الكبير من الملايين .. لو كانت جنة حقيقية ، ما هرب أبناؤها إلى هذه الجنات الوهمية .. إن أمريكا شئء آخر وصورة أخرى غير التي تراها على الشاشة : إنها برواز توضع فيه صورة أنيقة لجنات وهمية .. ولكنها ذات ربح مؤكد ! .

وأمرىكا كدولة صناعية كبرى تقوم بتصدير فائض الجنات . وبذلك تتحقق العدالة بين الناس فيتساوون فى البعد عن الحقيقة ، وفى محبة المخدرات .. والاستسلام لأصحاب الشركات الأمريكية ! .

كلمات معقولة وأفواه مجنونة

الباب طويل وعريض ومظلم . ولا بد أن الخيول والأبقار
التي عبرت هذا الباب تعد بالألوف فما تزال آثارها ورائحتها
عالقة بالباب والجدران .. أما الموسيقى التي تدفعنا إلى الشارع
وتصدنا عن الدخول فهي سهيل وعواء ونباح وصياح
وصراخ .

ولا بد أن هذه الخيول قد أحرقوها لسبب ما ، فهناك رائحة
لحم يحترق .. ولم يتسع الوقت لكي أعرف بالضبط ما الذي
أشمه وما الذي أسمعته وما الذي أراه .. لقد مددت قدمي ..
وتلمست الجدران وأعطيت التذكرة التي في يدي .. وامتدت
يد ومزقتها بعناية واضحة .. ودخلت . وانحشرت .. وكان لا بد
أن أمشي وراء أمواج الأجسام السمراء في الظلام .

ودخلت ودخلت .. واتسع المكان وسالت دماء الصخور على الجدران ..
وكان السقف قد ضرب بألف سكين ، لأن كتلا من اللحم سنجابية اللون
تتدلى منه .. ولأن عيوننا مفتوحة وأعمدة فقرية وسيقاننا مكسورة .. كلها تتدلى
من السقف .. أو تنبت من الجدران .. وكلما شدتها جاذبية الأرض : ارتفعت
الموسيقى فألصقتها في مكانها من السقف أو من الجدران ..

ورأيت بعض الشبان قد أسندوا ظهورهم إلى الجدران على الأرض ..
وبسرعة وجدت لي مكانا . وأعتقد أنني فقدت حاسة الشم والسمع والبصر ..
فكل شيء ملئ بالضباب أو هو الضباب .. الأصوات كثيرة ومتداخلة .
والروائح لم تعد خاصة بالحيوانات وإنما بالإنسان والدخان ولا أعرف أى
أنواع الدخان هذا .. وكنت الوحيد الذى يعطس ويسعل .. وكنت ألمح
العيون ترمقني بدهشة ولحسن الحظ لم أكن وحدي وإنما غيرى كثيرون قد
تسللوا بفضل شركات السياحة إلى هذا المعبد .. معبد الهيز والساخطين على
كل ما فى الحياة .. حياتهم وحياة آبائهم وأبنائهم ..

وتعالت الصرخات .. ولا أعرف مصدرها . وفى أحد الأركان وقف
شاب .. طويل أبيض .. طويل الشعر .. ووضع أمامه إناء به بخور .. والبخور
يلف جسمه .. جسمه العريان تماما .. تماما .. وتعالت أصوات تقول له : إنه
يجب أن يخلع حذاه أيضا .. ويظهر أن هذا الشاب قد نسى أن يخلع
حذاه .. أو هو حاول أن يلفت النظر إلى أن الهيز يجب أن يتجردوا من كل
شيء .. وخلع الحذاء .. ثم اتخذ شكل رجال الدين .. ورفع رأسه إلى
السقف .. فتدلى من السقف عدد كبير من الأحذية وعلامات الاستفهام
وصور عدد من سفاحى البشرية وقد شتقوا جميعا .. وفى هدوء تام أعلن
الشاب : أن الصلاة مستمرة .. والطقوس أبدية .. والغضب لا حد له ..
والضمير قطعة غيار لا معنى لها .. فإذا كان هناك ضمير فليكن من نصيب كل
الناس .. لانحن فقط .. الآباء أيضا .. الحكام أيضا .. وليس الصغار
فقط .. والشبان فقط .. وتلفت فى هدوء وقد استدارت حول رأسه هالة من
النور .. وارتفع على الحائط صليب وقال : إن المادة الأولى من البيان تقول :
لا يمكن أن يوصف الواحد منا بأنه « هيبى » إلا إذا كان حرا متحررا .. وإلا
إذا كانت حرته مطلقة حتى الموت .. والموت أهون من حياة المحافظين
الجامدين المتزمتين .. الذين لا يتعبون من كلمات : يجب .. ولا بد .. وحتما ..

ومن الضروري .. ورغم أنفك .. والنار لك في الآخرة ، واللعنة عليك في الدنيا ..

وهنا صرخ الشبان .. ووقفوا يرفعون أيديهم تماما كما يفعل أهل جزيرة بالي .. وتساقت الفتيات الصغيرات .. ولم تمتد يد لإنقاذ الفتيات بل ظلن يصرخن ويتوجعن .. ولم أستطع أمام العيون الحمراء والنظرات الزائغة لا أن أسأل ولا أن أنظر إلى الأمهات اللاتي حملن أطفالهن الصغار .. والأطفال سيكون أيضا ..

وبسرعة غريبة انتقلت الفتيات وأطفالهن إلى الظل .. إلى شق مظلم في الجدار .. ولم يعد أحد يسمع منهن شيئا ..

واختفى الشاب في الظل .. ثم عاد بسرعة يقرأ وقد أدار ظهره للحاضرين : المادة الثانية تقول إن هذا المجتمع الأمريكي صناعته الكذب والذي يكذب أكثر يكسب أكثر . والذي يكذب على أكبر عدد من الناس ، يصل إلى أعلى المراكز .. إن جونسون كذاب .. كان وما يزال في نظرنا .. إننا لانحارب من أجله .. ولا نحارب باسمه .. ولماذا لا يذهب جونسون إلى الميدان الآن .. إنه قد أصبح عاطلا - يتقاضى مائة ألف دولار ..

وتعالت الصرخات .. وتناثرت كلمات لا أفهمها من كل مكان ..

وعاد الشاب إلى الكلام ..

وظهرت فتاة صغيرة حلوة .. عمرها لا يزيد على عشر سنوات .. الوجه مستدير .. العينان زرقاوان .. الشعر ذهبي .. إن وجودها في هذا المكان : جوهرة في الوحل .. ملاك في زريبة .. قمر على كوم تراب .. وتعالت ضربات الطبول من أجلها .. والتف حولها عدد من الشبان العراة وفي أيديهم المباخر وداروا حولها . وتطلعت الفتاة إلى السقف .. ثم انشدت قصيدة من نظمها

تقول فيها : الحب أن أقبل القدمين والساقين والشفتين .. وأن أخلع خجلى
قبل أن أخلع ملابسى .. و ..

ومن المؤكد أن الذى أحسست به هو مغص شديد .. وقرف أغرقنى
وفاض من عيني فلا أريد أن أرى وسددت أذنى ونفسى .. وأحسست أنها
جريمة لا أستطيع أن أعترض عليها ولا أستنكرها .. ولا أعرف كيف أنساها ..
ولكن بسرعة قامت عمليات تعويض فى داخلى .. وأضيفت هذه الجريمة إلى
ملايين الجرائم الأخرى التى لا أعرفها ومن أناس أعرفهم .. واكتفيت فقط
بأن أعلنت استنكارى بينى وبين نفسى ولم أكتف بالاستنكار بل رفعت صوتى
عاليا وقلت : اخص ا - ولم يسمعها أحد طبعاً .

ولكن من الضرورى أن يقول الإنسان أحيانا مثل هذه الكلمات - حتى
بينه وبين نفسه ..

وظهر شاب آخر قصير القامة له كرش .. وقد تغطى صدره بالشعر
الأسود .. ووقف منظاره الغليظ الأبيض على أنف حاد .. وكانت له حركة
عصبية فى ذراعه اليسرى .. فهو يهزها يمينا وشمالا .. ثم يهرش .. ثم يعود إلى
الاهتزاز . وأتوا له بمقعد فجلس .. وجاءت فتاة تبيع الورود .. وأعطته
وردة .. وراح يرقص كأية راقصة ثم يلتقى بالورود على الناس .. وفى براعة
واضحة ألقى الورود على السياح الموجودين .. وأصابتنى وردة فى عيني ،
وتخلصت منها بنفس السرعة .

وأخرج الشاب ورقة وراح يقرأ : شعارنا هذه الليلة : الشاى : جاى ..
والقهوة : شهوة .. والحشيش : لذيذ ..

وراح يتحدث عن مضار القهوة والشاى وفوائد المخدرات وأسماء المشاهير
الذين كانوا يتعاطونها فى التاريخ .. وأنه لولا أن بعض العظماء يصابون
بالأرق الشديد ، لكانت الإنسانية أسعد حالا .. إن الخوف هو الذى يجعل

العظماء يخافون من النوم .. ولكن الخوف هو الذى يجعل الصغار يخافون من اليقظة .. ولذلك ينامون وينامون ..

ثم سقط على الأرض نائما .. وتساقط الحاضرون جميعا .. وناموا .

شبان وشابات .. لحوما بشرية تعلو وتهبط .. والموسيقى تغطيهم بأكداس من النشاز .. وتدقهم بالطبول .. وتدغدغهم بالنفير .. واعتدلوا .. وهدأت الصرخات .. وجاء شاب ثالث وضرب بقدميه ذلك الشاب النائم على الأرض .. فوقف فى هدوء وفى نغمة جميلة سليمة متزنة . قال : يتحدثون عن الحقيقة العارية .. أين هى الحقيقة العارية .. بل أين هى الحقيقة .. إننا لانجد إلا حقيقة عارية من كل حقيقة .. إننا تعلمنا فى المدارس « أن المسرح - مثلا - هو صورة المجتمع .. وأن المجتمع يجب أن يرى نفسه على المسرح » فلم أجد نفسى ولا وجدت أحدا أعرفه .. إن المسرحيات تفرض علينا أناسا لانعرفهم وتدق فى ألواحنا مسامير موجعة .. فمن الذى قال إن ألواحنا تستسلم لمساميرهم .. من الذى قال إن مساميرهم قد أعطيت حق الدخول والخروج فى وعينا .. إن الحقيقة العارية يا إخوانى هى أن هؤلاء الناس يجب أن يكونوا عراة لنبصق عليهم .. هذه هى حقيقتهم العارية .

وتعالت الصرخات وكادت أخفى وجهى فى يدي .. فقد توقعت أن يتصور أحد أننا نحن الأجانب قد جئنا إليهم مندوبين عن هؤلاء الذين يستحقون أن يكونوا عراة ليستحموا فى هذا الاحتقار . ولكن الهيبيز ظلوا جالسين .. وقد استعادوا بعض هدوئهم ورزائهم - ان هذا الشاب ممتاز الأداء والفكر لولا هذه الصورة العارية البشعة التى اختارها إطارا لهذه الكلمات البليغة .

وابتلعه الظل .. فقد انطفأت الأنوار .. وجاء شاب كأنه يكتم الضحك . ولم يكذ يراه الشبان حتى تضاحكوا أيضا . وضرب كرشه بيده .. ولم يكن له

كرش .. وشد أنفه بيده ، وكان أنفه قصيرا .. وحاول أن يعض شفثيه فلم يجد شفثيه فيها رفيعتان كأنه أكلهما قبل أن يجيء .. وقال : أنتم تعرفون أنني جئت من البيت توا .. ولا بد أن يجيء الإنسان من مكان - ومعنا أناس جاءوا من أركان العالم .. واحد من الهند .. وثلاثة من اليابان .. وأربعة من هونج كونج وعشرون من فرنسا .. وواحد من إنجلترا .. وواحد من مصر .

واندهشت لذلك فلم يدر بيني وبين أى إنسان أى كلام .. ولا أظن أن ملاحى فى الظلام مصرية صارخة .. ولكن لا بد أن هذه المعلومات قد أخذوها من مكاتب السياحة .. وهذا يدل على أن هذا الذى أراه عرض منظم دقيق .. وأنها تجارة رابحة . وأنه ليس صحيحا أنهم جميعا قد فقدوا عقولهم .. وأن هناك إدارة تعرف كيف تدير .. وأنهم مثل البارمان الذى يقدم الخمر للناس ولا يذوقها حتى لا يخطئ فى الحساب .. أو لعله يستفيد من خطأ الزبائن السكارى .

وعاد يقول : لقد كان أبى وأمى يتشاجران .. إنها نفس القصة .. من الذى اختار الآخر .. أمى تقول إن والدى اختارها .. وأبى يقول إن أمى هى التى اختارته .. ولا أعرف كيف أن اثنين قد تورطا فى هذه القصة ثلاثين عاما .. ولكن حتى إذا لم يصلا إلى حل ، فعندى الحل : إننى لم أخترا واحدا منها .. ولو أتيتحت لى الفرصة من جديد فإننى لن أخترها .. إيهما لا يشجعان أن يكونا مصدرا لحياتى .. إيهما صورة للرضا العاجز ، وأنا نموذج للسخط القوى .. إيهما الماضى الذى يجب أن ندفعه .. ونحن صورة للمستقبل الذى يجب أن نشيده .. إن هذه الوقاحة قد ورثتها عن أمى .. غير أن أمى تستخدمها فى شىء واحد فقط هى أن تفضح أبى كل يوم فى التليفون وتؤكد لكل الناس ولبائع اللبن بصفة خاصة أن أبى عاجز عن كل شىء بعد الغروب ومنذ أكثر من ثلاثين عاما ! .

ويتعالى الضحك والصراخ ويدور بينه وبينهم كلام لم أتبينه .. ويتراشقون بعبارات كالقنابل يتفجر لها الجميع بالضحكات .. ولولا هذه الضحكات لمات الجميع من الاختناق .. ويتلعه الظل .. ويظهر شاب عملاق .. وتتسلط عليه الأنوار الحمراء .. وتنقل في جسمه وتتركز على قلبه .. ويبدو لنا كأنه يقطر دما ويتلفت الشاب .. ثم ينظر في الجالسين أمامه .. إن عددهم لا يقل عن مائة شخص .. أكبرهم سنا لا يزيد على ثلاثين عاما .. وأكثرهم من الفتيات فهن أطول شعرا وأحف قواما .. وأشد إسرافا في التدخين وأكثر الحاضرين ضحكا وصراخا .. وجرأة أيضا .. ويعود ينظر إلى الحاضرين ويختار من بينهم فتاة .. ويشير إليها فتنهض وينهض معها الفتى الذى تعلق في فستانها القصير .. ولكنه يعود فيجلس وحده على الأرض .. وتنصب عليها الأنوار الدامية .. فتخلع حذاءها فقط .. ويقرب منها الشاب العملاق .. ويلعب في شعرها ويغطي وجهها .. ويقبلها من فوق الشعر ومن تحت الشعر ويلفه حول أذنيها .. ثم يخنقها به .. ويقبلها ويقبلها .. ويتلعهما الظل .. ويعود هو إلى الأنوار التى أصبحت شاحبة .. ويمسح عرقه .. ويخرج ورقة ويقول : قالوا .. وقالوا .. وتعبوا وتعبنا .. وعادوا يقولون وتعبنا .. ولن يتعبوا .. ولذلك يجب أن نسد آذاننا وننشغل بشيء آخر .. وإذا كانوا يريدون أن نسمعهم بالقوة فلن نقطع آذاننا .. وإنما عليهم هم أن يقطعوا ألسنتهم وأن يريحوا ويستريحوا .. إن العالم يحكمه أناس لهم شعور قصيرة . ولذلك أطلنا شعورنا .. ويحكمه أناس لهم صلعات لامعة وقد تجاوزوا الثلاثين جميعا .. ولذلك يجب أن يكون هناك أناس أقل من الثلاثين يعيدون تنظيم الحياة .. وأناس يفكرون وهم يشمون القهوة .. ولذلك نكرها .. ويذهبون إلى مكاتبهم بعد أن يمسخوا أجسامهم من كل ما يجعل له رائحة الإنسان .. إنهم رجال من الصابون والعطور والبودرة والهدوء والهمس

واللمس والكذب .. ولذلك لا نريد أن نكذب .. إننا نريد أن نكون الإنسانية
التي لا تنجبل من إنسانيتها .
وانتفض واقفا يقول : من الذى ينجبل من إنسانيته .

الجميع يقولون : لا .. وقد كان جالسا على ظهر شاب ضخم ولما صفق
له الحاضرون وقف على ظهر الشاب لينحنى شكرا للذين أظهروا امتنانهم له
بالتصفيق .. وابتلعها الظل .

ثم أخذت الأضواء تفتح عيوننا فى الجدران .. وبدأت معالم المكان
تظهر .. إننى الآن فى زريبة مضاعة بشكل مريح .. الجدران من الحجارة
البارزة تبلغ عشرة أمتار فى سبعة أمتار .. والأرض مغطاة بالسجاجيد الحمراء
اللون .. وقد تناثرت عليها طواجن من الفخار لإطفاء السجاير .. ولحمت عددا
من الزجاجات على شكل شيشة .. أما الفرقة الموسيقية فهى فى جانب من
المكان .. ولم أكن أتصور أن هناك فرقة موسيقية وإنما تصورت أن الموسيقى
مسجلة وأنها تصدر عن ميكروفونات فى كل مكان .. وتذكرت يوم ذهبت
إلى الغابة فى أقصى جنوب الهند .. وقال لى أحد الصيادين بعد لحظات سوف
يزأر الأسد ويملاً صوته الغابة كلها فترتبك الحيوانات ولا تعرف أين تهرب لأن
الصوت يجرى من كل جانب .. وكثيرا ما اتجهت الغابة إلى أنياب الأسد دون
أن تدري ..

أما ملامح الشبان فيمكن أن أصفها بوضوح .. إن الوجوه شاحبة ..
والملامح لا أقول مجنونة وإنما شديدة الحساسية .. والفتيات لا أقول
غانيات .. وإنما فتيات شابات حلوات .. لو ارتدت أية واحدة منهن فستانا
جديدا وغسلت وجهها .. ووضعت رأسها تحت الدش ، وسحبت شعرها إلى
الوراء قليلا ونزلت فى مطار القاهرة لتعاقد معها معظم المخرجين بالتليفون على
عشرين فيلما وتنشر الصحف أن المخرجين قد تعاقدوا معها ومعهن مدى الحياة .

وكان السماء قد صبت كل ما في سحبها من مطر على هذه الأضواء
فانطفأت فجأة .. ظلام تام .. وهدوء إلا من عطس وسعال انزعجت لهما ..
ولما عرفت أنني أعطس وأسعل ، اعتذرت لمن حولي في الظلام ..
وتحت ضوء مرتجف وقف شاب كان من الممكن أن يكون أحد القساوسة
الذين أمروا بإحراق المسيحيين واليهود في أسبانيا أيام محاكم التفتيش .. ففى
عينيه قسوة وعلى وجهه هدوء .. وفى أصابعه رقة وفى ذراعيه عضلات ..
وقفصه الصدرى يتسع لذئب وهو يمزق طفلا .. وأسنانه فى لون شفثيه :
سوداء .. وانتظرنا ما الذى سوف يفعله .. إنه ما يزال ينظر إلى السقف .. ثم
يعود وينظر إلى السقف .. ثم يعود وينظر إلى السقف ثم يطيل النظر إلى جانب
من القاعة .. لعله الباب .. ويخرج ورقة ويقراً : ماهى هذه النكته .. إن الذين
جاءوا يتفرجون علينا قد ظنوا أننا حيوانات وأنا وحوش ، إننا لانتخلف عنهم فى
شئء إننا نحن الذين نتفرج عليهم .. إن عندنا الشجاعة أن نخلع ملابسنا ..
وليست عندهم هذه الشجاعة .. إن أكثرنا يملك سيارة .. وفى السيارة خلع
ملابسه .. وأكثر الزوار لا يملكون سيارة .. إن سياراتهم أحذيتهم .. وملابسهم
جدرانهم .. وهم كالمساجين يراقبهم البوليس إذا دخلوا وإذا خرجوا .. فلوسهم
مودعة فى البنوك .. لأنهم يخافون أن يسرقهم أحد غيرنا .. ومع ذلك يجدون
الشجاعة فى أن يقولوا إن كل الناس خارج هذا المكان لصوص .. وهم بالفعل
لصوص .. هذه شجاعتنا وصراحتنا .

وعاد يقول : النكته يا أصدقائى فى السلام .. وشركائى فى سرير النسيان ..
وأحبائى فى متاهات الخوف .. والنكته أن أحدا لا بد أن يفهم هذا الذى
نعمله .. إننا مطالبون بأن نقول للناس : ما معنى هذا كله .. ومعناه بصراحة ..

أنا خائفون .. أنا كارهون .. أنا ساخطون .. إن المجتمع الذى نعيش فيه ممزق
نصفه يكذب على نصفه الآخر .. نصفه يعد بالجنة ونصفه الثانى يبنى النار ..
نصفه يصنع الكباريات ويبيع الرقيق الأبيض ، ونصفه ينتج السلاح ويكدس
البارود .. نصفه يدفع الملايين من أجل أن يتمكن من الهرب من هذه الأرض
إلى القمر ثلاثة أو أربعة أشخاص .. فليذهبوا إلى القمر إلى المريخ .. وليتركوا لنا
الأرض .. إننا من أهل الأرض .. إننا ننام عليها ونولد فيها وندفن فيها
ولايفصلنا عنها قبص أو حذاء .. إن الهنود هم الذين علموا البشرية معنى الحياة
والإحساس بالحياة ومعنى السلام .. ومعنى التحرر من سلطان المعدة .. ومن
الجوع .. إننا خائفون يا سادة ..

وقبل أن يتلعه الظلام ارتسمت على الجدران أعمدة السجن .. وفى الظلام
ظهرت سلاسل وظهر سجان .. وسجان آخر .. وظهر جنود .. وتعالى
الصرخات .. والدخان .. واختفت قضبان السجن فى الدخان ..

وظهر فى الضوء شاب آخر يحمل لافتة مكتوب عليها : من الضرورى أن
يعرف الإنسان نفسه لكى يضبط رغباتها ويحددها ويحررها بعد ذلك .. ولكن
الحائف كيف يعرف . وأبناء المجتمع الأمريكى خائفون .. ممزقون ..
ساخطون .. إنهم يقرأون عن الحرية ولايجدونها .. يقرأون عن الرخاء والأمان
والمستقبل ولايحسون به .. إنهم هاربون من التليفزيون والسينما والاعلانات
والانتخابات والصواريخ .. إنهم مثل رواد الفضاء مسجونون فى أجهزة
دقيقة .. تعلق بالحوف .. وتتحرك بالحدر وتهبط بالفرع .. وربما كان الفرق بينهم
وبين رواد الفضاء .. أنهم هم الذين يهربون من السجن وهم فيه .. يهربون منه
بالنوم أو بالمخدرات أو بمجرد الاعتراض على الخوف ومصدر الخوف ..

ويعطينا ظهره الذى تعرى تماما .. ثم يسكت ..

إنهم ضالون ضالون .. ولكن لهم أنبياء من الأطباء والأساتذة والفلاسفة مثل الشاعر جتبرج والطبيب ليرى والفيلسوف هربرت ماركيز .. وهم جميعا يرون أن هذا الذى يفعله الشبان شىء خطير إنهم لا يقتلون أحدا ولا يوجعون أحدا .. ولكنهم يستخدمون كل ما يستطيعون من أجل أن يقولوا : إننا نرفض المجتمع الأمريكى .. وليس صحيحا أن المجتمع هو الذى رفضهم .. وإذا كانت حياتهم فى الكهوف وإذا كانوا عراة .. فإن المجتمع الأمريكى قد صنع ملايين الكهوف المتوحشة التى اسمها : الكباريات .. وتفنن فى تعرية النساء وبيعهن بالقطعة .. على الشاشة ومن غير الشاشة ..

فهم إذن صورة بسيطة صريحة ساذجة .. وهم أعراض لمرض اجتماعى واقتصادى وسياسى .. ولكنهم أعراض فقط ..

وليسوا هم مرضا ولكنهم لافتة مضيئة حية متحركة تقول : هنا يعيش مجتمع مريض .. يعيش بالوهم ، ويستمر على الحوف ويستتر بالقوة ويهتز بالعنف ، ويتستر على الجريمة .

ولم تعد فى نفسى أية رغبة لمزيد من الكلام العاقل الذى يقوله مجانين .. ولا العبارات الصافية التى تخنقها الموسيقى والدخان .. وخرجت أوقظ أذنى وأنبه أنفى وأفرك عيني .. وفى ظلام وبرودة وفراغ شوارع لندن جعلت أسأل نفسى : عقلاء أم مجانين ..

إننا جميعا سواء !؟ .

وانت جميل تحب الجمال

لو فوجئت قبائل النوير في السودان أو قبائل الأرونتا في
استراليا بوجود فتاة مثل أودرى هيبورن بينها ، فلن يفكر في
الزواج منها أحد ، وأول مايفكر فيه هؤلاء الناس الطيبون هو
أن يبكوا من أجلها بعض الوقت . ويصلوا لله بعد ذلك
ويشكروه لأنه لم يخلقهم بيض اللون مثل هذه الفتاة التي يرون
أنها مريضة فقيرة . فهي مريضة لأنها نحيفة : ليس في جسمها
سوى أوقيتين أو ثلاث من اللحم ، وهي فقيرة لأنها نحيفة
أيضا . فلو كان أبوها غنيا لأطعمها اللحم واللبن وجعلها تنام
طول النهار حتى يمتلئ جسمها وتجعل في خدمتها جاريتين
تسندانها عندما تقف وعندما تجلس .

ولو عاشت أودرى هيبورن في أيام الجاهلية لظلت طول عمرها في ركن
من أركان بيتها ، لا تخرج من البيت لأنها عورة وعار على أهلها . وأسوأ دعاية
لقيامتها ، يكفي أنها نحيفة . أي مجردة من الشحم واللحم ، أي مجردة من
الجمال . ومن كل ماثير عين الرجل ويده . والرجل يشيره ماتراه العين فالإنسان
حيوان بصرى يعتمد على عينيه . وعلى ما يملأ عينيه .. واللحم هو الذي يملأ
العين . أما العظم « فيطرف » العين . ولايزال الرجل قادرا على أن يلمس المرأة

كلها بعينه .. وكثيرا ما أحست المرأة أمام الرجل وهو ينظر إليها أن عينيه توجعها
وتجردانها من ملابسها ومن إرادتها أيضا . والرجل يتوكأ على عينيه إلى أن تقترب
منه المرأة الجميلة فيعتمد على اللمس وبعد ذلك على الشم .. ثم بقية الحواس .

ولأن الرجل - حتى اليوم - يرى أن المرأة الجميلة هي « الشيء » الممتع
فهو يريد أن يكون الجمال مستسما ليتمكن من امتلاكه والسيطرة عليه .. حتى
تكون المرأة على هواه .

ولكن المشكلة دائما كانت هي : ماهو « هوى » الرجل ؟ وما الذى
يهواه ؟ ولماذا ؟ ..

فى معظم القبائل البدائية كان الرجال يفضلون المرأة المليانة جدا . ويرون
أن الجمال هو اللحم والشحم .

وما دام الجمال هو اللحم والشحم فالمرأة الجميلة هى التى لاتستطيع أن
تمشى . وإذا مشت وقعت . وإذا وقعت تساندت على جذع شجرة أو على
كتف خادمة . وإذا حاولت أن تنهض لم تستطع ، ولذلك يجب أن تكون
بالقرب من شجرة لتساند عليها أو تحف لمساعدتها خادمة أو اثنتان أو
ثلاث .. والعرب وصفوا هذه المرأة بأنها « شيلة جمل » .. وكانوا يقولون إن
المرأة الجميلة هى التى إذا اقتربت منها كانت تمشى على ست .. وإذا ابتعدت
عنها كانت تمشى على أربع . والست التى يقصدونها : الذراعان والبهان
والساقان .. والأربع هى : ساقاها وردفاها .

والذوق العام فى التاريخ العالمى تأثر بالجمال العربى . كما ظهر فى الشعر
العربى وفى كتاب « ألف ليلة وليلة » .. وهو ليس كتابا عربيا فقط . إنه عربى
وفارسى وهندى أيضا . وكذلك تأثر الذوق العام فى أوروبا بمقاييس الجمال عند
الاعريق والرومان .

وقد تحدثت ألف ليلة عن المرأة المشوقة القوام مثل حرف الألف ،
وشعرها ليل وبياضها قصة ووجهها قرصيف في إحدى ليالى الشتاء ،
وصدرها عاج ، وأرادفها مخدرات . وأن خصرها يمكن خنقه بفتلة ..

وقد كان هذا نموذجا للذوق العربى مئات السنين ، ولا يزال ولكن في
نفس الوقت الذى صدرت فيه ألف ليلة ، لم تكن أوروبا كلها ترى أن من
الضرورى أن تكون أرداف المرأة نوعا من المخدرات أو أكياس الرمل . أو
أكوام الرمل كما كان يقول العرب .

ومن المؤكد أن القليل جدا من الناس من يعرف ألف ليلة ، ولكن كل
صفات المرأة الجميلة التى امتلأت بها صفحات ألف ليلة ، هى التى امتلأ بها
خيال وأحلام الرجال فى الشرق . فلا تزال المرأة الجميلة عندهم هى
« الأنثى » الجميلة . ولا يزال الرجل عندهم هو « الفحل » فالجمال حسى
والمتعة حسية . والرجولة حسية . وبسبب هذه المعانى تسلت المخدرات إلى
الشرق وأقامت طويلا ..

فما عدا قبائل « الطوارق » فى شمال أفريقيا ، فهذه القبائل لاتبج الفتاة
التي يشيلها الجمل . وإنما تفضل نوعا آخر اسمه « العرسى » نسبة إلى حيوان
معروف باسم العرسة .

(وإذا كنت من أبناء المدن فسوف تجد هذا الحيوان فى الكتاب باسم
« ابن آوى » ، وإذا كنت من أبناء الريف فأنت تجده تحت النافذة ..)
والعرسة لها جسم مليان باللحم وخال من العضم ، ولكنها سريعة الحركة .. أما
بنات الطوارق فلهن عادات غريبة فهن يشربن اللبن ويأكلن البلح . ثم
يتمرغن ساعات طويلة على الرمل ، والتمرغ على الرمل رياضة وتديك
للجسم . ويمكن أن يقال إن فتيات الطوارق هن أجمل نساء الدنيا عندما

يبلغن السادسة عشرة .. وأية واحدة يمكن تتويجها كأجمل عرسة عرفتها كل حدائق الحيوانات وكل الغابات .

وفي نيجيريا يفضلن المرأة التي تمشى وكأنها تحوض في البرك والمستنقعات - أى تمشى وتكاد من كثرة اللحم والشحم أن تقول إنها ليست امرأة واحدة ، وإنما هي امرأة وعلى صدرها طفلان وأمسك بثوبها من الخلف أربعة وتدلى من كتفها اثنان أيضا .

وفي قبائل الماساي الأفريقية يرون أن المرأة النحيفة هي لعنة أصابت القبيلة ، ولذلك يجب التخلص منها بسرعة حتى لا تلحق مصائبها على بقية النساء وعلى الحيوانات . إن هذه المرأة النحيفة تشبه التربة التي تنكر البذور فلا ينبت فيها شيء . ولذلك يقيمون الحفلات والولائم ويطعمونها بالقوة ثم يشعلون النيران حولها لعل العفاريت تهرب من جسمها ، ثم يتبادل الزواج منها عدد كبير من فتيان القبيلة .. فإذا ماتت في النهاية - وهذا ما يحدث عادة - فإنها تكون قد أخذت الشر معها إلى قبرها ..

والعرب يتحدثون عن قصة الملك عمرو بن حجر ، وهو جد الشاعر الكبير امرئ القيس . فقد سمع عن فتاة جميلة . فأرسل إليها خاطبة ، وطلب إلى الخاطبة أن تأتي إليه بأخبارها وبكل شيء عنها ، كل شيء ، ولا بد أن يكون الملك قد ضغط على حروف « كل شيء » وألقى بالذهب عند قدمي الخاطبة ، وإلا لماذا أصرت الخاطبة على أن ترى الفتاة عارية تماما ، وتراها واقفة وجالسة ونائمة .. الخ ، وسألت الخاطبة قبل أن تدخل بيت هذه الفتاة : هل تدخل من هذا الباب بسهولة ، وأشارت إلى باب واسع . وهنا قالت أمها مامعناه : فشر . وهل هي مريضة : إننا نحشرها في هذا الباب حشرا .

ولما عادت الخاطبة للملك عمرو بن حجر قالت له : رأيت جبهة كالمراة المصقولة ، يزينا شعر حالك مضفور ، وحاجبين كأنهما مرسومان بقلم وقد

تقوسا على عين ظبية ، وأنفا كحد السيف المصقول ، لا يعيبه قصر ولا طول ، ووجنتين كالأرجوان ، وفما كالحاتم: لذيد المبتسم ، فيه أسنان كالدر ، وريق كالخمر يتقلب فيه لسان فصيح ، وشفنتين حمراوين كالورد ، وعنقا كإبريق الفضة ، وصدرها كتمثال دمية يتصل به عضوان ممتلئان لحما مكتتران شحا . وذراعين ليس فيهما عظم يمس ولا عرق يجس ، وقد تربع في صدرها حقان كأنهما رمانتان .. ولها خصر يكاد يتحول ، تحته كفل يقعدا إذا نهضت ، وينهضها إذا قعدت . كأنه كيس رمل .. فأما ماسوى ذلك فلا داعى لوصفه .. فهو شئ ليس له مثيل .. الخ .

وأهم هذه الصفات جميعا عند الملك وأهل العروس في ذلك الوقت أنها مليانة :. أما بقية الصفات فهي « اكسوار » أى أشياء إضافية فقط .

ومن المعروف أن السيدة عائشة - رضى الله عنها - كانت نحيفة عندما خطبها الرسول عليه السلام ، فحرصت أمها على أن تسمنها فقد كان المثل الأعلى للجمال في الجاهلية والإسلام : المرأة السمينة ، ولذلك كانت تطعمها بالقتاء والبلح واللبن .

وبعد ذلك أخذ العرب يختارون ملامح الجسم ويفضلون بعضها على بعض .. فالحجاج هو صاحب العبارة الشهيرة التى تقول : لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها فتدنى الضجيع وتروى الرضيع .

والمعلومات التى لدينا عن معنى هذا الجمال فى جميع أنحاء العالم ، قد كتبها أناس أوروبيون .. كلهم رحالة وعلماء ومبشرون ومغامرون ، ولذلك فهى لا تخلو من التحيز ، أى فرض الذوق الأوروبى . ولذلك كانت هذه المعلومات ناقصة ، فمثلا نجد أن الكابتن كوك الذى اكتشف استراليا وجزر هاواى يتحدث عن قبائل التونجا فى المحيط الهادى فيقول : لم أجد فرقا واضحا بين

الرجال والنساء . فالأجسام ممدودة ممشوقة والعضلات واحدة ، فالكل يعمل ، بل إن بعض الرجال فى غاية الرقة لدرجة يصعب عليك أن تعرف إن كانوا رجالا أو نساء .. وربما كان الشئء الوحيد الذى يلفت العين هو أن أصابع النساء رقيقة جدا ، بل إن هذه الأصابع أجمل ما فى المرأة .

وهذا ولا شك ذوق خاص ، فهو يرى أن أجمل ما فى المرأة أصابع يديها ولكنه لم يدرك أن جمال المرأة فى هذه القبائل هو ظهرها الذى تنقشه وتكتب عليه اسم الرجل الذى يحميها - أى الذى تحبه .

أما القبائل الأسترالية فهى لا ترى أن الجمال هو ضخامة الجسم ، وإنما الجمال هو جمال الصدر ولذلك تحرص المرأة على أن تكشف عن صدرها . والمرأة الأسترالية - لأنها تحمل كل أمتعتها على رأسها - أصبح قوامها ممدودا ممشوقا ، وعنقها مرفوعا وصدرها بارزا .. (ملحوظة خبيثة : إذا ذهبت إلى الريف وجلست إلى جوار ترعة عند الغروب ورأيت الفلاحات وقد حملن البلايص أو الحلل وتفرجت عليهن باهتمام شديد وهن عائدات إلى البيت ، لوجدت أن كل واحدة قد تعمدت أن يسقط الماء على صدرها ، لأن الماء إذا سقط على الصدر التصق الجلباب بجسمها .. وإذا التصق الجلباب فإن النهدين يبرزان فى فزع وهذا هو المطلوب ..) .

وفى جزيرة بالى فى أندونيسيا تمشى نساء الجزيرة عاريات الصدر ، وكل الذين يترددون على هذه الجزيرة من السياح لمشاهدة هذا الشئء الغريب ولا يوجد فى هذه الجزيرة أية معالم سياحية .. لاشئء بالمره .. ونشرات الدعاية الأندونيسية كاذبة والسياح كاذبون . فهم جميعا يحاولون أن يوهموا العالم أن فى الجزيرة مشاهد أخرى غريبة .. وأنا ذهبت إلى هذه الجزيرة ولم أجد شيئا غريبا .. سوى النساء العاريات الصدر . وهناك أسطورة تقول إن الفتاة عندما تبلغ الثانية عشرة من عمرها فإنها يجب أن تجعل القمر من أبنائها .. ومعنى

ذلك أن كل فتاة يجب أن تتعري في الليل وتعطي صدرها العارى للقمر لكي يرضع منه . ويؤمنون أيضا بأن القمر يجب ألا تغطمه الفتاة إلا عندما تتزوج ، ويقولون إنه لا شيء يجعل الصدر جميلا شأبا سوى القمر الرضيع ..

أما كتاب « الرمايانا » الهندي فهو يعيد الجمال إلى شكله المعروف في ألف ليلة : فالفتاة الجميلة هي ذات الأسنان البيضاء والعينين الواسعتين أما رجلاها فمثل ساق الفيل .

وفي سفر « نشيد الإنشاد » في الكتاب المقدس نجد صفات مثيرة للجمال الرجل أو جمال المرأة أو للجمال الإنساني عموما : حبيبي رأسه ذهب ابريز ، عيناه كالحمام على مجارى المياه ، مغسولتان باللبن ، خداه كخميلة الطيب ، شفتاه سوسن تقطران مرا مائعا ، يده حلقتان من ذهب مرصعتان بالزبرجد ، بطنه عاج أبيض مغلف بالياقوت الأزرق ، ساقاه عمودا رخام مؤسسان على قاعدتين من ابريز .. طلعه مثل لبنان ، حلقة حلوة .. وكله مشتهيات .. الخ ..

والجمال هنا جمال الجسم كله .. بل هو عبادة للجسم من أوله لآخره .. فكل شيء جميل .. الشعر والعرق والريق والنوم على الأرض ورعى الأغنام .. والفقير أيضا ..

أما عند الإغريق فلا نجد تماثيل لنساء جميلات وإنما نجد تماثيل لنساء رشيقات فقط ، بل إن أجسام النساء عند الإغريق كانت أقرب إلى ملامح الرجال . فالقوام طويل مختصر . والصدر صغير ، والأرداف ضامرة ، وليس الخصر مخنوقا . والإغريق كانوا يفضلون جمال الرجل على جمال المرأة بل إنهم لا يجدون في المرأة أى جمال ، ولذلك حرصت النساء على أن يقلدن الشبان الصغار يقصرن الشعر . ويعملن رجيا قاسيا لعلهن يعجبن الرجال ..

بل إننا وجدنا الفيلسوف سقراط العظيم يتغنى بجمال الرجل . ويعترف صراحة أنه يجب غلاما جميلا ، وأرسطو العظيم لا يخفى هو الآخر حبه لهذا النوع من الجمال ..

وكان الإغريق يكتبون أسماء الشبان على أعمدة الجدران ، وكان من المألوف أن يكتب الرجل اسم الشاب الذى يحبه على باب بيته .

وسقراط كان أعنف الفلاسفة الذين دعوا إلى احتقار الجسد . ولذات الجسد . وجمال الجسد . وجمال المرأة . وتأثرت بأفكاره الحضارة الأوربية كلها . حتى بعد المسيحية ، ازداد احتقار الناس لكل ما هو حسى . وكان على المرأة أن تتوارى وتضغط معالمها الحسية حتى لا تظهر ، فظهورها شر ، والخطيئة امرأة ، والمتعة خطيئة والزواج يجب أن يكون من أجل إنجاب الأطفال ، وليس من حق الرجل أن يشعر بالمتعة إذا تزوج ، ولذلك يجب ألا تحاول زوجته إغراءه ، ويجب ألا تظهر له شيئا من جسمها .

وكان من العادات المألوفة فى العصور الوسطى أن تضع المرأة على صدرها لوحا من المعدن تحت ملابسها . فإذا نام زوجها إلى جوارها لا يدرى بالضبط إن كان قد استدار إلى زوجته أو أنه أعطى وجهه للحائط .

وهذا يفسر لماذا أعدموا القديسة أجاتا بهذه الصورة المروعة : فقد نزعوا ملابسها . وقطعوا ثديها بالسكين فالثديان مظهر من مظاهر الأنوثة . والأنوثة شر . ويجب أن نقضى على الشر تحت ملابسنا وتحت ملابس النساء . والجمال صورة زائفة ، والإثارة استدراج إلى الخطيئة ، ولذلك فكل ما هو حسى هو قبيح .. والجمال الحقيقى هو جمال الرجل . وكان الرجال والنساء ينامون معا بالملابس الكاملة .. الكاملة !! خوفا من أن يتلامس الجسدان لأى سبب ! أما الرومان فكانوا حسيين ، ولذلك أحبوا الأجسام الممتلئة ، وأقاموا

مسابقات الجمال للنساء العاريات ، ولكن الرومان إذا كانوا يفضلون المرأة المليانة ، فهم لا يحبون السمينة الجاهلية .. ولا السمينة الأندلسية .

وفي الأندلس كانوا يفضلون المرأة التي يصلح حزامها إسورة لذراعها - أى ذات الخصر المخنوق ، وكانوا يفضلون العيون على بقية الأعضاء ، وعندما استمع أحد الأمراء عن جمال امرأة ساعة بعد ساعة ، لم يسأل إلا عن شيء واحد : حدثني عن عينيها ، فقيل له : كحلاء - أى سوداء الحدقة .. وحوراء - أى شديدة السواد .. والبياض .. ونجلاء - أى واسعة العينين .. ووظفاء - أى طويلة الرموش ..

ونفض الأمير ليقول : ستكون زوجتي ..

وقد حدث في بلاط يوليوس قيصر أن اقترح أحد الضباط أن تكون للإمبراطور عشيقة جميلة ، وكان الإمبراطور مولعا بالشباب - وكان الشبان مولعين به .. فسأل الإمبراطور : كم مرة تذهب إلى الحمام فقيل له : إنها قرموط سمك يا مولانا - أى أنها لاترك الماء ، وعاد يوليوس قيصر ليقول : وإذا حدثتها فكيف تنظر إليك ؟ فقيل له : في عينيك تماما يا مولانا .

ورفضها الإمبراطور فهو لا يريد امرأة ترفع عينيها عن قدميه ، إنه يفضل المرأة التي لا ترى . لأنه يريد - ككل رجل - أن يكون هو عينيها .

ومن المؤلف أننا عندما نصف الجمال فإننا نتحدث عن جمال المرأة ، ولا نتحدث عن جمال الرجل والسبب في ذلك هو أن الرجل هو الشاعر والفنان والملك وهو الذى يختار وهو الذى يصف ويتكلم ويتغنى ولذلك لا نجد تماثلا لجمال الرجل . وإنما نجد تماثيل لجمال المرأة . وكذلك دراسات طويلة عميقة لجمال المرأة .

والرجل يفضل المرأة الجميلة .. لاشك في هذا . وإن كانت هناك نساء

يفضلن الرجل الدميم ، بل إن المرأة لا تحب الرجل الجميل . وجاله لاغيرها ولايثيرها . وربما أثارها نظافة أظافر الرجل ..

بل إن هناك ألوف الأمثلة في حياتنا العادية للرجل القبيح الذى يتغلب على أكثر الرجال جمالا . فتحبه المرأة دون أن تدرى أنه قبيح .

والعالم الكبير داروين يؤكد أن إناث الطيور والحيوانات تفضل الذكر الجميل . فالديك أجمل من الدجاجة والدجاجة تستجيب للديك الجميل الريش الزاهى الألوان .

والمرأة تختار الرجل القوى . القوى الجسم والقوى الشخصية . القوى المركز . والمرأة تتوهم - عادة - أن قوة الجسم تدل على قوة الرجولة وهذه إحدى كوارث المرأة في حياتها الزوجية .

ولا يوجد سبب علمى لحرص النساء على مشاهدة الملاكمة والمصارعة والرياضة إلا المتعة في مشاهدة شبان أقوياء . والنظر بالعين إلى هذه القوى الشابة : متعة .

وكثيرا ما تزوجت أجمل الفتيات رجالا رياضيين . وكان الزواج نفسه نموذجا من الفشل والخيبة . كما حدث لمارلين مونرو ولانا تيرنر .. وغيرهما .

والمرأة لا ترى الرجل العريان شيئا جميلا ولا مثيرا . على عكس الرجل . فالمجلات تنشر الصور العارية للمرأة . والكباريات تعرض الأجسام العارية . والراقصات فى المعابد وفى صناديق الليل . يثرن الجوع فى الرجل إلى أن يملأ عينيه باللحم الحى المتحرك .

وعندما ينظر رجل وامرأة إلى راقصة عارية فكل منهما يرى شيئا مختلفا . أما الرجل فهو مبسوط . وإن كان يحاول أن يخفى انبساطه الحقيقى وراء ستار أخلاقى كاذب . وذلك بأن يستنكر الرقص العريان وهو فى الحقيقة يتمسح فى

الأخلاق . لأن الأجسام العارية والصور العارية تعجب الرجال وتثيرهم . أما المرأة فتحب أن ترى المرأة العارية . ولكن تشعر أمامها بشيء من الخجل . كما يشعر الحاوى أمام حاو آخر ، فالمرأة هي الحاوى الذى يخفى جماله بحساب ويظهره بحساب . والمرأة كالحاوى أيضا لا تحب أن يجيء حاو آخر ويكشف السر أمام الناس .

والتقرير الخطير الذى كتبه الدكتور كترى عن الجمال والدلال عند النساء والرجال يقول فيه إن ٨٥٪ من الرجال يفضلون الصور العارية والاستعراض العريان .. وإن ٢٠٪ من النساء يفضلن الصور العارية للرجال .. وأنهن لا يشعرن بأى ضيق إذا نظرن إلى رجال عراة يستعرضون عضلاتهم .

ولاشك أن السينما هي المسئولية الآن عن فرض نماذج من الجمال على الناس . فهي تفرض الرجل الأصلع نموذجا للرجولة .. وتفرض الخنافس نموذجا للشباب .. وتفرض ذات الصدر الضخم مثل جين مانسفيلد وجين رسل وجينا لولو بريجيديا .. وتفرض السيقان الطويلة مثل صوفيا لورين .. وتفرض العيون الواسعة مثل كلوديا كاردينالى .. وتفرض القوام النحيل مثل أودرى هيبورن .. وبريجيت باردو ..

إن الذوق يجيء من فوق .. من الشاشة الفضية بألوانها وموسيقاها وزواياها . وما تفعله النجوم فى أمريكا وأوروبا يصبح إطار الجمال فى كل الدنيا ..

وإذا كان الرجال قد اختاروا المرأة ذات الصدر العالى ، فلأن الرجل ما يزال طفلا . يحن إلى صدر دافئ . وما تزال المرأة أما ، ولاتتعب من أن تكون أما لأى إنسان .. ولأى قط أو لأى كلب . بل إن الموت نفسه لو نام على صدرها لأرضعته .

ولكن المرأة التى تعلمت وعملت الآن يجب أن تكون خفيفة الحركة . وأن

تكون أزيائها متناسبة مع هذه الحركة ومع هذه الحياة الجديدة .. ولذلك فلم تعد المرأة السمينة مثلا أعلى . بل إن المرأة المختصرة المركزة الأعضاء هي نموذج الجمال عند الرجل . أى قريبة من الرجل . فالرجل يحب أن يعمل وأن يتحرك ولذلك كان رشيقا خفيفا ، والمرأة أيضا .

ولم يحدث في تاريخ الذوق الجمالى عند الإنسان أن التقت نماذج ألف ليلة ونماذج الإغريق كما حدث في عصرنا هذا . فالمرأة التي تعجب الرجل هي التي تجمع بين الأنوثة والرجولة . إنها التي تشبه ذلك الغلام توت عنخ آمون . فهذا الملك له كل ملامح الفتاة والفتى . لا هو رجل ولا هو امرأة . هما معا . إنه هو أيضا مثل بريجيت باردو ومثل أودرى هيبورن . ففي هذين الكوكبين توجد كل صفات الشاب والفتاة . فلا توجد فيها أنوثة صارخة ولكن توجد أنوثة وجاذبية .. ولا توجد « رجولة » صارخة .. وإنما توجد صفات الأجسام الشابة الفتية ..

وعندما أصدرت الأدبية الوجودية سيمون دى بوفوار كتابها الصغير عن بريجيت باردو سجلت انحلالا في ذوق الرجل ومرضا في رجولته . فهي تقول : لقد عرفنا منذ وقت طويل أن الرجل يريد من المرأة أن تكون مستسلمة . أو تكون الاستسلام نفسه . ويحتفظ هو لنفسه بالحركة والعمل . وعرفنا أن هذا هو الفارق بين الرجل القوى والمرأة التي تنتظر سيدها دائما .. ولكن إعجاب الرجل بهذا المخلوق الغريب بريجيت باردو جعلنا نشك في ذوق كل الرجال . فهي ليست الأنثى .. إنها أنثى من نوع خاص .. إن الرجال ليس في استطاعتهم بعد اليوم أن يهربوا من تهمة الشذوذ .. ولا من تهمة الذوق المريض الذى جعل فن الجمال عند الرجال مريضا .. إن بريجيت باردو قد كشفت الرجل وفضحت ذوقه .. إن الرجل في العصر الحديث لم يعد له ذوق رجل .. كأنه لم يعد رجلا .. يا للعار ! .

وهذا الرأى يجعلنا نتصور أن الرجال يعجبهم فى ب . ب . أنها قريبة الشبه من الشاب أو من الرجل .. أبدا . إنما يعجبهم أنها أنثى من نوع خاص . إنها فاكهة ليست فى حجم البطيخة ولا فى حجم التوتة .. ولكنها فى حجم التفاحة مثلا . إنها فاكهة من نوع خاص وطعم خاص .. والذي يحب المايوه يحب الملابس الكاملة أيضا .. والذي يأكل السندوتش يستطيع أن يأكل الديك الرومى .. والذي يرى ب . ب . ويعجب بها ، لو رأى أمها لأعجب بها ولأحبها وتزوجها .. وفى استطاعة الرجل أن يغمض عينيه عن ب . ب . وعن كلوديا كاردينالى .. وأن يتخيل أنوثة الاغريق وكذلك ألف ليلة .

يقول شاعر ظريف متوجها إلى الله :

خلقت الجمال لنا فتنة وقلت لنا يا عبادى اتقون
وأنت جميل تحب الجمال فكيف عبادك لايعشقون

مراقبة العسل

لم يعد هناك متسع من الوقت لكي يكون الإنسان زوجا ..
فالوقت الذي يجلس فيه الزوج مع زوجته وأولاده قصير
جدا .. وهو لا يتعدى بضع دقائق وبعدها يترك الرجل بيته إلى
الشارع أو المقهى أو إلى العمل مرة أخرى .. أو لينام أو
ليأكل ..

وكل زوجة تشكو دائما من أن زوجها لم تعد تحس به .. لم
تعد تراه .. فهو يجيء البيت فقط ليسترخي ولا يريد أن يسمع
كلمة واحدة عن أى شيء .. وتقف الزوجة حائرة وعلى لسانها
عشرات الحكايات ، وعشرات الشكايات من الأولاد والجيران
والطباخ والأقارب والبواب .. وشكايات منها هي شخصا ضد
الزوج .. ولكن كل ما يريده الزوج هو أن ينعم بالهدوء ..
بالراحة .. لأنه مرهق .. وطول النهار يتكلم ويناقش ويصارع
الآخرين .. إنه مهذود .. إن لسانه أصبح كالشريط المسوح
من كثرة دورانه في فمه .. لقد تعب لسانه ، وتعبت أذناه
ويتمنى أن يفقد كل انسان لسانه ورغبته في الكلام خصوصا
مع زوجته ..

وفي هذه اللحظات القليلة يضطر الزوج إلى أن يكون لطيفا ورقيقا
وصبوراً ، ومستمعا إلى حكايات وخناقات زوجته وأولاده .. وأن يحل كل
المشاكل وهو تعبان ، وأن يفصل في كل القضايا وهو مظلوم ! .

وإذا لم يفلح الزوج في تحقيق هذه المعجزة ، فإن الزوجة تبكى ، وتتشنج
وتهدد بترك البيت والأولاد والدنيا أيضا . والرجال العقلاء يعلمون بالتجربة
أن دموع المرأة لا قيمة لها .. ولا تعنى شيئا ، فالمرأة تبكى كما تمطر السماء ..
وهي تشنج وتهدد لأن الرجل يسد فيها .. ولأن الرجل يدوس على لسانها ..
والمرأة تتنفس من لسانها ..

فالرجل الذي لا يستمع إليها يقتلها .. والرجل الذي لا يناقشها يخنقها ..
فشكوى المرأة سببها ضيق الوقت الذي خصصه الرجل لزوجته لكي تتكلم ..
ومن الممكن أن تنحل هذه المشكلة ، لو أن الزوجة هي الأخرى تعمل ..
فسيكون عندها هي الأخرى مشاغل ومتاعب .. ستظل طول اليوم تتكلم
وتناقش ، حتى تنهد قواها .. فإذا عادت إلى البيت ، وأصبح «بوزها» في
«بوز» زوجها .. لم تجد ما تقوله .. تماما كالرجل ..

وفي أوروبا وأمريكا اقتنع الأزواج بسخافة الحياة في البيت .. وبسخافة
تناول الغداء أو العشاء في البيت .. فمن الممكن أن يعمل الاثنان في مكانين
بعيدين .. فالأفضل لها أن يلتقيا في أى مطعم .. أو في إحدى دور السينما ..
كأنهما .. صديقان أو عاشقان .. وهذا التغيير لاشك يقضى على الملل والروتين
الزوجي .. وفي أمريكا يلتقى الآباء والأبناء في المطاعم أو دور السينما ..

فلم يعد للبيت كل هذا المعنى المقدس .. ولا هذا المعنى السحري .. فلا
شيء اسمه .. البيت .. فالزوج مشغول والزوجة أيضا .. والزوج يعمل والزوجة
أيضا تعمل .. والزوجة لا تربي الأطفال ولا تطبخ ولا تغسل ولا تكنس ..
وليس عندها وقت .. وحتى لو كانت عندها رغبة فلا أحد يشجعها ،

ولا أحد يطلب منها أن تكون زوجة ولا ست بيت ولا حتى ست ..
وإنما مفهوم الزواج هو : اثنان تفاهما ورأيا من الأفضل أن يرتبطا برباط
أمام الناس .. فتعاقدا على الحياة معا ..

وهذه « الشركة » أو هذا « العقد » لم يقرأه الزوجان .. ولم ينص في هذا
العقد على أشياء كثيرة ..

فلم ينص في العقد على الراحة المطلوبة لكل منهما ..

لم ينص في هذا العقد على ضرورة الكلام في ساعات الراحة والاستماع إلى
شكايات الزوجة ، وإعطائها الفرصة لكي تستخدم لسانها يمينا وشمالا .. وترضى
هواية الكلام بلا معنى ..

إن الزوجة الأمريكية إذا أرادت أن تشكو وأن تبكى فإنها تذهب إلى
الطبيب النفسى وتتحدث وتظل تبكى وترتجف حتى تتساقط كل متاعها ..
ويودعها الطبيب إلى الباب ، لتجد زوجها يقرأ الصحيفة ..

ثم تدفع الزوجة قيمة العلاج .. وفي الطريق إلى البيت يسألها الزوج :
هه .. وماذا قلت للطبيب ..

وترد الزوجة : شكوت له من الوحدة .. وأنى أقضى معظم الوقت
وحدى .. ورويت له كثرة أعمالك ..

وتنتهى المشكلة عند هذا الحد . وهذا ما نراه في الأفلام الأمريكية :

فالزوجة تذهب إلى الطبيب كما يذهب الناس إلى القسيس ويعترفون ..
وتشكو الزوجة من زوجها ، ومتاعبها معه .. ويرى الزوج أن هذه المشكلة
طبيعية وأنه لا حل لها .. فيذهب معها إلى العيادة وينتظرها ويرى من الأدب
أن يسألها عما حدث لها ..

وتبقى الزوجة مريضة .. ويعذرها الزوج ، ولا يفكر في حل لذلك .
فمرض الوحدة للزوجة . تماما كأمراض الوحم والحمل وآلام الوضع .. كل
هذه أمراض نسوية .. أمراض تحتمها طبيعة المرأة ، وكذلك الوحدة
والوحشة : آلام يحتمها الزواج واشتغال الزوجين معا ..

* * *

قرأت في قصة طويلة للأديب الأمريكي الساخط «جون . ف .
لا ندرج» أن سيدة تزوجت مهندسا من مدينة شيكاغو .. وأن هذه السيدة تركت
الديانة المسيحية .. وعادت إلى الوثنية .. تماما كالإنسان من ألوف السنين .. ولما
سئلت عن السبب قالت : إنني أريد أن أتحدث إلى أحد .. فلما سألوها : ولكن
التمثال الذي تعبدينه لا يتحدث ..

فقلت : ولكن عندي أمل في أن يتحدث .. ولكنه لا يقاطعني وأنا
أتكلم .. لا يدخن سيجارة .. ولا يفتح التلفزيون .. لا يتركني وينام ..
لا يلعب الورق .. لا يصيبنى بالحمل والولادة مرة كل ثلاث سنوات .. وليس
بينى وبينه أى عقد ! .

وهي تقصد زوجها طبعاً ..

أذكر أنني قابلت في هوليوود فتاة تعمل في أحد البنوك ..

وبدون مناسبة روت لى الفتاة كيف أنها تتردد كل أسبوع على طبيب نفسى
اسمه الدكتور محمد السنوسى .. وهو طبيب مصرى يعيش منذ وقت طويل في
أمريكا وله سمعة طيبة ممتازة . ولما سألتها عن متاعبها .. قالت : إنني
لا أذهب وحدى ، وإنما أذهب أنا وزوجى معا .. نختلف دائما وقررنا أن
نحتكم إلى الطبيب .. فنحن نذهب معا وتناقش في حضور الطبيب ..

ثم راحت تضحك .. وقالت : فى أول الأمر كان زوجى يقاوم .. ولكنه الآن لم يعد يحتمل ..

وشرحت لى أسباب الخلاف مع زوجها .. لقد كان زوجها يقاوم عندما ثور عليه زوجته وتلعنه وتحمله مسئولية خياناتها المتكررة .. وفى كل مرة كانت تعلن عن خيانتها لزوجها ، كان يثور ويهددها بالقتل أمام الطبيب .. وأخيرا أقنعه الطبيب بأن يستمع لمغامرات زوجته حتى نهايتها .. ثم ربطه الطبيب فى سرير وجعله يستمع إلى اعترافات زوجته بالقوة ..

وتقول الزوجة بعد هذه الاعترافات : استرحت جدا .. وأن زوجها استراح الآن .. ولم يعد بينها سوى مشاكل بسيطة جدا ، وهى أن الزوج لا يزال يغار من ماضيها ؟ .

وسواء كانت الزوجة على حق أو كان الزوج ، فإن الوسيلة الوحيدة لاجتماع الزوجين ، فى أمريكا ، هى أن يتمدد الاثنان على سريرين وبينهما طبيب .. هى تهتم .. وزوجها يستمع بالقوة .. والطبيب هو حكم هذه المباراة التى لا يفوز فيها الطرفان بأى هدف من الأهداف ..

ولكى تفوز الزوجة بوقت أطول من حياة الرجل .. فإنها تحاول دائما أن تشده إلى البيت ، أن تربطه بأولاده ، أن تهدده .. أن تخيفه .. لكى يهتم ، لكى يثور لكى يثار ..

والمرأة - عادة - لا تتعب من إثارة الرجل .. فإنها تحرص دائما على أن تربطه بها ، أو أن ترتبط به ..

المهم أن يكون الرباط متينا .. ولا يهم أن يخنق الزوج أو يموت فى يديها .. ولكن الأهم عند المرأة ، هو ألا تكون وحدها .. هو ألا تكلم نفسها .. لا بد أن يكون هناك أحد يسمعها ، ويرى دموعها ، ويلعنها أو تلعنه ..

وأسلم الطرق عند المرأة هي إثارة الرجل جنسيا ..
فإغراق الرجل في عالم الجنس ، هو الوسيلة الوحيدة لكي تضمنه بين ذراعيها
ضعيفا مستسلما لها .. وهو بين ذراعيها تحكى له وتقول له .. وتطلب إليه أن يقول
كل ما لم يقله .. تطلب إليه أن يقول لها : إنه يحبها .. إنه يعبدها .. إن الحياة من
غيرها مستحيلة .. إنها صاحبة فضل على حياته .. إنها التي جعلته يتغير
ويتبدل .. وأنه اختارها دون سائر النساء .. لماذا ؟
ويجب أن يرد على هذا السؤال وأن يكرر ذلك كل يوم ..

* * *

في إحدى أساطير اليونان كان البطل كلما عانق محبوبته هربت منه .. وكان
يسألها : أنا أحبك ..

فترد عليه : وأنا أعرف ..

ويسألها : إذن لماذا تتعدين عني ..

فترد عليه : ولكنك لا تقول ذلك ..

- ولكني قلت ذلك ألف مرة ..

- فلماذا لا تقولها الآن ؟؟

- ...

لابد أن يقول لها الآن إنه يحبها .

أى وهو يقبلها .. أى وهو يعانقها .. وهو في لحظة ضعف ..

والمرأة لا يهمها إن كان الرجل صادقا فيما يقول .. ولكن يجب أن يقول ..

أنها تطلب من الرجل أن يكذب عليها .. والرجل طبعاً لا يكون في حالة

طبيعية وكل ما يقوله لا يمكن أن يكون طبيعياً .. ولكنها تريد منه أن يقول

الكلام الذى يعجبها ، فى الوقت الذى يعجبها .. حتى ولو كان كذبا ..

ويغرق الرجل فى الجنس ..

والجنس هو نوع من الهرب من الواقع .. فالرجل في الجنس .. ينسحب من العالم .. ويغرق في بحار حارة مظلمة من العرق .. والملح .. والكذب .. وتستريح المرأة إلى غرق الرجل .. فهو لا يمكن أن يكون قريبا إليها أكثر من هذا ... إنه ملتصق بها .. إنها تحس بكل خلاياه .. إنه لها .. وهي تطلب إليه أن يؤكد لها دائما : أنه لها .. تماما .. كما هي له .. ويؤكد لها الرجل ذلك ..

ويستريح الرجل جسما .. ولكنه يتفكك عقليا .. فالجنس يريح . ولكنه يفك الأعصاب والعضلات .. ويفرکش مراكز التركيز في عقله .. ويصبح الرجل المفكر أو الفنان - وهو أكثر حساسية للجنس - فاشا أبيض مغسولا نظيفا ، ليس عليه كلمة واحدة .. ولا رسم ولا إشارة ولا أى معنى ..

ويصبح عقل الرجل المفكر أو الفنان .. تماما كأصابع اليد .. مفتوحة .. وهذه اليد المفتوحة لا يمكن أن تمسك شيئا .. أن تقبض على شيء .. وفي اللغة اللاتينية نجد أن كلمة : « يمسك » مرادفة لكلمة « يفهم » .. فالذى أمسكه ، هو الذى أحيط به ، وأحس به ، وأفهمه .. والعقل الذى يشبه الأصابع المفتوحة ، لا يمسك شيئا أى لا يحيط بشيء .. وهذه هى المأساة التى يقع فيها الفنان مع زوجته .. إنه زوج ، وهو حساس ، وهو عادة هارب من الواقع إلى عالم الخيال ، يفكر ويتأمل على مهل ..

والجنس حق وواجب وهروب ..
ويطلب الفنان الجنس ويؤدية ، ويهرب به ..

أى ينتقل بالضبط إلى الأرض التي اختارتها الزوجة ، التي تعبت من اللقاء به والجلوس إليه ، والشكوى له ..

وبحار الفنان بين عزلته الفنية ، وبين حياته الزوجية ..

بين أن يجلس وحده . مجرد أن يجلس وحده ولو لم يكن لديه أى عمل .. مجرد أن يتلمس ذراعيه هو : ورجليه هو ، يتحرك دون أن تنظر إليه عين ، ودون أن تسمعه أذن .. مجرد أن يستمتع بالوحدة .. يقسم الهواء والوحدة .. والزوجة ترضى بالقسمة .. أى قسمة ما دامت هي تحصل على النصف ، نصف أى حاجة ، ولا يهددها أحد في هذا النصف .

ولكن زوجة الفنان لا تحس ولا تتصور أن وجودها معه يضايقه وتقول : كيف أضايقه . وأنا أعمل على راحته .. وأنا أحبه .. وهو يحبني .. لقد قال لى ألف مرة إنه يحبني ، وإنه لا حياة له من غيري .. فكيف يقول هذا الكلام ، وهو الآن يريد أن يكون وحده .. لقد تغير .. لا بد أن يكون هناك شيء .. الخ .

ولكن الفنان لا يطمع في أكثر من وحدته .. وهذه هي طبيعة الفن والفكر .. إنه عمل فردى .. عمل يقوم به فرد واحد ، وعلى الطريقة التي يستريح بها ، وفي الوقت الذي يختاره ..

الفن كده .. وبالشكل ده .. في كل مكان وفي كل وقت ..

والعزلة ضرورة بالنسبة للفنان ..

وهذا ما لا تفهمه الزوجة .. أى زوجة ..

* * *

حكى لى أديب مصرى معروف «ى» .. : أنه تعب في إقناع زوجته على أن

يكون وحده يوما في الأسبوع .. وطلب إليها أن تختار هذا اليوم .. وغضبت الزوجة .. وأصر على أن يكون له يوم .. واقتنعت الزوجة .. ولكنها عملت المستحيل لكي تشغله في هذا اليوم .. فالدعوات تنال عليهما في هذا اليوم والضيوف .. وأعياد الميلاد والأفراح .. ومرضها .. ومرض أولادها .. ولم يفلح الأديب «ى ..» في أن يفوز بيوم واحد في أسبوع ..

وأصر على السفر إلى أى مكان في هذا اليوم ..

ووافقت الزوجة .. ثم عاد فأخبرها بمكانه .. وكانت تلاحقه بالسؤال عن صحته .. وأن إحدى قريباتها رأت له في المنام حلما ، وأنها تخشى مما جاء في هذا الحلم ..

وأصر الزوج أن يكون المكان الذى يختاره سرا لا تعرفه زوجته ..

وشكت الزوجة من زوجها .. وقالت لا بد أن تكون هناك مغامرة عاطفية وبكت وانتقلت من بيتها إلى بيت والدها .. وإلى بيوت أخواته .. فضحته وكان معها دليل واحد هو أن زوجها لم يكتب حرفا واحدا في كل هذا الوقت .. فإذا كان يعمل ؟ إذن .. هناك مغامرة .. ويقول الأديب «ى ..» إن زوجته طبعا لم تتصور ، أنه كان في حالة ضيق منعه من أن يفكر فى أى شىء .. وفى قرف من حياته معها ، وفى قرف من الكتابة والقراءة .. وقرف من الدنيا كلها ..

وأخيرا قرر أن يكتب ويقرأ خارج البيت وأن يتجاهل دموعها ، وأن يطرد من أذنيه كلامها ..

ولم يحتمل طويلا .. ولم تحتمل هى أيضا .. ولكنه اعتاد أن يدوسها وأن يهملها .. فقد تزوج شيئا أهم وأخطر منها : الفن ..

* * *

وفي إحدى قصص البرتو مورافيا واسمها « الحب الزوجي » يتفق الزوجان على أن ينفصلا انفصالا تاما أثناء اشتغاله بأى عمل فنى .. فإما الزوجة وإما الكتابة .. وإما البيت وإما المكتب .. وإما الجنس وإما الفن .. فالفن رهينة .. اعتزال .. انشغال تام ..

والزواج خيانة للفن .. والمرأة لا تكره شيئا قدر كراهيتها للفن والفكر الذى يخطف زوجها منها .. ولذلك نجد معظم زوجات الفنانين والمفكرين تعيسات ..

لأن زوجة الفنان مشكلتها أنها دائما أمام : بقايا رجل .. بعد أن أنهكه العمل ، وسلبه الفكر ، ولم يترك إلا هذا الجسم المرهق ، والعقل الشارد والرغبة فى أن يهرب .. أن يهرب منها بالنوم وحده ، أو إلى جوارها .. أو بالعزلة بعيدا عنها ! ..

* * *

وكان الفيلسوف جان جاك روسو يعتقد أن الفنان يجب أن يعيش وحده .. ألا يعتمد فى راحته على المرأة ، فهى تقاضيه الثمن غاليا .. إنها تستسلم له ، ولكنها تمتصه .. تمتص كل القوى التى توقد فكره ، وتشغل خياله ..

وكان يقول : إن أنتم وحدى .. يد هنا ويد هناك ، ورجل هنا ورجل هناك .. أحسن ألف مرة من أن يقاسمى الفراش سمسار عاطفى ! .

وأعتقد أن الاتفاق الذى تم بين الدكتور فاوست وبين الشيطان .. وهو أن يعطيه الشيطان خمس أو عشر سنوات يعيشها كما يريد فى مقابل عشرين أو أربعين سنة من عمره .. هو اتفاق يتمناه أى فنان متزوج .. إنه يتمنى عشر سنوات فى وحدة ، على أربعين عاما مع زوجته أيا كانت هذه الزوجة .. عشر

سنوات من العزلة والحرية ، على عشرات السنين مع الأحضان والبلادة العقلية .. والأصابع المفتوحة التي لا تمسك ولا تحيط بشيء .. عشر سنوات بأصابع ملتبه مرتجفة ، خير من عشرات السنين بأصابع مداعبة هادئة مستريحة .. ولكنها مجرد أصابع لا تكتب ولا ترسم ولا تساوى الماء الذى تغسل به ..

* * *

وهناك مشكلة أخرى .. ليست هى مشكلة الصراع بين الجنس والفن أو بين الزواج والإبداع ..

إنها مشكلة الزوجة نفسها .. زوجة الفنان ..

يرى الدكتور كترى أنه وجد أن هناك ثلاثة أنواع من الزوجات لا يصلحن للرجل المفكر أو الرسام أو الموسيقار أو المحامى ..

وهو يؤكد أن هذه الفئات هى أصعب وأعقد فئات المجتمع وأن زواجهم فى الغالب مشكلة نفسية واجتماعية ..

الفتاة التى يحبها .. لا

الفتاة التى تحبه .. لا ..

الفتاة الطموح .. لا ..

فهو يجب ألا يحب فتاة ويتزوجها .. فهذا الحب يريك حياته كلها ..

والفتاة التى تحبه ، لا تقنع بالقبل .. فالحب يعطيها سلطات قضائية وحقوقا إنسانية عريضة ، فيشعر دائما أنه مقصر وأنه مدين وأنه فاته أن يعطى وأنه مخطئ ..

والفتاة الطموح مشكلة المشاكل .. فهى ترى فى زوجها وسيلة من وسائل

تحقيق آمالها .. إنها تريد أن تدفعه إلى الأمام .. تريد أن تحمله على السلام بالقوة .. إن أية مقاومة لرغباتها أو آرائها هي وقوف في طريقها هي .. وهي تتنازع مع زوجها دائما .. فهي تريده أن يكون كذا ، ولكنها تريد أن يحقق ذلك بالقوة .. بقوتها .. بإرادتها .. وتنسى أن زوجها هذا ليس طوبى ولا ظلطة .. إنه الآخر له رأى .. له موقف .. له برنامج .. وإنه يعرف من حياته ومن فنه أكثر مما تعرف هي فتثور عليه .. وتحاول تحطيمه .. لأنه يقاوم طموحها ، لأنه يهدم آمالها ..

وفي رأى الدكتور كنتزى أن الزوجة التى تناسب الفنان هي الزوجة «المخدة» أو «الوسادة» .. أى التى تعطيه الراحة فقط دون أن تفتح فيها بكلمة .. أى التى تتنازل عن آدميتها من أجل راحته .. التى تضحى من أجله بإنسانيتها .. بأن تتحول إلى مجرد حيوان ..

وليس من السهل أن يجد الفنان هذا الحيوان ..

إن الرسام جوجان تزوج فتاة بدائية .. من جزر تاهيتى .. لا تعرف لغته .. ولا تعرف صناعته .. وعاش وكان سعيدا مع هذا الحيوان الجميل .. الشاعر رامبو عندما هرب إلى الحبشة واشتغل فى تجارة الجلود ، كانت له زوجة .. لا تعرف كيف تنطق اسمه .. وظل سعيدا بها حتى مات ..

وفي جزيرة بالى رأيت زوجة لفنان بلجيكى عالمى .. إنها فتاة بدائية .. لها قيمة سياحية للجزيرة .. أحبها الفنان البلجيكى وتزوجها وعلمها كيف تتكلم بعض الكلمات الفرنسية ورسمها فى ألوف اللوحات .. وعندما تتحدث عنه تقول :
الخنزير ..

وهو سعيد جدا .. بعض لوحاته كان يوقع عليها كلمة : الخنزير .. أو هذا رأى زوجتى . !

إنها لا تفتح فمها .. إنها لا تحطم رأسه .. إنها لا تمسك يده عن الرسم .. إنها لا تفتح فمه بالقوة ليقول لها : أحبك .. إنها تريح فقط .. وسادة من الريش تحت رأس مليون بأفكار كالنحل والنمل ..

وحتى إذا وجد الفنان هذه الوسادة المريحة .. فإنه سيثور عليها مرة أخرى .. إنه لا يريد لها هكذا جامدة .. خامدة .. مجرد حيوان لا يتكلم .. لا ينطق .. لا يحس به .. لا يفهمه ..

إن الفنان ييجالون عندما صنع التمثال الجميل للمرأة المثالية ثم لما اكتمل التمثال ، راح يبكي ويصلى للآلهة أن يمنحوا التمثال الجميل نعمة الكلام .. إن التمثال الجميل لا ينطق لا يتكلم .. وطال بكأوه ونواحه حتى ذابت قلوب الآلهة ووهبوا الحياة .. وسارت إلى جواره عروسا له ..
إنه لا يطبق الحياة مع أجمل إنسان لا يتكلم ..

وحتى لو تكلم التمثال ، فإن الفنان سيضيق بهذا الكائن الجميل الذي لا يكف عن الكلام ولا يكف عن امتصاص حرته وحيويته .. وفنه ! .

* * *

فماذا يريد الفنان أو المفكر؟ .

إنه يريد حياة تجمع كل هذه المزايا وكل هذه العيوب .. قيود واسعة ، وأفواه تتكلم عندما لا يريد .. ووسادة خالية منه .. ومليئة به .. إنه المر الحلو ، والحلو المرير ..

إنه يطلب المستحيل .. ولذلك فلا سعادة لفنان .. فلا فن مع الزواج ، ولا زواج مع الفن ! .

مغامرات تاريخية

٤٠٠ على الطريقة الإيطالية

قالوا للاسكندر : ماذا ستفعل بعد أن تغزو مصر؟ .

فأجاب : أغزو بلاد الفرس .

- وبعد بلاد الفرس ؟ .

- أغزو بلاد الهند

- وبعدها ؟ .

- بعدها أستريح

فقالوا له : ولماذا لا تستريح من الآن .. ؟ .

هذه هي إحدى قصص الأديب الإيطالي بوكاتشيو . وهي من أكثر

القصص دلالة على فلسفته في الحياة . فهو يرى أنه ما دام من الضروري أن

يعيش الإنسان ، فلماذا لا يعيش الآن وفورا ؟ ..

وبوكاتشيو ابن غير شرعى - مثل صوفيا لورين .

ولد في باريس ١٣١٣ ، أمه فرنسية وأبوه إيطالي . وبعد ولاته اختلف

أبوه وأمه معا فأخذه الأب إلى إيطاليا . والأب يعمل في التجارة . وكان

يطمع أن يكون الابن تاجرا . فكان فاجرا وهو كما ترى تغيير بسيط جدا في

الحروف ! .

وكانت للابن ميول أدبية مبكرة . حتى عندما حبسه أبوه في غرفة وربطه

بالحبال أصر الابن على أن يكون أديبا - وشعر بسعادة لا حد لها عندما

استطاع بخياله وأفكاره أن يهرب من هذه الجبال فلم تستطع الجبال أن تخنق خياله ولم تستطع الجدران أن تقتل أفكاره .

وبوكاتشيو هو أول كاتب قصة قصيرة في الأدب العالمي ..

له أول قصة في التحليل النفسي .. وأول قصة واقعية .. وأول قصة لها نهاية مفاجئة .. وهو أول من جعل نهاية القصص على شكل مفارقات .. ثم إنه مؤلف أشهر مجموعة قصصية في العالم كله وهي (الديكاميرون) .. وهي كلمة مأخوذة من اليونانية ومعناها (الأيام العشرة) أو (العشريات) ومن (جو) هذه (الأيام العشرة) أخذت القصص الثلاث التي صورت في فيلم (بوكاتشيو ٧٠) الذي عرض في مصر باسم (إغراء الأنثى) وهذه القصص المعروضة في الفيلم ليست من تأليف بوكاتشيو وإنما فقط على طريقته ومستوحاة من جو (الأيام العشرة) .

والأيام العشرة كتبها (بوكاتشيو) عندما اجتاح الموت الأسود أوروبا . وقضى على مدينة نابلي بالذات . وقد ماتت في الطاعون الأسود حبيبته ماريا إحدى حفيدات القديس توماس الاكويني .. كما ماتت حبيبة الشاعر الإيطالي العظيم بتراركة واسمها لورا : وهي إحدى جدات المركيز دي صاد الذي نسبت إليه كلمة «الصادية» أي التعذيب الجنسي الشاذ .

وتخيل بوكاتشيو أن سبع سيدات وثلاثة رجال قد هربوا من الطاعون إلى أحد البيوت .. وراح كل واحد من هؤلاء العشرة يروي قصة كل ليلة ولمدة عشرة أيام . فبلغ عدد القصص التي قيلت على سبيل التسلية مائة قصة . وكان من عادة هؤلاء العشرة أن يختاروا كل ليلة ملكا وملكة والملك هو الذى يختار موضوع القصص العشر . فتجىء قصص الليلة الأولى في المقابل مثلا وقصص الليلة السابعة في الخيانة الزوجية . وتجىء قصص الليلة العاشرة في الأساطير القديمة .. فالملك هو الذى يختار نوع القصص .. وقد جعل بوكاتشيو

حبيبته ماريا إحدى بطلات (الديكاميرون) وجعل اسمها فياميتا : أى الشعلة الصغيرة ..

والفتاة فياميتا هذه هى أيضا ابنة غير شرعية ..

فقد حدث خلاف بين ملك نابلى فى ذلك الوقت وبين أحد المواطنين على بنوة هذه الفتاة وأعلن الملك أنه منذ تسعة شهور كان على علاقة بأمها .. وأعلن المواطن الآخر أنه كان أيضا منذ ذلك الوقت على علاقة بالأم . وثار الملك ثم ثار المواطن وقال للملك : حتى لو كان لك بها علاقة فأنت عاجز عن أن تكون أبا .

وبعد سبعة عشر عاما من هذا الحادث رآها بوكاتشيو فى الكنيسة . وأعجب بها . ولما رآته أخفت وجهها . وأحس بوكاتشيو أن قلب الفتاة قد اهتز . فعندما يهتز قلب المرأة فإنها تغطى وجهها . وفى اليوم التالى عادت نفس الفتاة إلى الكنيسة . وقد غيرت لون ثيابها . فأدرك بوكاتشيو أنه قد تسلل إلى قلبها . فهذه الألوان دليل على أن المعانى التى تدور فى رأسها قد تغير لونها وطعمها . وكان بينها غرام عنيف . وتردد على بيتها . وأصبحت عشيقة له ولغيره . وجاء الموت الأسود وأخذها وعشرات الألوف من الفتيات الجميلات . وكتب بوكاتشيو القصص الجميلة على لسانها ومن أجلها وأحيانا ضدها .

فمثلا قصة الملك الذى علم بأن فتاة جميلة قد تركها زوجها وحدها : ذهب الملك لزيارتها وعندما رآها ازداد هياما بها . وفوجئ بأن هذه السيدة قد أعدت له عشرات الأطباق من طعام واحد ... لقد كان الطعام من الدجاج .. الدجاج فقط .. فسألها الملك ألا يوجد عندك ديك واحد؟ .. فقالت : لكن الدجاج هنا وفى كل مكان واحد .. لا فرق بين دجاجة ودجاجة .. وغضب الملك وأحس أنها تسخر منه وتوبخه وخرج غاضبا ..

ولكن هذه القصة تعنى أيضا أن بوكاتشيو : يرى أن كل الدجاج من غير ريش متشابه . ولا فرق بين واحدة سمراء وواحدة بيضاء وواحدة تحبها وواحدة تحبك .. وأن فياميتا هذه ، ككل النساء من غير ريش سواء .

ومن (جو) الجنس والاثارة والاعترافات العارية التي جاءت في قصص بوكاتشيو خرج فيلم (إغراء الأنثى أو بوكاتشيو ٧٠) .

وبوكاتشيو ٧٠ معناها لو عاش بوكاتشيو إلى سنة ١٩٧٠ لكانت له قصص شبيهة بقصص هذا الفيلم (ومن الصدف الغربية أن قصص الديكاميرون هذه قد نشرت لأول مرة في كتاب سنة ١٤٧٠ أى من خمسة قرون . وكانت قبل ذلك عبارة عن أوراق مكتوبة باليد يتناقلها الناس .. النساء خصوصا) .

والفيلم (بوكاتشيو ٧٠) هو أحسن نموذج لمدارس الإخراج الإيطالى . فالقصة الأولى واسمها (عذاب الدكتور أنطونيو) من إخراج فلينى . وهو الذى أخرج قصة (الحياة الحلوة) بطولة أنيتا اكبيرج أيضا .

وفليني من أنصار مدرسة : إن المخرج يجب أن يفرض الواقع على الناس بالقوة الجميلة .

وهذه القصة اشترك في تأليفها مع فليني أثنان آخران هما اينو فاليانى وتوليو بنلك .. وهى أجمل القصص الثلاث من ناحية الحوار واللعب بالألفاظ .. ومن تصوير مصور عظيم جدا هو أوتيللو مارتيللى .

إن هذه القصة تدور حول قصة مسيحية معروفة جرت أحداثها في مصر . وهى قصة القديس أنطونيو الذى عاش في القرن الرابع الميلادى هنا . وقد عاش راهبا . وفي يوم تعب من الرهبانية وقرر أن يعود إلى الحياة وخرج من صومعته .. وفي يده لقمة من الخبز . فصور له الجوع مائدة فخمة . فاقترب منها فهربت . وصور له العطش بثرا صافية . فاقترب منها فهربت .. ووجد أمامه قطعة من

الذهب . ولما لمسها ظهرت تحتها قطعة ذهبية أخرى . وتخيل نفسه ملكا يحكم الناس . وهنا فقط أحس بأن الذهب على شكل حيوان .. واقترب من هذا الحيوان فهرب . وأخيرا ظهرت له بلقيس ملكة سبأ . فأقبل عليها . وسارت أمامه .. كانت جميلة معطرة مثيرة . تناديه ويجرى وراءها . وتعثر في طوبة فسقط على الأرض واكتشف أنه كان واهما . وعاد إلى لقمة العيش . فأمسكها . ودخل بها صومعته .. وانتهت فتنة القديس أنطونيو بانتصاره على نفسه وعلى جسمه .

والقصة الأولى من هذا الفيلم هي صورة حديثة جميلة جدا لعذاب القديس أنطونيو .

فنحن أمام رجل متزمت جدا اسمه الدكتور أنطونيو .. وهي يرى الرذيلة في كل شيء ..

وهذه القصة تروى حكاية أوهاام تسلطت على رأس هذا الدكتور أنطونيو .. وهي أوهاام قوية . أقوى من الواقع . فقد حدث في أحد الأيام أن وضعوا إعلانا عرضه ٥٠ قدما للمثلة أنيتا اكبرج . وفوق الإعلان كتبت هذه العبارة : أشرب لبنا أكثر .

والصورة ضخمة وليست عارية . ولكنها مثيرة .

وهنا ثار الدكتور أنطونيو على الصورة وعلى الاعلان وفن الاعلان الذي يفسد الشباب . وثار على الموسيقى والتراتيل الوثنية حول هذه الصورة . وكتب ضد الاعلان وضد الشركة وحاول أن يمنع الناس بالقوة وأخيرا اقتنعت السلطات بأن تغطي هذه الصورة بطبقة من الصمغ لكي تحجب هذه الفتنة . والسلطات البوليسية التي لجأ إليها الدكتور أنطونيو مهتمة أيضا بالجنس ففي مكاتب رجال البوليس صور عارية وفيها سيدات بوليس جميلات جدا ..

وسقطت الأمطار وغسلت الصمغ وعادت المرأة المثيرة كما كانت ..
عارية .. مثيرة .. وتسلطت هذه المرأة على رأس الدكتور أنطونيو ، لدرجة أنه
كان يراها تجلس وتقف .. وتعري صدرها أكثر وأخيرا خرجت المرأة عن
الاعلان وراحت تطارده في الشوارع .. طويلة هائلة وراح يلعبها ويقول لها :
أنت ملكة سبأ .. أنت سالومي .. أنت كليوباترا .. أنت كل الشرور في كل
مكان .. أنت سودوم .. أنت عمورة ..

وسودوم وعمورة مدينتان وصفها الكتاب المقدس بأن اللعنة هبطت عليهما
بسبب الانحلال الأخلاقي .

وكانت المرأة الجميلة تطارده .. وتطارده حتى وقع على صدرها .. وأحبها
وسقط عند قدميها وأحب قدميها .. والأرض تحت قدميها ..

وينتهى الفيلم الجميل جدا باعتقال الدكتور أنطونيو وإدخاله مستشفى
الأمراض العقلية ..

فليس الفيلم إلا صورة لأوهامه هو .. أوهام حقيقية . فهو رجل يصرخ من
سيطرة الجنس على الناس وخوفه على أن يفسد كل الناس .

وأسلوب المخرج فلليني في هذا الفيلم هو أن يجعل الواقع قويا .. قويا حتى
ليحس به كل الناس . فالناس لا يستطيعون أن يدركوا كل شيء إلا إذا جعلناه
ضحكا هائلا صارخا .. وليس ذلك بسبب ضعف في عيون الناس .. وإنما بسبب
بلادة كل إحساسات الناس ؟ .

والمخرج فلليني هذا قد فاز بجائزة أوسكار عن فيلم (الشارع) وقد بدأ حياته
كاتب سيناريو مع المخرج روسليني الزوج الثانى لأنجرىد برجمان . واشترك معه في
فيلم (مدينة مفتوحة) وفليني شعاره في الإخراج : لا أنتظر الواقع ولكن أجعل

الواقع ينتظرنى . وأنا أهمس فى أذن الواقع لكى يصرخ بالحركة واللون والمعنى الصريح ..

أما القصة الثانية اسمها (الوظيفة) اشترك فى كتابتها : سوسو داميكو والمخرج فيسكونتى . ومن تصوير مصور عظيم جدا هو : جيسبه روتونو ..

ومعظم التحف واللوحات الموجودة فى هذه القصة قد نقلها المخرج من بيته هو ..

وكل أحداث القصة فى (الداخل) .. ومعظم الغرف لها مرايا والألوان هادئة لأن القصة تدور بين الرجل وامرأته .. أحد الأغنياء فى حياته العادية المملة ..

الممثلة بطلة القصة من أسرة كل أفرادها من الممثلين . فأمها ما تزال ممثلة فى مسارح فيينا وأبوها أيضا . وجدتها كانت ممثلة واسمها السينمائى رومى اشنيدر . وهى ألمانية ولدت فى فيينا وقد اكتشفها المخرج فى أحد مسارح باريس . وكل فساتينها من دار شانيل وقصة شعرها من تصميم الكسندر حلاق باريس المشهور . وقد اعتقله المخرج فى الاستوديو أسبوعين كاملين تقاضى عنها عشرين ألف دولار .

هذه أسرة غنية جدا .. الزوج ايطالى والزوجة ألمانية . يعود إلى بيته الفخم جدا فى نفس اليوم الذى تنشر فيه الصحف فضيحة أخلاقية له . فقد اكتشفت الصحف أنه على علاقة ببعض الفتيات .. نوع معين من الفتيات اسمهن : فتيات آلو .. أى الفتاة التى تطلبها بالتليفون وتعطيها عنوانك فتجىء لك مقابل مبلغ كبير من المال .. هذا الزوج دفع ألف دولار لإحدى فتيات الآلو . حاول الزوج أن ينجى هذه الفضيحة عن زوجته ..

احترار تماما .. ما الذى ستعمله الزوجة .. ماذا ستقول .. فقوجى بأن الزوجة

سعيدة جدا بما حدث لأن الذى حدث قد حل لها مشكلة نفسية عنيفة . حاول الزوج أن يقول لها إنه فعل ذلك بسبب الملل ليعود إليها زوجا .. فكأنه يعالج نفسه بنفسه بتعاطى بعض السموم لكي يكون صحيحا .. كأنه شجرة فاكهة لا بد أن تنبت من طين أسود لكي تكون ثمارها ناضجة ولو إلى حين ..

ولكن الزوجة لم تكن تنتظر هذا التعليل .. لم تكن تنتظر هذا العذر .. لقد صارحته بأنها عرفت عددا من الفتيات التى عرفهن الزوج .. لأنها شخصا معجبة بهن .. وما دام زوجها قد فضل عليها هذه الفتيات .. فلا بد أن تكون لهن مزايا خاصة .. ولكنها لا تعرف هذه المزايا الخاصة . إنها شابة جميلة وأنيقة .. ومع ذلك يخونها زوجها .. إذن ما هو الفرق ؟ .

اكتشفت الزوجة أن الفرق الوحيد هو أن زوجها يدفع لكل فتاة أجرا على الوقت الذى تقضيه معه .. وقررت الفتاة أن يعاملها زوجها .. مثل أى فتاة أخرى .. يكلمها فى التليفون ويقول لها : آلو وترد عليه وتقول آلو .. فى الطريق إليك .. الخ ..

وكانت مفاجأة للزوج . ولكنه حريص على إرضاء الزوجة الغنية جدا .. وطلبت إليه أن يحاسبها على كل المرات التى التقيا فيها منذ تزوجا . ووافق الزوج . وذهب ليحضر لها شيكا . والزوجة سعيدة فقد وعدّها أبوها إذا استطاعت أن تجد لها عملا لمدة سنة سيعطيها مبلغا كبيرا من المال .

وأخيرا وجدت الوظيفة .. وظيفة الزوجة والعشيقة فى نفس الوقت .. وجاء الزوج يدق بابها .. وفى يده الشيك . وعندما يدخل إلى غرفتها يجدها تبكى . وتنتهى القصة ..

وقد كانت نهاية القصة : دخول الزوج وفى يده الشيك . ولكن فى هذه الحالة تكون الزوجة شاذة لأن المتفرج سوف يشعر بأنها نوع ردىء من النساء ..

ولكن المخرج عاد وأضاف لها «لقطة» واحدة بقيت الزوجة وجاءت الدموع التي نزلت على خدها ، فمسحت كل المعاني الرديئة التي تراود المتفرج . هذه الدموع قد غسلت كل صورة كريمة لكل بنت ذوات قد ارتفعت بدموعها إلى أعلى من مستوى الزوج .. إلى مستوى الزوجة التي لها كرامة فأحست بالهوان . فلم تكن تتصور أن زوجها سيتصرف هكذا ..

ولكن عندما بكت أصبحت سيدة محترمة والمخرج فيسكونتي واقعي أيضا ولكنه لم يجعل الواقع يفرض نفسه بقوة . إنما هو شاعر واقعي فمن الممكن أن يكون الإنسان واقعا ورقيقا جدا .. فليس أسهل من أن تمتد يد الزوجة وتصنع زوجها بالقلم . وهنا يستريح المتفرج . وما أسهل أن يجعل المخرج هذا القلم يرن . ويرن ويكون له دوى في أذن كل رجل .

ولكن فيسكونتي يفضل أن يكون الواقع قويا وجميلا أيضا .. والجمال نفسه قوة .. ولذلك فشعار المخرج فيسكونتي : هو أنني أرفض قسوة الواقع وأرفض أن أكون قاسيا على الواقع .. إنني أفضل أن أتغزل فيه .
. والقصة الثالثة والأخيرة من إخراج دى سيكا وبطولة صوفيا لورين .. ومن تصوير نفس مصور القصة الأولى .

ودى سيكا وصوفيا لورين هما ثنائى جوائز الأوسكار والأفلام الإيطالية والعالمية الناحجة جدا ..

ودى سيكا هو أحد معالم الإخراج فى إيطاليا وهو ممثل مسرحى ممتاز وممثل سينمائى عظيم وهو كاتب السيناريو زفاتينى هما ثنائى المرتبة الأولى فى اختيار الكلمة وللمسة البليغة وهذه القصة من تأليف دى سيكا وزفاتينى . ودى سيكا أخرج فيلم (سارقو الدراجات) وزفاتينى هو كاتب الحوار والسيناريو .. وكان ذلك سنة ١٩٤٨ وأخرج دى سيكا فيلم معجزة ميلانو سنة ١٩٥١ .. وأخرج فيلم (أوبرطو .. د ..) سنة ١٩٥٢ وأخرج فيلم محطة روما فى نفس السنة أيضا وأخرج

قصة البرتومورافيا التي اسمها (امرأتان) سنة ١٩٦٢ وقد فازت فيها صوفيا لورين بالأوسكار كأحسن ممثلة على الإطلاق ..

وأخرج أيضا للفيلسوف .. سارتر (سجناء الطونا) سنة ١٩٦٣ وأخيرا أخرج أمس واليوم وغدا بطولة صوفيا لورين وحوار زفاتيني ..

وهذه القصة الثالثة اسمها (الرهان) بطولة هذه القصة وزوجة منتج الفيلم هي صوفيا لورين التي لم تتجاوز حياتها الفنية ١٢ عاما . وظهرت لأول مرة على الشاشة في فيلم اسمه (رواد الحب) وهي في هذه القصة فتاة جميلة بسيطة من نابلي لا تقرأ ولا تكتب وتعمل في إحدى مدن الملاهي المتجولة في وادي نهر البوي ايطاليا .

وتعمل في دكان لإطلاق البنادق على أرقام في لوحة . وهي اللعبة المعروفة باسم لعبة النشان . وبداية الفيلم تشبه بداية فيلم «ايرما الغانية» .. فهي سوق لحوم أبقار وجواميس بيع لحوم حيوانية، وبعد ذلك بيع اللحوم البشرية. وقد جرت العادة كل يوم سبت أن الذي يفوز في الرهان أو في اليانصيب يفوز بهذه الفتاة «زؤيه» . - أي صوفيا لورين - وكلمة زؤية هذه كلمة يونانية معناها : الحياة - وربما كانت هذه التسمية هي الشيء الوحيد الذي يذكرنا بالأديب بوكاتشيو .. الذي كان يستخدم الألفاظ اليونانية ، كما كان يفعل أدباء عصر النهضة في إيطاليا - وتوزع تذاكر الرهان على المواطنين . وكل وأخذ - طبعا - يتمنى أن يفوز بصوفيا لورين ليلة .. ويذهب الفلاحون لرؤية صوفيا لورين ويطلبون إليها أن تعرض أي شيء من جسمها ما داموا سيفوزن بها يوم السبت .. ولكنها ترفض .. وتقاوم . وتصر على أن اطلاق النار يستمر ويجرى سحب اليانصيب ويفوز واحد من رجال الكنيسة .. ويثور الناس على هذا المحظوظ ويذهبون في إحدى الجنازات ليزفوا إليه هذا النبا .. ويحاولوا أن يشتروا منه التذكرة ليحلوا محله .. ويرفض وتجري مزايادة على ثمن التذكرة .. ولكن رجل الكنيسة يرفض وتجيء أمه - أم رجل الدين - وتطلب إليه أن يذهب

وينبسط .. وفي هذه الأثناء ترفض صوفيا لورين ولكن زوجة صاحب العمل ترجوها .. وتقول لها : إننى حامل .. مريضة .. سأموت .. وتوافق صوفيا لورين . وتنتظر مجيء الفائز وهو رجل قبيح المنظر . بليد . جثة هامدة . ويدخل السيارة الكبيرة التى تعيش فيها صوفيا لورين . وهنا ترى المرارة والقرف والسخرية فى عيني صوفيا لورين . ولكنها فى نفس الوقت لا تدرى ما الذى تفعله . وتطلب إليه أن يقترب منها . ويقترب وتطلب منه أن يقبلها .. وفى هذه اللحظة تتحرك السيارة الكبيرة .. لقد ركب السيارة شاب كانت قد أحبته صوفيا لورين لأول مرة .. ويهرب بالسيارة . وتتساقط صوفيا لورين وهذا الفائز الغلبان . وسيارات المدينة كلها تطارد عربة اللذة هذه .. وفى مكان مهجور يتوقف السائق الوطنان .. وأمام عجز الفائز على أن يفعل شيئا ترفض صوفيا لورين أن تكون له .. وفى نفس الوقت بدلا من أن تأخذ كل ما معه من فلوس ، أى كل ما كسبه فى الرهان ، تعطيه كل ما عندها من فلوس .. فلوسها . وفلوس صاحب السيارة .. وكل ما كسبه محل النيشان من أموال . وتعدده بأن تعلن للناس جميعا أنه أمضى معها ليلة جميلة .. وشكرها رجل الدين .. وينزل من السيارة وأمام الناس بدأ يفك ياقة القميص والكرافطة وينكش شعره .. وكأن شيئا قد حدث ! .

ويحملة أهل المدينة على الأعناق ويدورون به فى الشوارع يهتفون للرجل البطل . وتعود صوفيا لورين - طبعاً - إلى الشاب الذى أحبته .. وتنتهى القصة والفيلم .

وصوفيا لورين فى هذه القصة ليست فتاة من (إياهن) أبدا . إنها لا تعرض نفسها على الناس .. إنها تخضع لقوانين اللعبة .. أى الرهان . وهى فى نفس الوقت لا تختار واحدا يتقدم إليها . وإنما قوانين اللعبة تفرض عليها المنتصر . الفائز . وهذه اللعبة ليست خاصة بهذه المدينة وحدها . وإنما هى لعبة الدولة كلها .. فى الدولة آلاف المسابقات والمراهنات . ثم إن صوفيا لورين فتاة

ساذجة ، سمعت كثيرا : أن الوصول إلى الهدف بأية وسيلة لا عيب فيه .
وسمعت أيضا : أن الألف جنيه الأولى هي أصعب شيء وبعد ذلك تجيء
الألوف من تلقاء نفسها . ثم إن صوفيا لورين عندما أعطت رجل الدين كل
أموالها هي ، وكل أموال صاحب العمل . قد أنقذت نفسها .. قد اشترت
إنسانيتها واستردت كرامتها . فهي ليست من (إياهن) وإنما فتاة عندها كرامة .
فهي ليست لحما يباع ولكنها تعيش في مجتمع كله منحل وهذا الانحلال له
قانون .. وقد انطبق عليها هذا القانون واستطاعت هي أن تقول للقانون : لا ..
وبفلوسها .

ودى سيكا هو من رواد المدرسة الواقعية في إيطاليا . وكل أحداث هذا الفيلم
تجرى في الشارع .. وفي الخارج .. فالقصة الأولى من الفيلم تجري في الداخل وفي
الخارج والقصة الثانية في الداخل كلها .. أما القصة الثالثة فكلها في الخارج ..

وشعار دى سيكا : هو أن أترك الواقع يتكلم إنني أستمع إليه . وأطيل
الاستماع والكلمة الأولى والأخيرة له .. ومهمة المخرج فقط هي أن يجرى وراء
الواقع ويرسم له فقط العلامات في الأرض .. فالواقع ليس إلا صورة . مهمة
المخرج أن يجد لها البرواز المناسب .

وكنت أتمنى أن يكون هذا الفيلم من أربع قصص . وتكون القصة الرابعة
للمخرج الممتاز أنطونيوني .. الذي أخرج فيلم : الليل أو الملل ، والمغامرة ..

وأنطونيوني هذا المخرج الذي يشعر بأن الإنسان - وخصوصا في المدن -
إنسان غريب .. والمسافة التي بينه وبين الناس .. متباعدة جدا . وأن مشكلة
الإنسان هي أن يكون على صلة بالناس . ولكن مهما حاول الإنسان .. فإنه يجد
الناس غير راغبين .. الناس في حالة ملل . إنهم يقرفون من أنفسهم . يقرفون
من الصلات والعلاقات ..

إن فلسفة أنطونيوني هي : أن كل ما ليس مرثيا عميقا يجب أن يكون ملونا .. وهو في .فيلم (الصحراء الحمراء) الذي ظهر له أخيرا قد جعل لون الدنيا كما يراها البطل والبطلة أزرق مثلا فكل مشاعر البطل لا يعرفها أحد . قد جعلها تنعكس على الدنيا حوله .. حتى هذا اللون ليس إلا رأيا يريد أن يقوله البطل .. ولكنه قرغان من أن يقول شيئا يائس من أن يكون له رأى .. إنه الملل نفسه . لو كانت هناك قصة جنسية رابعة لأنطونيوني لكان هذا الفيلم أعظم وثيقة فنية أهدتها إيطاليا للعالم كله ..

شعار هذا المخرج أنطونيوني وهو واقعي أيضا : أنا لا يطاردني الواقع ولا أطارده ولا أتغزل فيه ولا أستسلم له .. وإنما فقط أجعله يتشاءب .. تماما ككل الناس في بيوتهم وفي مكاتبهم .. إن كل إنسان لا يكاد يرى غيره .. حتى يتشاءب .. إنه لا يريد أن ينام .. وإنما هو فقط يتخذ من التثاؤب فرصة لكي يغمض عينيه حتى لا يراك .. وهذا الذي لا يريد أن يراه هو بالضبط ما أريد أن يخرج على الشاشة .. لكي يراه .. وتراه .. وأراكما معا ..

الحب له تاريخ وللمحبون له جغرافيا

- .. ما الذى يريد أن يقوله هذا الرجل فى كل أعماله الأدبية ؟ .
- لو سألته : هل تحب الحب ؟ .
- لأجاب : أكرهه ! .
- ولماذا ؟ .
- لأنه مضيعة للوقت .
- إذن ما الذى لا يضيع معه الوقت ؟ .
- الحياة .
- وهل يعيش الناس بغير حب .. ؟ .
- بل أن يكون الحب حياتهم ! .
- قصدك أن تكون الحياة حبيهم ؟ .
- هكذا أفضل .
- ما الفرق بين المعنيين ؟ .
- أنت تضيع وقتى فى مناقشات لفظية .. دعنى .. فأنا على موعد مع فتاة جميلة .
- أنت لا تستطيع أن تمنى ما لا تعرفه .. وما لا تحس به .. فالسعادة شعورى الشخصى ! .

- إذن .. هل أعتذر عن هذا التدخل في حياتك ؟ .
- من الأفضل أن تؤجل الاعتذار إلى ما بعد .. فليس عندي وقت يتسع للكلام .

- سؤال أخير قبل أن تذهب إلى محبوبتك : ألا يدور بينك وبينها كلام .. ألا نتحدثها عن نفسها .. وعن نفسك . هل تقسم بشرفك أنك لن تروى لها كلمة واحدة مما دار بيني وبينك ؟ .

- لا أستطيع . لأنني لا بد أن أروى لها ذلك ! .
- ولماذا ؟ .

- لأنني لا أكذب .

- فإذا لم تسألك عن شيء ؟ .

- سأجد نفسي أتحدث عما دار بيننا .

- لماذا ؟ .

- لأن المحبين يتحدثون عن كل شيء .

- عن السعادة ؟ .

- إنهم يشعرون بها فقط .

- عن الحب ؟ .

- إهم لا يتحدثون عن الحب .. إننا نحب فقط أما أنتم فتتحدثون عن حبنا ..

نحن شعراء الحب .. وكل الناس مؤرخون للحب ! .

- وهل شعراء الحب يكرهون تاريخ الحب ؟ .

- نعم .. لأن المؤرخين يكذبون .. وهم يخترعون قصصا لا نعرفها .. ويصفون لنا أسماء لا نحبها .. نحن نحب فقط .. هذا كل ما فعله .. أما الحب الذي له أول وله آخر .. وله قواعد وله مبادئ .. فهذا هو الحب الذي لا أحبه .. إنني لا أخضع لقاعدة .. ولا أعرف أحدا من الناس ..

ولا أراهم .. عندما أجلس .. إلى محبوبتي فليس في الدنيا غيرها .. عندما
أستمع إليها .. فالكون كله قد ابتلع لسانه .. لا همس إلا همسها .. لا صوت إلا
صوتها .. لا وجه إلا وجهها .. لا سعادة إلا معها .. لا زمن .. لا حاضر ..
لا ماض .. لا مستقبل .. لا تاريخ .

- ألا تلاحظ أنك رغم حرصك على أن تنطلق إلى محبوبتك قد بقيت معي
بعض الوقت ..

- لم أكن معك لحظة واحدة .. إنني معها .. فليس حديثي معك إلا حفلة
تكريم لها .. إلا تعميقا لشوق إليها .. إلا محاولة لأن أحفظ كل ما قلته أنت وما
قلته أنا لكي أرويه لها .. فالبعد عنها خطيئة .. والحديث إليها اعتراف دائم
بالذنب .. وأكبر ذنب أن أكون بعيدا عنها مشغولا بغيرها ..
- ومع ذلك تقول إنك تكره الحب .

- نعم .. أكره الكلام عن الحب .. لأن الحب حريق وليس دخانا .. لأن
الحب قلب حريص على أن ينزف ، وليس عقلا حريصا على أن يعرف !
هذه السطور من «مذكرات ضائعة صغيرة» للأديبة الإيطالية داتشيا
مارياني زوجة الأديب البرتو مورافيا .. والضياح في عنوان الكتاب صفة
للمذكرات .. والكراهية للحب هي التي جعلت بطلة القصة تستغرق في الحب
حتى تغرق .. دون أن تفتح فيها بكلمة كأنها تخشى على نفسها أن تصحو من
حبا ..

وإذا كانت الكراهية للحب قد جاءت سطورا أو صفحات قليلة في هذا
الكتاب ، فإن الأديب الفرنسي الكبير استندال هو الكاره الأكبر للحب .
وليست أعماله الأدبية المعروفة إلا تأكيداً لهذا المعنى . فقد صدر لاستندال كتاب
معروف اسمه «الحب» أو «شيء من الحب» منذ أكثر من قرن ونصف قرن .
ولكن هذا الكتاب قد أعيد طبعه أكثر من سبعين مرة . وأحدث نسخة لهذا

الكتاب قد صدرت في أوائل هذا العام . وفي المقدمة أن الأديب استندال (١٧٨٣ - ١٨٤٢) لا يزال جديدا . وأن لعناته التي صبها بأناقة على المرأة الفرنسية وعلى الرجل الفرنسي وعلى الحب نفسه ، ما تزال ذات دوى جارح .. واستندال لا يستعرض الحب لأن تاريخ الحب هو تاريخ الكراهية . وإن كان الحب قد عاش قبل الكراهية بدقائق فقط ! .

ولكن استندال يتحدث عن الحب في البلاد الأوروبية . وفي الشرق ، فهو - إذن- يتحدث عن جغرافية المحبين .. أشكالهم وألوانهم وأحجامهم وعطورهم وأزيائهم . وكيف يحبون وكيف يعجزون عن الحب .

وهو لا يتعب من الهجوم العنيف على المرأة الفرنسية .. فالرجل الفرنسي لا يملك إلا غروره ولذلك فهو يفضل المرأة التي تطارده ، على المرأة التي يطارها . فإذا طاردها فن الواجب أن يكون الاستسلام السريع مكافأة على ذلك . وأكثر النساء يرفضن أن يكن ضحايا رخيصات لرجل لا يملك إلا النفخة الكاذبة . ولذلك انتقم الرجل الفرنسي من المرأة الفرنسية فاتجه إلى الغانيات .. أو اتجه إلى المرأة الفقيرة التي طحنتها ضرورات الحياة ، ولم يتسع وقتها لكي تتعلم أو لكي يكون عندها كبرياء .. فهي شديدة الحيوية فقط .

والغرور الفرنسي يجعل الرجل لا يتحدث بصراحة عن رغباته الجنسية المتعطشة . فهو يرى أن العار هو أن يقول إنه جائع إلى شيء . ولذلك كانت الغانيات أسهل أنواع الطعام أما إذا رفضت إحدى الغانيات رجلا فرنسيا فلن ينسى لها ذلك . ولكن الذي يقوله لأصدقائه هو نوع من « الفشر » الذي يعرفه الرجال والنساء أيضا .. فهو يقول إنه هو الذي تركها عند قدميه .. وعندما نهضت اصطدم رأسها بالباب الذي أغلقه في وجهها بعنف ! .

وإذا كانت الحرارة الإيطالية والسماء الصريحة تذيب الجليد في إيطاليا ، فإن البرود والحزن هما شعار القلوب الفرنسية - وكل ما ينقص الإيطاليين هو أن

« يجدوا » الفرصة ولكن الذى ينقص الفرنسيين هو « الرغبة » فى انتهاز الفرصة !
وفرنسا هى « الصالون الأدبى » لأوروبا كلها .. ولذلك فالفرنسيون أساتذة
الكلام .. وفى البيت وفى الشارع وفى البرلمان .. ولكنهم لا يعرفون الشرف
الحقيقى . إنهم يعرفون الشرف الكاذب . فهم يخافون من الناس .. يخافون من
المجتمع . وهذا الخوف يجعلهم يذبحون ألوف القلوب الصغيرة على مذبح
الثروة . والفرنسيون يحبون الثروة وهم ضحاياها أيضا .

ويرى الفرنسى أنه من العار أن ينفرد بنفسه ، مع أن الحب هو وحده الذى
يجب العزلة . ففى العزلة يرى ويسمع ويقول ويحلم ويعيش مع محبوبته ! .
أما فى إيطاليا .. فالرجل الإيطالى لا يسأل أبدا : عن رأى الناس فى حياته
الخاصة . أو فى سعادته فالسعادة هى الفاكهة فى فمه والموسيقى فى أذنه والفتاة
بين أحضانها وهى اللحظة الحارة الخاطفة التى يجدها ..

ولكن الفرنسيين لأنهم يهتمون برأى الجار وجار الجار ، فن النادر أن
يتزوجوا عن حب لأن الحب فضيحة . وهم يخافون الفضيحة لأن الفضيحة هى
محكمة شعبية تصدر أحكامها على الناس كل لحظة . والفرنسيون يفضلون البراءة
الكاذبة على الجريمة الشريفة ! .

وأما إيطاليا فهى بلد الاستغراق فى الراحة ، تحت سماء صافية .. وكل الشاعر
مفتوحة لاستقبال كل ما هو جميل .. والإيطاليون يقبلون على الحب وهم
يعرفونه . فن المألوف أن تسمع فى إيطاليا من ينظر إلى أحد العشاق ويقول له :
سوف تتعذب شهرا أو شهرين ثم تستريح بعد ذلك ! .

وإذا كانت المرأة الفرنسية رائعة لمدة ثلاثة أيام ومروعة فى اليوم الرابع ،
فإن المرأة الإيطالية أروع من ذلك بكثير .. ومع المرأة الفرنسية لا تجد السعادة
وإنما تجد نوعا آخر من الامتلاء اسمه الشبع .. وليس بعد الشبع إلا الهرب ! .

وفي إنجلترا يتباهى الرجل الإنجليزي بأن زوجته مطيعة .. ولكن من الذى لا يمل عبدا مطيعا ؟ .

وأكبر دليل على أن الرجل قد مل طاعة الزوجة هو إسرافه في الشراب .. فالرجل الذى يسرف في الشراب هو رجل هارب من الروتين اليومي والطاعة البليدة . إنه يحاول أن يثير نفسه ليثور فيحطم كل ما حوله .. وأول ما يحطمه هو جمود السيدة حرمه . ثم إن هؤلاء الإنجليز يركبون خيولهم ساعات طويلة في اليوم . وبذلك فهم أصحاب سيقان قوية وقلوب جامدة . ولهذا فهم حريصون على أن تكون زوجاتهم أرق عودا ، وأنعم ساقا وأقل حركة ! .
والمرأة الإيطالية لا تحب المشى .. والذى تمشيه الإيطالية في سنة تمشيه الإنجليزية في أسبوع .

والإيطالية ليست في حاجة إلى المشى ، لأن ما تريده تستطيع أن تفعله وهي جالسة ..

والرجل الإنجليزي قد رسم لنفسه صورة في عين المرأة وهو لا يريد أن يخلع هذه الصورة لأنه حريص على أن يبدو مهذبا .. جنتلمان . ولذلك فالمرأة الإنجليزية تحرص على أن تكون مهذبة .. وأفضل لها أن تموت من العطش على أن تطلب كوب ماء .. وهي أيضا تفضل أن تحتفظ بفسطانها القديم ، كما يحتفظ هو ببنطلونه المرقع جيلا بعد جيل ، على أن تكون كالفرنسية التي تغير كل يوم فستانا والتي ترى أن منتهى العقل هو أن تمشى وراء الموضحة المجنونة ! .

ولابد أن هذا النوع من الحياة يناسب الإنجليز ، وإلا فما سر هذا العدد الكبير من العظماء في كل مجالات الفكر والفن والسياسة .. لابد أنهم سعداء - على طريقتهم - وأنا لا أحسدكم على ذلك .. فقد جاءت هذه العظمة من سوء فهمهم للحب والموسيقى ! .

أما في أسبانيا فقد ولد الحب ليكون أسبانيا .. ليتدمد تحت ظلال أشجار الأندلس ولينتشى برائحة البرتقال والليمون .. ولتعلق بالفساتين السوداء البسيطة وليخرج من الأكمام المزركشة ، ولتكلم من العيون الواسعة العسلية ومن الرموش الطويلة ، ولموت على الوجوه الشاحبة ..

إن الأسبان هم الشعب الوحيد الذى قاوم نابليون .. إنهم شعب لا يعرف إلا الشرف الحقيقى . فقد اقتسموا مع الفرنسيين الشرف : الشرف الحقيقى لهم ، والشرف الكاذب لفرنسا .

وإذا كان الفرنسيون يعيشون على الغرور ، والإيطاليون على الحب والكراهية ، فإن الألمان يعيشون على الخيال . فالألمان عندما يفرغون من مشاكلهم اليومية يتناقشون فى الفلسفة .

وأهم ما فى الفلسفة الألمانية هو الحماس والإيمان . والحماس لأى شىء وطنى . وأهم ما فى الوطنية هو المجد .

وقد حدث أن اثنين من الضباط كانا يقفان وراء مدفع . فانطلقت من جانب العدو قذيفة أصابت أحدهما . ففرح الآخر وقال : سوف أنال ترقية .

ولكن الضباط المصاب نهض قائلا : لم يصبنى .. إنها مرت بجوارى فقط . وحرص الضباط على الترقية ، قد أنساه الموقف الإنسانى .. وأنساه أن زميلا له وصديقا قد مات ! .

ولكنه المجد العسكرى ! .

وقد حدث أيضا أن رجلا قتل أحد منافسيه فى الحب .. وحكم بالإعدام على هذا الرجل فسارت الفتيات بالملابس البيضاء يلقين عليه الورد . لأنه أحب وأخلص وقتل فى حماس شديد ! .

وبسبب هذا الحماس والإيمان الشديد يظهر في ألمانيا عبقرى كل عشر سنوات ..

وإذا كانت الوصية السادسة من الوصايا العشر تقول : لا تقتل .. فإن الألمان يرفضون هذه الوصية من أجل الوطن ومن أجل مجرد الحماس والإيمان بشيء ! .
وإذا كانت القيود تشعل الحب فإن الحرية تخمده ، وهذا واضح في أمريكا ..

ففي أمريكا خمود عاطفى .. فالأب من الممكن أن يفاجأ بابنه الذى غاب عشر سنوات . ويستقبله ببرود كأنه انتقل من غرفة إلى غرفة ! .

وهذا الجمود العاطفى لم يقدم لنا كاتبا واحدا عظيما ولا شاعرا عبقريا ولا سياسيا فريدا . ولا موسيقيا خالدا ولا رساما ولا حبا عظيما .

إن السعادة ممكنة في أمريكا .. ويقول استندال : إنها سعادة ممكنة .. سعادة من نوع منحط من الاهتمامات الإنسانية . لا أستنكرها ولا أتمناها لأحد من الناس ! .

أما في سويسرا فيكنفى أن أضرب هذه الأمثلة العادية وعليك أن تعرف أى نوع من الحب والحياة الزوجية والعلاقات العاطفية يعرفها هؤلاء الناس ..

لقد شكأ أحد السويسريين من أن الثعالب قد أفسدت أشجار العنب فاقترح عليه أحد أصدقائه أن يشتري كلبا . فرفض الرجل بشدة قائلا : إن الكلب سيجعل بناتى عوانس .

ولم يفهم الصديق فسأله : ماذا تقصد ! .

فقال الرجل : إن وجود كلب فى الحديقة سيمنع الشبان من التسلل إلى نوافذ غرفة بناتى ! .

ويقال إن ضابطا كبيرا أعجبه فتاة جميلة فسالها إن كان يمكن أن يمضيا الليل سويا .

فقلت الفتاة : يجب أن أستأذن أمي .
وذهبت الفتاة إلى أمها . ووقف الضابط إلى جوار الباب يستمع إلى ما يدور بين الفتاة وأبويها .

فقلت الأم لزوجها : دعها تذهب . أنت تعرفه . أنه رجل وسيم .
وقال الأب : أعرف ذلك . ولكن كنت أفضل أن يكون لك أنت
يا عزيزتي ..

ومالت الأم تشكر زوجها على هذه التحية . ثم قالت للفتاة : اذهبي .. ولكن
احترسي من البرد ! .

وقال رجل سويسرى لصديقه الفرنسى : إن زوجتى سيدة فاضلة .. إننى
أعرف من هم هؤلاء الذين أمضوا معها ليالى الشباب .. ولكنها فضلتنى عليهم فى
النهاية ! .

أما الحب عند العرب فيرى الأديب الفرنسى استندال أنه أرقى وأعمق
ما عرفت الإنسانية من حب . وأن الغربيين يشعرون أمامه بأنهم بدائيون
وحوش .. فالعرب من البادية كانوا ينصبون خيامهم تحت السماء .. وفى عزلة
صافية يولد الحب العفيف . فلم تعرف الإنسانية أن أحدا مات من أجل الحب ..
أو أحب حتى مات إلا عند هؤلاء العرب .. عند قبيلة بنى عذرة ..

فأينما ذهب العربى البدوى فهو ضيف على كل إنسان .. فإذا كانت الصحراء
واسعة فإن قلوب الناس أوسع .. وإذا كانت الرمال كثيرة ، فكرمهم وسخاؤهم
أكثر ..

ولا أحد قد تفوق على العرب فى حياتهم البسيطة . وعلى عشقهم الصادق .

وأهم ما عثر عليه الفرنسيون في مصر وأتوا به إلى فرنسا وإلى أوروبا كلها كتاب «الأغاني» لأبي فرج الأصفهاني . ففي هذا الكتاب تاريخ الشعراء وحياتهم وقصائدهم وتاريخ المطربين والموسيقيين .. والغرب كله لم يكن يدري شيئا عن ذلك . وليس لديه مثل هذا كله .. والذي يشك في صحة هذه العبارات فليرجع إلى كتاب «الأغاني» وإلى كتاب «ألف ليلة وليلة» .. وليرجع أيضا إلى كتاب الشاعر التونسي المصري ابن أبي حجلة صاحب «ديوان الصباية» ..

ويتحدث استندال عن الشاعر جميل الذي أحب بثينة حتى الموت .. ولما سئل جميل عن سبب الحب حتى الموت قال ما معناه : إن نساء بني عذرة جميلات وشبابها أطهار ! .

وفي قبيلة بني عذرة مات ثلاثون من الشعراء العذريين بسبب الحب ! ومن أغرب قصص الحب أن واحدا أحب فتاة مسيحية ، وخاف ألا يلقاها يوم القيامة .. فغير دينه .. وخشيت هي ألا تلقاه يوم القيامة فغيرت دينها .. ومات الاثنان ! .

وفتاة أحب ابن عمها أيضا وطلبت من يرسم لها صورته وعلقت صورته . وترددت عليها كل يوم تقبلها وتبكي أمامها .. ولما مات الحبيب .. وجدوها ميتة إلى جوار الصورة ! .

ومن أبيات جميل في محبوبته بثينة :

هي البدر حسنا والنساء كواكب

وشتان ما بين الكواكب والبدر

لقد فضلت حسنا على الناس مثلاً

على ألف شهر فضلت ليلة القدر

والعرب هم أول من عرف الحب العذرى وهم أول من علم الإنسانية
كلها معنى الفروسية ومعنى الشهامة وأول من عرف أن الشرف هو أن يجب
الإنسان حتى الموت .

أن يجب بلا مقابل .

والمقابل الوحيد للحب هو الحب .

.. وإذا كان الحب جريمة اجتماعية فالموت الشريف هو العقوبة التي يدفعها
الحب راضيا سعيدا .

ولذلك كان الحب حياة عند العرب ، ولكنه تاريخ حياة عند الفرنسيين ! .

فارس فوق حصان يحترق!

هى نوع غريب من النساء : قوية وزوجها ضعيف أو فيها رجولة وزوجها فيه أنوثة .. أو هى تحب السيطرة وزوجها يحب الهوان .. فالكتب التى صدرت عن الإمبراطورة أوجينى كثيرة جدا .. سواء عنها كفتاة أسبانية أو كامبراطورة لفرنسا .

عندما أعطت يدها لقارئة الكف وهى فى الثانية عشرة من عمرها . قالت القارئة . سوف تعيشين مائة سنة . وتموتين فى الظل بعد أن تدفى أعز الناس عليك .. وقبل ذلك ستعيشين فى خطر وفى عظمة ! .

وكان رد أوجينى : المهم أن أعيش فى عظمة ! . وماتت أوجينى سنة ١٩٢٠ عن ٩٤ عاما . بعد أن دفنت ابنها الذى قتل فى حرب الزولو .. وبعد أن دفنت زوجها الامبراطور نابليون أيضا .. ولما ماتت هى دفنت فى نفس الكنيسة التى أقامتها فى بريطانيا .

وأصت أوجينى ألا يدفن أحد فى هذه الكنيسة ، ولم يدفن فيها أحد . وأوجينى دى موتيخو-وهذا هو اسمها الأسبانى- ولدت فى غرناطة. والدها كان

ضابطا في جيش نابليون الأول . أما أمها فهي ابنة القنصل الأمريكي في مدينة ملقة الأسبانية أيضا . ولسبب غير واضح أدركت أمها وأسرتها أن هذه الفتاة سوف تكون ذات شأن . الفتاة نفسها تقول ذلك . والأحلام التي تراها أمها في منامها تؤكد ذلك .. في المدرسة كانت هناك لعبة تشترك فيها الفتيات فكل واحدة تروى ماذا تريد أن تكون عندما تكبر .. وكان من عادة كل فتاة أن تقول : سأكون زوجة وأماً لثلاثة أو عشرة من الأبناء . وكان من عادة الفتيات أن يقلن ذلك وهن جالسات وقد أغمضن العيون خجلا .. أو تمثيلا للخجل . ولكن أوجيني كانت تقف على مقعد وتقول : أريد أن أتزوج شابا جميلا غنيا ثم أجعله ملكا على أوروبا كلها ! .

وكانت هذه النكتة التقليدية تتكرر كل سنة ! .

وانتقلت أم أوجيني إلى باريس .. ومعها أوجيني وأختها . وكانت باريس كلها تدور حول القصر الملكي حيث الثراء والقوة والأناقة .. وحيث الوجه الامبراطوري لفرنسا وأوروبا . وفي ذلك الوقت كان نابليون العاشق الزهوان لعدد كبير من الفتيات والسيدات الفرنسيات والانجليزيات . وكانت النساء يتسابقن على إرضائه ..

وعندما كان نابليون رئيسا لجمهورية فرنسا أقام حفلة فخمة .. وذهبت الأنسة أوجيني مع أمها .. وكانت في العشرين من عمرها . سمراء في لون الشاي والورد معا . وشعرها أسود طويل . وصدرها مرفوع – أو على الأصح مرتفع فقد كانت أوجيني أول من علم نساء أوروبا خلع السوتيان والكورسيه أيضا – وكثفاها ناعمتان مستديرتان .. وأصابعها ناعمة ملساء مسحوبة .. وكانت عندما تضطرب تنتفخ وجنتاها ويتحرك لسانها كأنها تحاول ابتلاع شيء في هدوء حتى لا يراها أحد .

ورآها نابليون . وسأل من هي ؟ قيل له فتاة أسبانية . قال : جميلة ..

قالوا : تحت أمرك . قال : أريد ذلك . قالوا : حالا .. وكان نابليون أسرع من الجميع . واتجه إلى الفتاة التي استمعت إلى قصص نابليون الأول وهي جالسة على ساقى الأديب استندال . كما أنها استمعت إلى مغامرات وبطولات نابليون الأول من الأديب مريميه عشيق أمها .. إنها مجنونة بنابليون .. أى نابليون .. ولمس الإمبراطور ذراعها .. وتحركت فى نفسها أحلامها .. إرادتها . وظن الامبراطور عندما رأى اللمعان الغريب فى عينيها أنها على مسافة خطوات من فراشه . ولكن الفتاة أكدت بهدوء قاطع أن المسافة بينها يشغلها كرسي العرش فقط .. واندھش نابليون .. ولكنه فى نفس الوقت كان سعيدا بهذه المقاومة .. إنها شىء جديد . إنه لأول مرة يشعر أن سلطانه لا يقوى على هذه الفتاة . ولكنه قادر على أن يخطفها بالقوة . وتحدثت باريس .. وامتلأت بالشائعات .. وقيل إن الفتاة صفتت نابليون على خده فى الظلام . وقيل إنه قبل يديها . وقيل إن سيدة ذهبت إليها فى الليل تهددها بالموت إذا اقتربت منه أكثر ! . ولكن أوجينى إلى جانب أنوثتها الواضحة جدا ، فيها رجولة خفية . فهى تقف منصوبة القوام . وهى تمشى بخطوات واسعة ناشفة . وهى عندما تمد يدها تفردھا على آخرها وتضغظ بأصبعها على اليد الأخرى وهذا كله غير مألوف . وعندما تركب الحصان فبلا لجام ! وعندما انتقد أحد النبلاء الانجليز طريقته فى ركوب الحصان . قالت : عندى رد على هذا النقد . ودخلت وأحضرت سكيناً وهرب النبيل الانجليزى .. وانتشرت الشائعات فى باريس أن المغامرة الأسبانية قد قتلت أحد الانجليز ودفنته فى حديقة بيتها . ولما سأها نابليون عن ذلك قالت : فى نيتى أن أفعل ذلك ! .

وفى إحدى حفلات نابليون .. اقترب منها الامبراطور ونزع غصنا من الياسمين ولفه حول عنقها . وتحدثت باريس . وقالوا : الامبراطور عانقها علنا . ويقال إنه عضها فى رقبتها أيضا ! .

وفي حفلة أخرى دخلت أوجيني مع أمها - وبجئت عن المكان المخصص لها . فجاءت إحدى سيدات البلاط وأجلستها في مكان بعيد عن نابليون ولاحظ الامبراطور ذلك . فذهب إليها وأجلسها بالقرب من أفراد أسرته . وأثناء العشاء مالت عليها إحدى السيدات تقول لها : ابعدي عنه . هذا إنذار نهائي . وكان رد أوجيني : وإذا لم أفعل . فعادت الأولى تقول : قلت لك ابعدي عن طريقه ! وكان رد أوجيني : بل قولي له يبعد عن طريقى ! .

وعندما استدعاها نابليون لترقص وجدها حزينة . فسألها : مالك ؟ قالت : أهانوني . قال : من هم ؟ قالت : جلالتك تعرف من الذى أهاننى . ولذلك قررت ألا يبيننى أحد بعد اليوم سأرحل . وقال : دون أن ترحلى لن يبينك أحد بعد اليوم . سأتزوجك ! .

وتسلل نابليون وأوجيني بعض الوقت وخرجت الفتاة الأسبانية من الظلام سعيدة .

ولاحظ نساء ورجال القصر أن شيئاً غريباً قد حدث لفستانها .. أنه تكرمش أو تكسر .. أو لم يعد مشدوداً كما كان . وأصبح الفستان الذى لا يلتصق بالجسم موضحة الامبراطورية .. إنه الفستان الذى لا يكثرث بالجسم .. أو الذى يحرر الجسم من قيود التزوى ! .

وعادت أوجيني إلى أمها في البيت لتقول لها : عندى خبر هام . أهم خبر في حياتك . معى رسالة من نابليون لك ..

وراحت تقرأ الرسالة :

« سيدتى مدام مونتيخو ..

« منذ وقت طويل أحب ابنتك وقد فكرت كثيراً في ذلك . ولا بد أن أتزوج وقد أصبحت امبراطورا لفرنسا وأريد أن تجلس جوارى على العرش فتاة

جميلة ذكية . ولم أجد أفضل من ابتك فأرجو أن تقبلي عظيم تحياتي
وامتتاني . والإمضاء طبعاً : نابليون ا .

وكان ذلك يوم أول يناير سنة ١٨٥٣ .. وملأت الأم بيتها بالزهور والورد .
وظلت ترقب من النافذة بجيء الامبراطور . ولم يحضر أول يناير . ومضى الثاني من
يناير في ضيق .. والثالث في ملل .. والرابع في قرف .. والخامس في توتر شديد ..
وجاء فرناند ديلسبس قريب الأم واقترح عليها أن ترحل بهدوء إلى أسبانيا ودون
إذن منه . أما عشيق الأم الأديب مريميه والذي كتب عنها قصته المعروفة «كارمن»
فكان من رأيه أن تبقى أوجيني في باريس . فالامبراطور سوف يقيم إحدى
الحفلات . ولا بد أن يدعوها . وأن يجلسها إلى جواره . وعليها أن تخبره بقرارها
وأنها في حاجة إلى شيء من الراحة .. وجاء موعد الحفلة .. وجاءت الدعوة .
وذهبت أوجيني وقد تعلقت في ذراع المليونير جيمز روتشيلد . وبدأ أكل من نساء
ورجال الحاشية في الغمز واللمز والهمس واللمس .. والسعال والعطس .. لقد
دخلت أوجيني في صمت في قلب مقطوعة موسيقية مهينة . ولكن الامبراطور
اقرب وسألها عن صحتها . واعتذر عن التأخير . وأكدت له رغبتها في مغادرة
البلاد . إنها لم تعد قادرة على احتمال النكت والأغاني الخليعة التي تسخر من
علاقتها به ..

وفي يوم ٢٢ يناير سنة ١٨٥٣ أعلن الامبراطور زواجه الرسمي منها .
وانخفضت البورصة ووقفت باريس على رجل . وأحس الفرنسيون بشيء من
الهبوط . فقد ضاعت النكت التي اخترعوها ضد أوجيني وأما الأغاني
والمونولوجات الساخرة فلم تكن تضحك أحدا من الناس . إن أهل باريس
قالوا إن الامبراطورة هي التي اختارت نابليون . وإنها وعدت بأن تجعله زوجا
مثاليا . وكان زوجا مثاليا لستة أشهر . وبدأ يعاود حياته العريضة من جديد .
ولكن الامبراطورة كانت قد تعلمت بسرعة فن الجاسوسية . فقد نشرت حوله

العيون والآذان .. وكان الامبراطور يندهش كيف كانت زوجته تعرف بالضبط ما الذى قاله الامبراطور فى كل لحظة من لحظات خيانتها لها .. وفى إحدى المرات قالت : لم أكن أتصور أنك تقبل الأيدى التى لا تضع عطرا بين أصابعها .. كنت أظن أنك تفضل الأيدى القذرة بين الرجال فقط ! .

وفى مرة أخرى قالت له : إذا كانت هذه المرأة لا تضع السوتيان فلا بد أنها تعمل هنا فى هذا القصر . فأنا أول من خلع القيد الشديد على الصدر . فمن هى ؟ .

وكانت فعلا إحدى وصيفات القصر وأنجبت له ولى العهد سنة ١٨٥٦ .. وكان من عادة نابليون أن يأخذ بعض الدوسيهات إلى فراشه وكان يترك الدوسيهات ملقاة على الأرض وينام . وتعلمت أوجينى أن تلبس الدوسيهات . وكان يضحك لهذا الاهتمام السخيف بالحكم وبالعدالة – وفى أحد الأيام فوجئ بعدد كبير من الرجال فى داخل القصر . وسأل : من هؤلاء الناس فقيل له : ضيوف الامبراطورة ! .

ودخل القاعة حيث يجلسون . واكتشف أن الامبراطورة قد استدعت عشرة من الخبراء تطلب إليهم أن يفهموها الميزانية . فهى تريد أن تفهم . وكانت أقدر على فهم شئون الحكم والإدارة والسياسة من الامبراطور . وكانت أعمق فهما للدين من الامبراطور وربما كان إيمانها الشديد بالكاثوليكية هو الذى جعل العلاقة بين التاج والفايكان أقوى وأهدأ . وكان من رأيها أنه من الصعب أن يكون الإنسان ملكا وأن يكون عادلا . فالعدل صفة من صفات الله .. والعدل شرف يدعيه الملوك .. أو العدل كالشرف يدعيه الملوك أيضا ! .

وعندما يغيب نابليون عن باريس كانت هى الامبراطورة . وقد حدث ذلك عدة مرات فى سنوات ١٨٥٩ و ١٨٦٥ و ١٨٧٠ ..

وأوجيني هذه ذكية جدا وعصية جدا . ولذلك فهي سريعة الملل . ومن المؤكد أنها هي التي علمت نساء القصر أن يتكلمن بسرعة . فهي تريد أن تعرف بسرعة وفي إيجاز ولذلك انتشرت موضة الكلام السريع بين النساء . وأصبحت الموضة أن تقول المرأة كلاما مبهما وعلى الرجل أن يفهم بعد ذلك . وهذه السرعة في الكلام والسرعة في ارتداء الملابس وخلعها .. قد دفعتها إلى التخلص من كثير من الأربطة التي تشد الصدر والخصر والأرداف .

وهي صاحبة العبارة المشهورة التي تقول : إن فستان المرأة يجب أن يكون مثل ستارة المسرح يعلو ويهبط كثيرا وبسهولة في كل يوم .. ١ .

أما المشروعات الاقتصادية فكانت صداقتها لأسرة روتشليد اليهودية هي التي جعلتها تتجه إلى الشرق الأوسط وإلى المكسيك أيضا .

ففي إحدى المرات فوجئت وهي تحمل مظلتها بشاب يتقدم منها . إنه شديد الأدب وجميل الملامح . وتذكرته فورا . إنه أسباني وكان أول من رقص معها في حفلة عيد ميلادها السادس عشر في مدريد . حدثها عن المجد الذي يمكن أن ينتظر فرنسا إذا بعثت بقواتها إلى المكسيك والقضاء على الفساد هناك .. وقال لها : إن نابليون الثالث يحمل اسم نابليون أيضا . ويجب أن تكون له أجماده التاريخية ..

ولعبت الفكرة برأسها طويلا . وانتقل اللعب إلى رأس الامبراطور .. وإلى رعوس عشرات القواد ...

وانتقل إلى المكسيك عشرات الألوف من الفرنسيين .. والمصريين أيضا . واحتلوا المكسيك . وكانت الكارثة الكبرى على فرنسا .

وفي المعرض الدولي الذي أقيم بباريس التقت أوجيني بالمستشار الألماني بسمارك ونظرت إليه بعين فاحصة . فسألها : مولاتي تأمر بماذا ؟ .

فقلت : بأى شىء تظن أننى سأمرك ؟ .
وأجاب بسمارك : بالجلوس .
فقلت : لا
وقال : بالوقوف .
قلت : بالمزيد من الحب بين الشعوب .
وضحك بسمارك قائلاً : أى بالانصراف .
وكانت الحرب بين بروسيا وفرنسا وأطاحت بالامبراطورية الثانية وهربت
الامبراطورة إلى إنجلترا .

ولحقها الامبراطور نابليون ومات هناك سنة ١٨٧٣ .
أما الاهتمام بالشرق الأوسط فقد استمعت إلى قضاياها ومشاكله من قريبها
فردناند ديلسبس . كان مع عروسه .. هو فى الرابعة والستين وعروسه فى
العشرين . وقد أنجب منها بعد ذلك اثنى عشر ولدا .

وبلغ اهتمامها فتنه عندما قررت أن تضىء إلى مصر لتشهد افتتاح قناة
السويس فى نوفمبر سنة ١٨٦٩ وجاءت إلى مصر يوم ٥ نوفمبر من الاسكندرية
إلى القاهرة . ثم اتجهت إلى الصعيد لتشهد آثار الأقصر وأسوان وكان يرافقها
الأثرى الكبير مارييت . وهو الذى شرح لها معنى وقوف المرأة المصرية القديمة
إلى جوار زوجها الملك ولماذا هى التى تحتضنه دائماً . « نفس الملحوظة أبدتها
الأديبة الفرنسية سيمون دى بوفوار عندما جاءت إلى القاهرة منذ سنوات »
وكان من رأى مارييت أن الرجل رجل .. أى أنه فى المقدمة وأن المرأة يجب
أن تتمسك به .. وعلى الرجل أن يحبها ويحميها . وفى تلك الليلة قررت أوجيني
أن تفعل شيئاً فأرسلت برقية إلى زوجها الامبراطور تقول له : إنها تحبه رغم
كل شىء . إن المرأة الفرعونية قد علمتها ذلك . وأنه من الممكن أن يتعلم هو
ذلك من الرجل الفرعونى .

أما الرجل الذكى الذى كان يحكم مصر فى ذلك الوقت فهو مختلف جدا عن الرجل الفرعونى وعن الامبراطور الفرنسى إنه الخديو اسماعيل الذى أقام للامبراطورة قصرا فى الزمالك - مكان فندق عمر الخيام الآن - وفى القصر بنى لها عرش غرام صغيرا . وكان الخديو يلداعها ويغازلها أمام كل الملوك والأمراء . وكان يقول لها : أنت فى رشاقة الغزال وجماله وحيويته .

وتساءلت الامبراطورة عن هذا الغزال .

وانتهز الخديو هذه الفرصة ليجعلها تتفرج على الغزال فى حديقة الحيوان ... ثم أتى لها بالغزلان فى قصرها لترى وجه الشبه بينها وبين الغزلان . واستراحت الامبراطورة إلى المعنى الجميل الذى قصده الخديو ... وعندما حدثها عن شفيتها وعن العطر الذى يفوح منها ، وعن أذنيها ، وعن عنقها ، وعن صدرها .. أما شعرها فإنه لم يجد له شبيها .. ورأت أوجيني أن الخديو كأى شرقى مبالغ فى كل شىء .. وأن هذا الإسراف فى المدح مثل أى شىء آخر .. إنه يشبه موائد الطعام الفخمة التى يقدمها لأربعين وتكفى ألوفا من الناس .

وفى إحدى الليالى بعث الخديو للامبراطورة أنه يريد أن يزورها فى قصرها ... وجعل موعد الزيارة ليلا .. وأدركت الامبراطورة أن الخديو قد تجاوز حدود اللياقة . فجمعت حاشيتها كلها من النساء وانتظرن الخديو . وتضايق الخديو اسماعيل .. واستمرت الزيارة نصف ساعة وخرج ولم يعد . ولكنه لم ينس . ولم يكف عن الإسراف فى المديح أيضا .

وفى الليل جاءها قسيسها الخاص واسمه باور وهو من أصل مجرى يهودى . وكان قبل ذلك رساما وموسيقيا وبچارا . وكان يعرف اللغة العربية أيضا . وكان يحدثها عن جمال المرأة المصرية . وكان شديد الأناقة لدرجة لاتلىق برجل الدين .. وقد شوهد هذا القسيس المعجب يعاكس الفتيات المصريات . وقد بلغ الامبراطورة ذلك .

ولما سأله قال : أريد أن أختار لك مجموعة من الفتيات لترى الجمال
المصرى الحقيقى .

ولم تسترح الامبراطورة لذلك .. ولا الخديو اسماعيل .
وكان القسيس اليهودى من أقدر الناس على قراءة الكف . فاستأذن
الامبراطورة فى أن يقرأ كفها . وقال لها : مولاتى يجب أن تعودى إلى فرنسا
حالا .. فهناك أنباء غير سارة تنتظرك .

وغضبت الامبراطورة . وطرده بأدب . ولكن بعد ساعة جاءت برقية من
الامبراطور يطلب إليها العودة فقد تضايق من سلوك الخديو اسماعيل . وتضايق
من أنها تبادت فى تشجيعه . وأن باريس تتحدث عن غرام جديد بين الوالى
المصرى والامبراطورة .

وعادت الامبراطورة وتوالت الكوارث على علاقتها مع الامبراطور .
وتأزمت الأحوال السياسية الداخلية والخارجية حتى كانت الحرب السبعينية
وتوالت هزائم القوات الفرنسية وخرج نابليون وخرجت الامبراطورة من فرنسا ..
وسارا فى الطريق الذى سار فيه نابليون الأول سنة ١٨١٥ .

وقالت أوجينى ما يقال فى هذه المناسبة : إن تاريخ فرنسا يعيد نفسه .. بل
لقد مضى على فرنسا قرن من الزمان وحكامها يهربون إلى الخارج .
وفى انجلترا نزلت أوجينى ضيفة على الملكة فكتوريا ثم قررت الامبراطورة أن
تكون لها حياة خاصة .

وكانت لها حياة خاصة .. وبعد أن مات زوجها وبعد أن قتل ابنها قررت أن
تبني لنفسها أحد الأديرة .. وتأوى إليه .. وتقدمت لها دور النشر تطلب
مذكراتها . وكانت ترفض قائلة : كل المذكرات كذب .. وأنا لا أحسن
الكذب .. ولذلك أترك هذه المهمة لعشرات الناس يكتبون ذلك ويقدرون
عليه ! .

وفي أحد أيام الدير ، فوجئت بالقسيس اليهودى وقد تزوج فتاة يهودية أصغر منه بأربعين عاما . وفوجئت مرة أخرى بأنه عاد إلى الديانة اليهودية وأنه يعمل فى بنك روتشيلد فى لندن ! .

لقد كان جاسوسا على الامبراطورة ! .

ويقال إن المذكرات الخاصة بالامبراطورة أوجينيى والتي نشرتها الصحف ثم كذبتها هى كانت من تأليف هذا القسيس اليهودى . ومعظم وقائعها صادقة ولم تشأ أن تكذبها ! .

وفي آخر أيام الامبراطورة أوجينيى كانت تتحدث كثيرا عن معاهدة فرساي سنة ١٩١٩ .. وعن رأيها فى المتفاوضين .. ثم أصيبت بشيء من الجنون . مما اضطر بعض رجال الدين إلى أن يغلقوا عليها الأبواب .. ولكنها كانت تصرخ وتقول : لا أريد أن أموت هكذا .. ضعوفى فوق ظهر حصان يحترق ! واتركوه يغرق فى المحيط ! .

وقبل أن يحترق الحصان .. اختفت الامبراطورية وظهرت الجمهورية . ولم تمت فرنسا .. وإنما مات وسقط وشنق حكامها ! .

وعندما كانت أوجينيى على فراش الموت طلبت أحد رجال الدين وسألته : هل أنت من أصل يهودى ؟

فاندهش القسيس وقال : لا .. وعادت تسأله : ولا زوجتك ! .

فقال : لا ..

قالت : اطلب لى الرحمة يا أبى ! .

وطلب لها الرحمة .. ثم نشر هذا الحديث ! .

ولاء كل عظيم: فناة مراهاقة

الفرنسيون الذين ثاروا من أجل الخبز ، فازوا بالقبلات . وكل شيء في فرنسا يبدأ بالقبلات ولم يحدث أن اتخذ أى عظيم قرارا قبل أن يأوى إلى فراشه الجميل . فإذا نهض من فراشه كان القرار جاهزا وكانت شريكته في الفراش هي صاحبة القرار .

ولم يحدث إسراف في الدم وفي القبلات كما حدث بين ١٧٨٩ ، ١٧٩٣ وهي كل أعوام الثورة والإرهاب . ففي مواجهة الخوف تعانق الناس . وفي مواجهة الموت تمسك الناس بالحياة وفي مواجهة الرءوس التي تتساقط من المشانق كانت تهتز قلوب النساء الصغيرات .

فالمرأة ترتعش أمام الدم ولا تتخاف منه . فهي تعرفه كل شهر . ولكن منظر الدم وإعدام الرجال كان يثيرها . وحول المشانق أقيمت حفلات الرقص .. واختلط الدم بالنيذ . وذابت الفوارق بين الرجال والنساء .. الفقراء والأغنياء .. العذارى والمحترفات .. في الشوارع والحدائق والسجون .. وكانت السجون هي أعظم مكان للمتعة . ففي السجون يلتقى أصحاب المبادئ ، ويلتقى الذين يريدون أن تكون لهم مبادئ .. ويلتقون جميعا في أحضان النساء .

وكل شيء كان يغلى في فرنسا .. الدم في عروق الناس .. والناس في حمامات الدماء .. وأعماق فرنسا تطفو على السطح .. والغانيات أكثر الناس وضوحا وأعلاهن صراخا وأكثرهن مطاردة للجيوش في كل مكان .. وجاءت

الثورة الفرنسية فأعطت للغانيات شرف المبادئ ، وشهادة الوطنية . وأ
الرديلة أسلوبا سياسيا ..

وابتداء من ثورة ١٧٨٩ أصبحت كل ثورة تمرذا ناجحا ، وأصبح
ثورة فاشلة .. وعندما تكون ثورة يتحرر الناس من القيود .. وتحررت
قيود الجنس والعائلة وشرف العائلة .. وأحس كل فرنسي أنه لكي
فرنسيا ، ويتشرف بالانتساب إلى فرنسا ، لابد أن يكون خبيرا في
فالذي لا يعرف كيف يجب كثيرا ، ليس فرنسيا والذي لا يعرف أ
امراة . إحداهما زوجته ، ليس فرنسيا .. ويوم يشعر الأب أن أح
لا يعرف إلا امرأة واحدة ، فإنه يتعجل زواجه وإذا تزوج فإنه يتعجل
لزوجه .. فإذا خانها شعر بالارتياح ومضى هو أيضا إلى سرير الخ
ولذلك من الطبيعي أن يكون الرجل الذي اسمه دوق أورليانز تعيس
علم أن ابنه الأكبر ليست له تجارب .. وهذه إهانة لفرنسا . وإهانة
المالكة الفرنسية . فهذا الدوق هو رئيس مجلس البلاط وهو الحاكم
لفرنسا . وليس بعيدا أن يكون ابنه ملكا بعد ذلك فكيف يكون ملكا و
فرنسيا أصيلا .. ولذلك قرر الدوق أن يبحث عن طريقة عملية ليك
رجلا وبسرعة .

وفي يوم ٢ مايو سنة ١٧٦٦ أرسل أحد رجال القصر إلى دار الأوبرا
رسالة موجهة إلى راقصة عمرها ١٥ سنة اسمها : روزالى . وقيل إن هذ
ذات شأن خطير في فنون الحب . وقد سمع الدوق عشرات من قصصها
من شباب البلاط .

وفي اليوم التالي وقفت روزالى هذه أمام القصر المالكي . فرآه
الحراس . وقبل أن يسألها قالت أنا على موعد مع الدوق .. إنه ينتظرنى .
الحارس إلى وجهها وانزلق إلى صدرها وقبل أن يقول كلمة واحدة كانت

قد دخلت القصر . واتجهت إلى غرفة الدوق .
ووقف الدوق وانحنى . وسلم وقبل يد الفتاة - أقصى درجات الأدب
والرقة - وقال لها : أنت تعرفين لماذا استدعيناك ! قالت الفتاة : لا أعرف .
ولكن في استطاعتي أن أقوم بأية خدمة تراها . قال الدوق : إنها مشكلة ابني .
لا يعرف شيئا من متعة الحب . وأنا مستعجل جدا . وكل شيء بضمن . وإذا
نحجت أعطيتك ما تريد .

وبكل ثقة واضحة طلبت الفتاة أن ترى ذلك الشاب الذي سيغير ملامح
التاريخ الفرنسي . وفرح الدوق . واستدعى ابنه الأمير فيليب . الذي اشتهر بعد
ذلك باسم فيليب بطل المساواة .

واختفى الأمير والفتاة في إحدى الغرف . ولم تضع روزالي وقتها . وبدأت في
الدروس العملية للحب .. ولا بد أنها وجدت صعوبة أول الأمر . لكن تلاشت
الصعوبات بعد ذلك .. درسا درسا . ولعبة وراء لعبة ..

ولم يمض سوى أسبوع حتى جاءت الفتاة تطلب المكافأة وقال لها الدوق أنا
أعرف قدراتك الخارقة .

وبدأ الدوق يرقب الأمير من بعيد وشعر بالسعادة . واستراح إلى مستقبل
ابنه . ولما لاحظ الدوق أن ابنه قد أسرف جدا في الشهور التالية قرر أن يزوجه
بسرعة واختار أبوه إحدى الأميرات من حفيدات الملك لويس ١٤ من عشيقته
مدام مونتسبان . وكانت هذه الفتاة من أسرة غنية جدا . وتم الزواج يوم ١٥
أبريل سنة ١٧٦٩ . إذن لقد أصبح الأمير زوجا . ومن الطبيعي بعد ذلك أن
ينجون زوجته .

وتم الزواج بالطريقة التقليدية التي كانت معروفة في ذلك الوقت : دخل
العروسان في غرفة النوم ونزع الاثنان ملابسهما تماما وتمتددا تحت اللحاف . وجاء
أفراد الأسرة المالكة يشهدون هذا الزواج . وجاء رجال الدين يباركون العروسين

ويدورون حول السرير.. ويتعاقب العروسان وسط ضحكات أقارب العروسين.. وبعد ذلك يغلقون على العروسين الباب. وتبدأ الحياة الزوجية.. وفي اليوم الثالث للزواج ذهبت العروس مع زوجها إلى دار الأوبرا. لاحظت أن عددا كبيرا من الفتيات يرتدين الملابس السوداء. وسألت زوجها: ولماذا تجيء النساء بملابس الحداد إلى الأوبرا!

ولم يشأ زوجها أمير المساواة أن يقول لها إن هؤلاء الفتيات عضوات في جمعية «الأرامل المرحات» وهذه الجمعية تضم عددا من شبان باريس يتزعمهم الأمير فيليب. وهؤلاء الشبان يشربون ويرقصون ويمارسون ألوانا شاذة من الحب كل ليلة. وقرر أعضاء الجمعية أن يذهبوا إلى الأوبرا ليروا زوجة الأمير. لكي يقيموا في الليل حفلة تأبين حمراء - حدادا على زعيم الجمعية!

وبسبب هجر الأمير المستمر لزوجته، وبسبب ما أصابه من إرهاق شديد، لم تكن زوجته تنجب أطفالا فقررت الزوجة أن تستحم في مياه أحد الينابيع التي اشتهرت بأنها تملأ البطون بالأطفال. وذهبت الأميرة واستحمت وحملت. وأنجبت طفلا. ودخلت القصر إحدى الوصيفات لتعنى بهذا الطفل. وتعلق الأمير بهذه الوصيفة. وبسرعة أصبحت إحدى عشيقاته. وكانت هذه العشيقة من هواة الأدب والشعر - وكانت زوجة - ولكنها رأت أن تحقق أحلامها ومثلها العليا عن طريق هذا الأمير. وكانت هذه الفتاة ثورية وكانت ساخطة. وملأت الأمير بالسخط على الأسرة المالكة..

وكان هذا الأمير شخصا غريبا فقد كان في نية الطبيعة أن تجعله رجلا كامل الرجولة ولكنها غيرت رأيها في منتصف الطريق. ولذلك حاول أبوه أن يعدل مسار الطبيعة وأن يفرض عليه الرجولة فرضا.. ونجح أبوه إلى حد كبير. ثم جاءت هذه العشيقة التي تبلغ الثامنة عشرة من عمرها وقررت أن ترتبط به وأن تغير به وجه تاريخ فرنسا. وكانت هذه العشيقة على صلة دائما بالمعارضين

للملك . وكانت تعطيهم شعارات مثيرة . وكانت تقرأ عليهم صفحات من فلسفة روسو . وكانت تندس بين المتظاهرين . وكانت تنقل إلى الأمير كل متاعب الشعب . وأصبح هذا الأمير رمزا للساخطين وزعما للفقراء . وهجرت العشيقة زوجها وهجر الأمير زوجته . وعاش العاشقان معا يكتبان المنشورات ويوزعانها .. ونفاه الملك . ولكنه عاد مرة أخرى .. ولم يكده يعود إلى باريس حتى كانت الثورة الفرنسية قد استعرت نيرانها في كل مكان . وعندما حاولت العشيقة أن تجعل منه شهيدا شتقوه ..

وكان الملك لويس ١٦ هو أحد الذين عجلوا بقيام الثورة الفرنسية فقد كان ملكا ضعيفا من كل الوجوه وقد تزوج وعمره ١٦ سنة . وزوجته ماري انطوانيت عمرها ١٥ سنة . وكانت زوجته قوية الشخصية . وكانت مخلصمة لوطنها النمسا . وكانت تتلقى تعليمات بلادها من السفير النمساوي في باريس . وقد عرفت منذ البداية أن زوجها ليس إلا منظرا ولذلك لم تضيع وقتها فقد كان لها أصدقاء من ضباط الحرس الملكي . وكان لها عشيق دبلوسي سويدي اسمه فرسن . وماري انطوانيت هي صاحبة الجملة المعروفة : لماذا لا تأكلون الكعك - قالت هذه العبارة الخالدة يوم ثار الشعب يطلب الخبز، فظننت بحسن نية وبلاهة ملكية أن الشعب قد زهق من الخبز ويريد طعاما آخر أو لعلها رأته أن الشعب يجد الكعك ويريد طعاما آخر.. ولذلك أمرت بأن يأكلوا الكعك بالقوة ولم تكن تعرف أن الشعب لا يريد تغيير الخبز وإنما يريد تغيير الذين يأكلون الكعك ! .

وتحت ضغط الشعب الجائع كان لابد أن يهرب الملك والملكة . وهنا يظهر عشيق الملكة فهو الذي أعد العربة وهو الذي أعد جوازات السفر الروسية المزورة عن طريق عشيقة روسية وعند الحدود انكشفت الحيلة . وعاد الملك والملكة إلى باريس . والذين رافقوا الملكة سمعوها وهي تقول : مسكين حبيبي أرجو ألا يكون قد وقع في أيديهم ! .

وحبيبها لم يكن الملك طبعاً ، وإنما هو هذا السويدي الذي قتله الشعب في السويد بعد ذلك بعشرين عاماً .

ولما عادت الملكة إلى باريس وعرفت أن حبيبها قد نجح بالسلامة فرحت الملكة وأقامت حفلة ساهرة صاحبة ونامت حتى الصباح في أحضان رئيس الحرس الملكي ! .

وتم تنفيذ الإعدام شنقاً في لويس السادس عشر في يناير سنة ١٧٩١ .. وفي الملكة في أكتوبر من نفس العام . ويقال إن لويس السادس عشر كان أكثر شجاعة يوم إعدامه مما كان عليه يوم زواجه .

واستمر الغليان في باريس .. وذابت الفوارق بين الناس . وساحت الناس أيضاً . وانفتحت الأرض تحت أقدام الفرنسيين فخرجت من الشقوق الاجتماعية ألوف الغانيات وتحولن إلى ثوريات وأصبحت الرذيلة نوعاً من الهدايا تقدمه النساء للشبان المحاربين . وكانت القوات الثورية تتابعها معسكرات الفتيات اللاتي يبذلن أجسامهن من أجل الثورة الفرنسية . وكانت الزوجات يتابعن الأزواج . ولذلك كانت هناك خيام للزوجات قريبة من معسكرات الجيش . وكانت مشكلة صعبة وتحولت المعسكرات إلى فضائح فالرجال لا يريدون زوجاتهم . وفي نفس الوقت لا يستطيعون أن يهربوا إلى العشيقات ..

وتراجعت النساء أمام قرارات عنيفة أصدرتها الثورة الفرنسية وتفرغ الرجال للعشق وتفرغت النساء أيضاً . وهربت العشيقات من معسكرات الجيش وعدن إلى الحياة الناعمة في باريس . ويقال إن فتاة واحدة قد أقامت خيمة بالقرب من أحد المعسكرات . وأطلق الجنود على هذه الفتاة اسم سيدة الأربعين ألف رجل .. وماتت هذه السيدة قبل أن تكمل الألف رجل ! .

وكان من المألوف أن تمشي النساء وراء الرجال إلى أي مكان . وأن يكون الحب في أي وقت وفي أي مكان . وقد حدث أن عانق أحد زعماء الجمعية

الوطنية فتاة في إحدى الغرف .. ولم يسترح بعض الأعضاء لذلك . وكان رد الزعيم : إننا لم نقم بالثورة إلا من أجل هذا .. فلا فارق بين هذه الغرفة وأية غرفة أخرى - فكلها فرنسا الحرة ! .

وزعماء الثورة الفرنسية كانوا شبانا . وكانت نار الشباب تلسعهم وتكوى بهم الفتيات أيضا .

فالناثر الرهيب « مارا » كان قد درس الطب في إنجلترا . ومارسه في فرنسا . ولما قامت الثورة الفرنسية قرر أن يتجه إلى السياسة . ورأى أن السياسة هي طب الشعوب . والثورة هي حمامها الساخن ونارها المطهرة . وتحول بسرعة إلى صاحب صحيفة اسمها « صديق الشعب » وفي هذه الصحيفة كان يطالب بمزيد من الدماء والقتل . وكان يقول إن هناك مئات الرعوس يجب أن تطير قبل أن يستريح الشعب . فالشعب جسم سليم ورعوسه مريضة مختلة .

وكان لا بد من اعتقاله .. فهرب واختفى في الغابات . وفي كثير من البيوت .. وفي إحدى المرات أوصته عشيقته بأن يذهب إلى بيت إحدى قريباتها في باريس . وذهب ودق الباب . وكانت الفتاة الصغيرة تعرف ذلك . عمرها ١٧ سنة . وأحبها . وأحبته وكانا عشيقين ، وكان يملئ عليها مقالاته . وكانت تذهب بالمقالات إلى المطبعة وفي يوم من الأيام قرر الاثنان أن يتزوجا . وأمام النافذة المفتوحة وتحت شعاعات الشمس التي تتسلل من وراء الأشجار قال لها : أنت زوجتي على سنة الطبيعة .

ولكن خصوم مارا يطالبون بإعدام هذا « الألماني » السفاح . لأنه من أصل ألماني . ولكنه مضى يطالب بالكثير من الدماء . ويرى أن الدماء هي الماء الطبيعي الذي يروى الأفكار ، الدم هو النار السائلة التي ينضج فيها الوعي الشعبي ..

وفي هذه الأثناء جاءت فتاة من الريف . فتاة في أحد الادييرة ولم يكن مسموحا

في ذلك الوقت أن تدخل الدير فتاة عذراء. فالدير للزوجات النادمات وللأرامل. ولكن الملك أصدر مرسوما بإدخالها الدير. وخرجت من الدير بعد أن كرهت هذه الحياة. وبعد أن وجدت أن الأديرة لا تختلف كثيرا عن شوارع باريس. وكانت هذه الفتاة من أنصار الملكية. ولكن ليست من أنصار الملك. وكانت تقرأ باستياء شديد كل مقالات الزعيم السياسي مارا.. وقررت أن تفعل شيئا يريحها. وأخبرت والدها أنها سوف تهاجر إلى إنجلترا. وسافرت إلى باريس واشترت سكيما من أحد المتاجر. وعرفت عنوان مارا. وذهبت لتدق الباب فتعرضها زوجة مارا قائلة. ولماذا تريدن المواطن مارا؟.

وقالت الفتاة واسمها شارلوت كورداي : عندي أخبار تهمه .
وقالت الزوجة : إنه مشغول الآن .. ولا يقابل أحدا .

وخرجت شارلوت لتكتب له خطابا بالبريد . وتقول في خطابها إن لديها معلومات عن بعض الثوريين الهاربين في شمال فرنسا ، وكان موضوعا يشغل بال الزعيم مارا . وبعد يومين عادت شارلوت تدق الباب واستمع مارا إلى المناقشة الصاخبة بين زوجته وبين شارلوت وقال : دعها تدخل ا .

ودخلت شارلوت .. ووجدت مارا جالسا في حوض به ماء ساخن . فقد أصابه مرض جلدي . لا علاج له إلا بالماء الساخن . وكان في نفس الوقت يكتب إحدى مقالاته . وألقى عليها نظرة شرهة وفي نفس الوقت متسائلا : إن كان من الممكن .. وقالت الفتاة : من الممكن أن أكون عشيقتك . إنه شرف عظيم يا سيدي ا . واستراح مارا إلى ذلك . ثم سألها وهو لا يرفع عينيه عن الورق المنشور أمام صدرها وماذا عندك من أخبار .. اذكرى أسماء هؤلاء الناس وأنا سوف أشنقهم جميعا ..

ومد يده إلى القلم ليكتب أسماءهم . وأخرجت السكين من صدرها وأغمדתه بعنف في صدره وصرخ مارا وهو يقول : تقتليني أنا يا حبيبتى ؟

وجاءت الزوجة وبعض الجيران . بينما وقفت شارلوت تنظر من النافذة وهي تقول : أعتقد أنني أرحت الشعب الفرنسي من هذا السفاح ! .

وفي المحكمة سأها القاضي إن كانت قد تدربت على القتل . فغضبت شارلوت وقالت : إنك تصورنى على أنني سفاحة .. إننى قاتلة فقط ! .

وفي المحكمة يجلس رجل قد جن حبا بشارلوت ، ولم يكذب يسمعها تتحدث بهذه الشجاعة حتى قال : بل إننى أفديك يا أجمل فتاة فى فرنسا .. حياتى من أجلك .. اشنقونى بدلا منها .. أخيرا وجدت لحياتى معنى .. أخيرا أستطيع أن أدخل التاريخ ! .

وذهب هذا الرجل إلى السجن .. أما شارلوت فذهبت إلى المقصلة . وقبل أن ينفذ فيها حكم الإعدام قالت للجلاد : بل دعنى أتفرج على المقصلة فأنا لم أرها قبل ذلك ..

وشنقوها .. وجاء دور الرجل الذى أحب شارلوت .. وشنقوه وهو يهتف بحياة الفتاة التى تمنى أن يكون خادما لها .. أما أن يكون زوجها فهذا كثير .. وشنقوه ! .

ولكن مقتل مارا وشنق شارلوت .. أضافا نارا ودما إلى شوارع باريس .. وتعددت الحفلات الراقصة وأسبلت براميل النيذ . وتعالى صرخات النساء على كل الرءوس التى تسقط حية أو ميتة ..

وسهرت باريس أياما متواصلة بعد أن مات الزعيم ميرابو .. وكان رجلا قوى الشخصية .. خطيبا فصيحاً . وهو صاحب العبارة التى تقول : إننا لن نبرح هذا المكان إلا على أسنة الرماح ، وكان يقول هذه العبارة متحديا لإرادة الملك . ولم يستخدم الملك الرماح . وإنما بقى أعضاء الجمعية الوطنية مجتمعين فى

مكائهم . ولكن ميرابو هذا كان منافقا عظيما وكان ينفق من جيب الملك . وكان الملك يتولى بانتظام تسديد ديونه ..

وسمع الناس أن ميرابو مريض . وفوجئ الناس بأنه مات وكان موته فرصة عظيمة لتشرب باريس وترقص وتضحك وتقيم حفلات مجنونة اسمها : ليالى ميرابو ..

أما كيف مات .. فقد كان عاشقا لاثنين من راقصات الأوبرا وكلتاها فى الثامنة عشرة . وقرر ألا يفضب الاثنتين . وقرر أن يسعد بهما فى ليلة واحدة وفى فراش واحد .. (الخدو اسماعيل مات أيضا وهو يضع فى فمه زجاجتين من الشمبانيا ويقال إن الملك فاروق فعل ذلك !) .

وإحدى الفتاتين اسمها مدام لومباى . أما أوصاف هذه السيدة الصغيرة فقد وردت فى كتاب اسمه (فهرس بأسماء نساء باريس) .. أما أوصافها فهى : ناعمة البشرة صدرها له مستقبل . عينها تفيان بالوعد . شفتاها مدربتان .. ثم أنها فرنسية بعد ذلك . وتتقاضى خمسة جنيهات ..

ولم يتهم البوليس أحدا بقتل الزعيم ميرابو .. ولم يكن هذا الذى حدث لميرابو شيئا شاذا وإنما هو يتمشى مع أحسن التقاليد الثورية المعروفة فى ذلك الوقت وهو أنه من الصعب أن يتخذ إنسان قرارا قبل أن ينام مع فتاة جميلة ..

وأخذت باريس تتسلى فى وقت فراغها بين إعدام زعيم وزعيم بقصة جاءت من لندن عن إحدى عشيقات الملك الأسبق وهى مدام دى بارى . هذه السيدة سرقوا فلوسها . وانزعج الفرنسيون فهم لم يعطفوا على السيدة التى سرت منها مجوهرات تساوى مليون فرنك . وإنما أدركوا أنه من الضرورى أن تكون المرأة عشيقة لتكون غنية . وأن صاحبة هذه المجوهرات يجب أن تحاكم وأن تعدم

وهربت هذه السيدة إلى لندن لتقيم في أحد قصور عشاقها . وكان القصر (مسكونا) ببعض الأرواح الشريرة . وفي إحدى الليالي تشجع صاحب البيت عندما رأى شبحا في الظلام ولكنه استمع إلى صوت يقول : أنا أحبك يا حبيبتى ..

وجاء صوت آخر : بل أنا التي أحبك يا أعز الناس .. يا أجمل خائن على الأرض ! .

وكان هذا هو صوت زوجته وهجم الزوج على غرفة مقفلة فوجد زوجته وعشيقها ولم يكن هذا الشبح الذي ظهر ثانی يوم زواجه ، إلا عشيق الزوجة .

ولما سمعت مدام دي باري قصة الزوج المسكين تركت البيت وهي تقول : إن الفرنسيين ليسوا في حاجة إلى أن يكونوا أشباحا ليخونوا زوجاتهم .. وإن الأشباح في فرنسا هم الأزواج فقط .. إنني قررت أن أكون شبحا .. دعني أسافر إلى باريس ..

وسافرت لتكون قصتها هي الشبح الذي يطارد الأزواج في باريس .. وسهرت باريس على قصة الأشباح هذه . وظهرت رقصة جديدة اسمها رقصة الأشباح .

وفي ذلك الوقت كان حكم الإرهاب في فرنسا قد بلغ قمته عندما تخلص الزعيم روبسبير من كل خصومه .

وكان روبسبير شخصا عنيفا دائما . وكانوا يسمونه بالرجل الطاهر . أو الرجل البكر . فهو لم يعرف فتاة في حياته . وقد قرر ألا تناله فتاة . وكان هذا الرجل أمل كل فتاة . لأنه كان صعبا أو لأنه جعل نفسه صعبا ..

وفي إحدى المرات هرب من البوليس .. وتصادف في ذلك الوقت أن عاد الملك لويس السادس عشر من الحدود إلى باريس ووقف روبسبير من النافذة

يقول : هذا الرأس سوف يكون له شأن .. لا بد أن يطير بعيداً عن فرنسا .
وعندما نزل إلى الشارع اتجه إلى أحد البيوت . وسألته صاحبة البيت :
هل أنت روبسبير؟ أجاب : نعم . قالت : إننى أقدم لك بيتى إذا أردت
أن تختبئ فيه .

واختبأ روبسبير فى بيتها . وكانت لهذه السيدة ابنة جميلة جدا . عمرها
عشرون عاما . وأقام فى هذا البيت ثلاث سنوات عشيقا للأم وللإبنة معا .
وفى إحدى الليالى استمعت الأم إلى صرخات فى الغرفة التى ينام فيها
روبسبير . وذهبت إلى الغرفة تسأل : أيها المواطن روبسبير : هل تصرخ من
الأم ؟ .

فأجاب والباب مقفل : بل إنه كان كابوسا ، وتسلمت السيدة بسرعة إلى
فراش روبسبير . بينما تسلمت ابنتها من تحت السرير إلى خارج الغرفة ! .

وعندما عرفت هذه الأم أن روبسبير شقوه انتحرت .. والمؤرخون لا يعرفون
بالضبط إن كان الزعيم الثورى عشيقا للأم أو لابنتها أو للائتين معا .. إن انتحار
الأم هى آخر محاولة لها لتؤكد أنها هى التى كانت تحبه وهى التى كانت عشيقته !

بل إن السجون الفرنسية كانت من أعجب مسارح الحياة فقد كان هناك
سجون للنساء وسجون للرجال . وكانت القضبان الحديدية تفصل بين الاثنتين .
ولكن من المألوف أن تم القبلات والعناق بين هذه الحواجز الحديدية .. وكثيرا
ما نزعت النساء ملابسهن وتعرين تماما أمام عيون الرجال وكثيرا ما أدت الرشوة
إلى جمع الرعوس فى الحلال والحرام بل لم يكن هناك حلال وحرام بل كان كل
شئ حلالا ! .

وكانت النساء لا يتوقفن عن مطاردة الرجال والأزواج فى كل سجن ..
حتى إن أم الشاعر لامارتين كانت تتدرب على القوس والسهم لكى تتمكن من

إرسال خطاب إلى زوجها في السجن ثم راحت تتدرب على تسلق الجدران لكي تدخل إليه من النافذة .

وعندما صدر قرار بأن المرأة الحامل لا ينفذ فيها حكم الإعدام رفعت النساء في السجن شعارا جديدا نريد أن نعيش .. نريد أن نعيش .. نريد الحب من أجل الحياة ! .

وحملت جميع النساء في السجن ومن السنة الأولى من الثورة الفرنسية بلغ الانحلال أقصى درجاته . وتقدمت بطلب الطلاق من نساء باريس ٨٣٧٠ واحدة من بينهن ٥٩٩٤ زوجة حامل ! .

وكان الشعب الفرنسي ضحية لفلسفة روسو التي تطالب بالعودة إلى الطبيعة وأن يعمل الإنسان كل ما هو طبيعي بصورة طبيعية . وجريت باريس كيف تكون الحياة الطبيعية انحلالا طبيعيا . ولذلك عادت الثورة الفرنسية وأمسكت بروابط الأسرة . وأصدرت القوانين التي تخدم الحياة الزوجية . وتحترم حرية اختيار الزوجة . ووجوب صيانة البيت . وجعلت عيدا للأسرة .. وعيدا للأزواج . ودخل الفرنسيون في مرحلة الحب والزواج . أو الزواج القائم على الحب . أما الخيانة الزوجية فقد توارت لتكون سرا مخجلا . وأحس الفرنسيون أنه من الممكن أن يكون الإنسان مهذبا في كل وقت .

تماما كما حدث عندما تقدمت العشيقة الشهيرة مدام رولان من المقصلة فلاحظت أن الجلاد قد تقدمها خطوتين . فقالت له : ألسنت فرنسا كيف تمشى أمام سيدة .. حتى لو كانت ذاهبة إلى الموت ! .

وحرص الفرنسيون على أن يكونوا مهذبين في الحب والغيرة والحرب والسلام والحياة والموت .. ومن الغريب جدا أن الفرنسيين لا يفرقون كثيرا بين هذه الكلمات جميعا . فهم يرون أن الحب كالحرب وخير وسيلة للدفاع هي الهجوم ..

وأن الذى يجارب يستمتع بسلام واحد هو أنه بعيد عن المرأة . ولكن البعد عن المرأة هو البعد عن الحياة . والحياة هى أن يموت الإنسان فى المرأة لا لأن المرأة شىء عظيم . ولكن لأن هذا النوع من الموت شىء لذيذ ! .

وئيقه زواجه كانت أعجبها

كانت صديقات نابليون بالملئات وعشيقاته بالعشرات ..
وكانت له ثلاث زوجات . إحداهن أكبر منه بأربعين عاما .
والثانية أكبر منه بست سنوات والثالثة أصغر منه بثلاثة وعشرين
عاما ..

ومغامرات نابليون ممتعة ومثيرة ومسجلة بتفاصيل دقيقة جدا
في مئات الألوف من الكتب . فقد شغل نابليون الدنيا في أوائل
القرن التاسع عشر . وكان أقوى رجل في عصره . وكانت
مغامراته صارخة وجريئة وعلى كل المستويات ومن كل الفئات :
النبيلات وبنات الشعب . ولكن معظم مغامراته كانت بين
الممثلات والمطربات وفتيات السيرك .

وكان نابليون يلتقي بنفسه على الفتيات في أول حياته . وكان قادرا على
الأحاديث الهامسة والغزل العنيف وله خطابات من نار .. ولكن بعد أن أصبح
ضابطا منتصرا انهارت أمامه المدن والدول .. وانهارت النساء . وإذا كانت في
حياة نابليون العسكرية هزيمة اسمها واترلو .. فليس في غرامياته واترلو واحدة ..
فهو عشيق لم يعرف الهزيمة ..

ولكن مشكلة نابليون كانت أن النساء لا ينسين أبدا أنه بطل وأنه قوى وأنه
مخيف . وكان هو يحرص على أن تنسى كل امرأة أنه قائد منتصر ، وأن تذكر

فقط أنه رجل . وأنه ساحر وأنه جميل - ولم يكن جميلا - وكان يحاول أن يتصرف كرجل عادي .. كذئب . كان يفتحم البيوت ويتسلق النوافذ ولكن ملابسه العسكرية وأمجاده لا تحتفى عن عيون النساء ، ولذلك كان نابليون يروى مغامراته لأصدقائه وحاشيته وكان يرويها للنساء أيضا . ويؤكد بهذه المغامرات أنه رجل .. وأن قوته في رجولته .. ولكنه هو وحده الذى يقول ذلك . وهو وحده الذى كان يدفع النساء على أن يتنافسن عليه لا خوفا من قوته ولا طمعا في ماله . ولكن لأنه أقوى الرجال .

ولأن إحدى الأرامل قالت عنه « إن كل شىء فيه رجل » قرر أن يتزوجها . هذه السيدة هي جوزفين وقد ترك لها زوجها الأول ولدا وبنتا .

وقد أعجب نابليون بالمرأة التى وصفته بأنه رجل .. ولم يخطر على بالها أبدا أن نجمه صاعد وأنه قائد ولكن نابليون كان يشعر بوضوح أنه رجل اليوم والغد لفرنسا كلها . وكانت أناقة جوزفين أوضح من رشاقته . ولكنها امرأة تدربت على الحب فى مجتمع باريس الملتهب .. وكانت جوزفين بارعة فى إخفاء عيوبها .. وكانت قادرة على أن تتكلم كأنها تغنى .. ونابليون كأى إيطالى له أذن موسيقية وكثيرا ما طلب منها أن تقول له أى شىء .. وكان يداعبها قائلا : المعنى لا يهم الصوت فقط .

وإذا كان طلاق نابليون من جوزفين والعثور على قسيمة الطلاق فى الإسكندرية شيئا غريبا فإن زواجه منها كان أكثر غرابة . فقد قرر نابليون فجأة وبسرعة أن يتزوج جوزفين ، واستدعى ثلاثة من جنوده واثنين من أصدقاء جوزفين وذهبوا جميعا إلى العمدة . وظلوا ينتظرون نابليون ساعة بعد ساعة . ولم يحضر ونام العمدة . وكان الجو باردا والأمطار غزيرة وبعد منتصف الليل جاء نابليون وأيقظ العمدة وتم الزواج المدنى . وذهب الشهود كل واحد منهم إلى طريق . أما سبب تأخر نابليون فهو أنه كان مشغولا فى تزوير شهادة ميلاده .. فقد جاء فيها أنه ولد ببارس فى حين أنه مولود فى جزيرة كورسيكا ، وادعى أنه

في الثامنة والعشرين . مع أنه في السادسة والعشرين ، أما جوزفين فقد ادعت أنها في التاسعة والعشرين مع أنها في الخامسة والثلاثين .

وقرر نابليون أن يبدأ شهر العسل فوراً .. وكان لابد أن يقسم سريره مع عروسه ومع كلب صغير . وحاول أن يقنع العروس بأنه لا داعي للكلب .. وعندما عضه الكلب في قدمه هزت جوزفين رأسها كأنها تقول : بل لا داعي للعريس .

وضحك العروسان ولكن الكلب أخذها جد فقد أصر على أن ينام في مكانه الذي اختاره .. بين العروسين .

وفي الصباح الباكر حمل نابليون خرائطه الحربية في عربة تجرها خيول لاهثة متجها إلى إيطاليا وكان ذلك بداية زحف الملايين الذي لم يتوقف إلا في هزيمة واترلو .

هذا الزواج عقده نابليون مرة أخرى عندما قرر تتويج نفسه امبراطورا على فرنسا . وزوجته امبراطورة طبعاً وكان قد مضى على زواجها ثمانى سنوات . وهنا قررت الزوجة أن يكون زواجاً شرعياً لا مدنياً وتم الزواج طبقاً لتعاليم الكنيسة . ودون شهود أحد من رجال الدين ..

وفي اليوم التالي للتتويج دخل نابليون يستدعى زوجته لتشهد شيئاً غريباً . وخرجت الزوجة لترى المحامي الذي كانت قد ذهبت إليه منذ ثمانى سنوات تستشيريه في الزواج من الضابط الصغير الذي اسمه نابليون وجاء رد المحامي من الباب الذي لم يكن مغلقاً : لا تتزوجي رجلاً لا يملك إلا سيفه .

ولم ينس نابليون هذه الإهانة .. وكتبها في نفسه ثمانى سنوات .. ولما وقف المحامي مذهولاً أمام الامبراطور سأله نابليون . ألا تزال ترى أنني لا أملك إلا سيفي ..

ولم تقل لنا كتب التاريخ ما الذى قاله المحامى أو الامبراطور لكن لا بد أن الصدمة أحرست الاثنين : ولم يفكر نابليون فى طلاق جوزفين أبدا . ولكن زواجه من جوزفين التى تكبره فى السن جعله يتجه إلى الفتيات الصغيرات . فقد أحب ابنتها التى تزوجت أخاه بعد ذلك ولم يكن هذا الحب بريئا . وفى منفاه الأخير أحب ابنة الحارس وكان عمرها ١٥ عاما وكان هو يكبرها بسبعة وثلاثين عاما .

وضاقت الامبراطورة بظهور فتيات كثيرات .. وحاولت أن تمنعه .. وفشلت ولم يتوقف ..

وقد همس فى أذن نابليون بعض أقاربه بأن جوزفين مسرقة جدا . وأنها مدينة بملايين الفرنكات للتجار والمرابين .. ولم يكن نابليون يهتز لهذه الهمسات فقد كان يحبها وكان يحبها أنيقة . بل هو وحده المسئول عن أناقة وفخامة البلاط والقصور فى عصره ولكن بعد تنويجه بدأت فرنسا كلها تتحدث عن الوريث للعرش . وبدأ يحس هو بأن زوجته غير قادرة على إنجاب الأطفال . أما هو فقد أنجب كثيرا من الأطفال غير الشرعيين .. وزوجته قد أنجبت هى الأخرى من زوجها الأول .. فالعيب فيه هو . وقد حاول نابليون أن يؤكد لنفسه أن العيب ليس منه .. وكانت تسعده الأنباء التى تقول له بأن عشيقاته قد أنجن منه .

وعندما عاد من رحلته إلى مصر كانت زوجته مدعوة إلى عشاء فى بيت أحد المرابين . ولكن أم نابليون وإخوته قد تجمعوا فى قصره ينتظرونه . وقد اتفقوا على شىء واحد ، وعلمت الزوجة أن نابليون قد عاد . فتركت المرابي وجاءت فى عربتها تحلم بالعناق الطويل الذى يذيب خطاياها وقسوتها عليه وكم ذابت عيوبها وذاب نابليون فى أحضانها . وكان فى نية جوزفين أن تصل إلى غرفتها لتكون فى استقبال نابليون قبل أن تنطلق عليه بطاريات الحقد الثقيلة من أمه وإخوته . وكان عددهم ثمانية . وقد سبقها نابليون إلى القصر .. واستمع منهم إلى فضائحها وخياناتها وحقاقتها وديونها .

وأمر نابليون أن تحزم حقائبها كلها فوراً . وأن تلتقي أمام الباب . وقرر أنه لا بد أن يطلقها وانطلقت أخوات نابليون ينقلن النبأ السعيد إلى كل باريس . وجاءت الزوجة واتجهت إلى غرفة نابليون .. ووجدتها مغلقة ودقت الباب . وبكت وكانت كثيرة البكاء .. ولكن الصمت ابتلع دقائق الباب بنفس السرعة التي ابتلعت بها السجاجيد دموع الإمبراطورة وجاء ابنها وجاءت ابنتها وتضاعف الطرق على الباب . وانفتح الباب وانفتحت ذراعا الإمبراطورة واختفى فيها الإمبراطور .. واختفى الاثنان وراء الباب .. وخرج ابنا الإمبراطورة وصدمت باريس ..

ولكن كان لا بد أن يبحث عن وريث ووجد نابليون في ابن أخيه وريثاً . وهذا الابن هو حفيد جوزفين . وثار الابن وثار الأخ والأخوة والأخوات والأم ورجال البلاط .

وانتجبه نابليون إلى مغامرات أخرى كثيرة .. في قصره وخارج القصر .. وعادت الأميرة البولندية التي أحبها نابليون إلى باريس تؤكد له أنها حامل .. وأكدت له عشيقته أخرى أنها حامل .. وكان نابليون يتلمس جرحاً في قدمه وجرحاً في صدره على أثر محاولة اعتداء فاشلة .. وراح يتلمس العرش الذي يجلس عليه . إنه عرش بلا وريث .

وذهب نابليون واستدعى ابن زوجته وكان ضابطاً في الجيش وأخبره أنه مضطر إلى أن يطلق أمه وطلب إليه أن ينهي إليها هذا النبأ بسرعة وبكى الابن وجاءت أخته وانهارت وجاءت الإمبراطورة ولم يستطع نابليون أن يخبرها بهذا النبأ .. وإنما أخبرها نبأ آخر هو أن يمضياً شهر غسل جديد وسافر الاثنان إلى الشاطئ وكان نابليون يداعبها وكان يلقي حذاءها وجواربها في الماء ويطلب إليها أن تعود إلى العربة حافية القدمين وكان يقول لها : كثيرون الذين رأوا أصابع يديك ولكنهم لا يعرفون كم هي جميلة أصابع قدميك ..

وعانى نابليون بعد ذلك شهوراً من القلق والعذاب والحيرة . إنه يحب

جوزفين . وهو في نفس الوقت لا يريد أن يطلقها . ومضطر إلى ذلك وأخيرا جاءها وزير الداخلية ليتجراً على أن يهمس في أذنها كلاماً لا بد أنه أمر من نابليون . قال لها : من أجل فرنسا يجب أن تضحى بزواجك ..

وأصبح واضحاً أن الامبراطور قد اتخذ هذا القرار . وانهارت الامبراطورة وسقطت وحملها أحد الخدم ومن ورائها نابليون يحمل مصباحاً . وفي حفل عائلي ألقى نابليون خطاب الطلاق ووقفت الامبراطورة التي اعتادت على البكاء الكثير تلقى كلمة بلا دموع . فقد رأت الدموع الكاذبة في عيني نابليون وإخوته وقالت : من أجل فرنسا أضحي بهذا الزواج . ولكن سأظل صديقة للامبراطور . فأنا مدينة لعطفه بحياتي .

وانسحبوا جميعاً واتجهت الامبراطورة لترجع أمام نابليون ويودعها إلى الباب لتموت بعد ذلك بعشر سنوات .

أما وثيقة الطلاق فقد وقعتها جوزفين أولاً .. وكان نابليون آخر الذين وقعوها وبلغ عدد الامضاءات أكثر من الأربعين ..

وبعدها تزوج نابليون من أميرة نمساوية ولم ير صورتها .. وقد أنجبت له ولداً .. أو أنجبت ولداً .. ولا أحد يعرف إن كان ولده هو ! .

ومذكريات نابليون بعد ذلك تقول لنا : إنه أحس يوم زواجه بخرج وخجل وكأنه يرتكب جريمة أو يتستر على جريمة .. أما يوم طلاقه فكان جريمة بالفعل ..

هدية لكل امرأة عندها طموح!

من المؤكد أن المرأة نسيت أن تضحك على هذه النكتة الطويلة وهي : أن الرجل يحكم العالم .

وأن الرجل هو الذى صنع القانون ليطبقه على المرأة وليهرب هو من عدالته .

وأن المرأة هي الجنس اللطيف والرجل هو الجنس العنيف .

وأن وراء كل رجل عظيم امرأة . كل هذه نكت تاريخية ..

فليس صحيحا أن الرجل هو الذى يحكم العالم ، بدليل أنه يجلس فى مناصب الوزراء والساسة والقادة . مع أنه من الممكن أن يكون هناك حكام أقوى ولكن لا تراهم .. فالمرأة هي التى تحكم الرجل بالفعل وإن كان ذلك ليس واضحا أمام عيون كل الناس .. فليس صحيحا أن وراء كل عظيم امرأة ، وإنما الصحيح هو أن وراء كل عظيم وكل حقير امرأة .. وأكثر من امرأة .

ولم يكن قيصر يضحك عندما قال لابنه الصغير : أنا أحكم العالم وأمك تحكمنى وأنت تحكم أمك - لقد كان جادا وحزينا ! .

ومن الممكن أن توضع هذه العبارة فى معناها الصحيح لو أننا قلنا : أنا أحكم العالم وأنت تحكمنى وأمك تحكمنى وأمك تحكمنا نحن الاثنين ! .

والمرأة تعلم بغريزتها أن الرجل طفل مغرور ، وأنه مغرور لأنه قوى ولأن المرأة تقول عنه ذلك وتريده أن يكون قويا . ولكن عندما يصبح الرجل شيخا ، فإنه

يكون عنيدا . فالعناد هو غرور الضعيف والغرور هو عناد القوى . ولكن الرجل في جميع الحالات طفل عندما تكون هناك امرأة بالقرب منه ! .

هذه هي المعاني التي حاول أن يتبعها كاتب فرنسي ذكي ظريف اسمه موريس بارديش في كتاب ممتع بعنوان «تاريخ المرأة» في ٤٠٠ صفحة . فدرس في الحضارة الصينية القديمة وفي الحضارة الفرعونية وفي بابل وآشور وعند اليهود وفي بلاد الفرس والهند وعند الاغريق وعند الرومان وفي العصور الأولى المسيحية وفي الجاهلية ثم في الإسلام .

وقد لاحظ منذ السطور الأولى أن تاريخ المرأة قد كتبه الرجل على هواه . وهوى الرجل هو الذي أضع حق المرأة في الحياة الكريمة .. والتاريخ نصفه أحقاد والنصف الآخر تخمينات ولذلك لم يبق للمرأة شيء يمكن أن نهتدي إليه .

ومنذ اللحظة الأولى يجب أن نرفض أن المرأة قد عاشت «عبدا» للرجل . وأن تاريخها ليس إلا حلقات من الرق والعبودية .. ليس هذا صحيحا . فتاريخ المرأة متنوع ومختلف باختلاف العصور التي عاشت فيها مجتمعات الرعاة والصيادين والفلاحين والعمال .

ومهما اختلفت العصور فقد كانت هناك حياة زوجية . وكانت هناك زوجة واحدة معظم الوقت . فقد نجحت المرأة في أن تفرض هذا النظام وأن تصونه حتى الآن ..

والتاريخ القديم لا يؤكد لنا تفوق الرجل على المرأة ، وإنما يقطع بتفوق المرأة على الرجل . وبراعتها في كل عمل طلب إليها أن تؤديه . ففي بلاد الصين كانت المرأة هي التي تصنع الأنسجة الحريرية يوم كان

الحريير هو العملة المتداولة . فكأنها هي التي تصنع العملة وهي التي تكسبها .
وهي في نفس الوقت قوة وعصب المجتمع الذي عاشت فيه .

وكانت هناك في بلاد الصين أمهات يحرسن المدن في مواجهة العدو .
وظل الرجل - الزوج - غريبا عن الحياة الزوجية . بل كان من المستحيل أن
يبعث الرجل في بيت الزوجية . ولم يكن له حق الوراثة .. ومن الممكن أن
تصبح المرأة ملكة وأولادها أمراء ، ويظل الزوج خفيا . وهذه القوة التي
اكتسبتها المرأة جعلتها تقرر أن يكون لها أكثر من زوج .

وقد ذكر الاسكندر الأكبر أنه رأى نساء محاربات في آسيا . وأنهن في غاية
الشجاعة .

ولم يضعف سلطان المرأة في بلاد الصين إلا اكتشاف المعادن كالبرونز
والنحاس فمن هذه المعادن صنع الإنسان سلاحه وحمله وقاتل به .. هنا فقط
استمد الرجال من المعادن صلابتها وسيطرتها على مقدراته .. وعلى المرأة أيضا !
أما في مصر الفرعونية فقد كانت الحياة الزوجية مقدسة . والرسومات على
المعابد الفرعونية تؤكد ذلك .

ويمكن أن يقال إن كل الحضارات كانت تعطي الرجل كل حق وكل
سلطان على المرأة : إلا الحضارة الفرعونية فإنها كانت تعطي المرأة حقها الكامل
في مساواتها بالرجل . وفي معظم الأحيان كانت المرأة في مكان أكثر احتراما من
الرجل . ولم يحدث إلا في فترات قصيرة جدا في تاريخ مصر الفرعونية ، وتحت
تأثير عوامل خارجية ، أن هان شأن المرأة على الرجل ! .

فصر الفرعونية لم تعرف تعدد الزوجات . ربما كان الأمراء والملوك فقط ،
أما عامة الشعب فلم يعرفوا إلا الزوجة الواحدة .

ولم يحدث في مصر الفرعونية أن تزوج الرجل أخته ، الا في العائلات

الملكية ، ومن أجل حماية العرش .. وقد كان من عادة الزوج أن يقول لزوجته يا أنختى .. وهذا يحدث حتى الآن في الريف المصرى .. وقد أخطأ المؤرخون الأجانب عندما استنتجوا أن المصريين يتزوجون أخواتهم .

حتى الملك مينا عندما ظهرت صورته مع أربع نساء ، لم يكن زوجاته ، وإنما واحدة فقط هي الزوجة والباقيات عشيقات . وحتى عندما تكون عشيقات تكون الزوجة هي السيدة الأولى .. والفراعنة يصفون الزوجة بأنها « ست البيت » أو صاحبة السرير الأول ..

وفي مصر الفرعونية كانت هناك الإلهة ايزيس .. وهي نموذج للحب والوفاء والفداء .. وكانت تبحث عن أخيها أزوريس . وكانت تجمع عظامه من أركان العالم . وظلت ايزيس تحمى الأسرة وتحمى الفضائل العائلية .

والذى ينظر إلى صور امنحتب يجد أن زوجته تجلس على نفس المقعد وإلى جواره ويجد أنها قد وضعت يدها على كتفه ، والاثنان يواجهان الموت فى أخوة وترابط .

وسنفرؤ بمد يده إلى زوجته كما نفعل الآن مع الاحترام الشديد ..

وهذا الحكيم بتاحوتب (١١٠ سنوات) هو أكبر الوزراء سنا وأعقلهم ينصح الزوج بأن يكون أخا لزوجته ، وألا يكف عن تقبيلها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ويؤكد له أن المرأة لا تشبع من معدتها ، وإنما من شفيتها . ويقول للعريس : اسعدها . إنها تنتظر هذا اليوم . لا تتركها وحدها . لا تدعها تفكر فى غيرك ، ولا تنس أن كل ما تأخذه المرأة منك ، قد أصبح حقا لها . وسوف تطالبك به . وإذا أسعدها أصبحت طيبة كالماء بين يديك ! .

حتى رجال الدين لم يعرفوا تعدد الزوجات . فقد كان الكاهن يتزوج امرأة واحدة فقط .

وليس معنى ذلك أن تعدد الزوجات كان ممنوعا في مصر الفرعونية . وإنما كان مكروها .

وفي الصورة الفرعونية تعرف بسهولة من هي الزوجة ومن هي العشيقة .. العشيقة هي التي تترك صدرها عاريا .. أو كالعارى .

والمرأة الفرعونية كانت أنيقة ونظيفة . وكانت تعلم أن النظافة نصف الجمال . والنصف الآخر كانت تعرف كيف تصونه وتبرزه . فقد عرفت المرأة الفرعونية كل أنواع أدوات التجميل التي نعرفها الآن : البودرة والكريم والمراهم والتدليك وأحمر الشفاه وماء الورد وعرفت الزيوت لتقوية الشعر ، والزيوت لإسقاط الشعر – وكانت تخلط معظم مواد التجميل – بعسل النحل – وهو ما تفعله دور التجميل الآن .

وعرفت المرأة الفرعونية أن تتبأ بجنس المولود – وهذا ما لم نعرفه حتى الآن – وكانت تستخدم بعض البذور وتلقى عليها بقطرات من بول السيدة الحامل ! .

* * *

أما بالنسبة للحياة العملية فقد عثر المؤرخون على رسم لسيدة في ابيدوس من الأسرة الثالثة كانت تعمل عمدة لإحدى المدن . وأنها كانت تقود قوة عسكرية طاردت بها اللصوص وواجهت بها قوات معادية ، وقد كافأها أحد ملوك الأسرة الثالثة بقصر فخم .

والمؤرخ الاعريقى مانيتون يقول : إن القانون في الأسرة الثانية كان ينص على أنه من حق المراه أن تجلس على العرش أيضا ! .

والمؤرخ هيرودوت يقول إن الملكة نيتوكريس قد تولت العرش بعد مقتل أخيها .. وأهم من ذلك أنها قررت أن تنتقم لمقتله . فدعت البلاء والأمراء وكل

الذين شكت في ولائهم لها وأقامت لهم حفلا كبيرا في قاعة تحت الأرض ثم فتحت عليهم مياه النيل فأهلكتهم جميعا ! .

ثم أحرقت نفسها حتى لا يحرقها أعداؤها ! .

وعندما عرفت مصر الفرعونية أشكالا مختلفة من الاقطاع تضاعل نفوذ المرأة .. فقد أصبح لعدد كبير من الأمراء والنبلاء والأثرياء قصور وحدائق . وفي القصور عشيقات ومغنيات وراقصات وعندما تظهر الراقصات والعشيقات تتوارى الزوجات في الظل ، وتحت أكداس من الملابس الحريرية والهدايا . كأن الرجل يكفر عن خطيئة الخيانة بالهدايا .. أو كأنه يشتري صمت المرأة بالحرير والذهب - ولكن المرأة عرفت أيضا أن تشتري غرور الرجل بالتآمر عليه . فقد تحولت بيوت الزوجات والعشيقات إلى مؤامرات ومؤامرات مضادة . تماما كما كان يحدث في حريم سلاطين آل عثمان وفي بلاط الأسرة المالكة في فرنسا .. وفي عصر الإقطاع تحولت مصر إلى ما يشبه عصر النهضة في أوروبا .

وفي ذلك الوقت تحولت المرأة إلى حالة غريبة : لا هي أسيرة ولا هي سيدة . وإنما هي ترحزحت إلى الورااء قليلا . وكأنها تراجعت قليلا لتقفز إلى الأمام وإلى أبعد مما يتصور الرجل .

وفي الدولة الحديثة تردد اسم اثنتين من النساء واحدة اسمها تيتشيري والأخرى اسمها أحونب . والكلام قليل جدا عن هاتين الملكتين في أوراق البردى وعلى جدران المعابد .. وكانت الملكة تيتشيري هي صاحبة العبارة الملكية التي تقول : دمي يجب أن يجري على العرش .

فقد استطاعت أن تجعل من اثنتين من أبنائها ، ولدا وبتا ، ملكين وزوجين على عرش مصر ! .

ولا يمكن أن ننسى الملكة حتشبسوت فهي شبيهة بالملكة كاترين دي مديتشي وكانت شخصية قوية . وعلى الرغم من أنها لم تكن ملكة عظيمة فقد كانت

ملكة ضئيلة : قادرة جبارة . وكانت ترتدى ملابس الرجال ، بل وتضع لحية مستعارة . وكانت تخفى وراء ظهرها زوجها الملك .

وعلى الرغم من أن حثشبوت هذه لم تكن دميمة ، فإن ملابسها المستعارة قد جعلتها دميمة . وبعد وفاتها كشف لنا التاريخ عن زوجها القوي الحكيم . .. والمنتقم الجبار أيضا محاكل آثارها من فوق جدران المعابد والقبور . وهذا الزوج قد نصب ابنه وليا للعهد حتى لا تتكرر مأساة زوجته مرة أخرى ؟

وعندما أراد رمسيس الثالث أن يضع أحد أبنائه على العرش تأمرت على الابن إحدى عشيقات رمسيس وقتلته . فقد كانت تريد أن يكون ابنها هو ولي العهد .. وقد أشركت العشيقة في مؤامراتها هذه عددا من رجال القصر ومن الحرس الخاص لرمسيس الثالث . ولم تنجح المؤامرة وأعدم رمسيس الثالث كل الذين اشتركوا في هذه المؤامرة . أما ابن العشيقة فقد طلب إليه رمسيس الثالث أن ينتحر ! .

وكان ذلك في سنة ١١٦٦ قبل الميلاد ! .
ورمسيس الثاني كان سعيدا بأولاده الكثيرين : عددهم ١٧٠ طفلا من بينهم ١١١ ذكرا ! .

ورمسيس الثاني كان رجلا متحررا، ويمكن أن يقال متحلا أيضا . فقد ظهرت له صورة عارية تماما مع نساء عاريات . وكان يلعب الشطرنج عاريا . وله رسومات يحتضن فيها امرأة جميلة لا يغطيها إلا شعرها ! .

وفي كل تاريخ الحضارة الفرعونية نجد انفصالا بين الجنسين .. فيما عدا الحفلات الرسمية الكبرى . ففي الحفلات يرتدى الجميع الملابس البيضاء . وأما المرأة فقد كانت تضع في يدها شنطة صغيرة . وفي هذه الشنطة كل أدوات الزينة

والصابون وأحمر الشفاه والكحل . وكانت تضع على رأسها الباروكة والزهور الطبيعية وتضع الحللى والدبابيس ..

وفي الأسرة التاسعة عشرة وما بعدها ذابت المسافة بين الجنسين . والمؤرخون يتحدثون عن هذه الفترة وكأنهم يصفون باريس في عصر لويس الخامس عشر : حيث الذوق والأناقة .

والذى يشاهد صور نفرتارى يدرك مدى أناقة هذه السيدة وبساطتها ، وقد حملت معها إلى قبرها كل فساتينها الأنيقة الشفافة . وفي ذلك العصر كانت خيوط الأزياء « دغرى » وكان القوام مشدودا والنهدان عاليين ومسحوبين أيضا . وكانت الأرداف متوسطة ، والساقان ناعمتين . وكانت ملامح الملكة نفرتارى هي ملامح مانىكان حديثة . فالعينان واسعتان مرسومتان والشفاه قد رسمها اللون الأحمر ممتلئة مرفوعة ، أما شعرها القصير فقد غطته باروكة تتدلى على كتفين صغيرتين ناعمتين .

ومن المعروف أن عددا من اليهود كانوا في مصر في ذلك الوقت . وكان اليهود أكثر الأقليات انحلالا . وهم الذين ابتكروا لعبة وضع السيدة عارية في تابوت يلهو به السكارى .

وفي متحف مدينة تورينو بإيطاليا توجد ورقة بردى رفض العالمان الكبيران ماسبيرو ودريوتون ترجمتها .. ففي هذه البردية توجد صور عارية وقحة . وتوجد رسوم كاريكاتورية للسخرية بالملوك والنبلاء الفراعنة . إن هذه البردية وثيقة تاريخية للانحلال الملكى في ذلك الوقت ! .

لقد كانت المرأة في ذلك الوقت معشوقة الرجل ، ولعبته أيضا ! . وكانت في ذلك الوقت قصص غرام وإنما في عشق .. وكانت هناك رسائل تبعث بها المحبوبة تذكّر العريس بدبلة الزواج . وتذكره بالحلب القديم .. وفي رسالة تقول المحبوبة : آه .. يا أخى .. يا حبيب روحى .. كم أتمنى أن أنزل إلى

ماء النيل أمامك لترى بعينيك جمال هذا الجسم الذى يحبك .. وكم أتمنى أن أراك أيضا .. ونصيد معا بعض الأسماك .. ترانى وأراك ! .

إنها صريحة وواقعية .

وهناك رسائل تبدأ هكذا : آه عندما تكون على صدرى ..

وهذه الرسالة الجميلة : إنه حبك الذى جعل اللمعان يملأ عيني .. إنه حبك الذى جعل وجهى مشرقا .. إنه حبك الذى جعل عيني مفتوحتين .. إننى أكاد أقول لكل الناس إننى أحبك .. وفى كل مرة أحاول ذلك أخاف عليك .. وعندما أراك أحتضنك .. ولكى أراك فقط ..

ومن وصايا الحكيم «آتى» أنه من الضرورى أيضا أن يحب .. ويقول : اعط لأملك كثيرا ، فقد أعطتك كثيرا . لقد حملتك وأرضعتك ولم تكن تعرف من راحتك . احمل إليها كل شىء على صدرك راضيا ، فقد حملتك على صدرها راضية سعيدة ! .

وربما كان أحد أسباب الزواج المبكر فى مصر الفرعونية هو احترام الموقى والجنائز . فكل أب يريد أن يكون له أطفال يدفنونه ويكرمونه عند الدفن . وفى عقود الزواج التى ظهرت بعد ذلك كان يطلب الزوج إلى زوجته أن تتولى دفنه . ولم تكن تطلب هى إليه أن يفعل ذلك . وهى ولاشك تحية من الزوج وإشارة إلى أنه هو الذى سوف يموت قبلها ! .

وأرق ما نقل إلينا تاريخ مصر الفرعونية من صور : صورة الفيلسوف الملك أخناتون وهو يودع زوجته إلى القبر . إنه ينحن على زوجته يقبلها وينحن عليها يودعها . ويقال إنه طلب إلى الفنان الذى يرسمه أن يمحو إحدى الصور لأنه لاحظ أنه لا ينحن بدرجة كافية لوداع زوجته ! .

ولكن كثيرا ما نلمح مثل هذه العبارات فى وصف الرجال لزوجاتهم : تافهات ، سطحيات ، كذابات ، خائنات بالطبع .. وأن المرأة كتر لكل

الشروع .. وأنها أكبر شرور الطبيعة وأن الطريق إلى النار يمر بالمرأة .. !
وتحت تأثير البابليين ظهرت عقود الزواج .. وهى عقود شائنة للرجل .. ففي
العقد نص على أن المرأة خادمة للرجل .. وأنها خلقت لخدمته وأنها نزلت عن
كل حقوقها من أجله .. وأن كل من يعارض في هذا يستحق اللعنة ..
وهذه العقود تجرد المرأة من كل حقوقها .. أقصى درجات الأنانية من
الرجل !

ومن أجمل قصص المغامرات في ذلك الوقت .. أن شابا رأى فتاة جميلة
ومن ورائها يمشى خمسون من حاشيتها . فبعث يسأل من هذه .. ويقول أيضا :
إن اسمي « استناها » أحد أبناء رمسيس . ويسأل إن كان في الإمكان أن يقضى
معها ساعة من الوقت مقابل عشر قطع ذهبية .

أما الفتاة فاسمها طابوبو . ووافقت واشترطت أن يكون ذلك في بيتها .
وذهب الاثنان إلى البيت . وكان البيت جميلا أنيقا . وسألته : هل في نيتك أن
تتحرم هذا البيت ؟ .

فقال : نعم .

- هل تحب أن أقدم لك طعاما ؟ .

- أنت أجمل من الطعام .

- اذن لا تريد طعاما ؟ .

- ليس من أجل هذا جئت .

وأحضرت له فاكهة . وزيتا معطرا وأمضيا يوما كاملا . وكانت تحدته طول

الوقت من وراء حجاب على وجهها وعلى جسمها .

ثم قالت : ^{إذن} الآن يجب أن ننهي ما جئت من أجله .

وقبل أن ينهض من مكانه قالت : لنحضر كاتبا يسجل هذا العقد بيننا

وجاء من يكتب العقد . ونهض ابن رمسيس ليقول : أعطى هذه السيدة
التي هي أعز إنسان عندي كل ما أملك .. مع حرمان أولادى من الميراث ! .
إذن لقد كان متزوجا .. وعندما عرفت الفتاة ذلك قالت : أكون زوجة ! .
فقال الفتى : وصاحبة السرير الأول ! .
وكانت هذه نهاية مغامرة لشاب أخفى زواجه عن الفتاة التي أحبها من أول
نظرة ! .

وقد روى لنا المؤرخ هيروdot الذي زار مصر أيام الاسكندر أن المرأة في
مصر كانت تدير التجارة والكباريهات والحانات بينما يجلس الرجال في بيوتهم .
وروى لنا المؤرخ ديودور الصقلى أن عقود الزواج كانت تنص على أن يكون
للزوجين نفس الحقوق فلا فضل لرجل على امرأة .

والقانون أيضا أيام البطلمة كان يعطى المرأة الحق في الطلاق من زوجها إذا
كان قاسيا .. أو إذا اكتشفت أنه على علاقة بامرأة أخرى .
وفي هذه الحالة لم يكن من الضروري أن تستأذنه في أن تدير صالونا للحلاقة
أو مكانا للتجميل .

وكليوباترة هي آخر امرأة قوية في تاريخ مصر القديمة . إذا نحن حررناها من
هذه الديكورات التاريخية والمؤثرات الصوتية نجد أننا أمام امرأة كبيرة الرأس
وليست مشيرة الجسم فقط . فقد زوجها من أخيها الذي بلغ من العمر ٩ سنوات
- نصف عمرها - وتخلصت منه في حادث وبذلك تكون كليوباترة قد طبقت
تقاليد البطلمة وهم ملوك يتبارون في قتل إخوتهم . ثم قتلت زوجها التالي وهو
أخوها أيضا وكان في الرابعة عشرة من عمره . واستدرجت قيصر إلى مصر ومن
بعده أنطونيوس .. وحاولت استدراج أوكتافيو .. ولما خشيت أن يربطها في ذيل
خيوله في شوارع الاسكندرية انتحرت ..

ولكن كليوبطرة نموذج للمرأة القوية الذكية المليئة بالطموح .
وما يزال أنف كليوبطرة هو الذى غير تاريخ مصر - كما يقول الفيلسوف
باسكال - أنفها أو شفتها أو عيناها .. هى أو شىء منها قد غير وجه مصر
كلها ..

وبوفاة كليوبطرة تختفى تلك الصورة المتكاملة الكريمة للحياة الفرعونية الهادئة
التي يشع فيها الاحترام والقداسة .

لقد كان للمرأة سلطان فى كل الحضارات القديمة . ففي الفرعونية كانت
الراهبات أو الكاهنات يحكمن مصر من الداخل . وكانت زوجة كبير الكهنة
ملكة غير متوجة .. وكانت تتلقى الهدايا من كل الحدود المصرية فى الجنوب وفى
الشمال حتى البحر الأسود .

وكانت بلقيس ملكة سبأ شخصية قوية ..
وكانت سالومي تطلب رأس نبي من أجل رقصة .. ورقصت وطار رأس
النبي يوحنا .

أما سميراميس فلا أحد يدري إن كانت شخصية حقيقة أو خرافية .. كانت
نموذجاً للقوة المطلقة .

وفى تاريخ الخلافة الإسلامية كانت أمهات الخلفاء يحكمن قصور الخلافة فى
الشرق وفى الغرب .. وفى قصور سلاطين آل عثمان كانت العشيقات هن اللاتي
يحكمن . وهن اللاتي يوجهن الملك والوزراء ..
إذن ..

لم تكن المرأة أسيرة للرجل . ولم يكن تاريخها سلسلة طويلة من الاستعباد
والهوان . وإنما كانت المرأة هى الحاكم الحقيقى - على طريقته الخاصة - ويكفى أن
نستعرض بسرعة لا تاريخ الحضارات القديمة ولكن تاريخ الحضارة الحديثة ..

إن الإنسان هو الإنسان ونقطة ضعف الرجل أنه لا يزال يتوهم أنه الأقوى .. ومن
نقط قوة المرأة أن جعلته يؤمن أنها صدقت هذا الوهم . ولا شيء يدل على خبث
المرأة إلا أنها تعرف هذه النكتة التاريخية الطويلة ولا تضحك لها ..

إن هذا الكتاب قد أهداه المؤلف في آخر صفحة وفي آخر سطر : أهدي
هذا الكتاب إلى كل امرأة ليس أقصى طموحها أن تكون مضيضة جوية أو
سكرتيرة لمدير ! .

هل اختفى الحرير؟

كان للسلطان حريم.. أصبح للسلطان حريم..

لم يتفق الرجال على الصورة التي يحبون أن يروا عليها المرأة .. هل هي حواء العارية ؟ هل هي ايزيس الأم ؟ هل هي مدام كورى الباحثة ؟ هل هي مارلين مونرو العاملة الجميلة ؟ هل هي حتشبسوت المسترجلة ؟ .

وموقف الرجل من المرأة يدل على نوع من الناس هو .. ومن فهم الرجل لدور المرأة في حياته ومن الحياة العامة نعرف ما معنى الحرية عنده .

والرجال في مواجهة المرأة :

إما أعداؤها .

أو خصومها .

أو أنصارها .

أو عشاقها .

وأعداء المرأة هم الذين لا يرون في المرأة أية ميزة . ويرون أنها إنسان مختلف أيضا . أو أنها (رجل) هزيل ضعيف العقل . أو أنها ليست من أصل إنسانى . ويرون أيضا أنها بتاريخها الدليل وتركيبها المعقد قد أدت إلى تشويش حياة الرجل وإلى تعويقه عن التطور . وأنها ليست إلا جنسا فقط وإلا حيوانية تماما . والفيلسوف اليونانى سقراط هو الذى استطاع أن يترك ظله العنيف على كل

الحضارة الغربية . فقد كان سقراط (رجلا) دمية .. ولم يكن رجلا بالمعنى الحقيقي .. وقد استولى الشذوذ الجنسي على الحضارة الاغريقية مئات السنين ، ولم يكن يستنكره أحد .. واستطاع سقراط بذكاء وخبث عميق أن يفرض احتقار الجسد الإنساني .. سواء جسد الرجل أو جسد المرأة واحتقار كل ما هو حسي .. ولأن سقراط كان يرى أن المرأة هي حس فقط وجنس فقط استبعدتها من دنيا الحياة العقلية . ورأى أن المرأة والجسد والحس شرور يجب أن يتخلص منها الإنسان ..

ووراء سقراط وتحت تأثيره الهائل سارت الفلسفة والأدب والمسيحية أيضا حتى يومنا هذا ..

أما خصوم المرأة فهم الذين يرون أن المرأة إنسان كالرجل . لاشك في هذا . ولكنها مختلفة عنه في تكوينها الجسمى والنفسى والتاريخى أيضا . وتاريخها القريب هو المستول عن ضيق كتفها وضخامة أردافها وقصر ساقها وضيق أفقها . وأن أعظم عمل تقوم به المرأة هو أن تكون أما . والأمومة هي العمل الإبداعى الوحيد الذى تنفرد به المرأة . أو الأنثى عموما .

والمرأة بطبعها لا تحب أن تستقل بنفسها وإنما هي تعتمد على الرجل فى كل شىء . وليست لديها أية قدرة على الإبداع والمغامرة . بل إن الأعمال التى تهتم المرأة لم تتفوق فيها فلا توجد طيبة مولدة ممتازة ولا مصممة أزياء عبقرية .. وعلى الرغم من المرأة تبكى بمناسبة ومن غير مناسبة فلم تخترع علاجا للبكاء .. ولم تؤلف مأساة واحدة خالدة . ولأن تجربة المرأة العملية قصيرة فهى لذلك لا تصلح للأعمال خارج البيت . ومكانها الطبيعى الخطير جدا هو البيت . هو الأسرة . هو أن تكون زوجة وأما .

أما أنصار المرأة فيرون أن المرأة لا تختلف كثيرا عن الرجل . بل إنها أقوى من الرجل جسميا وأقدر على احتمال الألم والمرض . وهى أطول عمرا من الرجل .

ولا يوجد أى فارق فى تكوين جسم المرأة ولا وظائفها العضوية . وبقاء المرأة فى البيت تعطيل لقوة هائلة يمكن أن ينتفع بها الإنسان . ولقد جربت الإنسانية طوال عشرات الألوف من السنين كيف تكون حياتها الاجتماعية والخاصة فى ظل سيادة الرجل وسيطرته فلماذا لا نجرب اشتراك المرأة مع الرجل فى الحياة الخاصة والعامه ؟ .

لماذا لا نجرب دخول العنصر اللطيف فى حياتنا العامة والخاصة ؟ ولماذا لا يكون اشتغال المرأة بنفس الشروط والظروف التى يعمل فيها الرجل ؟ .

والمجتمع الآن قد علم المرأة وفتح لها كل الأبواب . ولا يمكن أن يكون المجتمع قد نحس شيئاً بهذا العدد الهائل من الأيدى العاملة .. وقد دخلت المرأة فى كل المجالات : العلم والعمل والفن والأدب والسياسة والادارة .

وإذا كانت هناك شرور فى المجتمع فليس سببها أن المرأة تركت البيت وذهبت إلى المكتب أو إلى المصنع . وإنما السبب هو أن الرجال ما يزالون مسيطرين على كل شىء .. وأن كوارث الدنيا تنبع وتنمو وتنفجر فى عقول الرجال وأيديهم ..

وعشاق المرأة هم الذين يرون فيها ينبوعاً رائعاً للجمال والمتعة . وأن الحياة بدون المرأة مستحيلة . وأن السماء قد أهدت البشرية حواء وبناتها لكى يكون أبناء وأحفاد ويكون حب .

بل إن النفس الإنسانية بها كنوز لا يمكن أن تنفتح إلا بأصابع المرأة وإلا باهتمامها . فالله قد خلق المرأة لكى نحبها : إما زوجة أو ابنة . وإذا أقبلت المرأة فالحياة هى الجنة وإذا ابتعدت فالحياة قطعة من العذاب وإذا كان لابد للإنسان أن يختار الراحة بغير امرأة والعذاب معها .. فإنه يفضل العذاب معها على الراحة مع عشرات الملايين من الرجال . وإذا نحن جردنا الأدب والفن من المرأة ، لم يبق بين أيدينا شىء . والأدباء والفنانون هم أكثر المخلوقات حساسية وأكثرهم

إدراكا للجمال وأقدرهم على التعبير وأبرعهم في التسامى بالحرمان والشوق
والحنين .

وأعداء المرأة هم في نفس الوقت أعداء الإنسانية كلها وأعداء الحياة . وهم
عادة أناس مشوهون جسميا وعقليا أيضا .

وخصوم المرأة هم أكثر الناس حيادا مع المرأة وهم ينظرون إليها بعقل .
والمرأة لا تحب أن ينظر إليها الإنسان بعقل . لأنها لا تعرف إلا أن يكون
الإنسان : عدوا أو حبيبا . ولكنها لا تفهم أن يكون الإنسان عدوا حبيبا أو حبيبا
عدوا . أو عاشقا بتحفظ أو كارها بحساب . ومع ذلك فقد استفادت المرأة كثيرا
من خصومها . لقد أناروا لها الطريق . وأطلقوا حررتها بحساب . ومن بين خصوم
المرأة عندنا : العقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

وأنصار المرأة هم الذين يدفعونها إلى الحرية وإلى العمل وإلى تحمل الأخطاء
في تجاربها الجديدة . فالذى يعمل هو الذى يخطئ والذى يعمل هو الحر . والحر
هو الذى يتحمل مسئولية العمل وما دامت المرأة حرة فلا خوف عليها إذا
عملت . ويجب أن نحاسب الرجل إذا أخطأ دون أن نكتفى بحساب المرأة
وحدها .

ومن أنصار المرأة كل المفكرين العلميين والاشتراكيين وفي مقدمة المفكرين
الرواد طه حسين وسلامة موسى وإسماعيل مظهر . ومعظم الأدبيات طبعا : مى
زيادة وسهير القلماوى ولطيفة الزيات .

أما عشاق المرأة فهم كثيرون جدا . منذ أول إنسان قارن بين وجه المرأة
والقمر حتى الرجل الذى قال : تعذبني برضه أحبك . أو الذى قال وتجيّب
خضوعى منين ولوعتى بين إيديك .. أى حتى أحمد رامى ومعظم الشعراء
الغنائيين . وهم الذين يحرصون على أن تظل المرأة كتلة من اللحم الحى عروقتها
تجرى بالبترين وأنفاسها من نار .. والطريق إليها بالدموع والشوك .. وهى التى

يجب أن تتعذب وأن تحب العذاب والهوان .. وأن تظل ألعوبة في يد الرجل وتلعنه .

ولا فرق بين أعداء المرأة وعشاقها . فأعداء المرأة يرونها (شيئا) كريها .. وعشاقها يرونها (شيئا) لذيذا .. ولا فرق بين أحمد رامى وبين مصطفى صادق الرافعى والفيلسوف سقراط .

والذين عشقوا المرأة والذين عادوها لم يقدموا لها شيئا ينفعها في تحررها من قيود الرجل . بل إنهم جعلوا هذه القيود والصبر عليها وحب الذل والهوان ضرورة حيوية .

بل إننا لم نجد في (ألف ليلة وليلة) دعوة واحدة إلى تحرير المرأة أو الإشفاق عليها . لأن المرأة متاع لذيذ . وهذا يكفى . والملك سليمان عندما حبس في قصره ألاف النساء لم تسمع منه كلمة واحدة عن حرية المرأة . ربما كانت الفتاة (شالوميت) هى أول امرأة تمردت على استعباد وإذلال الملك سليمان ..

وأوضح صورة لالتقاء العشق والعداء للمرأة هى فى صورة (الحريم) - أى فى جمع أكبر عدد ممكن من العشيقات فى مكان واحد وتربيتهن وترويضهن للقاء السيد ، صاحب الحريم . سواء كان السيد شيخ قبيلة أو سلطانا من السلاطين .

فالسلطان يرى أن المرأة ضرورية . متعة ضرورية لا يستطيع أن يستغنى عنها . ولكنه فى نفس الوقت لا يحترمها ولا يرى لها أى حق . فهى (شئ) مودع أو ملقى هناك .. وفى حالة انتظار مستمر لإرادة السلطان الذى يريد أن يغرق فى الجنس ثم يضره بقدميه بعد ذلك .

والذين يرون أن المرأة يجب أن تكون حريما هم أيضا الذين يرون أن المرأة يجب أن تكون (هانم) أى أنثى أنيقة فى انتظار الجائع دائما : زوجها .

والذين يرون أن المرأة لا حقوق لها . وأنها يجب أن تظل مربوطة فى ذراع

زوجها يبيعها ويشترها ويشترط عليها أن تعمل أو لا تعمل .. أن تبقى أو لا تبقى . وأن يعاقبها كما يريد وأن يرميها في الشارع كما يريد كل هؤلاء ينظرون إلى المرأة على أنها حريم .. على أنها جزء من ممتلكات الرجل . وأن الزواج ليس إلا عقدا للانتفاع المشترك بين ذكر وأنثى .. وأن الذكر هو الأقوى وهو صاحب الحق وأن الأنثى هي الأضعف ويجب أن تبقى كذلك . ويجب أن لا تقوى الأنثى . لأنها إذا قويت لم يصبح الرجل قويا . ومن المفروض أن يبقى الرجل قويا بحق ومن غير حق .

ولكن أكثر الناس عداوة للمرأة هم لاشك عشاقها لأنهم ينافقون المرأة ولأن المرأة ضعيفة أمام النفاق ولأن المرأة ضعيفة أمام الإطراء وأمام الكلمة الحلوة والنظرة الحلوة ولا تزال المرأة تفضل الرجل الذي يكذب عليها على الرجل الذي يصارحها . وإذا استعان الرجال المنافقون بالشعر والموسيقى فإن هذا الكذب يذوب في أعماق المرأة فتحب العذاب والهوان وتنسى أن الذي تحبه هو الأداء والغناء والكلام واللحن والموسيقى .

أما أعداء المرأة من رجال القانون والفلاسفة فأمرهم سهل لأنه يمكن مناقشتهم بالعقل فلا موسيقى ولا غناء ولا نفاق ولا كذب .. ولأنها معركة حامية بين رجال . فهي معركة بالأسلحة الأبيض .. وأساس المعركة : هل نحن كرجال نحترم إنسانيتنا. أو نحتقرها ؟ هل نحن كرجال نرى أن الحرية من حقنا وليست من حق المرأة ؟ هل نحن كرجال نرى أن الكرامة حق للرجل والهوان حق المرأة ؟

إن الذين يرون ربط المرأة بالرجل وتعليقها من كلمة في فم الرجل وتحويل المرأة إلى سلعة أو إحدى مستعمرات الرجل هم سلاطين عثمانيون يرون أن الرجل سلطان وأن المرأة حريم وأن الحريم ذبيحة تأكل وتشرب وتتعطر وتتجمل وتزف كل ليلة إلى فراش السلطان .

وإذا كانت كلمة (حريم) قد انقرضت من معظم دول العالم فإن المعنى نفسه ما يزال باقيا في عقول كثير من الناس في بلاد أخرى .

* * *

وأمامى الآن كتاب ضخم صدر أخيرا بعنوان (الحريم) للكاتب الانجليزي ب . بنزر وهو يعرض كيف نشأ الحريم في الدولة العثمانية أو على الأصح كيف اشتد سلطان الحريم في الدولة العثمانية ، حتى كانت النساء هن اللاتي يحكمن أما السلاطين فكانوا غارقين في الخمر . ونظام الحريم قديم جدا .. كان في إيران وفي العراق القديم وفي الصين . ولكن كلمة (الحريم) ومعناها في اللغة العربية الشيء (الحرام) أو الشيء المحرم - أصبحت خاصة بالدولة العثمانية وحدها لأنه لم يحدث في التاريخ أن أصبح مثل هذا العدد الهائل من النساء السجينات في قصر السلطان سجينات في الظلام والرطوبة والعطور وسجينات إرادة السلطان وأغوات السلطان .

وآخر السلاطين العثمانيين هو السلطان عبد الحميد الذي طرد سنة ١٩٠٩ كان يحتفظ بأربعمئة جارية عشيقة وبمائتين من الخدم الأغوات السود والبيض . ولم يعرف العالم الغربى حقيقة نظام الحريم إلا في أوائل هذا القرن مع أن نظام الحريم السلطاني كان موجودا ابتداء من القرن الخامس عشر في العاصمة التركية ، فن أوائل القرن الخامس عشر لم يعد للسلطان زوجة شرعية وإنما السلطان كان لا يقامر بالزواج من فتاة فقد تنجب له بنتا . ولذلك فهو لا يتزوج إلا الجارية التي تنجب له الولد . فإذا أنجبت الولد اتخذت لها لقباً جديدا هو (السلطانة الوالدة) وابن السلطانة الوالدة سوف تكون له مئآت الجاريات والأم هي التي تختار لابنها العشيقات .. مئآت العشيقات فإذا أنجبت العشيقة ولدا تحولت إلى سلطانة والدة فكل السلاطين العثمانيين هم أبناء جاريات . أما حياة الحريم فهي انتظار لمشيئة السلطان .

ولكن هناك طريقا طويلا قبل تحظى الجارية بنظرة واحدة من عين السلطان فالجارية تدخل السراى - والسراى كلمة ايطالية معناها قفص الوحوش .. وفارسية أيضا معناها المكان والسراى بمعناها الايطالى أقرب إلى طبيعة القصر أو السراى التى تعيش فيها الحرم - وبعد أن تدخل السراى تتدرب على أن تكون تلميذة مجتهدة لإحدى العشيقات . وتتعلم الغسل والطبخ .. وبعد ذلك تصبح عشيقة . وتنتظر إرادة السلطان .. ولنفرض أن إحدى العشيقات كانت محظوظة لدرجة أن السلطان رآها وليس من الضرورى أن يكون قد ملأ عينيه منها . وإنما يكفى أن يرمش أمامها وهذا (الترميش) معناه أن هذه الفتاة تتحول فجأة إلى كائن آخر .. تدخل الحمامات وترتدى الملابس وتغرق فى العطور وبعد يوم أو يومين يحملها الأغوات على كرسى . ويدخلون بها غرفة السلطان . ويضعونها أمام سريره . ويكون السلطان عادة قد تغطى وتجىء العشيقة الجديدة وتقترب من الفراش وتأتى من الأصوات والحركات ما يجعل السلطان يصحو .. وهنا يختفى الأغوات . وفى الصباح المبكر يحملون العشيقة إلى جناحها وتكون كل الأبواب والنوافذ مغلقة على الجانبين ثم يكتبون فى أحد السجلات تاريخ اللقاء السلطاني وينتظرون المولود السعيد فإذا كان ولدا فهي سلطانة . وإذا كان هذا أول أولاد السلطان فهي الجالسة على العرش إلى جواره . أما إذا غير السلطان رأيه وكان (الترميش) ليس دليلا على إعجابه بها وإنما كان سببه أن ذبابة اقتربت من وجهه السلطاني فيهجم الأغوات على العشيقة الجديدة ويمزقون ملابسها ويلقون بالماء القذر فوقها . ثم يعيدونها إلى بداية السلم .. أى إلى كنس البلاط .. ومن المؤكد أن هذه المسكينة لن تكوم لها فرصة أخرى لكى ترى السلطان إلا ميتا .

ولم يكن أمام الحرم إلا الانتظار .. وإلا التآمر والتزاحم على الطريق إلى السلطان .. كن يستخدم من كل الأساليب : الاغتياى والسم والفلوس والهدايا .. ومن أشهر الجاريات واحدة روسية اسمها روكسيلانا استطاعت أن تكون

سلطانة وزوجة للسلطان سليمان القانوني . واستطاعت أن تتآمر على إخوة السلطان فقتلتهم جميعا .. وكان عددهم ١٩ أميرا ويقال إنها قتلت السلطان نفسه لكي يبقى ابنها سلطانا بعد ذلك . وروكسيانا هذه هي التي بدأت عصر دولة الحرم .

ولقد بدأت الدولة العثمانية في القرن الخامس عشر بأن كان للسلطان حريم هائل ولكن ابتداء من هذه السلطنة الجريئة أصبح للحريم نفسه سلطان وسيطرة مخيفة .

وعندما يكتشف أحد السلاطين - وهذا يحدث نادرا - أن هناك مؤامرة ضده فإنه يفتك بالحريم . وقد حدث أن أمر أحد السلاطين بإغراق كل الحرم في البسفور . فوضعت النساء في شوالات وألقين في قاع البسفور وكان عددهن ٣٠٠ فتاة بين العشرين والخامسة والثلاثين .

وقد أغرق السلطان سليم ٢٥٠ امرأة في ليلة واحدة لا شيء إلا لأنه يريد تغييرا في الحرم .

أما دور زوجة السلطان فهو لا يزيد عن متابعة العشيقات الأخريات . والتآمر عليهن أو التآمر على السلطان نفسه . أما إذا رضيت بنصيبها فإنها تشغل وقتها في الأعمال الخيرية مثل بناء المساجد والمستشفيات .

وهذا الكتاب يلفت النظر إلى أن نظام الحرم لم يكن هو سبب الانحلال العثماني . وإنما كان من مظاهر الانحلال فقد انشغل الرجال بالنساء عن كل القضايا للشعب والدولة . فالسلاطين قد ولدوا من أمهات جاريات وعشن في سجن الحرم ولما كبر السلاطين عاشوا مرة أخرى في الحرم .

فالسلاطين لم يكن لهم حريم في الحقيقة وإنما الحرم هو الذي أنتج السلاطين . هو الذي أنتج أناسا يكرهون الحرية . لأنهم لم يعرفوا كيف يتحررون

من عقلية الحریم وحياة الحریم . وهم لا يفهمون حرية الآخرين ولا الأخریات فهم رجال من صنع النساء من صنع سجينات النساء .

وقد اختفى الحریم في أوائل هذا القرن واختفى السلاطين ولم يبق في السراى القديم والسراى الجديد إلا القصر المعروف الآن على البسفور (توب كالى) .

ولكن ما تزال هناك عقلية الحریم عند بعض الرجال . إنهم لا يستطيعون أن يعيدوا عصر الحریم . ولكنهم يستطيعون فقط أن يذكرونا به وقد نسيناه . ولم يبق إلا بقع قليلة على الأرض هي التي تخفى وراء قصورها العالية سجونا للنساء غارقة في الخمر والعطر . ولكن هذه السجون وهذه القصور سوف تتلاشى فالحرية أقوى من الشمس . بل الحرية هي الشمس التي لا تغرب أبدا .

* * *

ومن المؤكد أن عقلية السلاطين هي التي يتعاقق في داخلها : عشق المرأة واحتقارها .. عشق جسدها واحتقار عقلها .. والمرأة حيوان عاقل كالرجل - واحتقار العقلية الإنسانية هو احتقار لأعز ما يملك الإنسان لأخطر ما يتميز به المواطن الحر عن أبناء الجاریات في عصر السلاطين .

وإذا كان حریم السلطان قد اختفى فإن سلطان الحریم على الرجال وغرائز الناس سوف يختفى أيضا قريبا عندما تظهر صيغة جديدة لقانون الأحوال الشخصية في مصر وغيرها من البلاد العربية والافريقية .

لقد انتهى الحریم وانتهى السلطان .. فلا سلطان إلا لكرامة الإنسان .

كيف خلقها الله؟

بدون المرأة الحياة صعبة .. مع المرأة الحياة أصعب !

ما الذى يعرفه السمك عن الماء ؟ .

ما الذى يعرفه العصفور عن الهواء ؟ .

ما الذى يراه القط فى الوعاء ؟ .

ما الذى يفهمه الرجال عن النساء ؟ .

(منقوش على أحد المعابد البوذية)

« من يعرف عدد رمال الشاطئ يعرف ما الذى تقوله امرأة لامرأة عن امرأة

ثالثة ..

« من يعرف عدد أمواج البحر يعرف ما الذى تقوله امرأة لأمها عن

زوجها ..

« من يعرف عدد نجوم السماء يعرف ماذا تقوله زوجة رجل غنى عن زوجة

رجل أغنى .

« من يعرف حقيقة .. يعرف سر المرأة .. »

(منقوش على معبد صينى)

بهذه المعانى مهدت الدكتورة اليزابيث باركر لكتابها القيم «أعمار المرأة

السبعة» أو «المرأة لها سبعة أعمار» أو «المرأة لها سبعة أرواح» .. والمؤلفة طيبة ..

ودراستها للمرأة دراسة علمية .. فهى تقلب المرأة كآلة بشرية لها دم ولحم

وأعصاب وغدد سحرية .. ولها مشاكل نفسية وعقد اجتماعية . والرجل وراء مصائب الدنيا التي تحيط بالمرأة .. لأن المرأة تلميذة في عالم الرجل . وبجرمة في محكمة الرجل .. والرجل هو الذى أراد لها أن تكون على النحو الذى يراه ويشكو منه . فهو يشكو منها وهو فى الحقيقة لا يشكو إلا مما صنعت يدها .

وقد أعلن الرجال من أيام الفراعنة أن المرأة سر . وأنها لغز . وأحيانا أنها لعنة . وأنها الجنس الآخر . وأنها الجنس الضعيف . وأنها الجنس العنيف .. وأنها الجنس الضائع .. وأنها الجنس فقط .

والنصائح التى كانت تقولها الأمهات للزوجات من أيام الفراعنة والصينيين تؤكد أن نظرة القدماء للزواج مخيفة . وأنه لاشيء أقسى ولا أصعب من علاقة رجل بامرأة .

وكلمة الجنس لا تخيف المرأة .. وهى أيضا لا تشينها .. فالمرأة جنس طبعاً .. وسوف تبقى كذلك . والمرأة شخصية أنثوية . وعقلية أنثوية .

ولكن الرجل يميل إلى أن يضيف شيئاً فيقول : أفهم أن المرأة أنثى . وكل شيء فيها يؤكد أنوثتها .. ولكن عقل المرأة غريب جداً ..

وهذا صحيح .. فليس عقل المرأة هو الغريب .. ولكن العقل نفسه شيء غريب .. وجهاز عجيب .. عند المرأة وعند الرجل .. وإلا فمن الذى يستطيع أن يقول لنا ما معنى أن يتذكر الإنسان .. ما معنى أن ينسى الإنسان . وما معنى أن يحب وأن يكره وأن يخاف . كل هذه معان لا أحد يعرفها بالضبط .. وفى علم النفس عشرات النظريات المختلفة . ومئات العلماء العظماء الذين لم يتفقوا على هذه المعانى . والنتيجة هى أن أحداً لا يعرف بالضبط ما معنى العقل . عقل الرجل وعقل المرأة ..

والرجل يجب أن يقول : ولكن سلوك المرأة معقد جداً .. واندفاعتها

صارخة . وعواطفها متطرفة . وهى تنتقل من حالة نفسية إلى حالة نفسية بسرعة مدهشة .

وهذا صحيح .. ولكن كيف يفسر العلماء ذلك ؟ .

إنهم أيضا لم يتفقوا على رأى .. إنهم يذهبون إلى البيوت وإلى المعامل وإلى المستشفيات ويتفرجون على المرأة المريضة والمرأة السليمة . ويضربون رؤوسهم بأيديهم .. ثم يضربون رؤوسهم فى جدران الليل والأرق . ولا يصلون إلى معنى واضح . فإذا كان هذا موقف العلماء المتخصصين فلماذا نختار نحن معنى واحدا لا يقبل المناقشة وهو أن المرأة متقلبة متغيرة ؟ .

ونكتفى بهذا المعنى الذى لم يتفق أحد من العلماء على صحته . إنه كسل من الرجل فى أن يناقش هذه الأفكار الثابتة الخاطئة . وحرص من الرجل على أن يتهم المرأة .. ويستريح .. ويتركها تتعذب . أو يتركها حائرة فى فهمه هو . وفى فهم نفسها .

أما الحقيقة فهى : أن المرأة انفعلت وتنفعل كما علمها الرجل . واعتقدت ما علمها الرجل .. وخافت كما علمها الرجل أن تخاف .. فالمرأة تتصرف وفقا للتقاليد والعادات الموجودة فى عصرها . فهى تفعل ما يتوقعه الناس منها . والمرأة ابنة عصرها . أما الرجل فكثيرا ما يكون متمردا على عصره .. أما المرأة فن النادر أن تتمرّد لأنها تجيء وراء الرجل .. تلميذة مطيعة من أيام الغابة إلى زمن الالكترون ..

ولذلك لا يمكن أن تشعر شهر زاد بعقدة النقص ، ولا بأنها مخلوق شاذ ولا بد أنها شعرت بالفخر لأنها استطاعت أن تحتفظ بشرف العذراء ألف ليلة وليلة ..

ثم إننا لو تساءلنا : من هى المرأة الحديثة وما هو سلوكها لوجدنا صعوبة فى

الإجابة . فإذا أخذنا هذا العام وإذا اخترنا المجتمع الأمريكى بالذات . فن هي المرأة الحديثة ؟ إن هناك ملايين السيدات العواجيز وملايين السيدات الناضجات والشابات .. وكلهن يعشن في عصر واحد .. وفي بلد واحد . فن هي المرأة التي تمثل العصر الحديث ؟ .

فإذا اخترنا الشباب دون العواجيز فلماذا ؟ إن الشباب يعشن في القواعد والقوالب التي وضعتها سيدات قبلهن .. سيدات في كفاحهن ضد الرجل . وضد سلطان الرجل . وإذا اخترنا العواجيز فلا يمكن أن يكون هذا الاختيار دقيقا لأنهن لا يرقصن ولا يدخن الحشيش ولا يحملن قبل الزواج ولا يعترضن على الحرب في فيتنام ! .

ونساء الريف غير نساء المدن .. والفتيات العاملات غير الفتيات المتزوجات فقط .. والمرأة الغنية غير المرأة الفقيرة .. مع أنهن جميعا يعشن في عصر واحد وبلد واحد . فسلوك المرأة متنوع وليس جامد الخطوط ولا ثابت الألوان . وإن كانت المرأة هي المرأة .. وجسمها هو جسمها وبنائوه ووظائفه وأنوثتها واحدة مهما كان لونها . وأمراضها واحدة . وما يريده الناس منها واحد .. والمرأة في تكوينها الجسمي والنفسي تمر بمراحل مختلفة .. أو بأعمار متعددة . وهذه المراحل ليست محددة تحديدا واضحا فهي تتداخل بعضها في بعض . كما تتداخل البذرة في النبات الصغير . والنبات الصغير يتحول إلى شجيرة ثم إلى شجرة ثم يجيء دور الأزهار والثمار .

وجسم المرأة يتغير ووظائفها تنشط لتواجه احتياجات كل مرحلة من مراحل عمرها .

والحياة ليست مقسمة تقسما واضحا .. وإنما هي عملية مستمرة متطورة .. ويمكن وصفها بأنها عملية صاعدة .. فالمرأة ترتقي في تكوينها الجسمي والنفسي حتى تصل إلى مرتبة النضوج .

والمراحل التي تمر بها المرأة عادة : مرحلة الحمل .. أى عندما تكون طفلا
جنينا .. ومرحلة الطفولة والشباب .. ومرحلة النضج . ومرحلة الزواج والأمومة
 ومرحلة عدم القدرة على إنجاب أطفال . والمرحلة الأخيرة وهى مرحلة الهدوء
الجسمى والنفسى - يمكن أن توصف هذه المرحلة بأنها مرحلة الشيخوخة .. لولا
أن هذه التسمية غير دقيقة .

وبعض الناس يصف الحياة بأنها مثل سفح الجبل .. والإنسان يصعد هذا
السفح حتى يبلغ القمة . وعند القمة يتوقف الإنسان قليلا . ثم يتجه إلى السفح
الآخر . أى إلى الهبوط . وهذه الصورة غير دقيقة . لأن الحياة طريق صاعد .
وهذا الطريق يتسع أحيانا ويضيق . وتعرضه العقبات أو الغابات أو البحيرات
ولكن الانسان يمضى فيه صاعدا . ومرحلة النضج التي تصل إليها المرأة ليست
هى المرحلة السابقة على الذبول والشيخوخة . وإنما هى المرحلة التي تنبع منها
راحة الجسم والنفس والعقل .. فالمرحلة التالية على النضج هى مرحلة استمرار
النضج ولكن بكثير من العقل والهدوء .

وهذا الغموض وهذه الألغاز التي توصف بها حياة المرأة لم تعد سرا . فن
طريق الطب الحديث أصبحنا نعرف الكثير جدا عن المرأة . فبعد أن اكتشف
الطب الحديث الوظائف الخطيرة للغدد الصماء لم يعد فى جسم المرأة سر واحد
لانعرفه . لم يعد خافيا علينا أن نعرف غضبها وبكاءها .. لم يعد سرا ذلك
التقلب الدائم لحالتها النفسية مرة كل شهر .. وأياما كل شهر .. وهذه الغدد تؤثر
فى وظائفها الجسمية وفى غددها . إنها بركان من الحيوية وليست نوعا من
الفوضى . وإنما هى نظام دقيق إلى درجة الإعجاز . وفى هذا النظام الدقيق فى
الغدد تتجلى عظمة الخالق . فالإنسان هو أعقد وأعجب المخلوقات التي نعرفها .

ومن ماثات السنين .. ومن ألوف السنين أيضا كانت هذه الاضطرابات التي
تصيب جسم المرأة تجعلها تشعر بأنها مجنونة . أو أنها فى طريقها إلى الجنون . وكان

المجتمع ينبذها . ويؤكد أنها فعلا مجنونة أو شريرة أو سامة . فالمرأة قد نمت - عندما كانت تصاب بالمرض الشهري - كان المجتمع يطردها - يمنعها من تقديم الطعام أو عمل الطعام . ويمنعها من زيارة أى إنسان . وكان يعزلها فى بيت إلى أن تزول العفاريت التى تركبها .

أما الآن .. فالمرأة لديها معلومات طبية وعلمية كثيرة تسمعها وتقرأها . وكل هذه المعلومات تؤكد للمرأة أنها طبيعية . وأن ما يحدث لها هو شىء طبيعى . لأن تكوينها الجسمى ووظائفها مختلفة عن تكوين الرجل .. وهذا الاختلاف بين الرجل والمرأة ليس معناه أنه لصالح الرجل .. وإنما هما مختلفان فقط ..

ولكن المجتمع ظل مئات السنين يؤكد للمرأة صفاتها السلبية .. مثلا أنها ليست فى قوة الرجل .. أنها ليست فى ثبات الرجل .. أنها ليست فى ذكاء الرجل .. ليست فى عبقرية الرجل .. وأنها قلقة مضطربة . لا أمان لها . ولا إحساس عندها .. أى أنها رقيقة ولكنها رقة أمواس الحلاقة ناعمة وقاطعة .. فالرقة ليس معناها الضعف . ولكن معناها القوة الناعمة . كرقعة الحرير اليابانى .. ناعم ولكنه متين .

وهذا يدل على أن المرأة تعيش فى عالم يعادىها . أو على الأقل ليس صديقا لها لأنه عالم الرجل . الرجل القوى والرجل الأب . والرجل الأخ والزوج . والقانون والعادات والتقاليد والممنوعات والمحرمات وكلها من صنع الرجل . كلها تشير إلى أن المرأة إنسان قاصر ومن الضرورى الحجر عليها وتقييدها .. وعلى المرأة أن تجد نفسها رغم هذا كله .. وأن تؤكد وجودها وتنمى شخصيتها . وأن تواجه الرجل . وتعاديه وتصادقه وتعايشه بعد ذلك لتستمر الحياة .

والذى لا يعرفه الرجل عن المرأة هو هذه الحساسية الشديدة المرفقة فى تكوينها . وفى استطاعة المرأة أن تقوم بتجربة بسيطة .. وفى هذه التجربة ستجد أن كل ما فى جسمها يعمل ويرفق . ولكنه يعمل . فثلا إذا خرجت للمشى على

البلاج . ونظرت إلى موج البحر بارتياح . وملأت صدرها من الهواء . ثم توقفت لحظة وتذكرت أنها كانت منذ أيام مع إنسان عزيز . أو أنها سوف تكون هنا مع إنسان عزيز . وأحسست فجأة أن يدا امتدت إلى عنقها ولمست شعرها .. وتوقفت في رعب وتحفز وارتفعت ضربات قلبها واحتشد الدم في وجهها وسرت في جسمها رعشة . ثم أدركت أنه لا أحد هناك . وإنما هي قد أغرقت في خيالها .. هذه التجربة البسيطة جدا قد حركت ونشطت كل وظائف جسمها . وكل الغدد السرية المنتشرة في الدماغ ووراء الحلق وفوق الكليتين وغيرها مثل الغدد اللعابية . كل الأعضاء والوظائف أصبحت في حالة نشاط وتحفز . والعجيب في تكوين المرأة أن هذا النشاط كله يمكن أن يحدث عشرات المرات في اليوم الواحد . لأنها حساسة ولأنها سهلة الإثارة .

وهذه السهولة في نشاطها الداخلى هي السر الوحيد لاضطرابها وقلقها وتغيرها وتبدلها . وهذا كله يجب ألا يجعل المرأة تحس أنها غير طبيعية وأنها مجنونة . وأنها دون الناس جميعا . وعلى الرجل أن يفهم ذلك أيضا . وهذا التفهم من جانب الرجل شيء ضرورى . لأنه جزء من المعلومات العامة . ولأنه في نفس الوقت نوع من العذر يلتمسه للمرأة إذا اضطربت ضده أو إذا اضطربت من أجله .

ولكن ما الذى يريده الرجل من المرأة ؟ .

الذى يريده الرجل .. هو بالضبط ما تحاول المرأة أن تحققه .. فالمرأة تفعل ما يريده المجتمع والرجل هو المجتمع .

ومن المؤكد أن المرأة تريد أن تكون أنثى في مظهرها وفي أفكارها وفي علاقتها . وهى تريد أن تنجح في تحقيق هذه الرغبة .. والأسلوب الذى تستخدمه المرأة يتوقف على درجة الرغبة . وعلى الهدف . ولاشك أن المرأة - كل

امراة - تريد أن تكون طبيعية . وأن تشعر بأنها طبيعية .. أى أنها أنثى . وأن أنوثتها واضحة لبنات جنسها ولأبناء الجنس الآخر .

ولكن المجتمع الذى تعيش فيه المرأة لم يحدد لها معنى الأنوثة . فالأنوثة مختلفة من مجتمع إلى مجتمع ، ومن طبقة إلى طبقة ومن عصر إلى عصر .

وإن كان المجتمع قد استقر على صفة واحدة من صفات الأنوثة هى : المظهر الجسمى للمرأة . فالمرأة يجب أن تكون لها جاذبية جسمية . يجب أن تكون ناعمة البشرة . لامعة العينين . وحريرية الشعر . وأن تكون فى جسمها انحناءات وبروزات . وكل ما يريد الرجل هو الجمال والشباب . وما دام المجتمع يريد ذلك فالمرأة أيضا حريصة على أن تحقق جمال الجسم . وأن تظهر مفاتنه . وأن تلفت الرجل بجسمها . وإذا كانت المرأة قد تعلمت والرجل أيضا . فما يزال الرجل يريد منها أن يكون لها جسم جميل . ومن النادر أن يختار الرجل المرأة لأن عقلها جميل . إذا صح أن يوصف العقل بالجمال .

والمرأة عادة عندما تريد أن تكون جميلة فهى تتوهم أن الجمال شىء والصحة شىء آخر . وأن الذى تفقده بالمرض تستطيع أن تكسبه بأدوات التجميل . وهذه غلطة . لأن الصحة قادرة على أن تحقق الجمال أيضا . لأن الجمال ليس مظهرا خارجيا فقط . ولكن الجمال نظام داخلى ووظائف منتظمة وغدد تفرز الهرمونات التى تحقق جمال الجسم . واتزان النفس . ولقد عاشت المرأة فى أواخر القرن الثامن عشر مريضة عليلة مسلولة . لأن الجمال فى ذلك الوقت هو المرض ، هو الشحوب ، هو الضمور .. هو السعال ونزيف الدم . ولذلك قصرت أعمار النساء والرجال .. وكثيرون كانوا يتعجلون هذه النهاية فكانوا يتتحررون . ولاشك أن هذه مرحلة مريضة من الفكر الإنسانى ..

ولكن الصحة قادرة على أن تحقق الجمال الجسمى وتتوج المرأة بأنوثتها :

النعومة في البشرة والليونة في الأطراف والبريق في العينين ، وتكامل الشخصية ..

والمرأة تصبح تعيسة جدا إذا لم تكن جذابة الجسم - إنها تحس بأنها ناقصة التكوين . بأن فيها عيبا جوهريا . وهو بالفعل عيب جوهري . وهذا العيب يزداد إيلا ما للمرأة في مجتمع يرى أن الجمال الجسدى هو غاية الغايات ، وهدف الأهداف من المرأة .. وهذه المعاني منشورة في الصحف والمجلات وقصص الحب وأفلام الجنس . الكل يصرخ : اكشفي عن جمالك يا حواء .

وأزياء وفن الألوان وعرض الأزياء هو أحسن أسلوب اهتمت إليه المرأة لتكشف عن جمالها أكثر وأكثر . فليس صحيحا أن الفساتين تغطى جسم المرأة . وإنما هذه الفساتين تكشف عن جمالها .. ودلالها . ولا تكتفى الفساتين بأن تكشف جمال المرأة ، بل الفساتين تشير إليه من فتحة الصدر ، ومن شدة الحزام ، ومن الذيل الذى يرتجف فوق الركبة .. والألوان والقماش والتفصيلة .. كل هذه كلمات خرساء تشير في بلاغة إلى جسم المرأة .

ولذلك فن أكبر المشاكل التى تواجه المرأة : جسمها .. ومعظم السيدات في العالم سمينات . هذه قاعدة علمية .. حتى في آسيا .. ولا شك أن هذه السمنة هي مصدر من مصادر أحزان المرأة على نفسها . وتعاستها . والسبب رقم واحد في سمنة المرأة هو أنها تأكل كثيرا . وكذلك الرجل . وفي استطاعة المرأة أن تنقص وزنها . وهذا حلم . وفي استطاعتها أن تستخدم الحبوب التى تسد النفس عن الطعام . وفي استطاعتها أن تأكل المسلوق وأن تمتنع عن النشويات . ولكن ثبت بالدليل النفسى أن معظم النساء يفضلن الحبوب والامتناع عن الطعام ولا يلجأن إلى الرياضة . ويخشين أن تؤدي الرياضة إلى إظهار العضلات أو إلى إبراز العروق في الساقين والذراعين .

وواضح أن سبب السمنة هو كثرة الطعام . والحقيقة أن هناك سببا آخر هو

نقص الطعام - أى نقص الأطعمة الضرورية جدا للجسم - فالناس لا يأكلون كل الأطعمة الجوهرية التي يحتاج إليها الجسم ، والتي تحتاج إليها أعضاؤه المختلفة . ولا شيء يجعل تعاسة المرأة محققة مثل السمنة . وأحيانا يكون للمرأة قوام سليم . ولكن امتلاء جسمها باللحم يفسد القوام . وأحيانا يكون لها وجه جميل . ولكن جمال الوجه يضيع مع ضخامة الجسم .

والسمنة بالذات لا يمكن إخفاؤها فالمرأة تستطيع أن تغير لون شعرها . أن تصبغه . وتستطيع أن تغير لون بشرتها بالتعرض للشمس . وفي استطاعتها أن تطيل كعب حذائها . ولكن المرأة لا تستطيع أن تخفي الشحم الذى فى جسمها . فالسمنة معناها أن الجسم قد اختزن الكثير من الدهون . هذه هى القاعدة .

وهذه المرأة التى أتحدث عنها طوال هذه السطور هى المرأة الناضجة .. هى قمة النضوج الأنثوى . هى ملتقى الطفولة والشباب والأمومة . ولأنها ناضجة ولأنها قمة كل وظائفها ، فهى مشحونة بالحوية . ومشحونة بالعواطف . ويمكن استخدام كلمة أخرى بدلا من كلمة مشحونة - فهى «متفجرة» بالحوية . وهذا التفجير يراه الرجل انفجارا بالحركة وانفجارا بالبكاء وانفجارا بالدماء ..

وأمام هذه الانفجارات «الخيفة» التى يراها الرجل من المرأة ينسى أنه يعرف الحقيقة .. أو يتناسى الحقيقة . أو لعله لا يعرف . ولذلك فمن الضرورى أن يعرف الرجل ماذا يحدث . وهذا عيب فى تربية الرجل وفى تربية المرأة ويحىء الزواج فيظهر فيه هذا العيب الجوهري . فالمجتمع يعد المواطن لكل وظيفة يقوم بها .. إلا الزواج . فلا يزال المجتمع رغم الحريات الكثيرة التى يستمتع بها ، لا يعد المواطنين لفهم مبادئ الحياة الزوجية .. أى مبادئ الحياة معا ولفترة طويلة .. إن هذه الحياة معا صعبة . ولكن ما هو السهل فى هذه الحياة ؟ . فلا شيء سهل ولا شيء بسيط . وإذا كانت كل علاقة «علقة» : وكل ارتباط هو «رباط» ، فإن العلاقة بين الرجل والمرأة هى أصعب العلاقات . ولكن الصعوبة ليست بسبب

المرأة وحدها . ولكن بسبب الرجل أيضا . ولكن الرجل لأنه هو الذى يحكم وهو الذى يؤلف الكتاب والأغنية والسيناريو ، فهو يتحدث عادة عن صعوباته هو : أى عن المرأة - فهو قادر على أن يشكو .. وقادر على أن ينشر شكواه . وقادر على أن يغرس ذلك فى عقل المرأة فتصدقه .. أى أنها تصدق أنها موضع شكوى . وأنها صعبة . وأن العيب فيها . ولكنها لا تعرف ما الذى تفعله . وتحتاج إلى أن يقول لها الرجل ذلك . أى يقول لها ما الذى يجب أن تفعله حتى لا تكون موضع شكوى .. ويصبح الرجل بعد ذلك : هو الطبيب وهو المريض وهو الداء وهو الدواء .. والمرأة هى الضحية ..

ولكن إذا عرفت المرأة بوضوح حقيقة هذه المشكلة المعقدة فإنها ستجد أنها بريئة وأن الرجل ظالم . أما الجريمة نفسها فهى مشتركة بين الرجل والمرأة .. فلا أحد برئ ولا أحد مجرم . وإنما الحياة جريمة يقسمها رجل وامرأة ويمتهدى البراءة .

وهذه القصة من الأدب السنسكريتى جاءت فى الصفحة الأولى من الكتاب .. تقول القصة : يقال إن الله بعد أن فرغ من خلق الأرض والسماء والطيور والحشرات والأشجار .. وبعد أن فرغ من خلق الرجل . جمع بقايا كل شئ وخلق منها المرأة . خلق وجهها من استدارة القمر . وروحها من ارتعاشة الهواء . وبشرتها من نعومة الأفاعى . وعواطفها من التهاب النار . وخوفها من فزع القطة .. وجراتها من شراسة النمر .. وإخلاصها من وفاء الكلب . وكلامها من عسل النحل . وغيرها من إبرالنحل .. وبعد ذلك أعطاها للرجل ..

ولم يمض سوى أسبوع واحد حتى عاد الرجل يرد هذه الهدية إلى الله وهو يبكى قائلا : أنت أعطيتنى هذه فخذها . فهى لا تكف عن الكلام ولا تسكت عن البكاء . ولا تعمل أى شئ .. وهى تريدنى أن أداعبها ليلا ونهارا .. خذها يارب .

وأخذها الرب غاضبا .. وبعد أسبوع عاد الرجل .. وهو يقول : أريدها
يارب .. فقد كانت تغنى وترقص .. وكانت تغمز لى بعينها بعد الغروب . وأنا
أشكو من الوحدة .

وأعادها الله إليه .. وبعد ثلاثة أيام قادها الرجل إلى الله وهو يقول : تعبت
معها يارب .. تعبت حتى لم أعد قادرا على الشكوى منها . خذها يارب ..
خذها ..

وهنا ثار الله على الرجل قائلا : اختر لك شيئا .. هل تريدها أو
لا تريدها ؟ .. انطق فورا الآن وإلا أعدمك وأبقيت عليها وخلقت للمرأة زوجا
غيرك .. انطق ..

واستدار الرجل وهو يسحب حواء من شعرها .. وهو يقول : لا أنا قادر
على بعادها ولا أنا قادر على قربها .. لا على الحياة معها .. ولا على الحياة
بغيرها ! .

ثلاثة ألوانا من الحب

الذين أحبوا حتى الموت

الحب كالعفاريت .. كل الناس يتحدثون عنه ولكن أحدا لم يره .

ولكن هذه السيدة تؤكد أنها رأت الحب ورأت عفريت الحب أيضا . وقد أصدرت ثلاثة كتب في موضوع واحد : الحب والفرنسيون .. الحب والانجليز .. الحب والأسبان ..

وهي في كل كتاب تؤكد أن لديها الأدلة القاطعة على أن الحب كان موجودا .. وأنها رأت أسلوبه في الفن وفي بيوت الناس .. لأن الحب هو خليط من الفن والفضيلة .. وأنها استطاعت بالممارسة الطويلة أن تقول لنا : ما هو الفن .. وما هو الحب ..

اسمها : نينا ابتون . وقد تخصصت في دراسة فن الحب وتقول : إنها فشلت في حبها مرتين .. ولكنها هذه المرة لن تفشل .

وهي بالفعل لم تفشل . فكتابها الكبير جدا عن « الحب والفرنسيون » ابتداء من العصور الوسطى حتى يومنا هذا ، متعة فنية تاريخية ومثير جدا .. فهي لم تكتف بدراسة التاريخ .. وإنما وجدت متعة في أن تنقل لنا صوره المثيرة - يمكن

أن أقول العارية جدا . فهي لم تكتف بأن فتحت أبواب التاريخ على الحب ، وإنما دخلت . وتفرجت واشتركت في المناقشة .

وحاسها الشديد يدل على أنها تذوقت الكثير من القبلات والصرخات التي ملأت الكتاب .

والمؤلفة تجعلك تشعر بأنها سيدة تؤرخ للأزياء في العالم .. وذلك بأن ترتدى هذه الأزياء واحدا واحدا .. من الملاية اللف حتى المايوه المجنون .

وقد اختارت نينا ابتون بداية الحب في فرنسا في العصور الوسطى .

وفي هذا الوقت كانت أوروبا - وفرنسا أيضا - مشغولة بالحروب على حدودها . وبالحروب الصليبية ذهب الكثيرون باسم الدين للدفاع عن الأراضي المقدسة . ذهب الرجال وبقى النساء .

وكان هناك فراغ لا أول له ولا آخر .

والفراغ هو «الجو» الذي ينمو فيه الحب . فعندما تكون اليد خالية ، ينشغل الرأس بالأحلام .

الرأس يحلم بالطعام الذي يملأ المعدة ، والطعام الذي يملأ القلب ، وبعودة المحارب الذي سافر إلى بلاد بعيدة يحمل سيفه وصلبيه .

وفي هذا الوقت لم يكن الحب معروفا بصورة صارخة .. ولم تكن هناك قصص حب معروفة . أى لم تكن هناك « نماذج » أدبية أو فنية للحب بين رجل وامرأة ..

وفجأة ظهر الحب .. وأغانى الحب .

وكان هذا الحب عربيا صميا . فقد عاد أحد النبلاء من معركة له في جبال البرانس على حدود فرنسا وأسبانيا . ومع هذا النيل عدد من الأسرى . رجال ونساء . أما النساء فقد ارتدين الفساتين السوداء . وقد غطين وجوههن بنقاب

أبيض . وكن سمرافات . وكانت الدموع بارزة في عيونهن الواسعة . لقد عاد هذا النبيل منتصرا .

وفي الليل احتفل هذا النبيل بانتصاره . وكان من بين الأسرى مطربون . ومنشدون . وهؤلاء المطربون يغنون شيئا اسمه « الزجل » . لقد أطلق الفرنسيون في ذلك الوقت على الأغاني العربية اسم « الزجل » . أما هذه الأزجال فكانت في موضوع واحد هو : عذاب العاشق ، وصلابة قلب المعشوقة والإخلاص إلى الأبد .

وفي قلعة هذا النبيل « دوق كيتان » سمعت باريس لأول مرة أغنية عربية . ولأول مرة يدخل الأدب الفرنسي معنى « الشهامة » و « الفروسية » .. والموت من أجل المحبوبة . والحياة من أجلها ومن أجل الإخلاص لها حتى الموت . والفرنسيون عندهم الاستعداد الهائل للحب وسيرة الحب . والحياة به وله .

فهناك أسباب جغرافية أدت إلى انتعاش الحب في فرنسا أكثر من غيرها من البلاد . ففرنسا جوها معتدل . دافئة . لياليها صافية . قمرها يظهر كثيرا وراء السحب وبلا سحب . وفي الليل يولد الحب وينمو . وتحت الأشجار وعلى الأعشاب يتعاقب العشاق .. ويلتقي التأمل والأحلام .. تأملات أبناء الشمال ، وأحلام أبناء الجنوب . وفرنسا دولة لها حدود في الشمال ، ولها حدود على الجنوب .

وإذا كان العرب والفرس يتحدثون عن البلابل في قصائدهم فالفرنسيون يتحدثون كثيرا عن الزهور وألوانها وأنواعها وعطورها .. وهم يرون أن الحب القادر على أن يجعل لكل شيء لونا ، ويجعل لكل لون معنى .

كما أن الفرنسيين يستطيعون أن يناموا في الحقول ، في ظل الأشجار نهارا ، وتحت أشعة القمر ليلا ، دون خوف .. فلا توجد في فرنسا زواحف سامة .

وهناك سبب آخر وهو لأن الفرنسيين خليط من أبناء البحر الأبيض المتوسط وأبناء الشمال .. فقد أصبحت لديهم حرارة القلب ، وبرودة العقل . فأبناء البحر الأبيض فيهم حرارة حارقة . والحب حرارة ملتهبة . وفيهم برودة العقل الشمالى . والحب أيضا له قواعد وله أصول وله حدود .. وقد عرف الفرنسيون كيف يحترقون بعقل أو كيف يدق قلبهم بحساب . فكانت الأعمال الأدبية والفنية .. أى كانت النار فى داخل الآنية الزجاجية الشفافة . فكل عمل فى هو عبارة عن قطعة من النار وقد اعتقلت فى إناء شفاف جميل ..

والسبب الثالث هو اللغة .. فاللغة الفرنسية غنية بكلمات الحب والهيام .. ورقيقة .. ومنها كلمة : أنت .. وما أسهل أن يتنقل الحب الوهان من مخاطبة حبيته بقوله : حضرتك .. إلى أن يقول لها : أنت .

وبين كلمة « حضرتك » إلى كلمة « أنت » يتنقل كل شىء من الرجل إلى المرأة والعكس . تنتقل ملكية الدنيا كلها . فيصبح الرجل مالكا للمرأة ، وتصبح المرأة مالكة للرجل .. وملكة عليه أيضا .

وأخيرا هناك السبب التاريخى .. فى العصور الوسطى كان هناك نموذج من الحب لا بد أن يؤثر فى سلوك وأدب الفرنسيين والأسبان والاطالين .. والانجليز والألمان .. وهو « الحب الشهم » .. أو « أخلاقيات الفروسية » .

فقد ظهر فى فرنسا فى القرن الثانى عشر شعراء فرسان .. الذين يسمون بالطروبادور- وهى كلمة مأخوذة من كلمة « طرب » العربية - هؤلاء الشعراء أغلبهم من النبلاء .. أى من الشبان الذين عندهم متسع من الوقت ، وليسوا فى حاجة إلى البحث عن عمل . وليسوا فى حاجة إلى أن يعرف الناس أصلهم وعراقة دمهم .. فهؤلاء الشبان يؤلفون أغانيهم .. ويغنونها أيضا . وبلا مقابل .. حتى الحب نفسه بلا مقابل . إنهم يحبون للحب . ويحيون لأنهم يريدون أن يخلصوا وأن يتعذبوا فى الحب .. فهم يطلبون المزيد من العذاب فى الحب ..

وأول شاعر طروبادور في التاريخ هو الدوق جيوم داكيتان (١٠٧١ - ١١٢٧) .

وهو ابن ذلك النبيل الذي عاد منتصرا في الحرب ومعه المطربون والمطربات العرب . وعندما عاد أبوه من ميدان القتال . كان هذا الطفل واقفا على باب القصر . وسمعهم يقولون .

وفي الليل تسلل هذا الشاعر الصغير إلى حيث يجلس أبوه واستمع إلى الموسيقى والأغاني ورأى الرقص الشرقي الأسباني .

وكان الطفل في السابعة من عمره .. ولما مات أبوه كان في الخامسة عشرة من عمره .. ولكن رأسه قد امتلأ وقلبه بدأ يتفجر بشيء يعرفه جيدا اسمه : الحب .

وقد أعلن أبوه للحاضرين أنه أتى بهذه الراقصات من بلاط الخليفة .. وأن هذه « الأزجال » التي يغنونها كانت من تأليف شاعر أسمى اسمه « مقدم » الذي تأثر كثيرا بما كتبه الفيلسوف العربي ابن سينا .. وهو أيضا يتغنى بالحب والعشق . ولقد سألته زوجته : ولكن هؤلاء الناس ما الذي يعرفونه عن الحب ؟

وكان رد الدوق داكيتان : كل شيء ..

وعادت الزوجة تقول : كيف يتكلمون عن الحب وهم يجلسون زوجاتهم وراء ستائر ثقيلة ؟ .

وقال الزوج : بسبب هذه الستائر الثقيلة كان الحب وحده القادر على أن يزيع الستائر وكان هو وحده القادر على إدخال السلوى على قلوب الحريم .. فالحب يجعل كل امرأة في الحريم ملكة على عرش لا أول له ولا آخر .. فالحب وحده هو طريق الخلاص .

وقد سمع الدوق عن قبيلة عربية اسمها (بنو عذرة) .. وهذه القبيلة مشهورة

بالحب العفيف .. بل مشهورة بشيء آخر أقوى من الحب .. إنهم يحبون حتى يموتوا .. أو يحبون أن يموتوا . فالحب عندهم والموت بمعنى واحد .

وقد تأثر الطفل جيوم داكيتان أول شعراء الطروبادور بكل ما سمعه من أبيه . وبعد وفاة أبيه انطلقت موهبة هذا الشاعر الشاب بالأغاني المثيرة .. والأغاني العنيفة الفاجرة أيضا . وكان هذا الشاعر يقول عن نفسه : ولا واحدة تستطيع أن تقاومنى .. ولا واحدة تكفى بأن ترانى مرة واحدة .
ولم يكن مبالغا فيما قال ..

وفى ذلك الوقت كانت تدور المعارك من أجل المحبوبة . وكان تسيل الدماء . وكانت تذهب المحبوبة لإنقاذ حبيبها . فهى تغسل جروحه . وأثناء تجفيف الدم يفتح القلب . فالحب يولد فى قلب المرأة عندما تهزها الشفقة والإعجاب بالرجل الذى تعذب من أجلها .

ولكن الحديث الطويل مع الفارس الجريح لم يكن محترما فى ذلك الوقت .. فكثيرا ما انتقلت الشائعات بأن فلانة تكلمت مع فارس جريح .. وكانوا يعيرونها بقولهم : كلامها صريح مع أصحاب الجروح .

وكان الطروبادور ينادون بالفضيلة إذا تغنوا ، ولكنهم فى الحقيقة ليسوا كذلك .

ولم يكن حب الزوجة فى ذلك الوقت شيئا محترما .. أو مطلوبا . وإنما كان الزوج - والكنيسة أيضا - يرى أن الإنسان يجب ألا يحب زوجته .. وإنما العلاقة بين الرجل والمرأة هى علاقة تعاون من أجل زيادة عدد سكان فرنسا .

ولذلك ظهرت فى ذلك الوقت أنواع غريبة من قصص النوم الغليظة الجافة ، هذه القمصان تجعل الزوج إذا تمدد إلى جوار زوجته لا يستطيع أن

يفرق بين جسم الزوجة والحائط . لأنه ليس من الضروري أن يكون هناك حب .. وإنما يكون هناك أولاد فقط .

وكثير من هؤلاء الشعراء العشاق كانوا ينجثون حياتهم بالتكفير عنها . أى بأن يذهبوا إلى الأديرة .. أو بأن يوصوا بممتلكاتهم إلى الكنائس ..

وقد اختلطت القيم في ذلك .. فالعاشق يذهب إلى الكنيسة يقسم على الحب والإخلاص مدى الحياة أما الزوج فيقسم على الزواج بلا حب مدى الحياة .

وفي هذا الوقت كان ينام العشاق والسيف بينهم .. فكل من تساوره نفسه أن يقترب من المعشوقة يجب أن يغمد السيف في قلبه ..

وأصبح من المألوف أن ينام العاشق إلى جوار معشوقته عارية . فلا يمسه . وفي هذا الوقت أبرزت الكنيسة تمثال العذراء .. أى نموذج « الحمل الطاهر» .. أى نموذج للسيدة الطاهرة التي حملت دون أن يمسه بشر .

وقد استولى هذا المعنى على الفكر والفن في العصور الوسطى لدرجة أن المحبين كانوا يرون أن العلاقة بين الرجل والمرأة يجب أن تكون طاهرة أو يجب ألا تكون علاقة تؤدي إلى حمل .

وقد حدث أن تزوج أحد الشبان .. ولكنه قرر أن تكون العلاقة طاهرة . فذهب وأخفى خاتم الزواج وراء تمثال للعذراء . وفي ليلة زفافه استغرق في النوم . وزارته العذراء في نومه وعاتبته على أنه يخونها مع امرأة أخرى فنهض من فراش الزفاف وذهب إلى الدير بقية حياته .

* * *

أما ملامح المرأة في ذلك الوقت ، فالصور واللوحات والتماثيل تكشف عن

نوع غريب من الجمال . فالمرأة قد تغطت كلها وبالأزياء طبعاً .. وهي ترتدى الملابس الخضراء إذا كانت حديثة العهد بالحب .. والملابس الزرقاء إذا كانت مخرصة في الحب .

وكانوا يفضلون الشقراوات في ذلك الوقت أيضا .
ولكن اللوحات تفضح لنا جمال المرأة في ذلك الوقت : فهي ضيقة الكتفين نحيفة الذراعين مفروصة النهدين .. وهي مدببة الأنف منقوخة الجبهة ..

فما عدا سيدة واحدة هي « أنيس سوريل » التي كانت عشيقة الملك شارل السابع . فقد اكتشفت في نفسها مظاهر الأمومة .. فارتدت فستانا عارى الصدر .. فبرز نهديها .. وبهذا الفستان أصبحت النهود العالية موضحة . وكان المثل عندهن : النهدي الذي يمكن أن يثبت عليه الشمعدان فلا يقع .

ولم يكن المجتمع في ذلك الوقت يتسامح مع الخيانة الزوجية فالزوجة الخائنة يملقون شعرها ويلقون بها في السجن حتى تموت .
أما العشيق فكانوا يسلخون جلده وبعد ذلك يقطعون بعض أعضاء جسمه ويتركونه حتى يموت .

وكانت الأغاني في ذلك تطلب من العاشق الوهان أن يحترس في اختيار من يبعث معهم برسائله إلى المعشوقة .

وانتشرت في ذلك الوقت الأمراض الخبيثة التي انتقلت من أمريكا .. إلى إيطاليا وفرنسا .. وكانوا يسمونها أمراض نابلي .. وكان الإيطاليون يسمونها : أمراض باريس .

وفي سنة ١٢٢٣ صدر قرار بسجن سيدة لأنها شتمت جارة لها بقولها :
إلهي رينا يتليك بمرض نابلي .

وفي القرن الخامس عشر ظهر ماريشال اسمه جيل دي رتس .. هذا الرجل اتهموه بقتل مئات الأطفال الصغار . فقد كان شديد الشذوذ .. ولذلك صدر قرار بإعدامه حرقا .

وكان هذا الماريشال أحد الأشرار الذي سبقوا الماركيز دي صاد الذي نسبت إليه كلمة «الصادية» أي لذة تعذيب الآخرين .

وفي هذا العصر كنا نلمح بعض اللفتات الغريبة من الملك روبر الطيب .. فهو كان صديقا للباغايا والغانيات .. وقد حدث أن رأى وهو في طريقه إلى الكنيسة «شابين يتعانقان» ، فنزل من فوق حصانه وغطاهما بردائه .. وانصرف يصلى .

* * *

وفي القرن العشرين وبعد الحرب العالمية الأولى نجد حرص الناس على الحياة .. على أن يعيشوا بعد أن مات منهم أكثر من مليون فرنسى . ولذلك نجد الحب بعد الحرب العالمية الأولى يصبح حسيا جدا .. أو حسيا فقط . ونجد أدباء كبارا يرفعون رايات العرى والتعري . ونجد من يقول : إن الإنسان استطاع أن يجعل من الجنس وهو وظيفة حيوانية ، ينبوعا له معنى جميل ..

ولكن انتشار «الحسية» الشديدة يرد هذا المعنى الجميل إلى مجرد وظيفة .. ويجعل ينبوع يفيض بالوحل .. وليس بالجمال .

وفي كل القرن العشرين نجد الكثير من المعانى الفنية والقيم الجمالية تصبح ضحية للشك والضياح .

وضاع الحب بين المعانى التي ضاعت في زحمة الشكوك والارتباب والخوف من الموت ، والخوف على الإنسانية كلها والسفر إلى الكواكب - أى هجرة الناس من الكرة الأرضية والحرب من مصائبها وانشغال الناس بالناس وإطعام

الناس وتحرير الناس ، والإبقاء على الناس من أجل المحبة العامة ، وليس الحب بين اثنين فقط من الناس ..

والعاشق الوهّان قريب إلى حالة الموت .. لأنّ العاشق لا يرى أى تغيير فى الدنيا ، فهو لا يراها ويريد الدنيا أن تقف وأن تسكن . وأن تظل السعادة الأبدية . وأن يخلو له الكون هو ومحبوته . فالعاشق - إذن - يتصرف كأنه ميت .. كأنه لا يشعر بما حوله .. فهو يريد أن يعدم الدنيا كلها ليعيش هو ..

مثل هذه التزعّات الفردية العنيفة قد تلاشت فى القرن العشرين . فقد ظهر نوع آخر من الحب .. ولكنه ليس حبا سليما .. إنه حب مريض .

وإذا كان الكبار قد انشغلوا عن الحب ، فسيظل المراهقون أمراء الحب .. وإذا قام الإنسان بإجراء مباريات فى كرة القدم على ظهر القمر ، فلن يتوقف الأطفال عن لعب الكرة فى الحواري .

ولذلك سيبقى الحب لعبة الصغار ، ما دام هناك أطفال صغار فى أى مكان على الأرض أو على أى كوكب آخر .

العربة والحصان والحب

أما الذى يحيط بهذه الجزيرة أو ما الذى يجرى فيها فلا يمكن أن يكون الحب . ولا لغة الحب ولا كل ما هو مألوف فى العواطف بين الناس فى القارة الأوربية .

وهذه المعانى هى التى جعلت السيدة « نينا ابتون » تحس أن العالم كله يتحداها أن نجد إنسانا واحدا فى انجلترا يحب .

ولكى تخفف على نفسها روح التحدى ونجىء عبارتها هادئة تخيلت حوارا يدور بينها وبين القارئ العادى :

القارئ : لم أملك إلا الابتسام عندما عرفت أنك تؤلفين كتابا عن الحب عند الانجليز .

المؤلفة : أى نوع من الابتسام ؟ .

القارئ : ابتسام السخرية طبعاً .

المؤلفة : إذن فقد صدقت تلك التشبيعة التى أطلقت علينا وهى أننا لا نعرف الحب .

القارئ : لا تستطيعين أن تنكرى أن نصيبنا نحن الانجليز من الحب ضئيل جداً .

المؤلفة : هذه غلطتنا . فقد تركنا لأدباء القارة الأوربية حرية تصدير نظريات

الحب إلى بلادنا وإغراقنا في الغرام وفي أشياء أخرى كثيرة .. ولكننا أثبتنا بعد ذلك قدرتنا على العمل .

القارئ : وهل وجدت نماذج للمحبين في تاريخنا ؟ .
المؤلفة : لا يوجد نموذج للمحبين . فالحب أسلوب فريد . وهناك عادات وموضات في الحب . وهذه الموضات يقلدها الناس من عصر إلى عصر .. وإن كنا نجد في كل قرن عشاقا خالدين . ومهما تغيرت الموضات ، ومهما تغير هؤلاء الخالدون فجوهر الحب واحد . والموقف فقط هو الذى يتغير .

القارئ : ألا يمكن استخلاص جوهر الحب هذا ؟ .
المؤلفة : هذا ما لا أتمناه .. فإن البحث عن استخلاص للحب وتقديره في جملة أو في وصفة يفسد علينا الكثير من متع الحياة . لأن الحب مزيج من عناصر لا ترى . والقليل من الناس يملك هذه العناصر ويصبح قادرا على تركيب الوصفة السحرية في أنفسهم . وسوف يكون دائما عدد قليل من كبار العشاق .. بينما سيكون هناك عدد هائل من الملهمات .

القارئ : لا أعرف من الذى قال إن الحب وهم في وهم .. وأنه ليس أكثر من قطعة من المعدن اللامع ملفوفة حول حقيقة بيولوجية .

المؤلفة : لا يمكن أن يكون صاحب هذه العبارة رجلا قد عرف الحب .

القارئ : ولكن أين وجدت أنت هذا الوهم الذى اسمه الحب ؟ لا بد أنك قد عثرت عليه بالصدفة في كتبنا القديمة ؟ لا بد أنك صادفت شبحا مخيفا .

المؤلفة : أبدا . بالعكس - لقد وجدت الحب في أماكن أخرى . وجدته في الخطابات الغرامية المصمغة منذ وقت طويل .. وعثرت عليه في المذكرات الخاصة التى احتفظت بها سرا عائلات عريقة كثيرة .. ثم لم تشأ أن تنشرها .

القارئ : وما الذى دفعك إلى التعب وتأليف كتاب عن شيء لا نعرفه نحن الانجليز ؟ .

المؤلفة : بعد أن صدر كتاب عن « الحب والفرنسيون » تلقيت تهنئة من صديق فرنسي مثقف . وجاء في خطابه : من المستحيل أن أجد مادة للكتاب عن الحب عند الانجليز . وأن مقالا واحدا يكفي لسرد كل قصة الحب عند الانجليز . وأحسست أنه يتحدثني وما يؤسف له أنني قد صادفت كثيرا مثلك .. ولهم رأى مثل رأيك . لديهم شكوك . وسوف أبدد هذه الشكوك .

القارئ : إذن سيكون كتابا دفاعا عن الانجليز .
المؤلفة : نعم . إنه دفاع عن الحب الذى أهملناه وعن العشاق الذين نسيناهم . وقد ألفت هذا الكتاب ليستمتع به القارئ . أما أنا فقد استمتعت به . واختصرت منه الكثير . ولو قدر لي أن أتناول بالتفصيل سيرة الحب عند الانجليز لأصدرت ستة كتب لا كتابا واحدا من ستة فصول ، ولا استعنت بعدد من الخبراء من بينهم : مؤرخ وفيلسوف وشاعر وطبيب وباحث اجتماعي .

القارئ : دائرة معارف عن الحب .
المؤلفة : بلا شك . ولأننى أعتقد أن هناك مجالا كبيرا لتفصيل الحب عند الانجليز . أرجو أن تقبل هذه الوجبة الخفيفة الفاتحة للشهية ومعها زجاجة شمباتيا .

* * *

بهذه اللهجة الحارة والنبرة العالية تمضى المؤلفة في دفاعها عن مواطنها من الانجليز . وتقلب في كل صفحات التاريخ لتعثر على العشاق والمحبين والخطابات ومحاضر البوليس ودواوين الشعراء ومسرحيات شيكسبير ، واعترافات الفيلسوف المثالى توماس مور .

وأول قصة حب نصادفها في الكتاب تقول لنا إن أحد الملوك طلب إلى ابنه أن يتزوج أرملة بعد وفاته .. ولكن الابن كان يحب سيدة أخرى . وعندما قرر أن يتزوج من امرأة أبيه .. جاءت حبيبته على رأس جيش وهزمته وجرته بالحبال ليقبل قدميها ويطرد أرملة أبيه .. ثم يتزوج .. الحبيبة المنتصرة .

وصدرت قوانين تحرم زواج الإبن من أرملة الأب . ثم عادت إلى الظهور مرة أخرى . واضطر القديس أوغسطين أن يعلن خروجه من إنجلترا ومن الديانة المسيحية . ولكنه رأى القديس بطرس في نومه يعنفه ويضربه . ويطلب إليه أن يبقى إلى جوار المسيحيين . ونهض من نومه وما زالت علامات الضرب دائمة على كل جسمه .

وقصة الملك وليام الفاتح : لقد تقدم لخطبة إحدى النبيلات . ورفضت لأنها تحب رجلا آخر .. وهذا الرجل لا يحبها . فذهب الملك أمام الكنيسة وانتظرها حتى خرجت وانهاled عليها ضربا حتى سقطت على الأرض . ولكن النبيلة كانت تحب الرجل الذي يضرب المرأة .. فأحبت الملك ووافقت على الزواج منه .. ولما طلب إليها أن تختار أى قطعة من الأرض لتبنى عليها قصرها .. اختارت أرض الرجل الذي كانت تحبه ولا يحبها . واستولى الملك على الأرض . وجاء بالرجل مربوطا بالحبال وألقى به عند قدمي الملكة فأودعته السجن حتى مات .

وكان من المؤلف في القرن الثاني عشر والثالث عشر أن يتزوج الأطفال وهم صغار . أما السبب فهو أن أصحاب الأرض كانوا يستولون على الأطفال ويسخرونهم في خدمة الأرض بلا مقابل .. ولذلك كان الناس يبادرون بتزويج أطفالهم .

وكان من المؤلف في هذه الفترة أن تراث الكنيسة ما يتركه الزوج ، ما دامت الأرملة قد تحولت إلى راهبة .

وعندما تنبه الناس إلى جشع الكنيسة كانت الأرملة تتزوج بعد وفاة زوجها . وفي هذا الوقت راح رجال الدين ينشرون خرافة ظهور أرواح الأزواج يطاردون الأراامل في كل مكان .

ومن أغرب القصص التي جاءت في الكتاب قصة الفيلسوف توماس مور صاحب كتاب «المدينة الفاضلة» فقد جاءه رجل يخاطب إحدى ابنتيه . فأخذ الرجل من يده واتجه مباشرة إلى غرفة ابنتيه .. ووجدهما نائمتين تحت غطاء واحد .. فتنزع من فوقهما الغطاء . وأحست الفتاتان بشيء من هذا فتقلبتا على الوجه الآخر وهنا أعاد الرجل الغطاء فوق ابنتيه العاريتين تماما .. وقال للرجل الذي جاء يخاطب واحدة منهما : الآن لقد رأيت كل شيء .. فأنا من رأي أن الرجل يجب ألا يتزوج امرأة إلا بعد أن يراها عارية تماما .

وسواء كانت هذه القصة صحيحة أو مخترعة ، فإنه قد ذكر في «المدينة الفاضلة» أنه يجب ألا يكون هناك كذب أو خداع من الرجل والمرأة .. وأن التفاهم يجب أن يكون تاما .

وقد تزوج الفيلسوف مور مرتين . وعندما مات كتب على قبره وقبر زوجته : أيها الموت امنحنا جميعا ما حرمتنا الحياة منه .. أن نعيش معا في سلام . ولم يكن كل الأدباء والفلاسفة والعشاق من أنصار الحب والزواج ، فقد ارتفعت أصوات صارخة تلعن الحب وتلعن الزواج .

حتى قبل أن يقول بيرون : الحب الذي يؤدي إلى زواج ، مثل نبيذ يتحول إلى خل .

وقبل أن يقول «كارليل» : الحب ليس كله هديانا . ولكن فيه معاني الهديان .

والعالم الكبير تشارلز داروين كتب في ١٨٣٧ يقول عن مزايا الزواج :

أطفال وصديق للعمر وموسيقى وثرثرة للنساء .

. وكتب داروين عن عيوب الزواج : ضياع رهيب للوقت وإذا كان هناك أطفال كثيرون فإنهم يرغموننا على كسب القوت ويقتلون فينا روح الكفاح .
وقال داروين أيضا : ولكن من الصعب أن يقضى الإنسان كل عمره كالنحلة يبحث عن الطعام ثم يأوى في النهاية إلى بيت قدر . إنه في حاجة إلى الزوجة الجميلة وإلى الدفء والموسيقى . قارن حياتك بعد الزواج بحياتك قبل الزواج . سيكون الفارق واضحا إنه لصالح الزواج .. فتزوجوا .. تزوجوا .. تزوجوا ..

. وتشارلز داروين كان من أحسن الأزواج وأكثرهم إخلاصا .. وهو الرجل الذى اكتشف نظرية أن الإنسان أصله قرد .

وكل أشكال الحب لا ترضى كاتبها كبيرا مثل هـ . ج . ولز . فهو يرى أن الناس على هذا الكوكب غير قادرين على الحب . وأنهم فى إنجلترا غير قادرين على أن يكونوا ناسا . وأن الإنسان عموما ليس إلا حيوانا مراهقا وأنه شديد التقلب من المحبة والكراهية والإخلاص والخيانة والغيرة والبلادة . وأن كل ما كتبه الناس عن الحب ، يشبه أصوات الآلات تحت أصابع العازفين قبل بداية الحفلة .

أما الفيلسوف راسل فهو ينظر إلى المجتمع الانجليزى عموما ويقول : لا أمل فى إصلاح هذا المجتمع إلا إذا مات كل الناس فوق الأربعين .

* * *

وعلى الرغم من الحريات الممنوحة للمرأة .. وعلى الرغم من أنها فى كل مكان يقف فيه الرجل .. فإن المرأة لاتزال سندريللا .. إنها الفتاة المسكينة التى تحلم بأمر على حصان أبيض .. وتنتظره . ولا يهم أبدا أن يجيء .. فالمرأة

لا تشيع من الحب . والكلام عن الحب . ولو تزوجت ألف مرة وتكسرت أسنانها ، فإن معدتها تظل - حتى الموت - قادرة على هضم كل كلام عن الحب .

ولاشك أن هذه الأحلام عند المرأة هي نوع من الخيانة العقلية .. ولكن الرجال قادرون على التفتيش عن هذه الخيانة العقلية بمشاهدة الرقص العارى والانغماس فى كثير من اللهو والملذات التى يسمح بها المجتمع للرجال ولا يسمح بها للمرأة ..

ولا يزال المعنى القديم هو شعار الحياة الزوجية فى كل عصر : فزواج بلا حب ، عربة بلا حصان .. وحب بلا زواج حصان بلا عربة .. وعندما يجتمع الزواج والحب ، فمن الصعب أن تبقى العربة عربة . ويبقى الحصان حصانا . وتقول المؤلفة « نينا ابتون » وقد بلغت المائة الرابعة من كتابها : أعتقد أننى قد دافعت بما فيه الكفاية عن البرود والجمود عند الانجليز .

والحقيقة أنها قد نجحت فى الدفاع ولكن نجاح المحامى فى الدفاع لا يعنى أنه على حق دائما .. بل إنه محام بارع . فقط ! .

يؤمياك كارمن واخوتها

إذا كان الفرنسيون يصنعون الحب ، فإن الانجليز يتحدثون عنه ، والألمان يفكرون فيه ، والطيان يأكلونه .. أما الأسبان فإنهم يرقصونه .

والرقص لا تغرب عنه الشمس في أسبانيا .
وهناك أكثر من أسبانيا : أسبانيا المتدينة جدا ، وأسبانيا المتحررة ، وأسبانيا المتحررة جدا .. وأسبانيا الموجودة في مدريد .

وقد شاءت السيدة « نينا ابتون » في كتابها عن (الحب الأسباني) أن تختار بداية عربية صميمة للحياة العاطفية في أسبانيا . وقد جعلت هذه البداية في العصور الوسطى .

وقد اختارت كتاب (طوق الحمامة) لأبي محمد بن حزم الأندلسي دستورا للمحبين في الأندلس . وهذا الكتاب يضم عددا من الرسائل في الحب والغرام والنظرة بالعين والعفة والغيرة والطاعة والكرامة .. وكيف يمكن أن يكون الإنسان محبا عفيفا ..

وابن حزم قد اختار كتابه (طوق الحمامة) لأن من عادة العشاق أن يعثوا

رسائلهم مع إنسان أمين ، أو حيوان مخلص لا يذيع أسرار العشاق . ويقول ابن حزم في سبب اختياره للحمامة رسولا إلى محبوبته :

تخيرها نوح لما خاب ظنه لديها وجاءت نحوه بالبشائر
سأودعها كتبي إليك فهاكها رسائل تهدي في قوادم طائر
والشاعر ابن حزم كان رجلا رقيقا . وقد تعلم الرقة من عشرته الطويلة
للجوارى ولكن هذه العشرة جعلته يعتقد أنها كائن ضرورى فقط ولكنها ليست
كائنا يستحق الاحترام والإعجاب . فقد رأى من حيل النساء وكيد النساء
الشيء الكثير .

ولكنه عندما أحب جاريته « نعم » تزوجها . وكان دون العشرين . ثم
ماتت « نعم » هذه ، وظل حزينا سبعة شهور لا يغير ملبسه ، وبكى .. حتى
أصابه مرض في أحشائه جعل عينيه لا تدمعان ، فهو عاجز عن البكاء ، وهو
لا يقوى على النظر إلى الضوء .

ورغم هذه الحياة الرقيقة المضطربة ، ورغم معاركه السياسية والعاطفية فقد
ألف أكثر من ٤٠٠ كتاب . ولم يصلنا من هذه الكتب إلا القليل جدا . وابن
حزم مثل كثير من الشعراء الرومانسيين في أوروبا بعد ذلك فقد نظم معظم شعره
وهو في العشرينيات ، مثل رامبو ، ولوتريامون ، ونوفاليس ، وبيرون ،
وشيللى ، وكيتس .. وغيرهم ..

وكان ابن حزم يعتمد على ذاكرته في رواية الشعر حتى أرهاق ذاكرته ..
وعلى الرغم من أنه كان يكتب كل ما يحفظه فإن الذى لم يكتبه كثير جدا . وقد
أصيب بفقدان جزئى للذاكرة لمدة سنة ، ثم عاودته ذاكرته ، وخشى أن
يفقدها مرة أخرى فسجل كل ما فى رأسه ..

ويبدأ ابن حزم فى تحليل الحب فيقول : إن الله لم ينهنا عن الحب .. ولا
رسوله ، وأن عددا كبيرا من الخلفاء ورجال الدين قد أحبوا . فعبد الرحمن بن

معاوية أحب دعجاء وتزوجها ، والحكم بن هشام أحب طروب وتزوجها ،
ومحمد بن عبد الرحمن أحب غزلان وتزوجها ، والحكم المستنصر أحب صبح
وتزوجها .

ويقول ابن حزم : لولا أن هناك كثيرا من الأسرار الخاصة جدا في قصور
الأمراء والولاة ورجال الدين لرويت عنهم الكثير .

ويقول ابن حزم عن علامات الحب عند الناس : إن الذى يحب هو الذى
ينظر بإمعان . يدمن النظر إلى الجارية أو الفتاة التى يحبها . فالحب يميل معها
وإليها كما تميل الحرباء مع الشمس .

ومن علامات الحب : الحرص على الحديث مع المحبوبة ، ومن علامات
الحب : التضحية .

ولكنه يرى أنه لا حب أقوى ، ولا أبقى من حب الله .. وحب الناس فى الله
الله .

ويقول ابن حزم أيضا :

كشمس قد تجلت من غمام	غزال وقد حكى بدر التمام
وقد الغصن فى حسن القوام	سبى قلبى بألحاظ مراض
له ذلت ذلة مستهام	خضعت خضوع حب مستكين
فما أهوى وصالا فى حرام	فصلنى يافديتك فى حلال

وتقول السيدة « نينا ابتون » ان ابن حزم هو أول من كتب عن معنى
(النظرة) . والذى يقرأ ما كتبه ابن حزم عن نظرة المرأة إلى الرجل يجد أنه
قسم جفنى المرأة إلى مربعات وكل حركة فى مربع لها معنى ..
فالإشارة بمؤخرة العين الواحدة معناها : لاتقترب .

وتفتير العين - تسبيلها - معناها : ماذا تريد ؟ .

وكسر النظر معناها : فرجت .

وتقليب الحدقة ثم صرفها بسرعة معناها : احترس واحذر .

والإشارة بمؤخرة العينين معناها : ماذا تريد ؟ .

وقلب الحدقة من وسط العين بسرعة معناها : ابتعد نهائيا .

ويقول ابن حزم : أما ترعيد الحدقتين من وسط العين فعنها : ممنوع منعا باتا .. الخ .

ويهاجم ابن حزم (الإذاعة) هجوما عنيفا جدا . أما الإذاعة فعنها : أن يذيع الإنسان سر حبه وأسرار محبوبته .

وتلاحظ المؤلفة أن الكاثوليك المتعصبين في أسبانيا في أيام ابن حزم . أى في القرنين العاشر والحادى عشر حرّموا تصوير المرأة عارية . ولذلك لا نجد لها صورة في أى مكان إلا فوق إحدى الأبنية المصنوعة من الزجاج . وهناك إناء مشهور عليه أربعة من الرجال وأربع من النساء ، وسيدة تنفخ فى الناي .

والطقس العاطفى فى الأندلس فى ذلك الوقت كان صورة جديدة لما كان يجرى فى بغداد . فقد انتقلت كل لوحات ألف ليلة وليلة إلى قصور الأمراء والشعراء ، وامتلات الشرفات بالجوارى السمرات والشقراوات .

ولكن الخيط الذهبى الذى يربط هذه اللوحات الحية كلها هو : الصراع بين الحب والشرف ..

وكان الشرف ينتصر دائما ..

وفى غرناطة وأشبيلية كانت النافورات تتألق فى عيون المحبين ، وكانت أشجار البرتقال تثمر من أجل العشاق ، وكانت الوسائد الحريرية والستائر

الوردية ، وكانت موائد الطعام ، وكان ضياء القمر . لقد كانوا يعيشون في عالم آخر .. في هروب جميل .. فقد كانت دنياهم تبدأ بالمائدة وتنتقل إلى السرير وتنتهى بالحمام . وفي هذا الطريق الملتهب كانت تتردد الأغاني وتتعالى رنات الخلاخيل .

إن سانت تريزا نفسها اعترفت في رسائلها : إنني لا أستطيع أن أصلى في مدينة إشبيلية ، فللشياطين هناك آلاف الأيدي والأرجل .

وتاجر الكتب المقدسة المشهور دون ميغيل الإشبيلي كان يقول : لا أستطيع أن أبيع هنا شيئا .. فالناس جميعا أجسامهم فتية ، وقلوبهم ملتبهة ، والنساء عيونهن سوداء .. ولاشئء عندهن إلا الحب والحب .. أمور .. أمور .

وكان من عادة العشاق في هذا الوقت أن يبعثوا رسائلهم مع أناس لا يتطرق الشك إليهم . وكانت « الماشطة » هي أحسن رسول . وكذلك السيدات العواجيز ، والأطفال . ورجال الدين كانوا أهم وسيلة من وسائل نقل بريد العشاق .

وكانوا يكتبون رسائلهم بالدموع والحبر معا .

وكان من المؤلف أن يكتب العاشق رسائله بالحبر والدم أيضا ..

ومن عادة الأسبان ألا ينشروا رسائلهم الغرامية .. فالحب سر ، ولذلك يجب كتمانها . وكانوا أكثر كتماننا للحب ..

وقد حدث في الحرب الأهلية سنة ١٩٣٦ أن دخل أحد الضباط بيتا مهجورا ، فوجد به رزمة من الخطابات الملفوفة في أناقة تامة ففتحها ، وقرأ وبكى وبلغ من شدة تأثره أن قرر كتمان هذا الحب إلى الأبد .. فأحرق الرسائل كلها .

فالحب عاطفة محترمة ، وهو عاطفة قوية .. ولكن الشرف أقوى دائما .

والفيلسوف الأسباني أورتيجا أى جاسيت عندما كتب مقدمة الترجمة
الأسبانية لكتاب (طوق الحمامة) قال :

بعض الراهبات يتوهمن أن الله قد خلق العالم كله من أجلهن ، ولذلك
جعل الحب حراما .. مع أن الله قد خلق العالم فى إطار من الحب . وأن الله قد
خلقنا لكى نحبه . ونحب أنفسنا أيضا عندما نحب الله .

وعبد الرحمن الخامس قال مرة : لو كانت الكراهية تأشيرة المرور إلى
الجنة ، لطلبت من الله أن يدخلنى جهنم .

وكما تأثر الفكر كله بالأدب العربى والفلسفة العربية ، فكذلك الحب .. فقد
انتقل الناس من حب المرأة إلى حب الحب ، ومن حب الجسم إلى حب الروح
أيضا .

وفلسفة ابن سينا ومعنى الحب الإلهى عنده ، قد أشاع التأمل والنظر إلى كل
ما هو أبقى وقد أدى هذا أيضا إلى أن ارتفعت قيمة العواطف النبيلة ، وإلى أن
المرأة لم تعد جسما فقط .. لم تعد شيئا يلمسه الرجل فتشتعل النار .. وبعد أن
تحمم النار يتجه الرجل إلى مصدر آخر للاشتعال . فكل ما يشتعل هو كل ما يحمم
أيضا . ولكن الذى لا يشتعل ولا يحمم هو الحب الروحى .. فهو يضىء دائما .

وقرأنا بعد ذلك فى القرن الخامس عشر من يضع المرأة فى مرتبة أعلى من
الرجل .. لأن الله أرادها كذلك . فالله خلق آدم فى الأرض ، وخلق حواء فى
الجنة والله خلق آدم من تراب وخلق حواء من كائن حى .. والله خلق آدم بين
الحيوانات ، وخلق حواء بين الملائكة . ولأن حواء أذكى من آدم فقد أغراها
الشيطان .. أول إغراء للشيطان . ولأن آدم أقل ذكاء من حواء ، فقد أغرته
حواء . وحواء لم تخطئ ، فالله جعل التفاحة المحرمة على آدم ، وليست على
حواء .

وهناك تيارات أخرى تنزل بالمرأة من السماء إلى الأرض ، وتجعلها حيوانا

متقلبا ، ولذلك فلا أمان لها .. والرجل يجب أن يؤكد لنفسه هذه الحقيقة ليلا ونهارا ، وبذلك يأمن شرها .

وقد كتب خوان رودريجيث في كتابه (الوصايا العشر للحب) يقول : الفقر والحب لا يعيشان في بيت واحد . والشيوخوخة والحب لا يعيشان في جسم واحد .

وهذا المعنى قريب مما قاله أحد الشعراء :

إذا شاب شعر المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصيب
وهذا طبعى جدا . فإذا كان الرجل عجوزا مفلسا ، فلماذا يطلب من امرأة
أن تحبه ؟ ولماذا يندهش إذا هى لم تشعر نحوه بأية عاطفة .

وفي هذا الوقت أيضا انتشرت المواخير في أسبانيا كلها . ولم يكن الماخور أو بيوت الملذات الخاصة شيئا غير أخلاقي ، وإنما كان مألوفا جدا أن يكون لأى إنسان بيت .. وإذا صح المثل القائل : الناس على دين ملوكهم - وهو صحيح - فإن الملوك كانوا يتسابقون في الحصول على أكبر عدد ممكن من الجوارى والراقصات .. وكانت الجوارى أجمل هدية يقدمها ملك لأمير ، أو خفير لأمير .

والملك فردريك وزوجته الملكة ايزابيلا قد أصدرتا قرارا بمنح أحد الضباط العائدين من القتال سبعة مواخير في سبع مدن كبرى ، وأن يرث أولاده من بعده هذه المواخير وأن يضيفوا إليها إذا شاءوا ..

وفي نفس الوقت يجب أن يراعى الناس الآداب الاجتماعية .. يجب أن يتستروا على مباحثهم . فلا مانع من ارتكاب أى شىء ، ولكن يجب ألا يجاهروا بذلك .. ففي سنة ١٤٣١ صدر قانون بعقوبة كل من يعترف علنا أو يخرج علنا ومعه عشيقته في مكان عام . فإذا فعل وجب عليه أن يدفع نصف مرتبه أو دخله غرامة .

وفي هذا الوقت انتشرت الكتب التي تتحدث عن إعادة الشباب ، وعن تقوية الشبان خصوصا بعد انتشار الشذوذ الجنسي في كل أسبانيا . وقد أصدر القس خوان رويث كتابا عن فوائد العقاقير العربية في إشعال نار الحب والغرام .. فقد وصف الشطة والقرفة وخشب الصندل والكمون والليمون والبصل والكراث ، وخصوصا الكرات .. ولا يزال الناس في أمريكا يستخدمون الكرات ومشتقاته لنفس الغرض الجنسي .

وفي هذا الوقت ظهر عدد من الأطباء اليهود يعالجون الضعف الحيوى عند الشبان والشيخوخة .. وكان أشهرهم ليون العبرى الذى هرب من أسبانيا وأصبح بعد ذلك طبيبا خاصا لملك نابلى .

حتى الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون كان يشتغل بالطب . وعندما جاء إلى مصر كان طبيبا للناصر صلاح الدين . وقد تخصص في الدراسات الدينية والفلسفية ، ثم اتجه تماما إلى الطب . فكان أحسن طبيب في علاج معظم الأمراض .. وأمراض الضعف الحيوى بصفة خاصة .. ولا يزال حتى الآن معظم الأطباء الذين يعالجون الأمراض الجنسية من اليهود ..

وعندما ظهرت قصة (دون كيخوته) لأديب أسبانيا العظيم سرفانتس تناول الحب بكل صورته ، ولكنه كان ساخرا من كل صور الحب الجسمى والروحى . وفى ذلك الوقت صدر كتاب عن (أصول الحب) لرجل جرىء اسمه لويس فيفيت . وهذا الكتاب حرمة الكنيسة فور صدوره . وهذا الكتاب عبارة عن مئات الصفحات للمحبين والعشاق في أسبانيا وغيرها .

ويبدأ الكتاب من البداية : لا تصدقوا أن أحدا مات من الحب .. أبدا . فالحب يؤلم ولكنه لا يميت . والمرأة يجب أن تكون أقوى ، أن تكون على شئ من الرجولة ، وهى بالفعل أقوى من الرجل ، ولكنها لا تريد ، أو لكنها تريد أن

تكون كما يريد لها الرجل : ضعيفة رقيقة منكسرة .. مع أن المرأة أقوى جسما وأطول عمرا ..

ويقول أيضا مستنكرا الرقص : مامعنى أن تظل سيدة - كالبهاء - تمسك رجلا من ذراعه طول الليل .

وفي القرن السادس عشر ثارت الدولة على المسارح لأن هذه المسارح تبعث على الكسل والخمول .. وفي ١٥٧٩ صدر قرار بمنعها .

وفي هذا الوقت أيضا كان الأسبان يبنون أماكن اللهو بالقرب من ساحات مصارعة الثيران .. فالدماء التي ينزفها الثور أو مصارع الثيران تثير الناس في نفس الوقت فيندفقون على بيوت اللهو ..

وأيام الرومان كانت المواخير قريبة أيضا من الساحات التي يتصارع فيها الوحوش والمحكوم عليهم .. ولنفس السبب .

والرقص والمصارعة كانا يؤديان إلى رشاقة المرأة والرجل ، ولذلك فالمثل الأعلى للجمال هو جمال الرجل . ولذلك لم تكن الصدور العالية تفتن الأسبان . فالمرأة كانت حريصة على إخفاء صدرها بكل وسيلة . وكانت وسائل الإخفاء عنيفة . فالمرأة كانت (تفحص) صدرها بالأربطة القوية ، وأحيانا كانت تضع الواحا من المعدن تحت ملابسها ، حتى لا يكون لها صدر ..

واللوحة العارية التي نقلتها لنا المتاحف لامرأة عارية كانت للرسام فيلا سكويت . وكانت لإلهة الإغريق فينوس .. ولم تكن عارية تماما .

والأسبان كالعرب والصينيين أيضا ، كانوا يخفون أقدام المرأة ، خصوصا أصابع قدميها .

وقد كتبت السيدة (النوى) عن رحلتها إلى أسبانيا فقالت : إن نساء أسبانيا يخفين أقدامهن بعناية . فأقدامهن أجمل عضو في كل الجسم .. والمرأة

الأسبانية بعد أن تكون قد أعطت لحبيبها كل شيء ، تتوج هذا العطاء السخي بأن تكشف له عن قدميها . وهذا هو أقصى ما عندها .

وحقى الملكة إيزابلا عندما كانوا يمسحون جسمها بزيت البركة ، رفضت أن تكشف عن أصابع قدميها.. فمسحوا جواربها من الخارج فقط ..

وكان من الأخطاء التي لا يمكن أن تغتفرها المرأة أن ينظر إنسان - حتى زوجها - إلى جوربها أو حذاءها .

واختفى من المسرح الأسباني (دون كيخوته) أو كل موهوم في الحب .. وكل ساخر منه أيضا ..

وظهر (دون جوان) - الأسبان ينطقون الاسم بالخاء . وهذا اللون خوان هو عبد جديد للرجبة الجنسية ، وهو رجل لا يبحث عن الحب وإنما عن المتعة فقط . وهو رجل يجد لذة في تعذيب الأخريات . وهو إنسان عنده عقدة أوديب . فهو يحب أمه ويكره أباه.. وهو لأنه يحب أمه ، لا يحب امرأة أخرى . ويجب أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة كالعلاقة بين الإنسان وأمه .. وهو لذلك يحتقر الجنس ويحتقر المرأة ، ويرى أن المرأة تستحق أن يعاقبها الرجل لأنها تثير فيه الرجبة الجنسية ، ولأنها تحمد هذه الرجبة أيضا ..

والأسر الأسبانية كانت متماسكة ولا تزال . ولذلك فعقدة أوديب هذه على أشدها . ولذلك فالأسبان لا يعرفون الحب الحقيقي وإنما يرقصون للحب ويفنون له .

ولا يزال في أسبانيا ، ومن أقدم العصور ذلك المجتمع الغريب من الغجر ، أنه مجتمع مقفل على نفسه يعيش في كهوف وفي أسرار وعطور . وهم يعرفون كل أنواع الحب . وكل صور العشق . ولكن لا يعرفون الدم في الحب فإذا كان الأسبان عندما يرون امرأة في الشارع يجرحون أنفسهم بسكين أو بموس ، فتنحني

الفتاة الأسبانية ترد هذه التحية الدامية فإن الغجريون أن أحسن دماء للحب هو النبيذ ، وأحسن سكين في الحب هو : الزواج .

وعندما بعثت أسبانيا بمعرضها الضخم إلى باريس سنة ١٨٣٨ اهتزت فرنسا وأوروبا . فقد اكتشف العالم أن الأسبان في جحيم من القبل وفي جهنم من الغرام .. وأن ألوانهم هي الدخان والنيران .. وصرخات العذاب في عالم مجنون بالرقص والغناء والطرب . وفي هذا الجو المكهرب بالألوان والألحان ظهرت كارمن . وكارمن هي أبة فتاة عاشت فوق الحب . لقد جعلتها الكرامة فوق الحب . وانتشرت قصة كارمن العجربة فكتب الشاعر الرومانسى ميريميه « غراميات كارمن » والموسيقار بيزيه كتب أوبرا كارمن . وكل فتاة أسبانية هي كارمن المرحة العفيفة العاشقة الشريفة .. إن كارمن هي الحب وكارمن وأخواتها هي كل نساء أسبانيا .

وفي سنة ١٨٣٩ هربت الأديبة « جورج صاند » ومعها عشيقها الموسيقار شويان في سفينة الخنازير من جزيرة مايوركا . لأنها لم يطبقا الحياة في الجزيرة الأسبانية . لقد تغيرت الدنيا واختفى الحب الرومانسى ، وظهرت نساء من نوع آخر مختلف .. يرقصن ويرقصن ويشرن ويصرخن .. وبعد ذلك ينمن كالخنازير .

وتشرح لنا المؤلفة « نينا ابتون » إن الأسبان من أكثر شعوب العالم « بصببة » للنساء . والبصببة عندهم نوع من اللمس بالعين . أو نوع من التدليك الإيجبارى لكل أعضاء المرأة . فالرجل الأسباني ينظر إلى المرأة بلا خجل في الشارع وفي السيارة وفي المحلات العامة ..

وقد سئلت سيدة أسبانية : ولماذا لاتعترضن على هذا الأسلوب غير المهذب ؟ فكان ردها : إن الرجل إذا لم ينظر لي هكذا ، أشعر بأنني مليئة

بالعيون .. وأشعر أنني امرأة يستطيع الرجل مقاومتها .. وأن يتجاهلها أيضا .
وهذا أقسى درجات العذاب .

أما أسبانيا التي تعيش في مدريد ، فهي مجتمع آخر .. خليط من كل ما في
أسبانيا من عيوب ، ومن كل ما في الدنيا أيضا . وإذا كان الأسبان أنفسهم
لا يعرفون ملامح بلادهم إذا ذهبوا إلى مدريد ، فإن الأجنبي لا يعرف من هم
الأسبان ..

والمرأة في مدريد الآن تشبه إلى حد كبير ذلك النوع من النساء الذي صورته
لنا الشاعر جارئيا لوركا في مسرحية «بيت برناردا ألبا» .. إنهن نساء مشغولات
بالنساء وبالثرثرة وبالتجسس على النساء .. وبالزواج . أما الباحثون عن الحب
في أسبانيا ، ففي استطاعتهم أن يجدوه في الجنوب وفي الشمال .. هناك يجدون
العصور الوسطى الخرافية .. وهناك يجدون جميع المواد التفسيرية لقوانين الحب
والغرام كما جاءت في كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم الأندلسي .

من الحب إلى الزواج

ظروف يصنعها الآباء ويلومون عليها الأبناء

- ١ -

أمريكا تهز العالم في ميدانين : الحب والحرب .. بالقبلة
والقنبلة .. ونحن نذهب إلى المجتمع الأمريكي في السينما ..
ونتظره أمام التلفزيون .. ونراه في المجلات الأوربية ..
والخوف من الحرب هو الذى جعل الناس يسرفون في
الحب .

ففي مواجهة الموت يتشبث الناس بالحياة .

ولا يوجد حب أمريكي وحب فرنسى .. وإنما يوجد أسلوب
أمريكى وأسلوب فرنسى .. ولا يوجد زواج ايطالى وزواج
مصرى ، وإنما يوجد أسلوب يونانى فى الزفاف ، وأسلوب هندى
فى شهر العسل .

فالحب هو الحب ، والزواج هو الزواج ..

والمجتمع الأمريكى يهتز ويهز غيره .. فتساقط القيم الأخلاقية فى أمريكا وفى
أماكن أخرى .. والعلاقات العائلية فى أمريكا تتفكك على المسرح وعلى
الشاشة .. ومظاهر الاحتجاج والسخط واضحة فى الحنافس والهيز .. وواضحة

في أجمل وأعمق كتاب أمريكي صدر أخيرا .. ومؤلفه هو فانس بانار أعنف ناقد للمجتمع الأمريكي والأوروبي .. بل إنه يرى عيوب المجتمع الأمريكي ويبرزها ويلعنها كأشد الناس عداوة لأمريكا .. ويتقدم بعد ذلك بالحلول .. والكتاب اسمه « الضياع الجنسي » ضياع الشبان بين القديم والجديد .. بين الدين والسياسة .. بين علماء النفس والأطباء .. بين الجنس والأخلاق .. بين قيود البيت وحرية الشارع بين تحديد النسل وتجديد الشهية .

ويتساءل المؤلف : هل هؤلاء الشبان في كل العالم : حائرون أو ثائرون ؟ هل هم أطفال يبحثون عن الأب فلا يجدون إلا الابن .. ومزيذا من الأبناء في سن مبكرة ؟ هل هم يبحثون عن حنان البيت ، فلا يجدون إلا ظلمات المقاهي والحانات والكهوف ورءوسهم في سحب الحشيش والهلوسة ؟ .

إنها ليست مشكلة أمريكا أو أوروبا .. إنما هي مأساة الشباب في كل العالم . ولكنها أوضح وأقوى وأكثر ألوانا وأعوانا وصراخا في أمريكا ، وفي هذا الكتاب .

إن العلاقة بين الرجل والمرأة لم تكن سهلة في أى وقت . ولا في أى مجتمع . فالرجل والمرأة ينظر كل منهما للآخر على أنه كائن غريب مخيف .

ولذلك هناك صعوبات في أن يتفرد أحدهما بالآخر .. ولكن تصبح هذه الصعوبات سهلة ، إذا كان هناك حب أو كان هناك زواج ، ومن السهل على الرجل أن يكون عابدا للمرأة ، ومن الصعب أن يكون محبا لها . والفاشلون في الحب هم الذين يعبدون المرأة : أى الذين ينظرون إليها على أنها كائن فوق مستوى البشر . وفوق مستوى اللمس والهمس والجنس .. إن هؤلاء العباد هم الفاشلون في الحب لأنهم يرون العذاب صلاة ، والتعاسة قداسة .

ولكن من المؤكد أن المرأة قد كسبت كثيرا في هذا الاضطراب العاطفي .

وإذا كسبت المرأة فليس على الرجل ألا أن يستسلم وأن يضحى بالكثير من أجل أن تبقى هذه العلاقة بينه وبينها ..

والمرأة هي « الفعل » الآن . والرجل هو « رد الفعل » .. فالمرأة في أمريكا وفي أوروبا هي التي تضرب كرة اليد ، والرجل هو الذي يصددها .

ومع ذلك فإن المرأة تستعير أساليب الرجل والرجل يستعير أساليب المرأة في الملابس والتفكير . ومن الغريب أن عشرات الألوف من الفتيات يذهبن إلى الأطباء ويسألن : كيف أتصرف لكي أبدو أنثى ؟ وبعض الشبان ، ألوف من الشبان - يسألون الأطباء : كيف أبدو رجلا ؟ .

واختلاط الملابس والتسريحات والألوان بين الجنسين معناه : إن هذه الفوارق بين الجنسين في طول الشعر وطول الأزياء ولونها لم يعد لها أى معنى كبير . فمن الممكن أن تكون الفتاة قصيرة الشعر والفتى طويل الشعر ، من الممكن أن ترتدى الفتاة قبض رجل . ويرتدى الفتى بلوزة امرأة .. إن هذه الاختلافات في لون وحجم الناس ليست هي الفارق بين الرجل وبين المرأة ..

هذا الاضطراب انعكس على الحياة الزوجية . ولم يكن الزوج أو الزوجة نعسا في أى وقت . كما هو تعس الآن . ويتمرد الزوج . وتتمرد الزوجة . ويخيم عليها الفشل في بيت الزوجية . هذه الزوجة . أو زوجة ثانية أو زوجة ثالثة بعد ذلك . فالمجتمع هو الذى يتتصر على غرام الأشقياء في النهاية .

ربما كان هؤلاء الشبان يتزوجون وهم في سن المراهقة . من المؤكد أنهم يفعلون ذلك . أى أنهم لم يصبحوا ناضجين بعد . ولذلك ننصح الشبان بأن ينتظروا . وهم ينتظرون . ولكن ما الذى ينتظرونه . وما الذى تفعله لهم أثناء فترة الانتظار . إننا نطلب إليهم فقط ألا يتزوجوا في العشرينيات . وإنما يتزوجون في الثلاثينيات ولكن ما الذى قدمناه لهم بين العشرين والثلاثين .. وما هي تأشيرة المرور بين المراهقة والنضج . إننا لا نعطيهم شيئا .. إنهم

يدخلون فى الحياة الزوجية بلا تجارب بلا نصائح .. وكل ما نقوله للشبان هو : إن الحياة كفاح ، كل ما نقوله للشابات : انتظرى .. اصبرى سوف يسقط فى النهاية .

ونترك الإثنين يحاولان ويقاثلان ونشغل عنها بأمرى أخرى ..

وفى ١٩٦٧ عندما بلغت حركة « الهيبز » أقصى درجاتها كانوا يتساءلون ما هو الفرق بين الرجل والمرأة ؟ ما هو السلوك المناسب ؟ .. ما هو الموقف المثالى ؟ .. ما الذى يرضى الناس ؟ .. وفى إحدى مظاهرات هؤلاء الشبان تقدمت فتاة فى فستان مراكشى وصندل صينى وأعلنت أنها قررت وحدها ألا تكون مجرد ما كينة لتفريخ الأطفال فى ركن بيت قدر .

والذى ينظر إلى هؤلاء الشبان ويسخر منهم ، يتجاهل حقيقة إنسانية هامة : أن هؤلاء الشبان قد هزوا المجتمع وهزوا قيمه القديمة . ومفهوماته البالية . ثم إنهم يريدون أحدا يقنعهم بأن هذه العبارة يجب أن تكون صادقة إلى الأبد : الحب يأتى بالزواج .. والزواج يأتى بالأولاد .

لتكن هذه حقيقة . ولكن يجب أن يفهمها الشبان وبرفق . لا يكتفى أن الأب قد اقتنع وأن الأم أيضا .. فكل شىء يعاد من جديد . وكل شىء يتكرر من جيل إلى جيل . وإذا كانت هذه الأجيال قلقة مضطربة فهذه مصيبتهم . وهلمنا قدرهم ..

والمشكلة الآن ليست فى أن هؤلاء الشبان يدرسون القوانين . ولكن فى أنهم لا يريدون أن يكون هناك قانون .. وكل إنسان له قانون خاص فى لون وطول شعره .. إن هذا الجيل يعيش فى فوضى أخلاقية .. كأنهم يعيشون فى فترة بين وفاة ملك وتويج آخر .. فالملك القديم لم يترك قبا .. والملك الجديد لن يتقدم بقمى أخرى .. إن الهيبين هذه الأيام مثل راقصى الباليه الذين ليست لهم خطوات معروفة ومتفق عليها . إنهم يرتجلون عواطفهم وقوانينهم - إنهم يشبهون ممثلى

الكوميديا على المسرح المصرى «يؤلفون فوراً» ويخرجون على النصوص المكتوبة .. وهذا التأليف الفورى قد أدى إلى ارتباك الممثلين .. ومشكلة الشبان فى هذا الجيل : أن الذى يقال لهم كثير جداً ومن أناس كثيرين .

ومن المؤكد أن اضطراب الأبناء صورة من اضطراب الآباء . والأبناء المراهقون مضطربون بطبعهم ولذلك فهم مضطربون عدة مرات .. فما الذى فعله الآباء فى مواجهة هذا الضياع عند الأبناء ؟ إما بالتسامح التام .. وإما بالصراحة الفاضحة وإما بالرفض الخائق .. ولكن الشبان مضوا فى طريقهم ..

واختلف العلماء فى تفسير هذا الضياع الجنسى عند الشبان .. بعض العلماء يقول : ليس ضياعاً ولكنها ثورة عاطفية .. أو نهضة جنسية .

وعلماء آخرون قالوا : بل إن الحرية الجنسية والانطلاق العاطفى قد تجاوز حدود الأمان فى طريق الانحلال الاجتماعى والانهيال القومى .

وفى مؤتمر «الأسرة السعيدة» الذى عقد سنة ١٩٦٥ أعلن أحد العلماء : إن الأسرة لم تكن بهذه القوة فى أى وقت من تاريخ أمريكا .

وأعلن أحد علماء فرنسا أن اشتغال المرأة مع الرجل نكسة أصابت الأنوثة فى صميمها ..

وتساءل عالم إيطالى إن كان فى استطاعة الأسرة أن تبقى بعد أن أصبحت المرأة مستقلة عن الرجل ؟. والشبان يقرءون ذلك كله ويسمعونه ويسمعون عنه . ويناقشونه ويلعنونه ويعكفون على ظلامهم وضياعهم .. وينفجرون بعنف فى مواجهة المجتمع والقانون .

ولا يمكن أن يكون هذا السلوك ثورة : لأن الثورة معناها الطريق الواضح

المفهوم الذى يأتى بجديد ويقضى على قديم ويلقى تأييدا من الكثيرين .. ولكن مشكلة الشبان ليست هى الجديد ، ولكن مشكلتهم هى الطريق الواضح المفهوم ..

هذا الاضطراب وقع على أرض تغيرت معالمها .. فالأرض تغيرت وتقلبت وتبدلت والشبان من فوقها كذلك . وهذا يجعل الصورة صعبة . ومعالمها متداخلة .

ومع ذلك يمكن أن يقال :

هناك ستة تغيرات أثرت فى العلاقة بين الرجل والمرأة فى أمريكا ، وفى العالم أيضا ..

١ - من أهم هذه التغيرات أنه أصبح فى الإمكان منع الحمل .. فقد ظلت الإنسانية تتبع طريقة واحدة فى منع الحمل ظلت ٢٥٠٠ سنة .

حتى أن الفيلسوف اليونانى أرسطو كان يطلب إلى المرأة أن تستخدم نوعا من الزيوت ليمنع الحمل . وفى القرن ١٩ كانت هناك أبحاث كثيرة عن « الفترة الآمنة » التى لا تحمل فيها المرأة .. وفى سنة ١٩٥٤ اكتشف اثنان من الأطباء هما بنكوس وروك عقارا على شكل حبوب إذا تناولتها المرأة أحدثت اضطرابا فى نمو البويضة ومنعتها من الإخصاب .. فلا تحمل المرأة .. وفى ١٩٦٧ بلغ عدد النساء اللاتى يتعاطين حبوب منع الحمل بانتظام أكثر من ستة ملايين ..

كما اخترعت « العوازل » التى تمنع البويضة المنخصبة من أن تجد مكانا مناسباً للنمو ..

ولأول مرة فى تاريخ العلاقة الجنسية تنفصل المتعة عن الوظيفة .. أى أنه من الممكن أن تكون هناك متعة ولا يكون هناك حمل .. أى لا يكون خوف من الولادة ..

كما أن تحديد النسل قد حرر المرأة أكثر مما حررها حق التصويت . وتساءل الناس بعد اختراع حبوب منع الحمل : إن كانت العفة القديمة هي مجرد الخوف من الحمل .. أو الخوف من الفضيحة فقط ؟.. ولكن يمكن الرد على ذلك بأن نقول إن العفة قد انتشرت أكثر من أى وقت مضى . والدليل على ذلك أن الشبان الآن يتزوجون في سن مبكرة . أى أنهم يفضلون العلاقة المشروعة على أية علاقة أخرى .

وانتقلت الآن مسئولية تحديد النسل من الرجل إلى المرأة . كما أن المرأة قد استراحت نفسيا وعصيبيا فلم تكن للرجل مشكلة لا قبل الحبوب ولا بعدها .

كما أن صناعة التغذية والمقويات الحيوية قد تطورت وأصبحت في متناول الجميع . وقد أدى ذلك إلى تحسن صحة المرأة والرجل . وكل إنسان يتزوج الآن يجب أن يعرف أن هذه العلاقة التى بينه وبين زوجته سوف تبقى حلقة في سلسلة طويلة حتى نهاية القرن الواحد والعشرين ..

والأرقام تقول لنا إن عمر المرأة قد طال بنسبة أربع سنوات .. وعمر الرجل أيضا . ومن المنتظر أن يكون متوسط عمر المرأة حتى نهاية القرن تسعين سنة .

وهذه التطورات العلمية التى طرأت على التغذية وأدوات التجميل قد جعلت المرأة لا تخاف على جهاها في العشرينيات أو الثلاثينيات .. والمجلات تحدثنا عن جميلات فائتات في الأربعين . والصحف تحدثنا أيضا عن أمهات قد تفوقن على بناتهن في القدرة على الإغراء . وعلى النجاح في الحب .

وهذه المبتكرات العلمية قد خلقت نوعين من التغيير عند المرأة .. أولا جعلت المرأة قادرة على الحمل والولادة حتى الخمسين . كما جعلت الفتاة الصغيرة قادرة أيضا على الحمل في الثالثة عشرة .

فهذه المبتكرات قد عجلت بمجيء المرض الشهري عند الفتاة الصغيرة وأخبرته عند المرأة الكبيرة .

٢ - هناك تغييرات تكنولوجية : ففي المجتمع الأمريكي أُلوف المؤسسات وأُلوف المصانع .. وأُلوف المدن المنفصلة بعضها عن بعض والمتباعدة أيضا .

وقد تباعدت البيوت . وتباعد الناس في البيوت .. وفي البيت الواحد .. فالأب يذهب إلى عمله . والأم تبقى في البيت . والأطفال في المدرسة .. ولا أحد يدرى بأحد .. ولا أحد يستطيع أن يسيطر على الصغار إذا كبروا وخرجوا إلى الشارع .. وهذا الشعور بأن كل إنسان في حاله .. وبأنه واحد ضمن ملايين .. هذا الشعور هو الذي جعل الهيز يكونون لأنفسهم قبائل وعشائر وجاعات . تماما كالإنسان البدائي .. وهذا يدل على أنهم يحنون إلى الأسرة التي حرموا منها .. والمواطن الأمريكي لا يفهم معنى الصداقة ولا معنى الجار .. فلا وقت عنده للصداقة ، أو القرابة أو الشعور بالجار .. إن المجتمع الأمريكي هو مجتمع الغجر .. ومن المألوف جدا أن تجد الأسرة الواحدة قد غيرت مكان سكنها وعملها أكثر من ٢٥ مرة في العمر .. بل إن هناك عائلات غيرت مكان إقامتها ثلاثين مرة في ثلاثين سنة .. وليس هذا غريبا .

والأسرة الأمريكية هي « الأسرة الذرية » - أي التي تضم الأب والأم والأبناء فقط . فهي صغيرة ومحدودة .

أما البيت فلم يعد مكانا للإنتاج وإنما هو محطة للخدمات : به غسالة ومطبخ وأطعمة محفوظة ومكنسة وتليفون وتليفزيون وسيارة .

أما المرأة فإنها بعد أن ترتب البيت في ساعة أثناء غياب أطفالها فإنها تتفرغ بعد ذلك للعبة الكوتشينة والاشترار في الجمعيات والأندية أو القراءة .. إلى أن يعود الأبناء من المدرسة والزوج من العمل ..

ومن أهم التغييرات التي حدثت في تاريخ أمريكا أن المرأة المتزوجة تعود إلى الوظيفة . وأن المرأة التي عندها أطفال لا تتوقف عن الاستمرار في عملها .
واختراع السيارة من أهم الآلات التي أثرت في حياة الأسرة أيضا . فهي وسيلة للتنزه ومكان للتنزه أيضا .

وبعد السيارة تجيء «البزازة» التي اخترعت سنة ١٨٤١ . وكانت البزازة أول الأمر عبارة عن جلد غزال محشو بالاسفنج . وتضعها المرأة في صدرها لتوهم الطفل بأنه ثدي حقيقي . وبعد ذلك لم تعد البزازة هي المشكلة وإنما اللبن الصناعي المغذى . فاخترعت زجاجات اللبن الصحية .. وأهم من هذه الزجاجات الصحية أن المرأة لم تعد في حاجة إلى إرضاع الطفل ، وإنما تركت ذلك كله لأبيه .

٣ - التنافس الهائل بين الشركات قد أثر في حياة الشبان . فنصف الشعب الأمريكي الآن دون الـ ٢٧ سنة . وفي بعض الولايات يكون الشبان أكثر من ٤٠٪ . من السكان . وفي ذلك خطورة . فهم جميعا قد ولدوا بعد الحرب العالمية الثانية وهم الآن متجهون إلى المراهقة . ويصعب التفاهم معهم .. ولذلك يقف رجال الأعمال أمام هؤلاء الشبان حائرين . فبعض رجال الأعمال يرى أنه من الأفضل أن يبقى هؤلاء الشبان بعيدين عن العمل معتمدين على آبائهم في الطعام والشراب حتى ينضجوا . ووجود هؤلاء الشبان في الأسرة معناه زيادة الاستهلاك .. فالشاب الذي لا يعمل مسرف في طلباته .

وفريق آخر يرى أنه من الضروري أن يتزوج الشبان في سن مبكرة . والزواج المبكر معناه بناء البيت الجديد بالثلاجة والسخان والتلفزيون .

وفريق ثالث يرى أن عدم زواج الشبان يؤدي إلى رواج السيارات الرياضية . فمعظم الشبان الذين لم يتزوجوا هم أكثر الناس إقبالا على شراء السيارات وعلى المغامرات .. وعلى شرب الشمبانيا والسجائر الفلتر والأطعمة

المحفوظة .. بل إن أحد علماء الاقتصاد يؤكد أنه لا وسيلة لإنقاذ الاقتصاد الأمريكي إلا بأن يبقى الشباب بلا زواج عشرات السنين .

ومعنى ذلك أن الشباب ليست لهم أية قيمة إنسانية .. وإنما قيمة الشباب أنهم قوة شرائية من نوع خاص . وأنهم ضحايا معركة تجارية صناعية مالية وحشية .. إن هناك عشرات من أصحاب الملايين تسيل دماؤهم من أجل امتصاص دماء هؤلاء الشباب ..

٤ - انتشار التعليم قد غير معالم الحياة الاجتماعية والعاطفية والجنسية في أمريكا . فأكثر من ٥٠٪ من سكان أمريكا يواصلون تعليمهم في الجامعات . والأغلبية من الفتيات .

ومن الضروري أن يحصل المواطن على مؤهل جامعي وإلا فلن يجد مكانا في مصنع أو مؤسسة . كما أن إعفاء الجامعيين من الخدمة العسكرية قد جعل الشباب يتمون دراستهم الجامعية .. وما تزال الجامعة هي أنسب مكان يلتقى فيه الشباب ويتفاهمون بالعقل والقلب . ولا تزال الجامعات هي أنسب مكان يستطيع فيه الشاب الجامعي أن يجد الزوجة الجامعية المناسبة ..

وهناك مثل هندي يقول : التعلم للفتاة مثل القرد إذا أعطيته مسدسا .. هذه العبارة لا يجرؤ أمريكي واحد أن يقولها مهما كان رأيه في المرأة أو في القرد .

والذهاب إلى الجامعة يخلق مشكلة أخرى : وهي أن الدراسة الجامعية تؤدي إلى تأجيل تحمل الشباب للمسئولية . فالطالب الجامعي يعتمد على والديه . وبدلا من الزواج في العشرين فإنه يتزوج في الثلاثين .

ومشكلة الشباب في العالم كله الآن هي أنه : ناضج جسميا . عاجز اجتماعيا ..

وهذا الموقف يخلق مشكلة أخرى : فالشباب عندما يشعر أنه يعتمد على والديه ، يجد نفسه مندفعاً إلى القيام بأعمال تدوس الأسرة والمجتمع .. لأنه يريد أن يبدو مستقلاً حراً ثائراً على كل شيء وعلى والديه .. وعلى مدرسته .. وعلى حاكميه أيضاً .. وهذا ما يحدث في أمريكا وأوروبا الآن ..

٥ - حدث تغير في المثل العليا والمعتقدات الدينية .. وفي المزاج القومي العام .

فعدد الذين يترددون على الكنائس لم ينقص عددهم . ولكن رجال الدين هم الذين يحرصون على أن يكونوا «مودرن» فهم يسمحون بموسيقى الروك اندرول في داخل الكنيسة .. ويسمحون باللوحات السيريالية .. ويسمحون ببناء الكنائس على أحدث النظريات المعمارية التي لا تناسب مع وقار الكنيسة .. كما انهم يضعون لافتات من النيون يعلنون فيها عن مواعيد الصلاة . واللافتات متحركة كأنها مدخل إحدى دور السينما .

فرجال الدين يريدون أن يذهبوا إلى المؤمنين لا أن ينتظروهم أمام المذبح .. إنهم يريدون أن يجذبوا الناس إلى الكنيسة بكل الطرق .

أما الاكتشافات العلمية والجيولوجية والفضائية فقد هزت الإيمان في أمريكا .. فقد كان الناس يتصورون أن « السماء » هي سقف هذا الكون .. هي هذا اللون الأزرق الذي فوقنا .. فلما انطلقت سفن الفضاء ملايين الأميال بعيداً عن الأرض ولم تصطدم بالسماء بدأ الناس يشكون في الدين - مع أن هذه الرحلات ليست إلا عبث أطفال إذا ما قورنت بما سوف يكشفه العلم في المستقبل .. ومع أن الكون نفسه أعظم لغز يدل على عظمة الله .. فليست هذه الاكتشافات إلا محاولة متواضعة لمعرفة سر الكون ، وعظمة الذي خلق الكون .. ولكن الشبان بطبعهم متمردون على الأب والمدرس والقسيس والسياسي .. ولذلك فقد اهتز إيمانهم في أوروبا وأمريكا أيضاً .

وقد كانت المسيحية في عصرها القديم ترى أن المرأة هي مصدر الخطيئة . وكان القديس بولس ينصح الناس بألا يلمسوا المرأة .. وإذا تزوجوها فليكن لمسها معتدلاً أو معدوماً .

وقد ساهمت المجلات الجنسية العارية في إشعال النار في ملابس الجنسين . وهناك مجلات تنادى بعبادة الجسم .. جسم المرأة . وتفنتت هذه المجلات في الصور والألوان والأحجام ، وإذا كانت الصور عارية فإن الكلمات أكثر عرياً ..

وإذا كان الرجل ينادى بالمساواة منذ ثورة سنة ١٧٧٦ حتى القرن الـ ١٩ ، فمن المعقول أن يطلب المساواة له وللمرأة أيضاً . ولذلك فالمساواة حق طبيعي للمرأة . وجاء الحب الرومانسى فجعل موقف المرأة أقوى . لأن الرجل الذى يجب ، هو الذى يتزل عن كثير من حقوقه من أجل المرأة التى يجبها .. فكأن المرأة قد حصلت على المساواة ، وجاء الحب وأعطاه ما هو أكثر من المساواة ..

ولأول مرة نجد أن الشبان يتأثرون بأناس آخريين خارج الأسرة ، فليس الأب هو الشخص الوحيد الذى يقوم بتطوير وتشكيل أفكار أولاده .. وإنما هناك أناس آخرون : الأدباء والصحفيون والممثلون .. وهناك الرحلات التى يقوم بها الأبناء خارج البلاد يرون ويقارنون ويتأثرون وتكون لهم أفكار مستقلة ومختلفة عن أفكار الأب - ومن رأى الأبناء أنها أفضل .

٦ - وآخر التغيرات كان بسبب الحرب والتوترات الدولية . فالرجل مفتون بالقوة وهو ضحيته أيضاً . والرجل يعلم أنه كلما ابتعد عن البيت ، تحررت منه المرأة وانشغلت واستقلت عنه . والمرأة التى كانت فيما مضى تقاوم الحرب : قد استفادت منها .

فالحروب أعطت المرأة فرصة نادرة لأن تملأ مكان الرجل أثناء الحرب العالمية الأولى . وليس من الصدفة أن تفوز المرأة بحق الانتخاب بعد الحرب العالمية

الأولى .. لقد كان انتصارها هذا مكافأة على خدماتها ، أما أثناء الحرب العالمية الثانية فقد ذهبت ملايين النساء إلى المكاتب ليشغلن مكان الرجل . والحرب إذا كانت قد هزت المجتمع وباعدت بين المحبين ، فإنها خلقت نوعا من الحرية والتحلل من القيود العاطفية ..

كما أن الحرب الحارة والباردة والتشنجات الدولية قد خلقت شعورا عاما هو : عش اللحظة التي أنت فيها .

ومن هنا كان الحب الخاطف . واللذة العابرة . والحرية المركزة .

فالقنبلة الذرية قد خلقت عندنا احساسا حزيننا بأنه من الممكن أن يموت الناس في أى وقت .. ولذلك يجب أن يعيشوا في أى وقت .. ولأى وقت .. فالغد لا يهم . اليوم هو الأهم .

هذا الضياع الجنسي الذى غرقت فيه أمريكا وأوضاع أوروبا، أشكال وألوان .. حتى الشرق الأوسط بدأ يتعلم لعبة الضياع . فالنساء سافرات . والشبان أكثر تأثرا بالحضارة الأوروبية والأمريكية فى الأزياء والرقص والعادات الأخرى .. التوجه إلى تزهة على النيل (؟) ولم يكن ذلك مألوفا من قبل .. وفى اليونان لانجد الزواج منظما ولا دينيا فى المدن . وإنما الأغنياء فقط هم الحريصون على هذه الطقوس التقليدية . وفى الحدائق يتعانق الشبان علنا . بينما فى الريف اليونانى لا يسمحون للمرأة أن تكشف أبعاد من قدميها ويديها ووجهها أحيانا .

ومنذ ثلاثين عاما كان الرجل اليابانى سيد البيت . سيد المرأة ، وكانت طاعته واجبة . وإرادته قضاء وقدرأ أما الآن فقد ألقت المرأة قنبلتها على الرجل فمزقت إرادته وقداسته .. وربما كان ذلك هو سبب عودة كثير من الرجال إلى البيت فى ساعة متأخرة مخمورين .. وفى نفس الوقت هناك رجال يقدمون مرتباتهم إلى زوجاتهم فى مظاريف مقللة .. أى ينقلون الفلوس من الصراف إلى الصرافة - أى إلى الزوجة . وأصبح من حق المرأة أن تذهب إلى المدرسة وإلى

الجامعة ومن حقها تحديد النسل ومن حقها أن تنفصل عن الزوج بالطلاق ..
ومن حقها أن تتناول طعامها وتنام . وأصبح الرجل مضطرا أن يخلع حذاءه
ويغسل قدميه .. ووجهه أيضا .

والمرأة الأمريكية هي المسئولة إلى حد ما عن ذلك . فالجنرال ماكارثر عندما
أعلن الدستور الياباني ، جعل من الضروري تحرير المرأة .

وغير المرأة اليابانية نساء كثيرات تحررن .. وتحلن أيضا ..
وليست هذه صورة لأعماق المجتمع الأمريكي وأوضاع المجتمع الأوربي
ومخاوف العائلة الأفريقية والآسيوية ولكنها وعد برسم صورة وتشخيص حالة
وعلاجها بعد ذلك .. وكما أن المرض عام ، فالعلاج عام أيضا .. وإذا كان
الآباء هم الذين صنعوا هذه البيئة التي ألقوا فيها بأبنائهم ، فإن الأبناء هم الذين
خلقوا الشكوى من البيئة ومن الآباء . فالشكوى كالمريض وكالعلاج ، عامة
أيضا .. والمشكلة كرة يضربها الآباء في الأبناء ويضربها الأبناء في الآباء ..
وأرضية الملعب ملتهبة .. وهذه صورة للجميع ..

عصرى فيه الفناة (صرا ولا تسمعها

- ٢ -

ويمكن أن يقال عن الشباب إنهم غابة مشتعلة .. قل ما يعجبك .. ولكن قل لى بعد ذلك ما الذى يجب أن نفعله أمام هذا الدخان الذى ينعقد فى العقول والقلوب .. وتحول إلى حجارة والحجارة إلى جدران .. والجدران تفصل بين الجنسين .. وتجعل كل جنس معتقلا فى خوفه .. ثم تتباعد المسافة بين هذا الجيل والجيل الذى قبله .

إن فلاحا إيطاليا رفض أن تسافر ابنته إلى أمريكا إلا إذا وافقت إحدى شركات التأمين أن تحمى عفتها .. ووافقت شركة التأمين . فهذا الخوف على البنت من الولد قديم جدا . فالكاتب المصرى القديم قد نصح بأن يبعد الولد عن البنت فى النوم والمرح . ولا مانع أن نجتمع بينهما فى العمل . وعمر هذه النصيحة أربعة آلاف سنة .

وإذا كان مزاج الشبان مختلفا عن مزاج الرجال ، فإن هذا الخلاف يصبح أقوى وأعنف لأن الشبان عددهم أكثر . وقد حاول كثير من العلماء أن يفهم ماذا يريد وماذا يقول الشبان . وأعلن أنه لم يفهم بالضبط . وهذا ما يعرفه الشبان أيضا . إنهم يتكلمون لغة أخرى بأساليب أخرى .

بل إن الشبان حريصون على أن يظلوا شبانا ومنعزلين عن غيرهم من الكبار . لقد قال لى شاب إنه في الاجازة الصيفية لم يتحدث إلى واحد أكبر من ٢٥ سنة . ولم ير ضرورة لذلك .

ولأن فترة التعلم قد طالت ، فإن الشبان يعتمدون على آباؤهم أو على إخوتهم الكبار .. وعلى الرغم من حاجتهم إلى الأكبر سنا . فإنهم يظلون منعزلين يهتمون في سنهم وفي عاداتهم وفي دنياهم الغربية ..

ومن العجيب أن نجد في مدينة نيويورك محطتين للإذاعة : إحداهما للشبان والأخرى للكبار .. وكثيرا ما استمع الكبار إلى إذاعة الشبان ، ويندر أن يستمع الشبان إلى إذاعة الكبار .

والسؤال الذى يقول : ما الذى نصنعه مع الشبان في فترة « اليقظة الجنسية » هو الذى سوف أنقل الإجابة عنه حالا ..

هناك دائما « يقظة جنسية » أو « صحو عاطفي » أو « فوران عضوي » أو « غليان كياوى » في جسم كل شاب . هذه حقيقة . وإطفاء هذه النيران ليس موضوعا . وإنما توجيه فائض البخار هو الموضوع .. تماما كالقطار . نحن لانطفئ ناره ولا نجس دخانه . وإنما نحن نوجه هذه الآلة إلى الأنفع والأهدأ . من المؤكد أن البيئة تغيرت .. أن الظروف التي يعيش فيها الشبان قد تطورت . وليس صحيحا أن الشبان في عزلة تامة عن العالم .. فمثلا ..

١ - لقد تغيرت سيطرة الأبوين على الأبناء . ولم تعد قوية ولا محكمة . فالخلاف بين البنت وأمها حاد . والمسافة التي تفصل بينها أطول وأعرض من الشارع الذى تسكنان فيه .. فالأم تهم ابنتها عادة بأنها جريئة وأنها لاتستحي . وخصوصا قبل الزواج . ولذلك عندما تتزوج الفتاة تحس الأم أنها أضعفت من الرقابة الليلية على ابنتها . وأن أحد رجال الشرطة الشرعيين قد تكفل بهذا

العبء الثقيل . ومن النادر أيضا أن تستشير البنت أمها في عريسها . إن الأم تفاجأ بالعريس في البيت أو على الباب إذا كانت الأسرة محافظة . وفي أمريكا اللاتينية اختفى تماما الزواج العائلي . فالفتاة تختار وتقرر وتزوج . وتدعو أمها وأباها حتى اليوم لشهر العسل . وليس الزواج فقط هو الذى يعتبر مفاجأة في سلوك البنت .. ولكن كل سلوكها سر ولغز . وأصبح من شعار الأمهات والآباء : عندها البيت تفعل فيه ما تشاء بشرط ألا تكسر الأدوات وألا توقظ الكلاب .

وليس هناك نصائح أو موعظة . ثم إن الشبان خاضعون لنفوذ أناس آخرين في الصحف والمجلات والكتب والميكرفون والشاشة . وفي هذه الأجهزة الإعلامية القوية دعوة للفتاة أن تنتهز الفرصة . وأن بيضة اليوم أحسن من دجاجة الغد . وتمسكت الفتيات بالبيض . وشجعت الصحف الشبان على الثورة والتمرد على البيت والأسرة والكنيسة . بل إن إحدى المجلات السينمائية عندما تحدثت عن الممثلة تيوزداى ولد قالت : إنها أصبحت تصافح أمها كلما رأتها خارجة من الغرفة المجاورة ولكنها لاتعيش معها ولا تكلمها .

وانتشار الروك اندرول وبقاؤه حتى الآن دليل على أن الشبان يهتمون جدا بإزعاج الآباء وتحديهم أيضا . وانتشار التدخين والخمور والسيارات كل ذلك يؤكد أن الشبان حريصون على صدم الرأى العام بكل الوسائل ليفهم الجميع أنهم مختلفون . وأنه من الضرورى أن يختلفوا .

وتحير الآباء ماذا يفعلون . إنهم ضعاف أمام هذا العدد الهائل من القوى الضاربة في الخيال وفي نفس الوقت لاتعتقد أنها خيالية . أكثر الشبان يقول : أنا واقعى ..

وهو بالفعل واقعى : لأنه يتصرف طبيعيا . والطبيعى أنه قوى . وأن أفعاله عنيفة . وأنه مختلف عن والديه ..

والفيلسوف أفلاطون قد حدثنا في كتابه المعروف « الجمهورية » عن دوخة الآباء والأبناء .. فقال : اضطرب كل شيء : الآباء يسلكون كالأطفال . والأطفال يتصرفون كالرجال والرجال يقلدون الشبان حتى لا يصفهم الشبان بالجمود أو الرجعية .

ومع ذلك فالشبان يطلبون النصيحة إلى الوالدين في المشاكل الاجتماعية والأخلاقية . والأرقام تنطق بأن الشبان يقبلون النصيحة وينفذونها أيضا .

ومنذ أقدم العصور نرى أن المجتمع سلطان قوى على كل الناس . وأن المجتمع يعتمد على قوته التاريخية في مواجهة الشبان وعيوبهم .. ففي سفر « التثنية » من الكتاب المقدس يقول : إن الأب إذا اكتشف أن ابنته ليست عذراء عليه أن يحملها إلى خارج البيت وعلى الناس جميعا أن يضربوها بالحجارة حتى الموت .

فالمجتمع قوى . وسلوك الشبان هو نوع من الهرب من المجتمع ومن عيون الناس . ولذلك فإن ٧٠٪ من الشبان الأمريكيان يرون أن امتلاك سيارة أمر حيوي .. فالسيارة ليست وسيلة للانتقال بل هي أيضا غاية يقضى فيها الشبان أجمل أوقاتهم .. ومعظم اللقطاء في أمريكا هم أبناء السيارات أيضا . والشبان في أمريكا يقولون : لاسيارة .. لافتاة .

وإلى جانب ضعف سيطرة الآباء على الأبناء ، هناك ضعف الكنيسة أيضا . فرجال الدين يريدون ألا يكونوا مكروهين لدى الشبان ولذلك لا يضغطون على سلوكهم . ولا يضعون النصائح عقبات في طريقهم وإذا التقى رجال الدين بالشبان فإنهم لا يتحدثون عن الحرام والحلال ، وإنما يتحدثون عن الصحة الجسمية والصحة النفسية .. إنهم يريدون أن يكونوا علماء فقط .

كما أن الجامعات لاتسيطر على الشبان . فالفتاة تجذب حبوب منع الحمل في

أجزاخانة الكلية . ولا أحد يسألها عن سبب شرائها للحبوب . بل إن الجامعة ترى أن حبوب منع الحمل مثل أى دواء آخر لمنع الزكام مثلا .
ولا تتدخل الجامعات فى شئون الطلبة إذا هم تركوا غرف النوم وذهبوا إلى الفنادق المجاورة .

وعندما سافر بعض الأمريكان إلى روسيا ووجدوا أن روسيا تسمح بزيارة الجنسين فى أماكن السكن الجامعية ولساعات محدودة رجعوا إلى أمريكا يتوسعون فى ساعات اللقاء ، وأنه كانت هناك كليات كثيرة ترفض الزيارة الليلية لبيوت الطلبة والطالبات . وهناك طبعا تعليمات مضحكة فى الطريق إلى غرف النوم مثل: يجب أن تكون هناك ثلاث أقدام على الأقل ملامسة للأرض .. والشبان ينفذون هذه التعليمات حرفيا فينامون على الأرض .. وهناك تعليمات تطالب بأن يكون الباب مفتوحا بحيث تدخل فيه سلة المهملات - وكثيرا ماطبق الشبان سلال المهملات ووضعوها بين ضلفتى الباب .. أو يكون الباب مفتوحا لدرجة يدخل منها كتاب من ٥٠٠ صفحة - والشبان يفتحون الكتاب على صفحة ٢٥٠ ويضعونه بين ضلفتى الباب - ومن الضرورى أن يكون مصباح الغرفة مضاء ، ويطلونه باللون الأزرق القاتم .

إن الأيدي التى تمسك أيدي الشبان قد تراخت .. ولم يجد الشبان صعوبة فى أن ينطلقوا وفى أن يستغرقهم شبابهم . ويهدمهم أيضا ..

٢ - وفى نفس الوقت يتعرض الشبان لغارات ليلية مركزة على أعصابهم من السينما والتلفزيون .

فكل الشبان فى السادسة عشرة قد رأوا القبلات أشكالا وألوانا والعناق الرقيق والعناق العنيف . إن أى شاب أمريكي رأى ١٥ ألف ساعة تليفزيونية ورأى « الجوى » الذى يؤدى إلى ذلك .

ورأى « الجو » الذى تم فيه ذلك و « الحالة » التى كان عليها الجنسان بعد أن تم ذلك وذلك .

ففى أحد الأفلام خلعت صوفيا لورين ملابسها مع الموسيقى .. كأن كل نعمة أصعب رقيقة واثقة تسحب منها ومن عليها قطعة من ملابسها .. ورأى الشبان أفلاما تتساقط فيها الفتاة بين الأحضان وكل واحد يقبلها بصورة مستقلة مختلفة . والفتاة سعيدة . وبعد مشاهدة هذه الأفلام العارية تتحدث الصحف عن هذه الأفلام وتشرح ما كان خافيا وتشجع عليه وتدعو إليه . وحتى إذا اكتفت الصحف بالكلام عن روعة الإخراج فقط ، ففى ذلك موافقة ضمنية على الجنس العريان .. موافقة أبوية واجتماعية أيضا على أن يحدث هذا وأن يشاهده الشبان . وأن يتخيلوا ويحلموا بعد ذلك .. وأن ينتقلوا من خيالهم إلى واقعهم . لأنه مسموح به ..

تغيرت الدنيا جدا . والذين شاهدوا فيلم « روميو وجوليت » بطولة لى هوارد ونورما شيرر لا بد أن يضحك من الجملة التى قالتها جوليت عندما اقترب منها روميو : لا .. ياروميو .. يجب أن تبقى قدماك على الأرض . وفى سنة ١٩٣٠ ظهرت هيدى لامار فى فيلم اسمه « منتهى النشوة » عارية تماما .. تماما . وبعد هذا الفيلم أصبحت الأفلام أجراً .

وفيلم « الانفجار » بين لنا صورة فتاتين عاريتين تغريان رجلا على كل شىء . ولم يعد العرى كافيا لإثارة الجنس ولذلك اتجه التلفزيون إلى الإثارة العنيفة بالكلام والحركة ..

أما الأغاني فهى أيضا أكثر إثارة من الأفلام . ويكفى أن تستحضر كلمات الكثير من الأغاني التى تعجبنا أنها جنسية صارخة : خذنى بين أحضانك خذنى .. وهات عينيك وإيديك ورجليك .. الخ وعذاب الحب .. حب العذاب ..

وهوان العشق هو عشق للهوان .. وهناك أغنية تندب حظ فتاة قررت أن تعود
مبكرة فهي لم تجد فراشا آخر تأوى إليه .

وكذلك الرقص . فن المعروف أن الشبان أكثر خجلا من الشابات . وأن
الفتاة أجراً . وأكثر حبا لكل ما هو عريان في الملابس وفي الكلام . ولكن الرقص
الجديد يقضى على خجل الشباب . فابتداء من سنة ١٩٦٠ وجدنا الرقصات كلها
تخرج الشباب وسط عشرات الراقصات لينسى خجله في الزحام . وليس على
الشباب إلا أن يرمى نفسه في بحر الرقص وبراكين الموسيقى ويستمتع بالنظر إلى الفتاة
وهي تتلوى يمينا وشمالا .. وتعلو وتهبط .. وتقترب وتبعد .. تقترب بساقها وتبعد
بصدرها .. وكلها حركات جنسية .. أما الرقص الهادئ فهو التصاق ملتهب ..
وفي بعض الرقصات الحديثة ينزل الشبان بالبيجامات والفتيات بقمصان النوم ..
وأحيانا بالملابس الداخلية فقط وفي مصابيح خافتة .. كأن المصابيح قد تغطت
بكل ملابس الراقصين .. وهناك رقصات يهيم فيها الراقصون على مراتب السرير
ويتزلونها إلى الأرض ويرقصون أفقيا .

ووراء هذا كله نجد الصحف والمجلات التي تناقش موضوعات على
المكشوف .. فثلا نجد مثل هذه الموضوعات : كيف تعودين عذراء مرة أخرى ..
كيف تتزوجين لثالث مرة وكأنها المرة الأولى .. وإذا لم تكن عندك مغامرات فعندنا
برنامج حافل لك .. إن الرجال يفضلونها صاحبة تجارب .. لا تظني أن هذا هو
الرجل الوحيد في حياتك .. في جسمك كنوز لا تعرفينها .. ليس بالشفيتين فقط
تعيش الفتاة .

وفي جميع الظروف كانت المرأة تتعري . أو كان هناك من يحرص على تعريتها
بمساحات متفاوتة وفي أماكن مختلفة . وقد تغيرت هذه المساحات وهذه الأماكن

بمرور الزمن . انتقلت من خط الوسط إلى خط الرقبة . ومن الركبة إلى مافوقها ..
إلى الساقين والقدم ..

ففي نهاية القرن الماضي كان منظر تحت الابط يثير الرجل . ومضت سنوات لم
يعد أحد ينظر إلى هذا المكان . وفي سنة ١٩٦٠ اتجهت السينما للبحث عن أماكن
أخرى تثير الرجل .

وفيما بين ٦٥ و١٩٦٧ ابتعدت الكاميرا عن الصدر الذي أثار الناس وقتنا
طويلا . وتركزت الكاميرات على السيقان . ولذلك قصرت الفساتين وضاعت
البنطلونات . وقام القماش المطاط ببقية الإثارة - كما ظهرت الفتحات في الملابس
الداخلية للمرأة .. ولكن لا تزال الملابس الملتصقة هي المثيرة أكثر لأنها تطاوع
خطوط الصدر ، وتناق خطوط الأرداف ، وتتلمص على الساقين .. وتتطفل
على كل شيء آخر ..

في سنة ١٩٦٨ ظهرت البلوزات بلا حمالات ..

وعادت الموضات بعد ذلك إلى الصدر والتركيز عليه .

لتصرف العيون عن السيقان . وبذلك تتخلص المرأة من ملايين الفساتين
القصيرة .

والمايوه البيكيني لم يعد موضحة الآن . فقد ظهرت موضحة أخرى تثير الرجال
أكثر . وكل ما فعله المايوه البيكيني هو أنه ترك المساحات العارية في جسم المرأة .
واخترع رجال الكيمياء دهانا جديدا للوقاية ضد الشمس ويحتاج إلى يد قوية
لتمسح به الجسم . وهذه اليد القوية هي عادة يد الرجل . والرجل يمسح على
٩٥٪ من جسم المرأة - متعة للثنتين ! .

والإعلان في أمريكا هو الذي يحرك الجميع في اتجاه المرأة أو بعيدا عنها .

فهو يطلب إلى المرأة أن تستخدم أحدث العطور . إن هذه العطور مصيدة الرجال .. وهناك عطر اسمه : قبل وأثناء وبعد .. إنه هو وحده القادر على تزويج الأجسام والعقول والقلوب .. وفي أحد الإعلانات عن عطر يرى الشبان فتاة عارية في الفراش .. وشعرها منكوش .. ويتلاقى على وجهها الاستسلام والإرهاق والارتياح - مفهوم . وتقول : لا أعرف إن كان هو أو عطره ؟

والأمريكان عندهم عقدة أن المرأة الأمريكية ليست أنثى . ولذلك يطلبون إليها أن تعرف كيف ترتدى الملابس لكي تخلعها بعد ذلك . ولذلك فالمرأة الأمريكية تسرف في الظهور بمظهر الأنثى فتكون جريئة ووقحة وتحاول أن تبدو مثيرة جنسيا . مع أن الجراة تتنافى مع الأنوثة . لأن المرأة من الممكن أن تكون مثيرة ورفيقة أيضا .

والأمريكان لهم مشكلة خاصة . وهي أنهم ينتقلون من مكان إلى مكان وهذا التنقل يجعل الأم تخاف على ابنتها ألا تجد صديقا أو عريسا . ولذلك نجد أن الأم تطلب من ابنتها أن تكون أنيقة مثيرة . ويسعد الأم أن يكون لابنتها صديق . ويسعدها أكثر أن يكون لها أكثر من صديق في وقت واحد أو الواحد بعد الآخر . لأنها تريد من ابنتها أن تتفرج وتشوف قبل أن تختار ابن الحلال ولكن الفتاة تؤكد لأمها أن شخصيتها قوية وأن الذي يعرفها يتمسك بها ، أو أنها شخصية لا تخطئ في الحكم ، فإنها تتمسك بصديق واحد .. وبصورة منتظمة .

وكثيرا ما ذهبت الأم الأمريكية إلى المدرسة وطالبت بحفلات للرقص والأم الأمريكية تشعر بالسعادة عندما تجد أن الشبان متمسكون بابنتها من أول الحفلة إلى آخرها .

والفتاة في شمال أوروبا تدفع حسابها إذا تناولت الطعام مع شاب . ولكن في

أمريكا نجد الشاب هو الذى يدفع . أما الفتاة التى تدفع فينظرون إليها على أنها مسترجلة أو مستهتره .

وكل الأشياء المثيرة قد استخدمها الشبان . ولم تعد هناك أية مغامرات جنسية . ولكن هناك أفكارا أخرى عند الشبان . هناك الحرص على أن يعيش الواحد فى خطر . أو خطرا . أو قريبا من الخطر . وهناك انتشار المخدرات وعقاقير الهلوسة .. وهناك نوع من الشذوذ الجنسى عند الجميع . فن المظاهر المتكررة أن تفاجأ الفتيات بأن شابا قد نزع ملابسه فجأة فتصرخ الفتيات . ويسقط الشاب على الأرض فى حالة نشوة - وقد اعترف الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو بأنه كان يجد متعة شخصية فى ذلك .

٣ - وإلى جانب ضعف السلطات المختلفة فى مراقبة الشبان ، وإلى جانب تعرض الشبان للحملات الإعلامية العنيفة ، هناك أيضا ضعف عام فى القيم الأخلاقية . وهزال فى التعاليم الدينية .. وعندما سئل أحد الشبان عن سبب هذا الإغراق فى الجنس .. قال : إننى لم أسمع كلمة : لا .. من أحد .

ولم يعد أحد أيضا يهتم بما كانت تفعله الفتاة قبل الزواج . ولا يدور حوار بين الفتى والفتاة بعد الزواج موضوعه : هل فى نيتك استئناف ما كان قبل ذلك أيضا .

كما أن هناك نظريات واجتهادات عديدة فى تفسير السلوك الجنسى للرجل والمرأة قبل وبعد وأثناء الزواج .

هناك رأى يقول إن المجتمعات القديمة حرصت على شرف البنت ، صيانة للنسل .. لنسل الأغنياء والأشراف فقط .

هناك نظرية تقول : إن ما كانت تفعله الفتاة قبل الزواج سوف تفعله بعد الزواج أيضا .

أما دائرة المعارف الكاثوليكية التي طبعت أخيرا فقد خصصت ٤٠ صفحة للكلام عن الخطيئة . من بينها ٣٠ صفحة عن الخطيئة الجنسية فقط . وفي القرن ١٩ في بريطانيا عاش الناس على الطهارة الأخلاقية والجنسية . والقرن ١٧ كان عصر الطهارة بالقوة . وكانت المرأة الشريفة هي التي لا تهتم بالجنس ولا تذكره . وتبالغ في قرفها من الرجل واحتقارها للإنسان الذي يقلد الحيوان في كل شيء . والموضة في القرن ١٩ كانت توضح هذا المعنى فالمرأة قد غطت جسمها من القدمين إلى اليدين .

ولما جاءت الحرب الأولى أطاحت بهذه القيود . وهدمت العمارات الأخلاقية . ورصفت الطريق بين الجنسين . وانتقلت أسلاك الجنس بين الطرفين . ورأى الأوربيون مئات الألوف من الأمريكان .. ولا يزال الناس يتصورون أن المرأة الفرنسية هي أكثر النساء إثارة .. وأن صناعتها الحب .. وهذه شهرة فقط فقد جاءت الحرب الأولى . والحقيقة أن المرأة الفرنسية ليست كذلك . لا في الحرب الأولى ولا الثانية . بل إنه من المؤكد أن المرأة الفرنسية هي أقل نساء أوروبا فجورا . بل أقلهن حديثا في الموضوعات الجنسية بصورة علنية . وبعد ذلك رفعت الفتاة شعرها ، وذيل فستانها ، وبرزت بصدرها ، وألقت بالنار على الجنس الآخر .
وأخيرا ..

ظهرت نظريات العالم النمساوي فرويد التي اكتشفها أثناء معالجته للمرضى والمجانين : فهو يرى أن المحرك الأول للنشاط الإنساني كله هو الجنس . وأنه ليس من الطبيعي أن نضحى بالجنس من أجل القيم الأخلاقية المعاصرة . لأن معظم اضطرابات العالم بسبب الكبت الجنسي . وأن العلاج الوحيد هو : التفريغ أو التصريف أو الانطلاق - هذا هو المعنى .
والغريب أن فرويد نفسه كان معتدلا جنسيا . بل كان دون الاعتدال .

وكان محافظا متمسكا بالدين اليهودى . وقد اعترف بأنه أصبح عاجزا جنسيا تماما دون الأربعين بكثير .

وظهر عالم آخر فى أمريكا هو الدكتور كنتزى وحلل المجتمع الأمريكى وكشفه . وفضحه . وفى نفس الوقت قدم المجتمع الأمريكى هدية لعلماء النفس والأطباء ورجال الدين والسياسة . وكان من رأى الدكتور كنتزى : أن الأشياء والعلاقات كما يجب أن تكون ، هى الأشياء كما هى . أى كل ما هو طبيعى ، هو ما يجب أن يكون . وأن الإنسان يحاول أن يكذب . فإذا اضطر إلى الكذب التوى . وإذا التوى فقدنا معالم الطبيعة الإنسانية .

وتقرير الدكتور كنتزى صورة مخيفة للمجتمع الأمريكى والأوربى .. صورة للانحلال والإصرار عليه .

وبعد الدكتور كنتزى ظهر الدكتور ماسترز وهو الذى صور العلاقات الجنسية بين الشبان فى أفلام ملونة . وهو يعتقد أن المجتمع الأمريكى يضع النيذ القديم فى زجاجات جديدة . وأن الأمريكان يحاولون أن يحشروا آراءهم القديمة فى رعوس الشبان .. فى حين أن من الأفضل أن نستمع كثيرا إلى الشبان وأن ننظر إليهم أطول . وأن نقرب من هذه الظاهرة الجديدة لعلنا نفهم الحاضر والمستقبل .

وأما التضارب الهائل بين كلمتى : نعم ولا .. وبين المنع والاباحة .. وبين الزهد الشديد والزهد المستمر فى العلاقات الجنسية .. وبين الارهاب الجنسى والانحلال الجنسى اضطرب الشبان . فهناك شعاران فى أمريكا : الجنس رجس والجنس أنس .. والشبان يقبلون والآباء يعدون القبلات .. والأمهات مشغولات باللقطاء ..

إن النيران قد أحاطت بالغابة .. وهنا نار وهناك دخان .. ولا بد أن يكون هناك حل ما .

مكتوب على الفستان والجزمة : تاريخ المرأة

- ٣ -

كانت قوة شمشون الجبار في شعره الطويل .
وكانت دليلا أقوى من شمشون لأنها هي التي حلقت له
فأصبح ضعيفا . وكل شمشون له دليلا . وكل دليلا لها حيلة .
ولا تزال دليلا وأخواتها يلعبن بكل شمشون : في شعره وفي عقله
وفي قلبه وفي مستقبله .

والمرأة بغريزتها دليلا .
وإذا كانت المرأة لا تعرف هذه الحقيقة فإن هناك ألوفا من
الرجال يشرحون لها ذلك . يشرحون لها كيف يمكنها أن تتغلب
على أي شمشون .. فالرجال هم الذين يساعدون المرأة على
هدمهم وخراب بيوتهم وعقولهم وقلوبهم قبل ذلك .

وتجد المرأة من يقول لها دائما إنها ضعيفة ، مع أنها - بمعونة الرجل وضد
الرجل - لا يمكن أن تكون ضعيفة ..

ولم يحدث في عصر من العصور أن تحررت المرأة ، وأصبحت مساوية
للرجل في كل شيء ، كما في هذا العصر . فن حق المرأة أن تتعلم وأن تعمل ،
ولها أن تختار الزوج ، أو لا تختار وأن تعمل أو لا تعمل ، وليس من الضروري
أن تبحث المرأة عن الفلوس يكفي أنها تتزوج رجلا عنده فلوس ، ولا يزال

المجتمع ينظر باحتقار للرجل الذى يتزوج المرأة لفلوسها .

وإذا كان الرجل هو الذى يكتب التاريخ ، فقد جاء دور المرأة أن تكتب تاريخها هى أيضا .. تاريخها بقلم الرجل . وما دامت المرأة هى التى سوف تقرأ تاريخها ، فالرجل المؤلف حريص على أن يكون محبوبا من المرأة ولذلك فالرجل يكتب التاريخ لصالح المرأة .. وبفلوسها ..

فالرجل هو الذى سجل على المرأة أنها كاذبة مخادعة ، وأن الحياة معها كالحياء على قمة بركان نائر .. أو سوف يثور بين لحظة وأخرى ، وثورة البركان معناها أن البركان يدخل طرفا فى النزاع بين الرجل والمرأة وأنه يقف إلى جوار المرأة ضد الرجل .

والرجل هو الذى صور المرأة فى الروايات والمسرحيات فى شكل مخيف .. مخيف للرجل وللمرأة أيضا حتى أن المرأة كثيرا ما لعنت حظها أنها خلقت امرأة ، ولم يخلقها الله رجلا .

وإذا كان القديس بولس قد نصح المرأة ألا ترفع صوتها فى الكنيسة ، فإن الرجل قد أسكت المرأة بل كتم أنفاسها - تطبيقا لنصيحة القديس بولس .

ولكن شيئا حدث فى العالم كله بعد الحرب العالمية الأولى .. انتقلت النساء أثناء الحرب إلى العمل فى أماكن الرجال . وبعد الحرب عاد الرجال يعملون فى أماكن الرجال والنساء أيضا ، وبعد الحرب أحس الرجال أن المرأة قد صنعت شيئا نافعا من أجل المجتمع .

ومن الصدف الغريبة أن يصدر فى أمريكا قانون بحق التصويت للمرأة وفى نفس الوقت قانون بتحريم شرب الخمر، وكان ذلك فى سنة ١٩٢٠ ، وكانت المرأة هى التى تطالب بتحريم الخمر، إذن لقد سمع الرجل صوت المرأة وأعطاهها حق التصويت .. أى الحق فى أن يكون لها صوت ضد الرجل ..

وفرحت المرأة بالحقوق الجديدة التي اكتسبتها ، وفرحت أيضا بحريتها ..
ولكن ما الذي صنعه المرأة بحريتها ؟ هل هي حرة في الاستفادة من حريتها ؟
هل هي حرة في حريتها ..؟

في الأربعينيات من هذا القرن اشتغلت المرأة. ولم يعترض أحد على عملها ،
ولكن كان عند المرأة شعور بأنها ست بيت أيضا ، أو تحب أن تكون كذلك ،
وأن العمل خارج البيت ليس إلا نوعا من الترف أو أنه دليل على أنها قادرة على
أن تكون شيئا آخر غير الزوجة وغير الأم . وكانت المرأة تشعر بالسعادة وقد التفت
حولها أولادها الخمسة أو السبعة . وكان من مباحج الحياة العائلية أن تخرج
الأسرة في سيارة كبيرة امتلأت نوافذها بالأطفال ..

وكانت الصحف تتحدث كثيرا عن المرأة الصغيرة التي لها بيت صغير وتديره
بنفسها والذي امتلأ بالأطفال الصغار السعداء .. إنها أسرة سعيدة .

والمرأة عندما تحس أنها مرغوبة ، فإنها تحرص على أن تكون أنثى ، والمرأة
عندما تحس أنها أم سعيدة فإنها لا تهتم كثيرا بأن تكون رشيقة أو نحيفة . لأن
البيت يحتم عليها الحركة البطيئة ، ويحتم عليها أن تكون في صحة جيدة ..
وفي الخمسينيات من هذا القرن امتلأت الدنيا بالخوف من الحرب الذرية ..
وبالخوف من الموت والفناء وأحس كل أب وكل أم أن حياته عبء عليه ، وأنه
لا داعي لأن يأتي بأولاد من أجل الموت ..

ولاحظ أيضا علماء الاجتماع أن هناك اضطرابا نفسيا وعقليا عاما ، وأن
التعليم قد أزهق الفتاة ، وأنه كلما تعلمت الفتاة وطالت فترة الدراسة ، وتعطلت
عن الزواج ، ارتبكت عواطفها ، وهذا الارتباك قد ظهر بصورة صارخة في
موقف الفتاة من الرجل . هل تحبه ؟ نعم . وماذا بعد الحب ؟ إنها لا تعرف .
ومتى تعرف ؟ إنها أيضا لا تعرف .

وعندما سئلت فتاة جامعية عن مشروعاتها للمستقبل قالت : عندي مشروعات .. واحد إذا تزوجت .. وواحد إذا لم أتزوج ..

وكثيرا ما سئلت عشرات الألوف من الجامعيات عن المستقبل ، وقد أجابت الأغلبية بأنهن حريصات على مواصلة التعليم الجامعي والعمل بعد ذلك ، ولكن المفاجأة تقع في منتصف الطريق : عندما تتزوج زميلاتهن ويتركن الجامعة ، والزواج هو أحد الأمراض المعدية ، وهو ينتقل بين الأصدقاء بسرعة ، وقد سئلت إحدى الطالبات التي تزوجت في الشهر الأول من عامها الدراسي الأول : وكيف تزوجت ؟ .. فأجابت : لم تكن عندي أية فكرة إلى أن رأيت زميلتي قد تزوجت أحد أصدقائنا ، فذهبت إلى صديقي وقلت له : وأنت ما رأيك ؟ فتردد وقال : ليس الآن .. وقلت له بشدة : الآن وإلا .. فأخني رأسه قائلا : الآن .

وهكذا تزوجت واحدة .. ومثلها عشرات الألوف .

ولما سئلت إحدى الفتيات أيضا عن مشاريعها بعد الزواج قالت : أن أتزوج وأن أستمر في الزواج وأن يكون لي أطفال ، وأن أعمل ، وألا أكون مملّة لزوجي . وأن أكون أنثى دائما .

إنها مهمة شاقة جدا أن تكون المرأة كل هذه الصفات في وقت واحد ، وأن تنجح في أدائها دائما وأمام شخص واحد . إن صعوبة مهمة المرأة ليست في إيقاظ حواسها ، فهذا سهل ، ولكن في إيقاظ حواس الرجل والاحتفاظ بحواسها أيضا ، وأن تفقد هذه في العمل وأن تستعيدها مع الطفل ، وأن تشعل النار فيها للزوج .. فالمرأة ليست ضعيفة ولا قابلة للكسر كما وصفها الرجل من مئات السنين ..

ولكن هناك مفكرات وأديبات يستنكرن الزواج ، ويرين أن الزواج نظام استبدادي ، وأن الرجل طاغية ولا شيء يدل على طغيان الرجل إلا بقاء هذا

النظام الذى يربط المرأة فى سلاسل من حديد ، لا يتقيد بها الرجل
فالأديبة الفرنسية سيمون دى بوفوار - التى رفضت الزواج من الفيلد
سارتر - من رأيها أن المرأة لن تستقل إلا إذا عاشت بعيدا عن الرجل - أو
إذا تحطمت العلاقة الزوجية والأسرة .

ولكن هذا الرأى لا تؤيده معظم النساء ، فالمرأة تريد الأسرة ، و
الطفل من الرجل الذى تحبه . وتريد القيد الذى يفرضه الحبيب ، وتريد
التى تشعها الرجولة . والأمان الذى يضيفه الحنان ، والضمان الذى تع
الفلوس .

ولكن فى نفس الوقت الذى تريد أن تكون شيئا «أكثر» من أن ت
زوجة .. أو أما .. أن تكون موظفة أن تعمل شيئا .. حتى لا تفقد احتر
لنفسها ..

والذى يرى الفتيات ذاهبات إلى العمل أو يراهن فى المكاتب والمؤسس
يخيل إليه أنه لا توجد فتاة جالسة فى البيت ، فكلهن يعملن ولكن برب
تشكو من نقص فى الفتيات .العاملات ..

وفى أمريكا منذ ٢٥ سنة كان ٢٠٪ من النساء العاملات متزوجات ،
الآن فمعظم العاملات متزوجات ، وأكبر نسبة للعاملات المتزوجات فى ال
موجودة فى الاتحاد السوفيتى ..

ومن الملاحظ أنه كلما كان تعليم الفتاة عاليا ، كانت رغبتها فى العمل أك
ونسبة المشتغلات أكبر . فى أمريكا ٦٠٪ من العاملات مدرسات و
ممرضات و ٥٪ سكرتيرات ، و ٥٪ عاملات تليفون .

ومن بين ال ١٥٠ وزيرا أمريكيا فى الأربعين عاما الماضية كانت وزير
فقط وبين أعضاء المحكمة العليا لم يكن غير امرأة واحدة .

وفي أمريكا أيضا نجد أن أجر الموظفة أقل من أجر الموظف .. وفي معظم الدول الأوروبية أيضا . وهناك محاولات للمساواة بين الجنسين ، ولكن حتى الآن لم ينجح .

فالذى ينظر إلى المرأة عموما يجد أنها تعمل ، وترقص ، وتدخن ، وتسكن وحدها ، وتتزوج مرة بعد مرة .. ولكن هل المرأة سعيدة بحريتها؟ .

إن المرأة تقول : لا لست سعيدة . فهل الرجل سعيد بحريته ؟ إن تاريخ حرية الرجل قديم جدا ، وتعاسة الرجل ليس سببها أنه حر أو ليس حرا .. بل ويمكن أن يقال إننا مقبلون على مرحلة غريبة من تاريخ العلاقات بين الجنسين .. عصر يشتد فيه قلق الرجل ، ويزداد فيه هدوء المرأة ، كأنها يعيشان في عالمين مختلفين ..

وعلى الرجل أن يواجه «المرأة الجديدة» .. وعليه أيضا أن يتعامل معها .. وأن يواجه مشاكله ومشاكلها بروح جديدة : روح القسمة العادلة أى أن يحمل هو نصيب الأسد من الهموم ؟ .

منتهى الظلم . لأن هموم المرأة التي تضعها على دماغ الرجل أكثر من همومه ، ولأن الرجل ضحية أفكاره هو التي تقول إنه (جمل) وأنه (جمال الأسيه) .. والحقيقة أن الرجل لا هو جمل ولا قادر على الأسي .. وإنما مقدرة المرأة على تحمل الهموم والتخلص منها أقوى .. وقدره المرأة على الصبر أعمق .. ثم إنه لم يعد هناك مبرر لأن ينفرد الرجل بالهموم .. إن المرأة أصبحت مثله .. تعلمت وعملت وكسبت وهي قادرة على أن تتركه وتعاود الحياة مع رجل آخر فليس هذا الرجل بالذات هو كل ما لها في الدنيا . فالذى لها في الدنيا كثير غيره ..

ومن مخاوف المرأة : أنها لا تحب أن توصف بأنها أنثى فقط ، ولا تحب أن توصف بأنها موظفة فقط .

ومن مخاوف الرجل : أنه لا يجب أن يوصف بأنه رجل والسلام ، أو أنه موظف فقط .

ومعنى ذلك أن كلا منهما حريص على أن يكون صورة ناطقة لجنسه ..
وصورة معبرة للوظيفة الاجتماعية التي يؤديها ..

وإذا كان الرجل في أمريكا قد ترك مكانه للمرأة ، فإن الرجل الإيطالي ما يزال الصورة القوية للأب والأخ والزوج ، وما يزال هو السيد ، والمرأة التي تقتل زوجها الخائن جريمة عادية والرجل يرى هذا القتل طبيعى .. وأن هذه الجريمة التي ترتكبها المرأة هي تحية للرجل الذى مات والذى لم يميت ، فعنى ذلك أن هناك امرأة رأت أن الموت من نصيب الرجل الذى يخونها أو الذى يهدد أمنها العاطفى ..

ومن الاكتشافات النفسية الفريدة أن الرجل الحديث يغار من المرأة القادرة على أن تنتج شيئا يعجز هو عن إنتاجه .. أن تلد مثلا ..

فالملأوف أن تغار المرأة من رجولة الرجل .. ومن المجتمع الذى صنعه الرجل لنفسه . ولكن العجيب أن هناك شبانا يغارون من أنوثة المرأة ومن قدرتها على أن تكون أشياء كثيرة فى وقت واحد . ويحسد المرأة على أنها تستطيع أن تعيش من غير زوج واحد بالذات . وأن المهم عندها أن تكون أما فى الدرجة الأولى وأن تكون زوجة فى الدرجة الثانية ، وأن إحساساتها عميقة ، أما الرجل فأحساسه غير صادق فى الأبوة وفى الزواج وفى حبه لأولاده بعد ذلك . إن مشاعره تولد بعد كل طفل ، أما مشاعر المرأة فسابقة على كل طفل ومعه وبعده .

ويقال إن الهنود الحمر يتخذ رجالهم موقفا غريبا عندما تلد الزوجة . فالزوجة تذهب إلى الغابة مع بعض صديقاتها قبل الولادة بأيام . ويساعدها على الولادة . فإذا ولدت اختفى الزوج وأضرب عن الطعام وقد يظل كذلك حتى

يموت ، أما تفسير ذلك فهو أن الزوج يغار من المولود .. ويغار من الزوجة التي انشغلت عنه هو بهذا الطفل ..

أما في اليابان فقد تحررت المرأة لدرجة أن الرجال يصرخون من حريتها الزائدة ..

أما الشبان فلا مانع عندهم من أن تنال المرأة من حريتها ما تشاء بشرط ألا تمشي معهم في الشارع ، فإن المشي في الشارع يستنكره الآباء والأجداد .
وأمام التلفزيون تتم التسوية النهائية لما تبقى للرجل من سلطات فالمرأة أكثر الناس جلوسا أمام التلفزيون . وفي التلفزيون مسرحيات مضحكة ، ومادة هذه المسرحية السخرية من الرجل الذي يقف على شنبه الصقر ، والرجل الكشر ، والرجل البخيل والرجل الذي يدعى العلم بكل شيء .. وأعظم أبطال الكوميديا في كل العصور : الرجل المغفل .

والتلفزيون يؤثر في ملايين النساء ويتم بين التلفزيون وبين النساء اتفاقية علنية توقعها المرأة تحت أنف الرجل ، هذه الاتفاقية تقول : إن هذا الرجل لم يعد مخيفا ..

والاعلانات في الصحف تؤكد أن المرأة هي التي تسحب الرجل وراءها إلى محلات الأزياء .. وهي التي تفرض عليه العلاقات الاجتماعية . وهي التي تغير أسلوبه في الحياة .

فمثلا في سنة ١٩٦٦ أعلنت شركة «كوفى» لمستحضرات الجمال عن عطر جديد .. فنشرت صورة لفتاة عارية وقد أفرغت زجاجة العطر على صدرها وتحت الصورة هذه العبارة : لكي تجعله رجلا .. كوفى أنثى .

وصورة أخرى لرجل على الرأس واقف الشارب وقد نامت على صدره نفس الفتاة العارية ، وتحت الصورة ... وهذه هي النتيجة ..

إن المرأة هي التي جعلته يشتري العطر الذي تريده هي ..
وفي سنة ١٩٦٠ وما بعدها حدث تطور خطير في أزياء المرأة ، والذي
سيكتب تاريخ المرأة سوف يقرأ سطور هذا التاريخ على شعرها وعلى فستانها
وجزمتها . ومن الغريب أن معظم مصممي أزياء المرأة مصابون بشذوذ جنسى ،
وهذا الشذوذ قد انعكس على فلسفتهم في الأناقة .. كأنهم حريصون على أن
يروا خليطاً من الرجال والنساء .. الرجال في ملابس النساء ، والنساء في
ملابس الرجال ..

والمصمم الممتاز هو الذي يرسم الذوق العام .. ويبدو أن الذوق العام هو
التقريب بين الجنسين : أى أن يقرب الرجل من المرأة ، وأن تدخل المرأة في
ملابس الرجل ، وأن يكون هناك جنس ثالث : لا هو رجل ، ولا هو امرأة ،
 وإنما هو الإثنان معا .

والمرأة عندما حرصت على أن تكون نحيفة وعلى أن تكون منكمشة الأرداف
ضيقة البنطلون ، فهي تريد أن تقول إنها ليست ست بيت ، وإنما هي خفيفة
الحركة ، وأن حركتها خارج البيت ، وأن مثلها الأعلى : بريجيت باردو .. التي
فيها صفات (الولد الناعم) أو (البت المسترجلة) .. وليس أغرب من منظر
بريجيت باردو وهي ترضع طفلاً ..

وبعد سنة ١٩٦٠ رأينا المرأة وقد ارتدت ملابس الرجال ، البنطلون الضيق
لرعاة البقر . والحذاء الغليظ والشعر المنكوش ، فهي لوليتا الصغيرة أو هي فتاة
السيرك مروضة الوحوش مع أن الرجل لم يعد متوحشا بل المرأة هي التي أصبحت
متوحشة ، ومع ذلك فالرجل لا يقوم بدور فتى السيرك ..

وقد ظهرت الفتاة في الحفلات الرسمية بالبنطلون وهذا ما لم يحدث في كل
تاريخ الحضارة الغربية .

وتركزت الأضواء على ساقى المرأة من جديد عندما ظهر الفستان القصير في سنة ١٩٦٦ .

وأصبح من المألوف أن تذهب المرأة إلى محلات أزياء الرجال تشتري البنطلونات .. بل إن الذين شاهدوا فيلم (حيث توجد الجواسيس) بطولة دافيد نيفن يجدون فتاة تشد سوستة بنطلونها .. والسوستة من الأمام . لم تعد سوستة بنطلونات الفتاة على الجنب ، مع أن الرجل يجد حرجا في أن يقفل سوستة بنطلونه أمام المرأة ..

وفي سنة ١٩٦٧ قدم ايف سان لوران مصمم الأزياء المعروف بنطلونات رعاة البقر ومعها أحذية عالية مفتوحة ..

وفي معسكرات الجامعة استخدمت الطالبات كولونيا الشباب .. وبعد أن كانت الفتاة تقول : أستطيع أن أعرف الرجل من رائحته ، أصبحت الفتاة تعجز عن ذلك .

وفي البلاد التي يكون فيها الرجل سيدا لا نجد المرأة ترتدى البنطلون .. في ايطاليا وأسبانيا ومعظم دول أمريكا اللاتينية . فالرجال يفضلونها بالفستان .. وكذلك في إنجلترا والسويد ..

وكان الرجال يرون أن الشعر الطويل من الأنوثة .. أصبح الآن شعر الشبان أطول من شعر الفتيات . ومن الممكن أن ترى شعر الرجال طويلا على حدود أمريكا ، وذلك لندرة الحلاقين ، أما في العواصم الأوربية والأمريكية فالشبان شعرهم طويل رغم كثرة الحلاقين ، بل من المناظر العادية أن يذهب الشاب إلى الحلاق يطلب وضع اللوسيون والبرماننت وأن يجلس تحت السشوار ساعة وساعتين .

وأكثر من ذلك حدث أيضا ، فالشبان أكثر نعومة ، وأكثر رقة .
والخنافس الانجليز هم الذين نشروا النعومة والأنوثة بين الرجال فهم أطالوا

شعورهم ، وأطالوا كعب الحذاء ، ووضعوا الأحمر في الشفاه ورسموا الحواجب الغليظة وزينوا أصابعهم وأيديهم وصدورهم وآذانهم بالحلى والمجوهرات .. بل إن فرقة من الخنافس الأمريكية قد ظهروا أمام مئات من الألوف من الفتيات المصابات بالجنون ، وقد صبغن الشعر بلون أحمر وردى ..

وخرج الشبان من البدل الزرقاء والرمادية ، ودخلوا في الألوان الوردية الزاهية .. حتى بدل الرجال قد ضاقت أكتافها واتسعت أردافها

إن الرجل بدأ يتجه إلى المرأة : فهو يستخدم عطرها ودهونها ، والأرقام تقول إن الرجل الأمريكي أكثر من المرأة استهلاكاً لأدوات التجميل . في العام الماضى فقط استهلك بما يساوى ٧٠٠ مليون دولار .. وقد أخرجت شركات التجميل مساحيق لرسم عين الرجل ومراهم لإزالة التجاعيد ومراهم لنعومة اليدين وتلميع الأظافر ..

ولكن لماذا اختار شمشون أن يكون دليلاً ؟ .

لأن الرجل ما يزال في حركة احتجاج على صورة (الرجولة الخشنة .. والرجل العضلات) .. ويرفض أن يدخل في الإطار الذى وجده جاهزاً عندما أصبح رجلاً : لا بد أن يكون غليظ الصوت رافع الشارب .. جافاً مغروراً .. محتقراً للمرأة وخائفاً منها .. إن الرجل لا يريد أن يكون كما أراد له المجتمع .. أما هذه القدرة التى نجدها فى شعر وملابس الرجال فسيبها أيضاً : أنه لا يكثر باقتراب أحد منه .. ولا يكثر أيضاً بنصائح الأب .. والمدرس ، والقسيس ، وهم جميعاً يطلبون إليه أن يكون نظيف الملبس ..

والمرأة أيضاً لا تريد أن تكون هذه الصورة التى اشتهرت بها .. والتى رأتها فى أمها وجدتها .. لا تريد أن تكون بالضبط كما أرادت الأجيال السابقة .. ولذلك فهى تتمرد على تمثال الأنوثة .. وتكفر بصورة الفتاة التى تمشى إلى جوار الحائط وتنتظر ابن الحلال .. إنها عرفت طريقها إلى ابن الحلال .. وابن الحلال

قد عرف طريقه إليها .. التقي شمشون بدليلة .. أو شمشون في ملابس دليلة .
إن الشبان قد ابتعدوا عن الآباء .. ولكن هذا الابتعاد قد أقلقهم من
جديد .. فهم إذا اقتربوا قلقوا ، وإذا ابتعدوا ازدادوا قلقا ..
أما الذي يريح الجميع فهو شيء بعيد ..

العلاقة التي يمسكونها بأوراق الورد

- ٤ -

هذه قاعدة : نحن نتعب في البحث عن الراحة .. ونشقى في البحث عن السعادة .. ونفلس وراء الفلوس .. ونولد ، ونموت وننسى أن نعيش .

قاعدة أخرى : الذى يشتري الحب بالفلوس يفقد الفلوس .. والذى يشتري السعادة الزوجية بالفلوس لا يجد الفلوس ولا السعادة ويجد الزوجية .

قاعدة ثالثة : التدخين وغسل الأطباق وكراهية السيارات القديمة .. والزواج عادة سيئة في أمريكا .

وأحدث قاعدة : إذا لم نجد دبلة خطوبة فلنرسمها على أصابعنا ولنتزوج فليس عندنا وقت للتفكير في النتائج .

وعندما نعرض هذه القواعد على الشبان في العالم الآن فإهم يختارون الزوجة التى تعجبهم . وبعد ذلك لا يهم ما يقوله الآباء في البيت أو الأساتذة في الجامعة . فالحب يعزلنا عن الناس . والزوجية تجعل العزلة سعيدة .. ولذلك يفضل الشبان أن يكونوا سعداء في أى مكان بعيد .. عن الأهل والمدينة وعن الراحة التقليدية أيضا .

والذى يجعل العزلة حالة نفسية عند الشبان وضرورة بعد ذلك أن حياة المدن تفرض العزلة . فالمدينة الكبيرة مليئة بالناس من الجنسين . ولكن أهل العماراة الواحدة لا يعرفون بعضهم البعض . بل إن الكثيرين من أهل الدور الواحد لا يتعارفون ولا يتزاورون . ولذلك فإن الفتاة الأمريكية تشعر أن المدينة منفى هائل أو أن المدينة برج بابل القديم وقد هرب منه الناس كل واحد قد ابتلع لسانه ، أو هو يتكلم لغة أخرى لا يعرفها أحد سواه .. وليس من الضرورى أن يعرفها أحد .

ثم إن الحياة الحديثة تقتضى من الموظف أو العامل أن ينتقل من بيت إلى بيت ومن مدينة إلى مدينة ومن وظيفة إلى أخرى . وهذا معناه أنه من الصعب على الفتاة أن تعرف جارها أو تجبه أو تتزوجه بعد ذلك .

وكثيرا ما تسأل الفتاة الموظفين فى الشركة التى سوف تعمل فيها : وكم عدد الشبان هنا ؟ .

هناك أعمال مليئة بالفتيات . ومعنى ذلك أن فرص اللقاء والحب والزواج بعد ذلك ممكنة : مثل : التدريس فى المدارس الابتدائية .. وتفصيل الأزياء والعمل فى التليفونات والمجمعات النسائية وشركات التأمين .

وهناك أعمال تسهل على الفتاة أن تجد الزوج المناسب : كأن تكون سكرتيرة للمدير .. أو كأن تعمل فى إحدى شركات الاعلانات .. أو المجمعات الاستهلاكية أو أن تكون ممرضة فى إحدى المستشفيات الخاصة ..

وهناك تجار ورجال أعمال لا تغمض عيونهم عن التفكير فى الشبان . إنهم يبحثون عن الطرق التى يحصلون بها على أموالهم . فرجال الأعمال يعرفون أن الشباب الحديث يشعر بأنه وحده .. « وحدانى » .. فالمدينة كبيرة .. وهو لا يستطيع إلا القليل .. وهو مختلف عن أبويه ومختلف عن المدرسين .. وهو يقف وحده .. وهو لا يجد الصديق إلا بصعوبة ..

ولذلك أنشئت الفنادق والمطاعم والبارات وكلها تتجه إلى الإنسان «الوحداني» . وتقول له في استطاعتك أن تستمتع بوقتك ومع فتاة وحدها .. وهذه الفنادق موجودة بكثرة على البلاجات الأمريكية .. وهناك فنادق تنشر هذا الاعلان : أنت حر أيها الشاب الوحداني . في استطاعتك أن تفعل ما تشاء مع من تشاء وفي أى وقت تشاء .. بشرط واحد : ألا تلتقي الورق أو أعقاب السجائر في حمام السباحة .

والمجلات تنشر إعلانات راغبي الزواج .. ولكن الأمريكان ينظرون إلى . هذه الاعلانات ولا يندهبون .. ولا تمتد يد تقطع هذه الاعلانات باعتبارها وعودا بزواج أو بعريس .. ويقول المؤلف الأمريكي فانس باكار في كتابه (الضياع الجنسي) .. إن المصريين يفعلون ذلك وهو ينقل معلوماته هذه عن كتاب صدر بالانجليزية بعنوان «اعلانات الزواج في مصر» والكتاب من تأليف سيدتين هما (جانيت أبو لغد ولوسى أمين) وفي ألمانيا يهتمون بإعلانات الزواج أيضا .

ومن الممكن أن تجد في أمريكا مثل هذا الإعلان : واحد عنده وابور جاز يريد أن يعرف واحدة عندها غسالة . أرجو إرسال صورة الغسالة .

وإذا كانت اللقاءات صعبة ، فإن الزواج أسهل بكثير جدا . لأنه من الممكن أن يلتقي اثنان من الشبان ، ولا يدور بينهما كلام كثير . وبعد ذلك يتزوجان قبل أن يفكر أى واحد منهما في الخطوة التالية : الفلوس .. والبيت .. والأولاد . وعلى الرغم من أن الشبان يجدون الشجاعة في الزواج . فإن الزواج السريع ينقدهم من التفكير الطويل في صعوبات وعقبات الحياة الزوجية . فالشبان عندهم مثل عليا . وهذه المثل العليا تملأ رءوسهم وتجعل العثور على هذه المثل العليا صعبة . وكثرة المثل العليا هي أحد عيوب الثقافة . ولذلك فأسهل جدا أن يقرر الشاب أن يتزوج من أن يفكر ويستشير .. ثم بعد ذلك يعدل عن الزواج يوما واحدا ويتزوج أية واحدة في اليوم التالي - حدث ذلك كثيرا جدا بين طلبة

الجامعات الأمريكية - فقد حدث أن ابن عميد إحدى الكليات عرض على والده زميلة له . واعترض الأب - لأسباب وجيهة جدا صحية وأخلاقية ومادية - ولم يقتنع الابن . وفي اليوم التالي فوجئ الأب بأن ابنه قد تزوج فتاة أخرى . وسعد بها الأب فهي فتاة جميلة وذكية ومن أسرة محافظة .

ولما أحس الابن أن هذا الزواج جاء مطابقا لرغبة الأب تضايق ، وأحس - كما يقول - كأنه تزوج بناء على رغبة والده ومشورته .. ولذلك طلق الفتاة . فما الذى فعله هذا الابن ؟ إنه فقط مارس حريته وعناده بصورة ظالمة له ولأبيه ولائتين من الفتيات .

وقد تغيرت الصورة المثالية للفتاة والفتى أيضا في أمريكا وفي أوروبا . والشبان يفضلون نوعا من الفتيات للترهة - ونوعا آخر للزواج وهذا ما يضايق الفتيات أيضا . ولذلك تحرص الفتاة من أول لحظة على أن تعرف بالضبط ما هي الفتاة التي يريدونها .. وأحيانا يتفق الشبان على ذلك من أول لقاء ..

أما الشبان فيفضلون : الجميلة اللطيفة المخلصة ..

أما الشابات فيفضلن : المرح الحنون الناضج عاطفيا ..

والفتيات يفضلن العلاقات الطويلة التي تنتهى بالزواج ..

والشبان يفضلون العلاقات السريعة المفيدة ..

ومن النادر أن تجد فتاة لا تتحدث عن الزواج ..

ومن النادر أن تجد شابا يتحدث عن الزواج ..

ولكن في الجامعة يناقشون الزواج بوضوح بين الجنسين . وتحرص الجامعات في أمريكا على أن تكون هذه المناقشات علنية . فالجامعات الأمريكية تعرف أن الشاب الحديث يعاني من العزلة . ولذلك توفر له الجامعة أن يكون قريبا من أحد . أو مع أحد . أو .. معا في الأكل والفسحة والنوم .

وقد كانت عنابر النوم في بعض الجامعات متباعدة .. الشبان في جانب

والشابات فى جانب آخر أما الآن فقد رأى علماء التربية أن هذا سلوك غير طبيعى وغير حديث فتجاوزت عنابر النوم . واشترك الجنسان فى الحمامات ودورات المياه . ويقال إن هذا التقارب قد أدى إلى تحسين السلوك الاجتماعى . وإلى تهذيب فى الألفاظ .. وإلى تقدم فى الذوق الفنى .

وإذا كانت هناك جامعات ترفض التعليم المشترك ، فإن مصير هذه الجامعات أن تجعل التعليم المشترك ضروريا فى المستقبل .. وقد حدث كثيرا أن تقدم الآباء أنفسهم يسحبون أوراق بناتهم من الجامعات النسائية ويقدمونها إلى الجامعات المشتركة . لأنهم لا يريدون لبناتهم أن ينظرن إلى الرجل على أنه وحش مخيف وفى نفس الوقت يطلبون من البنات أن يتزوجن عن حب وفهم سليم للرجل .

ومن الاستفتاءات التى اشترك فيها طلبة الجامعات أعلن عدد كبير من الفتيات : أنه من الممكن أن تعيش المرأة سعيدة من غير زواج . ولكنها لا تفضل ذلك ، لأنها لا تجد الاحترام الضرورى من الناس .. ولا تجد احترامها لنفسها أيضا .

وفى أمريكا وفى أوروبا اتجه عام ضد الزواج . وكفر تام بالحياة الزوجية . على أساس أن العلاقات الطويلة الثابتة مملة . والملل يدفع إلى العنف . والعنف يؤدي إلى الجريمة ، وأهون أنواع الجريمة الطلاق - خصوصا إذا كان هناك أطفال صغار .

ثم إن الأسرة نفسها لم تعد تلك العلاقة الضرورية . فقد كان الإنسان من ألوف السنين يحتاج إلى معاونة الزوجة والأولاد فى حماية البيت وفى إنتاج الرغيف . أما حماية البيت فالدولة تتولاه . وأما إنتاج الرغيف فهناك شركات تنتجه وتبيعه وتبعث به إلى باب البيت .

ومعنى هذا الرأى أن الزواج علاقة لا ضرورة لها ..
وهناك آراء أخرى تقول بأن الزواج تكلمة ضرورية ..
ورأى يقول بأن الزواج محاولة عاطفية عقلية للقضاء على العزلة والوحشة ..
وقد سئلت إحدى الطالبات عن مفهومها للسعادة فقالت : أن يكون هناك
شخص آخر ترتبط به .

وقالت طالبة أخرى : لا بد أن يكون حبي لشخص آخر قادر على أن أفهمه
ويفهمنى .. وحريص على أن يكون أقرب وأقرب . وقالت فتاة ثالثة : إنما
تزوجت حتى لا يسألنى أحد إن كنت متزوجة أو فى الطريق إلى أن أتزوج .
وإذا كان الآباء يرون فى الزواج عبئا ثقيلا . فإن الشبان لا يرونه كذلك .
وقد كان الآباء من أربعين سنة مثلا إذا فكر واحد منهم فى الزواج فإنه يحس أنه
الثور الذى حمل الكرة الأرضية على قرنيه .. ولا يتصور أن هناك كارثة أكبر
من كارثته .. ويعرض أمره على أقاربه وعلى رجال الدين .. ويسأل ويجمع
الآراء . ثم يقرر أن يتزوج تماما كأنه قد حصل على تفويض من كل الناس . مع
أن الزواج قرار شخصى يلتقى فيه شخصان معظم الوقت وحدهما وجها لوجه .
ومعظم الوقت فى الظلام .

أما الشباب الحديث فإنه يقبل على الزواج كما لو كان مدعوا لحفلة زفاف
شخص آخر غيره . وكثيرا ما ذهبت العروس بعد العريس بساعات وكثيرا ما
اضطرت العروس إلى تناول العشاء والرقص مع ضيوفها قبل أن يجيء العريس
ويتناول طعامه وحده ويعاود الجميع السهر والرقص من جديد .

حدث أن ذهب أحد علماء النفس لمشاهدة فرح لاثنين من تلامذته ..
ووجد مقعدا خاليا فجلس . فجاءت فتاة وجلست إلى جواره . وكانت تلهث ،
وبدا شعرها منكوشا . وقال لها العالم النفسانى : يبدو أنك جيئت إلى هذا الفرحة
بسرعة ..

وأدركت الفتاة أنه ينظر إلى شعرها وملابسها فقالت : فعلا . لقد حدث كل شيء فجأة .

وقال الرجل : الزواج تم على غفلة ؟ ...
قالت الفتاة : لقد كنت أظن أنه سوف يتزوج أختي .
وقال العالم : آسف .. أرجو أن تجد أختك عريسا أحسن منه ..
قالت الفتاة : أرجو ذلك .. ولكنه لم ينبني إلى هذا كله . لقد حدث في لحظة .

قال العالم : هل أنت صديقة العريس ؟ .

قالت : لا بل أنا العروس ..
بهذه السرعة والسهولة تم الزواج .

ومهما قيل في الزواج ، فلا تزال هذه العلاقة قوية ومستمرة ، ولم تجد الإنسانية علاقة أقوى ولا أكثر احتراماً منها . وإذا كان الزواج يقوى العلاقات ، فإن الأسرة هي ثمرة الزواج . والأسرة هي قاعدة المجتمع الإنساني في كل العصور .

ولكن لا بد أن تكون هناك أسباب قوية تجعل الزواج منتشر بين الشباب في أوروبا وأمريكا .. وفي العشرين من العمر .. ومتوسط زواج الشبان ٢٣ سنة ومتوسط زواج الشابات ٢٠ سنة - أقصد الزواج الأول .

ومن بين هذه الأسباب التي يذكرها الشبان : أن الزواج نوع من الهرب من الحياة الاجتماعية التي ليس فيها أمان ولا ضمان . ولا يجد الشبان إلا هذا المخبأ العاطفي الأكيد .. وأن هذا المخبأ قد يحميهم من الغارات الاجتماعية . ولكن المخبأ لا توقف الحروب .

ومن بين الأسباب أن يفاجأ الشاب بأن الفتاة التي أحبها قد حملت . وأنها

لا تريد أن تتخلص من الجنين وكثيرا ما تم الزواج والعروس حامل في شهرها الثامن وأحيانا التاسع ..

وهناك أنواع من الوظائف تحتم على الشاب أن يتزوج . بل إن بعض الشركات لا يمكن أن تمنح موظفيها ترقية إدارية إلا إذا كان الموظف زوجا ولذلك كان الزواج ضرورة عملية ..

وعدد كبير من الشبان يريدون الزواج لأنهم يحبون الأطفال . وقد حدث بعد الحرب العالمية الأولى أن عادت عشرات الألوف من الجنود وهم يحملون بالبيت الصغير والزوجة والأولاد .. وتناثرت البيوت الصغيرة في كل المدن وعلى أطرافها . وبعد الحرب العالمية الثانية ينشدون : البيت .. البيت .. ما أجمل البيت ..

وامتلأت البيوت بعد الحروب بالأولاد والزوجات ..

ولكن معالم المجتمع تغيرت .

وإذا كان الزوج من أربعين عاما يفكر في أن يكون له بيت وقطعة أرض قبل أن يتزوج أو بعد أن يتزوج فالأزواج الشبان لا يفكرون في أى شيء من هذا كله . بل إن الشبان إذا خيرتهم بين الزوجة وبين السيارة الجديدة ، يختارون السيارة .. وقد يتزوج الشاب عشر سنوات دون أن يفكر في أن يملك شيئا على الإطلاق ولا يتصور أن هذا ضرورى وأن الحياة من غير امتلاك لا تساوى شيئا . إنه يفكر فقط في أن يعيش وأن يستمتع بحياته .. وهذا يكفى أسلوبا وغاية .

وهناك اختلاف بين الرجل والمرأة في النظر إلى الزواج ..

فالمرأة - قبل الزواج - تفكر كثيرا في الزواج والرجل لا يفكر . ولكن الرجل هو الذى يفوز بالراحة النفسية والجنسية بعد ذلك - لأن الزواج يرهق المرأة بالعمل في البيت والانشغال بالأطفال .

والرجال لا يعترفون بأنهم فكروا في الزواج . ومع ذلك يتزوجون . ولكن

المرأة تعترف بأنها فكرت . وبعد الزواج لا تقول إنها هي التي استدرجت الرجل إلى الحياة معها ، ولكن تقول إنه هو الذى فعل ذلك .

والمرأة - طبعاً - تفضل أن يشدها رجل إليه ، على أن ترمى نفسها عليه .. أو تقوم هى بشد الرجل وإرغامه على الحياة معها .

وإذا كان الحب قادراً على تخفيف أعباء الحياة عموماً ، أو الزوجية بصفة خاصة ، فإنه يبرر كل تصرفات الاثنين فالحب هو المستول عن العنف فى حياة الزوجين وعن الشجار . وعن الخلاف إلى درجة الطلاق . لأن الحب لا يواجه المحبين . إنه يبعث إليهم بمندوب عنه هو : الغيرة .. والغيرة لا تؤمن إلا بنوع واحد من المساواة : هى المساواة فى الظلم . وذلك بأن تضع المحبين فى إناء واحد يغلى : فيحترق الاثنان بنفس الدرجة .

فباسم الحب اقترب الناس أكثر وأكثر ، وباسم الحب تباعد الناس .. ولكن الحب نفسه لا يعرف الزمن .. فالذى يحب فتاة من عشرين عاماً ويتركها ويذهب إلى آخر الدنيا .. ويتزوج .. ويكون له أولاد .. ويتزوج مرة ثانية .. فإن الفتاة الأولى تهز قلبه من مكانه .. ولذلك يحرص المحبون إذا كانوا أزواجاً ، على أن تهترق قلوبهم من حين إلى حين بشرط أن تبقى فى مكانها . وأن يبقى الاثنان معا .. يعيشان معا .

وقد حدث تغير فى موقف الرجل فى الأسرة الحديثة . فمن المعروف الآن أن هناك مساواة بين الجنسين فى العلم والعمل . وقد حررت روسيا والصين وكوبا المرأة تحريراً تاماً . ونخلعت الرجل من زعامة البيت .

وكان الرجل مسموحاً له منذ أوائل هذا القرن أن يضرب زوجته بشرط ألا تكون العصا أغلظ من أصابع اليد . وعلى الزوجة أن تطيع . لأنه هو الرجل وهو سيد البيت أو السيد فقط .

ولا بد أن قوة الرجل كان مصدرها أن الرجل هو الأقوى صحيا أو الأقوى اجتماعيا . أو هو الذى يكسب لقمة العيش . ولكن العلم الحديث يؤكد حتى الآن أن المرأة أقوى صحيا . وأنها أقل تعرضا للموت والمرض وأن المرأة تكسب أيضا .

وإذا كانت المرأة أكثر مالا . كانت أكثر سيطرة . .
وكان الحكيم الصينى كونفوشيوس يقول : على المرأة أن تطيع زوجها طاعة عمياء . وعليها أن تدوب فى خدمته .. حتى يتلاشى وجودها تماما ويبقى الرجل واحدا لا شريك له .

ومات كونفوشيوس من مئات السنين ولكن حكمته هذه لم تمت إلا أخيرا جدا .

فى القرن الماضى فى إنجلترا كان ترتيب الأسرة حسب الأهمية : الابن الأكبر والأخوة والأم والبنات بعد ذلك .

وفى البيت الأمريكى نجد المرأة هى المسئولة عن الطعام والغسل والأطفال .. والرجل مسئول عن الإصلاحات المختلفة وعن إصلاح النور وإصلاح السيارة . وهو أيضا الذى يلقي بالفئران التى ماتت فى المصيدة .

أما المرأة الفرنسية فهى أكثر نساء العالم محافظة على التقاليد . فهى تفصل أن تكون المرأة هى المرأة .. وأن يبقى الرجل رجلا وكثيرا ما سمعناها تطلب من زوجها أن يخرج من المطبخ . فالمرأة الفرنسية الحريضة على أن تكون أنثى وست بيت ، هى التى وضعت هذا الفاصل الحاد بين الرجل والمرأة .

وكذلك الروس ..

والأمريكان لا ينسون دهشة العاملة السوفيتية « ايلما مفتش » عندما وجدت الرجل الأمريكى يساعد زوجته فى غسل الأطباق .. صرخت وقالت : إنهم يساعدون زوجاتهم . سأعمل على نشر ذلك فى روسيا .

وفي إنجلترا نجد الرجل يساعد الطفل على النوم .. وكثيرا ما دفع عربة الطفل أمامه في الشارع ، بشرط أن تكون زوجته معه .

باختصار : إن الأوضاع الإدارية قد تحددت بوضوح في البيت الحديث : فالرجل هو عضو مجلس الإدارة المنتدب . والمرأة رئيس مجلس الإدارة .

وهذا الوضع ، واضح جدا في الزواج الحديث .. صحيح أن الزواج ليس معناه أن يلتقي اثنان أمام الناس ، ليفترقا بعيدا عن الناس .. ليس معناه أن يتواجد اثنان عند الطعام ، وأن يعطى كل منهما ظهره للآخر عند النوم .. ولا أن يقول كل منهما للآخر : أنت من هنا وأنا من هنا .. أنت في حالك وأنا في حالي - إن هذه نهاية علاقة .. نهاية زواج .

ولكن الزواج الحديث قد حول البيت إلى وحدة استهلاكية لا وحدة إنتاجية . فالأزواج يلتقون في فندق .. في مكان يتلقون فيه الخدمات . وليس في مصنع . يقوم كل منهما بعمل شيء من أجل الحياة الزوجية ومن أجل الحياة العامة . وكثيرا ما رأى الناس في أمريكا زوجين في حالة من التعاسة التامة أمام أنبوبة بوتاجاز خالية .. خلت فجأة لأن البيت مطعم .. وعدم وجود بوتاجاز معناه ألا يوجد طعام .. وألا يكون هناك بيت .

ومهما اختلفت أنواع الزواج ، سواء كان زواج الزمالة والتفاهم ، فإن موقف الشبان واحد وهو : انه ليس أسهل من الزواج ، وليس أصعب من الحياة بعد ذلك ..

ولكن الشبان لا يفكرون « بعد ذلك » .. المهم أن يقرروا أن يتزوجوا .. وإذا كان الزواج في الشرق أساسه : الناس يتزوجون ثم يتحابون ، فإنهم في الغرب يتحابون ثم يتزوجون ..

ولكن المهم يحدث بعد ذلك .. هنا يشعر الإنسان بأنه زجاجة ممتلئة بسائل

مركز هو خلاصة تجاربه الماضية فى الحياة وفى الحب .. أو أنه زجاجة خالية شفافة .. إن الزجاجات الخالية أكثر رنيناً .. ولكنها أقصر عمراً وأقل فائدة .. ولكن الشبان يختارون ما يعجبهم . وما يعجبهم هو الذى ولد معهم فى عصرهم .. وقريب من عقولهم وقلوبهم . والقريب المهم هو الزواج السريع الخاطف الصغير بعيداً عن الناس . وعن المجتمع ..

وزواج الشبان ضرورة نفسية وجسمية واجتماعية وخصوصاً فى المجتمع الحديث الذى اقتلعت جذوره وبدوره . فلا بد أن يكون هناك رباط قوى يمسك النباتات الصغيرة لا بد أن يكون هناك ماء كالصمغ . يمسك الأرض ويشد الأقدام إلى الأرض . وبذلك يستقر الشبان . وتكون لهم أوراق وثمار .. وحديقة .. وغابة بعد ذلك ..

أما الأسئلة التى يوجهها المجتمع للشباب فهى : إن كانت هناك دبلة .. أو كانت هناك ورقة تمسك العروسين إن هؤلاء الشبان يفضلون الأوراق الملونة .. أوراق الورد يسجلون عليها رغبتهم فى الزواج وفى الحياة معاً حتى الموت .. ولكن المصيبة أن الشبان الذين يحبون الأوراق التى لها لون الورد ، لا يحترمونها .. إن آباءهم يفضلون الورق الأبيض وشهادة الشهود .. فقد عاشت الإنسانية واستمرت لأن عشرات الملايين قبلهم قد احترموا كلمات انطبعت على أوراق بيضاء .

وقد حدث أن احتفل عشرات الألوف من الطلبة منذ سبع سنوات بزواج جماعى .. ورفضوا أن يكون عقد الزواج على ورق أبيض .. لأنه يذكرهم بكراريس المحاضرات . واختاروا ورقاً وردياً .. ولكن أوراق الورد نفسه كالورد نفسه سرعان ما تذبل ومعها الحب والزواج .

ومن قبل عاشت ملايين العائلات فى كل مكان لأنها اختارت ورقاً لا يذبل وصانت عهداً لا تموت .

السويد، قلاع الحرية

- ٥ -

ليست مشكلة كبيرة أن تنتقل الدبلة من اليمين إلى اليسار .. وأن تظل في اليسار حتى الموت .. وبعد الموت تنتقل دبلتان إلى أصبع واحد في يد أحد الزوجين .. فقد عاشت الإنسانية ألوف السنين من غير أن تعرف الدبلة وكان هناك حب أفضى إلى الزواج .. وزواج أفضى إلى زواج آخر .

فكل إنسان يريد أن يحب . ويريد أن يتزوج بعد ذلك . وأهم من ذلك - وهو ما يهمنى هنا - أن يبقى الحب حيا . ويظل الزوج مخلصا . ويتعاون الزوجان على أن تبقى الأسرة هي أكمل العلاقات بين الرجل والمرأة . فإذا كانت هناك الأسرة - وألوف الأسرات - سعيدة أصبح المجتمع نفسه سليما قويا . وليس هذا أملا بعيدا ، فقد تحقق كثيرا وبدرجات متفاوتة في بلاد مختلفة وعصور مختلفة أيضا .

ومن المؤكد الآن أن العلاقات بين الرجل والمرأة قد تغيرت . ولكن سيصبح هذا التغير واضحا بعد عشرات السنين . وليس من الضروري أن يكون التغير إلى الأحسن . فآثر العلم الحديث في سلوك الجنسين سوف يظهر بعد خمسين عاما أو أكثر . وسوف يكون لذلك أثره المباشر على الحب وعلى الزواج وعلى الأسرة وعلى الأطفال ، أى على الأجيال القادمة التي هي مستقبل الإنسانية كلها .

فند أربعين عاما عندما انتشرت البطالة في العالم ، كان من الضروري أن تكون للرجل الأولوية في الحصول على لقمة العيش . وكان يقال : يكفى أن يعمل شخص واحد في الأسرة .. وأن يكون هذا الشخص رجلا .. وفي المستقبل عندما تؤدي الآلات الحديثة إلى تعطل الأيدي العاملة ، سوف يكون الرجل - مرة أخرى - هو المفضل عند اختيار العمل الضروري .

وقد تنبأ كثير من العلماء الجادين والباحثين باختفاء الأسرة . وفشلت هذه النبوءة قبل ذلك مرات . ولا يزال بعض العلماء يؤكد أن الأسرة لن يكون لها وجود بعد قرنين من الزمان . ولكن يبدو أن هذه النبوءات جميعا لن تتحقق فقد مرت الأسرة - كشكل للعلاقة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والجنسية - في تجارب عنيفة . واستطاعت أن تواجه الريح . فاهتزت ولم تسقط . وأن تصمد للزلازل الاجتماعية والمدنية والسياسية . ولم تتكسر .

ولكن مع هذا التزايد الهائل في عدد السكان في العالم كله سوف يحدث شيء غريب . سوف تحتشم المرأة . وسوف نطلب منها ألا تكون عارية أو فاضحة . بل إننا سنطلب إلى المرأة ألا ترقص عارية وألا تسرف في الأغاني العاطفية .. وألا تصدر كتب للرجال مثيرة جنسيا ، وألا تظهر الأحضان والقبلات العنيفة على الشاشة . لماذا ؟ لأننا نريد ألا يثور ويثار أى إنسان وتنتهى الثورة بالقبلات والقبلات بالأحضان . ويحىء الأطفال بعد ذلك إلى عالم مليء بالرجال . وليس في حاجة إليهم .

ولكن يبدو أيضا أن الإثارة الجنسية لا علاقة لها بالزواج . ففي القرن التاسع عشر كان متوسط عدد الأطفال في كل أسرة في بريطانيا - مثلا - من ٧ إلى ٩ أطفال . وكان عدد المواليد منخفضا في أمريكا . ونحن نعرف أن القرن ١٩ كان نموذجا للطهارة الأخلاقية والاحتشام .

أما الذى يحسم الموقف فى داخل الأسرة فهو تطوير العلم الحديث لوسائل

منع الحمل . ولا شك أن اختراع حبوب منع الحمل هو اعظم ما اكتشف الإنسان في العصر الحديث . وكان من نتائج حبوب منع الحمل أن يأتي الإنسان بالأطفال حسب الطلب . وعلى الرغم من أن حبوب منع الحمل ما تزال بدائية ، لأن المرأة يجب أن تحرص على تناولها في مواعيد منتظمة . فتكون الحبة الأولى في اليوم الخامس بعد المرض الشهري حتى اليوم العشرين . وبعض العلماء يفكرون في وسائل أدق من الحبوب . كحقن المرأة لمنع البويضة من التلقيح لمدة شهر أو أكثر . وهناك فكرة وضع حبوب تحت الجلد تفرز هرمونا يمنع الحمل لمدة ستة شهور أو لمدة سنة . فإذا قررت المرأة أن تحمل تزعت الحبة الموجودة تحت الجلد . وهناك مصل للرجال يحول بينهم وبين الإفراز الذي يؤدي إلى الحمل .

وهناك نوع من الأقراص اسمه «الأقراص الصباحية» وهي التي تتناولها المرأة في الصباح . وهذه الأقراص لها نتائج ذات أثر رجعي . ففي استطاعتها أن تقتلع البويضة الملقحة من مكانها فلا تنمو.. ولا يكون حمل .

وهناك تغيرات أخرى ..

ففي السنوات العشر القادمة سوف يكون متوسط عمر المرأة ٨٠ عاما ، ومتوسط عمر الرجل ٧٥ عاما .

ومعنى ذلك أن يزيد عدد المتزوجات في العشرين .. أي عدد الأمهات الصغيرات .. ويتنظر أيضا أن تزداد مشاركة المرأة في الحياة العامة . وسوف تهتم المرأة بالناس أكثر من اهتمامها بالأشياء الأخرى . فإذا دخلت المرأة في الحياة العامة ، فسيكون لها أثر كبير على العلاقات الإنسانية وعلى الفكر الإنساني أيضا - أي على تفكير الرجل .

وسوف يتسع الوقت أمام الأزواج .. فإذا اتسع الوقت ، فأول ما تسعى إليه المرأة أن تطالب بحقها أو نصيبها من الحياة أو من الرجل . فالمرأة لا تنسى

حقها ، سواء كان ذلك رغم أنف الرجل أو على عينه ..
ومن الطبيعي أن تتأثر الأسرة مرة أخرى في المستقبل . ستبقى الأسرة . ولكن
سيكون احترام الناس لها أقل .. وسوف تنحل الأخلاق ، بسبب حبوب منع
الحمل ، وسهولة الاختلاط بين الجنسين على كل المستويات ، مستويات
الدراسة واللعب والعمل واتساع المدن وانشغال الرجل والمرأة .. وانشغال كل
الناس ، كل واحد بحاله .

وشىء آخر هام : ستكون الفتاة أيضا أكثر انشغالا بالجنس من أى وقت
مضى . تماما كما حدث للرجل . أما النتائج فتقع عادة على رأس الرجل : الأب
والزوج ..

وهناك تجربة اجتماعية كبرى حدثت في روسيا بعد الثورة السوفيتية مباشرة .
فقد أحس الناس بالانطلاق . وتفككت العلاقات الاجتماعية . وكان من
السهل جدا أن يبعث أى زوج إلى زوجته بورقة الطلاق بالبريد . وينتهى كل
شىء .. وقد يظل الزوجان يعيشان في غرفة واحدة بعض الوقت إلى أن ينقل
أحدهما إلى غرفة أخرى مع زوج آخر .. وقد ظن في روسيا بعد الثورة مباشرة أن
هذه هى الحرية . وأن الدولة عليها أن تعنى بالأطفال بعد ذلك - سواء كانوا
شرعيين أو غير شرعيين .

ولكن لينين أنقذ المجتمع السوفيتى من الفوضى . فقيد الزواج والطلاق .
وحرم الإجهاض . وتماسكت الأسرة .. وأصبحت ذات شكل تقليدى . كما أن
الإثارة الجنسية نفسها قد اختفت من الصحف والمجلات والتلفزيون والسينما .
وأقام الاتحاد السوفيتى «قصورا للعرائس» ينتقل إليها المتزوجون .. وفى هذه
القصور يعيش الأزواج أجمل أيام العمر .. وفى غرف أنيقة فخمة .. ويرقصون
فى الحدائق وحول النافورات ..

حتى الطلاق فى روسيا أقل من الطلاق فى أمريكا ..

وأدت الثورة إلى محو الظلم الجنسى .. أى ظلم جنس لجنس آخر .. فتحررت المرأة . وأصبح العلم والعمل من حقها . وتحررت المرأة أيضا من سجن البيت والمطبخ . فليس معقولا أن تقضى المرأة ثلاثة أرباع عمرها تطبخ وتغسل . وهذا العدل بين الجنسين كان من أهداف الثورة السوفيتية ، فالثورة فى حاجة إلى كل قوى البشر : الرجال والنساء . أما الأطفال فلهم دور حضانية ورياض أطفال . وهى جميعا ملحقة بالمصانع أو المؤسسات . ومن حق المرأة أن تحصل على أجازة أربعة شهور عند الولادة .. أما التلاميذ الصغار فيدخلون المدارس بعد الظهر أيضا ، حتى لا يدوروا فى الشوارع أثناء انشغال الأم والأب بالعمل فى المصانع والحقول

ومن المألوف فى روسيا أن تحمل الأم طفلها الصغير بعد الإفطار مباشرة وتتركه فى دار الحضانية . ومن حق الأم أن تجيء لرؤية طفلها لمدة نصف ساعة .. وأن يتكرر ذلك كل ثلاث ساعات دون أن ينخصم من أجرها مليم واحد .. ولقد ظن بعض علماء النفس أن هذه التجربة سوف تؤدى إلى اضطراب الطفل الروسى . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . فن الملاحظ أن الطفل الروسى مهذب ومحترم والديه . ووالداه يفعلان نفس الشيء ..

ومن الملاحظ أن المرأة السوفيتية ما تزال هى الأكثر اهتماما بالبيت : بالطبخ والغسل ..

وفى سنة ١٩٦٠ حدث تغير فى روسيا فقد اهتمت المرأة بالرشاقة والأناقة وبمظهرها العام .

وتغير آخر : لقد أحست المرأة الروسية أنه ليس من العدل أن تعمل المرأة فى الصناعات الثقيلة مثل الرجال . لأن هذا قد يرهقها ويكسروسطها . وإنما العدل أن تعمل ما هى قادرة عليه أو ما يتفق مع موهبتها واهتمامها . وهذا يؤكد أن هناك رغبة قوية فى روسيا فى أن يعيش الناس وأن يتذوقوا الحياة . وأن يعمل كل إنسان

على قدر طاقته وعلى ذوقه.. فإذا عمل كل الناس بارتياح تحقق العدل العام لكل الناس . وزادت معدلات الإنتاج .. وابتعدت بذلك روسيا الآن عن الجمود الذى كانت عليه فى السنوات التالية لقيام الثورة السوفيتية سنة ١٩١٧ .

وهناك أحدث أنواع التجارب على الحرية بين الجنسين فى الدول الاسكندنافية .. وفى السويد بوجه خاص .. فقد اتخذت السويد شعارا هو : إننا نتجه إلى مجتمع لم تعرف له الإنسانية مثيلا فى كل العصور ..

والعلماء يؤكدون أن العالم كله يتجه إلى الحرية على الطريقة السويدية .. وإن كانت السويد سبقت الدنيا . وليس من المنتظر أن نبلغ ما بلغته السويد ..

والسويد أكثر تحورا من جارتها النرويج . فأهل النرويج محافظون نسبيا.. ولكن على الحدود بين الدولتين تتحقق الحرية الجنسية فى أكثر حالاتها انطلاقا . والناس يمارسون حرياتهم وراء الأشجار الكثيفة . وقد قال أحد الكتاب الساخرين : إنه لو أخفيت فى داخل كل شجرة جهاز تسجيل : لراحت كل شجرة تروى قصة أطول من أساطير الإغريق .

وأهل الدانمرك أكثر تحورا من أهل النرويج .. ولكن الحرية متقاربة فى هذه الدول الاسكندنافية الثلاث .. وهناك قاعدة واحدة : إن الحرية العاطفية والجنسية جزء من الحرية العامة . فمن حق كل إنسان أن يدخن السيجارة التى تعجبه وأن ينام على الجنب الذى يريجه . وأن يختار للزواج الفتاة التى تسعده ..

وفى سنة ١٩٦٥ طالبت الأحزاب السياسية بأن المساواة بين الجنسين تحتم أن تشترك المرأة فى الجنس أيضا .

وبعض الأدبيات يؤكدن أن هذه الحرية التى حصلت عليها المرأة ليس سببها أن الرجل أراد أن يريح رأسه من المرأة كأنها طفل لا يكف عن البكاء أبدا ..

إن المرأة تحررت لأن الرجل تحرر . ولأن المبادئ الأساسية تقول : لا فرق بين الرجل والمرأة . فليس ذلك من باب عطف الرجل على المرأة ولا الشفقة بها . ولكنها تحررت لأنه من الواجب أن تتحرر .. فليس الرجل صاحب فضل في أن المرأة أصبحت مساوية له في كل شيء . وإذا كان الرجل لا يجب أن تسأله المرأة عن ماضيه ، أو يجب ذلك ، فالمرأة لا تحب ولكن في استطاعتها أن تتحدث عن ماضيها إذا شاءت .. لا فرق بين ماضيه وماضيها . سواء كان هذا الماضي مليئا بالأزواج أو بالأصدقاء ، بالأطفال الشرعيين أو اللقطاء .

ولكن لماذا يتحدث الناس في السويد عن الجنس وأساليب الجنس وأشكال الحب بصورة واضحة في كل مكان في البيت في الشارع في المدارس في الصحف؟.

من بين الأسباب أن مستوى المعيشة في السويد مرتفع . وأن المجتمع منح كل شيء ويقدم لكل الناس فرصا متساوية . وأن هذه البلاد قد عرفت نوعا من الاستقرار السياسي أدى إلى الاستقرار الاجتماعى الطويل . فلم تعرف هذه البلاد المشاكل التي تهدد حيل الدول الأخرى . فليس عندهم مشاكل لقمة العيش . ولا عندهم مشاكل الدفاع عن لقمة العيش .. لا أزمات اقتصادية ولا معارك عسكرية .

كما أن معظم أصحاب الآراء الحرة يشغلون المناصب الرئيسية في أجهزة الإعلام . ولذلك يملأون الراديو والتلفزيون والسينما بالمناقشات الجنسية الصريحة .. الصريحة جدا . أليس الجنس حقيقة ؟ من المؤكد أنه حقيقة . أليس الشوق والحنين مثل الجوع إلى الرغيف والعطش إلى الماء ؟ من المؤكد أن هذه الحقائق ضرورية .. ثم ما دام الإنسان لا يعيه أن يقول إنه لم ينم أمس بسبب الأرق فما الذى ينجله أن يقول نفس الشيء إذا أحس أن فراشه خال وأن حضنه خال أيضا ؟ .

إن أهل السويد قد جعلوها سهلة على أنفسهم .. وعلى غيرهم أن يفهمهم على هذا النحو . فهذه طبيعتهم .. وهذا هو الطريق الذي ساروا فيه ، ومن المؤكد أن تمشى فيه الشعوب الأخرى بعد ذلك .. فالإنسانية واحدة وأهدافها واحدة ..

وأول ما يشاهده زائر السويد هذا المرح على وجوه الفتيات . وهذه الابتسامات الداعية أو المرحبة .. ولكن ليس هذا ابتذالا في سلوك الفتاة .. وإنما هن مهذبات فقط .. فالفتاة لا تشكو من نقص في شيء . فالجتماع سمح لها بكل شيء . فهي لا تلتقي نفسها عند قدميك من أول ابتسامة . وإن كانت سوف تفعل ذلك فيما بعد الابتسامة الثانية أو الثالثة .

والفرق بين الفتاة السويدية والفتاة الأمريكية أن الفتاة الأمريكية تجد متعة في أن تثيرك وتشعل النار فيك ، وليس من الضروري أن يكون بينكما أية علاقة بعد ذلك .. أما السويدية فهي تبحث عن الود عن الصداقة عن الدفء ، أما النار فتجىء بعد ذلك من تلقاء نفسها .. فالأمريكية لعوب ، والسويدية جادة .. والأمريكية مشكلتها أن الرجل يؤكد لها أنها ليست أنثى . ولذلك تحب أن تلعب بأنوثتها ، وتتعذب من الحرمان بعد ذلك .. أما السويدية فهي تعرف عن يقين أنها أنثى . قيل لها ذلك ألوف المرات . وهي قادرة على أن تثبت ذلك . ومن هنا فلا يههما إلا الصديق ، أما الباقي فأمره سهل جدا .

ومن المناظر المألوفة في استوكهلم عاصمة السويد أن يلتقى الشبان في « حديقة الملوك » فالفتيات يرتدين الصنادل والشبان يلبسون جاكيت من الجلد ، حتى لو لم يكن هناك مطر .. وينحنى أى واحد منهم . وتبتسم الفتاة . ويختفى الجميع بعد ذلك في الغابات .

ولقد عرفت السويد هذه الحرية الاجتماعية والعائلية أكثر من أربعة قرون .. ومن المألوف جدا أن تحتفل الأسرة بالعلاقة الجديدة بين ابنتها وجارها . وتقام

حفلة صغيرة .. وقد تمضى شهور أو سنوات قبل أن يكون لهذه العلاقة أى شكل قانونى . أو قد لا يكون لها ، ومن المألوف أيضا أن تعيش الفتاة مع شاب سنوات عديدة دون أن يرتبط الاثنان بالزواج ودون أن يعترض أحد على ذلك .. أى أحد .

وفى سنة ١٨٨٠ كان أكثر من ٧٥٪ من النساء قد أنجبن أطفالا قبل أن يعقد الزواج نفسه .

ومن الطبيعى للفتيات والفتيان أن يمارسوا العلاقات الجنسية المتعددة الطويلة قبل سن السادسة عشرة .. ولا اعتراض لأحد على شىء .. أما الآباء أنفسهم فيغمضون عيونهم ، أو يفتحونها على شىء آخر ليقولوا : أبناؤنا أحرار . ولكن لماذا هذه الإباحية فى السويد ؟ .

هناك أسباب عديدة . مثلا . ليلى الشتاء الطويلة الباردة .. كما أن الكنيسة ليس لها أى دور قوى . فالسويد لم تعرف المسيحية إلا فى عصور متأخرة جدا .. فى أواخر القرن الحادى عشر بعد الميلاد . حتى أهل السويد القدامى كانوا فى غاية التحرر . أما الآن فقد اتجه أهل السويد إلى بعض التمسك بالدين ومعظم عقود الزواج تتم فى الكنيسة وإن كان ٥٠٪ من الشعب لا يتردد على الكنائس .

وعقد الزواج لا يهم . الذى يهم هو ما قبل العقد ، وما بعد العقد .. فليس العقد هو الذى يمسك الناس .. ولكن الناس هم الذين يصنعون العقد ويتمسكون به أو يمزقونه بعد ذلك .

ثم إن معظم أهل السويد يتزوجون فى العشرينيات . ومتوسط عمر الأزواج فى الدول الإسكندنافية هو ١٦ سنة للفتاة و ٢٣ سنة للشاب . وسبب ذلك هو أنه ما دامت عندهم حرية مطلقة ، فلماذا يتزوجون . إن الزواج لن يعطيهم أكثر مما يأخذون . ولولا أن هناك مشاكل أخرى لتزوج الشبان فى سن مبكرة جدا ،

أو لتوقفوا عن الزواج نهائيا . فالشاب لا يريد أن يتزوج لأنه لا يجد الشقة ..
وأحيانا يتزوج لأن الدولة تعطيه الشقة .

وهناك سبب آخر يرغم الشاب على الزواج : أن تحمل فتاته ولا تريد أن
تتخلص من الجنين .. وهو لا يريد لها أن تفعل ذلك .

وفي الدانمرك من حق كل فتاة حامل أن تحصل على شقة .. ولذلك تحمل
الفتاة لتجد الشقة وتتزوج فيها .

ولابد أن الحمامات العامة في السويد قد ساعدت على هذه الاباحية .
فالحمامات العامة وحمامات البخار يتعري فيها أبناء الجنسين .

والفن أيضا أدى إلى تشجيع التعري وجعل الجنس شيئا عاديا . فهناك
حديقة للنحات الكبير فيجلاند .. وفي داخل الحديقة تمثال ارتفاعه ٥٦ قدما .
التمثال على شكل عضو الرجل وقد امتلأ بعشرات من النساء والرجال العراة
تماما .

ومن أغرب الأرقام في السويد أن ٨٠% من الفتيات لسن عذارى عند الزواج
وأن ٥٠% في حالة حمل ..

ولابد أن يكون للرياضة دخل كبير في التقريب الشديد بين الجنسين . فأهل
السويد رياضيون من الدرجة الأولى . والشاب الرياضي يغفر له المجتمع الكثير
من الحماقات . بل إنه من العادى جدا أن تخرج فتاة وفتى للانزلاق على الجليد .
وبيتان في الخيام والفنادق . وأحيانا يطلبان المأوى في أى بيت قريب من
الجبل . وصاحبه يعلم طبيعة العلاقة بين شابين في السادسة عشرة . ولكنه يطلب
أولا أن يريه قدرته على الانزلاق قبل كل شيء . ويذهب الشاب يستعرض
قدراته .. وهنا تفتح للشابين الصغيرين غرفة ويقفل عليهما باب .

وفي جامعات استوكلمهم من حق الطالب أن يستضيف طالبة في فراشه وإن

كانت اللوائح تستنكر ذلك . ولكن إذا لم يحدث إنسان ضوضاء فلا أحد يعترض على شيء .

وأهم من ذلك ألا يكون هناك إكراه على شيء .. فإذا أكره طالب زميلته ، طردته الجامعة فوراً .

ورغم هذه الحريات ، فإن الفتاة السويدية – كالمرأة في كل الدنيا – تتطلع إلى الزواج .

وفي كل أسرة في السويد عندها فتاة في العشرين من عمرها ، يوجد شاب صديق لها يأكل ويشرب وينام في البيت . إنه صديقها .

وكثيراً ما دارت مناقشات بين الأب والأم والبنت وهذا الصديق في مستقبل العلاقة بينهما . وقد تجيء هذه المناقشة بعد سنة من إقامة هذا الشاب في البيت .

وإذا واجهت الفتاة مشكلة : كالإجهاض مثلاً ، فإن الدولة تتدخل فقط من أجل صحتها . فإذا كان الإجهاض ضاراً بها منعتها .. وإذا لم يكن هناك ضرر سمح لها الأطباء .. وإذا لم يسمح الأطباء سافرت الفتاة إلى بولندا مثلاً وتخلصت من الجنين .

فإذا أنجبت الفتاة طفلاً أعلنت الصحف عن ميلاد هذا الطفل هكذا : ولد لفلانة وفلان طفل اسمه حنى – مثلاً – والصحف لا تقول إن كان هذان الشبان زوجين أو صديقين .

ويحدث كثيراً جداً أن تتزوج الفتاة والد هذا الطفل بعد ذلك . وإذا حملت تلميذة في مدرسة ثانوية فإن المدرسة تعنى بصحتها وإذا حدث ذلك في أمريكا طردوا الفتاة فوراً .

وفي الحدائق العامة والغابات لوحات تنبه الشبان إلى نتائج هذه العلاقات الجنسية . مثلاً – لوحة تقول : فكرى .. فكرى .. هل يمكنك الاعتماد

عليه؟.. ولوحة أخرى تقول : أطفال جدد؟ فقط عندما نريدهم ! .
وفي الشوارع عقول ألكترونية تشرح للشبان معنى العلاقات الجنسية
والأمراض والحمل والولادة .. فكل المعلومات الجنسية في متناول الجميع في
كل وقت .

وفي المدارس يتعلم الأطفال بصراحة معنى الجنس ولكن على درجات . ففي
السابعة من العمر يعلمون الطفل من أين جاء وكيف ولد؟ ولماذا؟ وفي سن
١١ و١٣ يشرحون للطفل تفاصيل الجسم الإنساني والأمراض الشهرية عند
المرأة . ولا يشرحون له العلاقات الجنسية .

ومن الطبيعي أن تكون أخلاقيات الأسرة منحطة في السويد .. فنسبة
الخيانة الزوجية عالية جدا ..

وفي السويد من الممكن أن يترك لك الزوج زوجته إذا كنت ضيفا عنده .
ويرى أن هذا من الكرم . ولكن المرأة السويدية تضيق بهذا الموقف . لا لأنها
تعرض على أن تذهب إلى فراش الضيف ، ولكن عندما يتصور زوجها أنه هو
الذي قدمها للضيف . كأنها شيء يفعل به ما يريد ، إنها إذا ذهبت إلى فراش
الضيف ، فلأن الضيف أعجيبا وهي التي ذهبت بمحض إرادتها وحريتها وليس
بأمر من الزوج . فالزوج لا حق له في أن يفرض عليها الفراش الذي يعجبه .
والمرأة في السويد مع ذلك - ككل نساء العالم - تفضل أن تكون مخلصنة
لزوجها ..

ودفعت المرأة السويدية ثمن حرمتها غالبا .. فقد أسفرت هذه الحرية عن
مشاكل ومتاعب وأمراض واضطرابات نفسية لا حد لها ..

فالشبان دون الـ ١٦ سنة ١٠٪ منهم يعيشون مع أم فقط أو مع أب فقط .
أى يعيشون في أسرة لها عائل واحد .

كما أن نسبة الأمراض الخبيثة عالية جدا ..
٦٠٪ من حالات الزواج تنتهى إلى الطلاق ..
أما نسبة المواليد بلا زواج فعالية أيضا ..
أما البغاء فلا وجود له في السويد ، لأنه لا ضرورة له ..
كما أن الكتب الجنسية الفاضحة قد انتشرت في السويد وتباع في كل
مكان . حتى دورات المياه .. وكذلك الأفلام الجنسية العارية مثل فيلم «أزيد
أن أعرف» وهو فيلم ملون يشرح عمليا وبالتفصيل ما يدور بين رجل وامرأة ..
والقانون الذى صدر بشأن الزواج فى سنة ١٩٢٠ ينص على : أن الزوجين
مسئولان مناصفة عن البيت ومصاريف البيت . وأنها يلتزمان بمعاونة كل منها
للآخر . وأن تربية الأطفال مسئولية مشتركة .

والمرأة فى السويد تقوم بدورين معروفين : أن تعمل وأن تكون ست بيت .
ولكن هناك حدودا بينها وبين زوجها . فهى مسئولة عن إرضاع الطفل وتغيير
ملابسه لفترة معينة . وبعد ذلك يقوم الأب بإرضاع الطفل بالزجاجة وتغيير
ملابسه وغسلها أيضا .

وليس من العدل - هكذا تقول المرأة فى السويد - أن المرأة التى لها وظيفتان
مستريحة كالرجل الذى له وظيفة واحدة . ولذلك يجب أن يشاركها الرجل فى
أعبائها المنزلية . وإلا كان هذا العدل كاذبا ..

أما كيف يتحقق العدل الشامل فى السويد ، فهناك مشاريع تتقدم بها المرأة
كل الهيئات الاجتماعية .. والسياسية .. لأن المرأة السويدية لم تبلغ العدل
المطلوب بعد .

ولذلك يجب أن يعمل الرجال بعض الوقت كالمرأة تماما . وبذلك يستطيع
أن يساعدها فى شغل البيت .

يجب أن يستبعد الرجل من رأسه تماما أن هناك أعمالا للرجل وأعمالا للنساء .
فحيث يوجد الرجل تكون المرأة .

لابد أن يقتسم الرجل والمرأة العمل في البيت . وأن يصدر بذلك قانون
ينظم العمل المنزلى .

يجب أن يكون هناك بيوت للحضانة حتى لا يتعطل الأبوان عن العمل ..
يجب أن يكون التعليم مشتركا في جميع المراحل .

وقد حدث ذلك في معظم المراحل . فالأولاد يدرسون علوم المرأة مثل شغل
الإبرة والطبخ وتربية الطفل . والحضانة . والتدبير المنزلى . والبنات الصغار
يدرسن الأعمال اليدوية وفك الأبواب وإصلاح أدوات البيت . (ولكن من
الملاحظ أن التفوق في كل الفنون ما يزال من نصيب الأولاد) .

ومعظم الذين يدرسون في كلية الهندسة من الذكور .. ومعظم الذين
يدرسون في طب الأسنان من الإناث و ١٤٪ من أعضاء البرلمان من السيدات .
وتوجد وزيرة واحدة . ومن المشاهد المألوفة في استوكهلم أن تجد رئيس الوزراء
يركب في سيارة زوجته المدرسة في الجامعة . وتقوده إلى مكتبه ثم تتجه إلى
عملها .

وما تزال ٩٠٪ من الأعمال القيادية السياسية والخارجية والاقتصادية في
أيدي الرجال ..

وهذه الروح المتحررة قد انتقلت إلى العمارات نفسها . فكما أن هناك شققا
مفروشة ، هناك شقق مزودة بالمريات . فالأسرة تنتقل إلى شقة جديدة . وفي
الشقة يجدون مربية للطفل . أو تجد الأسرة في العمارة شقة خاصة بحضانة
الأطفال . أو في العمارة تجد الأسرة مطعما عاما يقدم الوجبات لكل أسرة وبذلك
لا يتعب الزوج أو الزوجة في اعداد الطعام ..

وبعض العمارات تنظم رعاية الأطفال فتتولى كل أم يوماً في الأسبوع رعاية أطفال العمارة كلها ..

ومن حق الأم أن تأخذ أجازة ستة أشهر عندما تنتظر مولودا .. ومن حق الأب أيضا أن يحصل على أجازة مماثلة إذا كانت زوجته في حاجة إلى مساعدته .
ومن حق الزوجة أن تحصل على ستة أشهر أخرى ، ولكن بلا مرتب . وكذلك الزوج .

وإذا نهض الطفل من النوم واحتاج أن يشرب أو يستحم أو يأكل ، أو يذهب لدورة المياه ، ففي استطاعته أن ينادى على أبيه أو على أمه وهو ضامن أن أحدهما سوف ينهض فوراً .. وعندما يسمع الأبوان صوت الطفل يفتح كل منهما النور ويمد يده تحت المخدة ليقرأ الجدول ليعرف إن كان هو الذى عليه الدور لرعاية الطفل هذا الأسبوع - أو هذا اليوم .

ومهما تقاربت المسافة بين الجنسين فسوف تبقى هناك مسافة أخرى .. هذه المسافة تحت الجلد .. هناك خلاقات واختلافات بين الجنسين . لا دخل لها فيها .. هذه الاختلافات تغرى الجنسين بأن يتقاربا ، وتضطرهما إلى أن يتباعدوا .. وفي هذه المسافة بين الرجل والمرأة توجد كل المشاكل الإنسانية منذ كان هناك رجل وامرأة .. لا على الأرض وإنما في الجنة .. وسوف نرى ..

مرحباً أيها الجنس الثالث

- ٦ -

الرجل تعب من محاولة فهم المرأة ..
المرأة لم تتعب لأنها لم تحاول .. ولا بد أن يكون سوء التفاهم قد
بدأ منذ كان الاثنان في الجنة .. وكل شيء بعد الجنة قد تغير .
ولكن بقيت هذه المشكلة دون تغيير .

وإن كانت هناك نظرية حديثة تقول بأن النساء سوف يكن في
حجم وشكل بريجيت باردو .. وأن الرجال سيكونون في حجم
توت عنخ آمون - أى تختفى الفوارق بين الرجال والنساء ،
لا عضلات ولا شوارب للرجال ، ولا صدر ولا أرداف للنساء .

وقد حدث في المؤتمر الدولي للعائلات الذي انعقد في أمريكا سنة ١٩٦٥ أن
وقف أحد العلماء يتساءل جادا : هل من الضروري أن نستعد الآن لعالم الغد
الذي تتحكم فيه المرأة بشكلها وذوقها ؟ هل من المناسب أن نرسم العلاقات بين
الجنسين على نحو ما يجرى في السويد الآن ؟ .

ومن الغريب أن هذا المؤتمر قد أسفر عن إجابات مختلفة عن هذا السؤال . فقد
قرر العلماء أنه من الخير للمجتمع أن يبقى الرجل رجلا وأن تبقى المرأة أنثى . ولكن
من الواجب أن تكون الفرص متساوية أمام الجميع .

وقرار آخر يقول : صحيح أن الرجل مختلف عن المرأة .. وصحيح أنهما متشابهان أيضا .. ومن الممكن أن تدوب هذه الخلافات التي بين الجنسين بأن يعلم الأطفال الذكور مبادئ الرقة والحنان .. وبذلك نجعل الرجل أقرب إلى المرأة . ومن الممكن أن نعلم الأطفال الإناث كيف يكون العمل اليدوي . وكيف تكون العناية بالآلات والأجهزة . وفي ذلك تقرب للإناث من الذكور ..

ومهما حاولنا التقريب برفق أو بشدة ، فهناك خلافات واضحة بين الجنسين .. خلافات جسمية ونفسية واجتماعية وتاريخية . فإذا كانت المرأة تحب أن تكون محكومة من الرجل ، فهي أيضا تحب أن تكون حاكمة !! .

وإذا كان الرجل يحب أن يكون طفلا للمرأة ، فإنه يجب أن يكون أبا أيضا .. ثم إنه لا يوجد مجتمع في العالم كله يساوي بين الرجل والمرأة في كل شيء .. لا أكثر المجتمعات تطورا ، ولا أكثرها تحلفا . صحيح أن كل رجل له خمس حواس ، وللمرأة أيضا ، ولكن هناك خلافات أخرى شديدة وعميقة وحادة ..

مثلا .. على الرغم من أن المرأة قادرة على الاستمرار طويلا في المباريات الرياضية ، فإنها عندما تلعب يظهر عليها التعب بوضوح . بينما لا يكون الرجل كذلك . وفي نفس الوقت يكون قادرا على الوصول إلى النهاية ..

ويبدو أن الطبيعة قد قررت أن تكون متوازنة : فعدد المواليد من الذكور أكثر من عدد المواليد من الإناث . ولكن الإناث أقوى صحة وأطول عمرا . ومن الإحصائيات التي أجريت سنة ١٩٦٣ في ٨٣ دولة لم نجد غير خمس دول فقط يزيد فيها المواليد الإناث على الذكور .

كما أن الرجل ميال إلى العدوان بطبعه . فالمرأة تنتظر والرجل يجيء . المرأة تتلقى والرجل يعطى .

والرجل ميال إلى المغامرة والمغامرة منذ أيام الحياة في الكهف .. ولو درسنا الأطفال الصغار لوجدنا الذكور أعنف وأميل إلى التدمير ..

والمجتمع يقبل هذا السلوك ويشجعه . ويحرص عليه أيضا ..
وفي المناقشات نجد أن الرجال يتكلمون أكثر وبصوت مرتفع .. وعند الأطفال دون الرابعة نجد الذكور ميالين إلى التدمير . وهم أكثر قلقا . وهم حريصون على تكسير أدوات غرف النوم ..

ومن الملاحظ أن الصحف تنشر أركاننا أو صفحات خاصة بالمرأة . صفحة المرأة . أخبار حواء . للنساء فقط .. وهذا يدل على أن الصحف حريصة على أن تعطي المرأة ما تريده ..

ومعنى ذلك أيضا أن المرأة تحرص على موضوعات خاصة بها . ويهمها أن تجدها وحدها بعيدة تماما عن السياسة والاقتصاد والموضوعات الأخرى . وإن كانت المرأة تشارك الرجل الاهتمام بالرياضة .

وقد أجريت تجربة في أمريكا على ١٥٠ طفلا و ١٥٠ طفلة .. وطلب إلى الجميع أن يقوم كل منهم بإخراج فيلم سينمائي .. وأعطيت لهم جميعا أدوات متشابهة . فماذا حدث .. كان اهتمام الذكور بالمناظر الخارجية والحوادث والكوارث .. وكان اهتمام الإناث بالمناظر الداخلية في البيوت ..

وعندما أجريت تجربة أخرى على نفس الأطفال . وطلب إليهم أن يرسموا أى شيء . رسمت الإناث وجوها وأشخاصا ، ورسم الذكور سيارات وحوادث وعمارات .

فالمرأة تهتم بالأشخاص ..
والرجل يهتم بالأشياء والأفكار ..

ولذلك فالذكور يختارون علم الكيمياء والإناث يخترن علم الحياة .
والمرأة لا تهتم فقط بالأشخاص ، وإنما بالعلاقات الشخصية . ولذلك تحرص
المرأة على أن تنظر إلى الإنسان في وجهه وإلى ملامحه واحدة واحدة وبدقة .. بينما
يهتم الرجل بالعلاقات الإنسانية عموما وبالعواطف الإنسانية .
ولذلك تحب المرأة أفلام رعاة البقر وأفلام الحياة في الغابات ، لأنها تهتم
بالعلاقات الإنسانية المحددة أو تهتم برؤية الأشخاص بوضوح أكثر ..

والمرأة خبيرة بمعرفة ما الذى يمكن أن يفعله الإنسان إذا وضع في موقف
معين . وليس الرجل كذلك . وقد أجريت تجربة على عدد من الأزواج
والزوجات . وكان السؤال : ما الذى يمكن أن يفعله زوجك إذا حدث كذا
وكذا ؟ وقد نجحت كل النساء في الإجابة وفشل كل الأزواج .

وفي داخل الأسرة الواحدة نجد الخلاف واضحاً بين الرجل والمرأة . فالرجل
أقدر على تكوين علاقات عملية ناجحة . وأقدر على الاتصال بالعالم الخارجى .

ولكن المرأة أقدر على التعاون والتدبير وتنظيم حال الأسرة .. والرجل أكثر
تركيزاً وأكثر استغراقاً في عمله . ولذلك يبدو الرجل كأنه منعزل عن الدنيا ، إذا
راح يفكر في شئونه العملية .. لدرجة أنه لا يشعر بالبيت أو بمن في البيت ..
ولكن المرأة تنشغل بالبيت وبكل مسمار في البيت ، لدرجة أنها تحس أن الدنيا
كلها قد انكشفت وانحشرت في جدران شقتها الصغيرة .. ولو جلس رجل وامرأة
أمام التليفزيون ورأيا انفجاراً ذرياً وقال الزوج : كارثة ما الذى سوف نفعله بعد
ذلك ؟ لأجابت الزوجة على الفور : ولا كارثة ولا حاجة نطلب من البواب أن
يبحث لنا عن واحدة أخرى ؟ .

وواضح أن الرجل يتحدث عن الإنسانية ومصيرها بعد هذه

الانفجارات .. أما الزوجة فتتحدث عن مشكلتها مع الخادمة .. وأنها لا بد أن تبحث عن غيرها .

وعندما يتشاجر رجل وامرأة . فكل الرجال ميالون إلى الصمت . أو الانسحاب أو الخروج من البيت .. أما المرأة فهي تواجه الموقف بالصراخ والبكاء .

والعالمة الأمريكية مرجريت سيد ترى أن الدنيا من الممكن أن تكون أحسن لو اعترف الجنس أن كل واحد منها أقدر من الآخر في مجالات مختلفة .

فالرجل أقدر من المرأة في الموسيقى والعلوم والرياضيات .. (فالرجل من الممكن أن يحسب المسافة التي بين النجوم . ولا يعرف كيف يحسب أقساط الثلجة على عشرين شهرا) .. والمرأة أقدر من الرجل في العلوم الإنسانية لأن هذه العلوم تحتاج إلى حاسة سادسة .

ولا تزال المرأة أقدر من الرجل في الكلام ، وهي طفلة وهي شابة . وأقدر من الرجل في التعبير عن نفسها ولذلك تفوقت المرأة في اللغات . والرجل أقدر من المرأة في حل الأغاز والفوازير ، والرجل أقدر منها على حل الأشياء وتركيبها . والمرأة أقدر من الرجل في الأعمال التي تحتاج إلى إلمام سريع شامل ولذلك تفوقت في أعمال السكرتارية .

والمرأة أقدر من الرجل في التربية والعناية بالآخرين . فالمرأة لها موهبة خاصة في مراقبة الحياة عند الطفل وفي الحيوان وفي النبات - والإنسان الآن أحوج إلى المرأة من أى وقت مضى . لأننا في عصر صناعة الموت بأشكال مختلفة . كما أننا في عصر تتقدم فيه العلاقات الإنسانية مثل : التربية والتمريض والتعليم . ولذلك تفضل المرأة أن تشتغل بالتدريس والصيدلة والبحث الاجتماعي .

وفي الأرجنتين نلاحظ أن ٩٠٪ من الذين يدرسون علم النفس في الجامعة من الفتيات ، بينما ٩٠٪ من الذين يدرسون الهندسة من الفتيان .

وفي المستعمرات الاسرائيلية كانت المرأة تقوم بكل ما يقوم به الرجل . ولكن اتجهت من تلقاء نفسها إلى اختيار الحضانة والتربية والطهي .

وعندما حاول شباب «الهييز» أن يثوروا على التقاليد والعادات وعلى الأسرة ، فإنهم عادوا إلى التقاليد القديمة . فهؤلاء الشبان أقاموا في الشوارع والاصطبلات وفي الخيام . ولكن اتجه الشبان إلى جمع الخشب وإحراقه بينما اتجهت الفتيات إلى الغسل والطهي والكنس .. وفي الوقت الذي خرج فيه الشبان يبحثون عن عمل ومال ظلت الفتيات يقطن الانتظار في التريكو..

وإذا كان الرجل يجب المغامرة ، فإن المرأة تفضل أن تكون محافظة . ولا تغامر . والأحزاب السياسية في الترويج تدين بوجودها لمشاركة المرأة فيها .

وفي سنة ١٩٦٥ ليلة الانتخابات الفرنسية توجه الجنرال ديغول إلى الشعب الفرنسي قائلاً : «إلى كل سيدة فرنسية وإلى كل رجل فرنسي» ونجح ديغول لأن المرأة هي التي أيدته .. لقد حصل ديغول على ٤٠٪ من أصوات الرجال و٥٣٪ من أصوات النساء .. والمرأة سعيدة بأنها أعطته صوتها : لأن المرأة تحب أن يكون لها هذا الأب الطيب الذي ينظر إليها ويرعاها . والمرأة تكره العنف وتكره الحروب وتكره الفتن - لأن المرأة تحب أطفالها .. وأبناءها ولا تريد لهم أن يموتوا . ومن الملاحظ أن المرأة في الجامعات الأمريكية بعيدة تماما عن كل الاتجاهات الثورية . ولذلك فالمرأة أميل إلى الدين والأخلاق والعلاقات الشخصية من الرجل ..

والمرأة أكثر إحساسا بالروائح من الرجل . وإذا كنا نرى في الإعلانات رجلا يعانق زوجته قائلاً : ما أجمل هذا العطر وراء أذنيك .

فليس سبب ذلك حب الرجل للعطور . ولكن سببه أن المرأة هي التي تحب العطور . وهذا الاهتمام بالعطور هو الذى جعل الرجال ينفقون ملايين الجنيهات على الصابون وعلى الكولونيا ..

أما الأشياء المنظورة فالرجال يفضلون الخطوط البسيطة الواضحة أما المرأة فتفضل الأشكال المعقدة الملونة .. حتى في البلاد التي لا يرتدى النساء والرجال فيها شيئا . فإن الرجل يصبغ جسمه بخطوط متقاطعة .. أما المرأة فإنها تضع بقعا لونية متعددة الألوان على الصدر والخصدين والظهر والساقين ..

والمرأة أسرع نضجا من الرجل .. ففي الـ ١٤ سنة الأولى نجد الفتاة تنضج أسرع من الفتى .

بل إن الفتاة أكثر تقدما في النضج بستة شهور من أى شاب في سنها أى تسبقه في النضج العقلى والجسمى أيضا . وتكون أطول منه بثلاثة أرباع البوصة . ولذلك تحرص الفتاة على ألا يكون صديقها في مثل سنها ، لأنه في هذه الحالة يكون أقل منها نضجا . ولذلك تفضله أكبر سنتين أو ثلاثا .. أى في مثل نضجها العقلى ولذلك نجد الفتيات في المدارس الثانوية أكثر وعيا من الفتيان . أما في الجامعات ، فإن الشبان يستدركون ما فاتهم بسرعة ..

ولكن من الواجب أن نتساءل هل صحيح أن هذه الخلافات الاجتماعية بين الرجل والمرأة طبيعية ، أم المجتمع هو الذى خلقها ؟ .

هناك رأى يقول إن أنثى القروء تميل إلى ارتداء الملابس وخلعها . وتميل إلى الزينة أيضا ، ولو أعطيت هذه الملابس إلى الذكور لجعلتها على شكل كور وراحت تتقاذفها - بين القروء . ومن الممكن أن نجد سلوكا شبيها بذلك بين أطفال الإنسان أيضا .

ومعنى ذلك أن هذه الخلافات فى السلوك الاجتماعى طبيعة عند الانسان وعند القروء أيضا .

ولكن يلاحظ أن الأدباء إذا وجدوا طفلا ناعما رقيقا انزعجوا لسلوكه وطالبوه بأن يكون رجلا حمشا . وإذا وجدوا طفلة فيها خشونة وعنف طالبوها بأن تكون رقيقة . فالجتمع لا يريد الأنثى التى تسترجل ولا يريد من الرجل أن «يستأنث» . وإنما يريد الرجل رجلا ، والأنثى أنثى . ويحرص على ذلك . ويدعو إليه . ويكافئ الجميع .

ومن المؤكد أنه فى تاريخ الحضارات الإنسانية - وعددها أكثر من مائة - وجدنا الرجل هو الذى يصيد الوحوش ويصنع الأسلحة ووجدنا المرأة هى التى تطحن القمح وتجمع الأخشاب والبذور وترى الطفل ..

وبعض العلماء يؤكدون أن الكيمياء سوف يكون لها أثر كبير على السلوك الاجتماعى للرجل والمرأة . فقد لاحظ بعض العلماء أنهم عندما حقنوا أنثى القرد أثناء الحمل كان وليدها بعد ذلك عنيفا شرسا حتى لو كان هذا المولود أنثى . إذن فى الإمكان أن تكون الأنثى مسترجلة - إذا أردنا .

والترية المتزلية لها دخل فى تشكيل السلوك الاجتماعى للأطفال . فلو فرضنا أن إحدى الأمهات تعامل طفلها - ولدا أو بنتا - بمنتهى القسوة والاهمال . فسوف تكون النتيجة أن تصبح البنت عنيفة ، أما الولد فسوف يكون مائعا . وإذا أحببت الأم بنتها ، عادت للولد صفات الرجولة . أما البنت فستكون فى غاية الرقة والحنان .

ومن المناسب أن نسأل : هل التعليم المشترك هو الذى أدى إلى نعومة الأولاد وخشونة البنات ؟ وإضعاف الفوارق بين الجنسين ؟ .

إن التعليم فى العالم كله لا جنس له . ففى رياض الأطفال يجد الأطفال

الذكور أنفسهم في مجتمع نسائي تماما . فالناظرة والمدرسات والطالبات أغلبية ساحقة من الجنس الآخر . وسوف يجد الطلبة الذكور أن هذا المجتمع يطلب إليهم ضرورة الطاعة والكلام بصوت منخفض أو الصمت والنظافة وعدم اللعب وعدم تكسير الأدوات - وفي هذا الجو تستريح الطفلة - لأنه جو نسائي طبيعي جدا وهو عكس ما يريده الطفل فالطفل يستريح إلى الصراخ والزعيق واللعب العنيف والحركة . ولذلك يضيق الأولاد بهذا الجو .

وفي المدارس التي يجلس فيها الذكور وحدهم والانات وحدهن أثناء الدراسة ، يشيع الهدوء والصراحة . فكل جنس يشعر أنه في مكانه الطبيعي وأنه منسجم مع الآخرين ..

ولكن من الأفضل أن يلتقي الأطفال الذكور والانات بعد ذلك في الفسحة وفي المطعم وفي الملاعب .. يجب ألا يتباعد الجنسان ويجب ألا ينغزلا .

ومن المؤكد أن تقارب الجنسين يؤدي إلى القضاء على الكثير من الأوهام والمخاوف بين الجنسين . وما دامت الأسرة رجلا وامرأة وأطفالا بعد ذلك ، فلا بد أن يلتقي الجنسان في كل المناسبات ليكون التفاهم بينهما مؤكدا بعد ذلك . وما دام الحب طريقا إلى الزواج ، فكيف يكون حبا بلا رؤية واضحة وتعاطف واحساس بالتواجد والتقارب المستمر ؟ .

وأقرب الآراء إلى المنطق أن يقال إن هناك خلافا بين الجنسين . لاشك في ذلك . ولكن هناك آمالا وأحلاما مشتركة . ولا بد من أن تؤكد الرجولة للرجل ، والأنوثة للأنثى ..

والأطفال محتاجون إلى نماذج جيدة : الطفل إلى الأب والطفلة إلى الأم .. والمجتمع نفسه محتاج إلى قدرات خالقة من الأناث والرجال : عبقرية

الرجل فى التفكير والابداع . وعبقريه المرأه فى الانسجام والعنايه والرعايه
والحب من أجل أن تبقى الانسانيه ، وأن يبقى العالم الذى نعلم به ..

لا بد من وجود الرجل والأنثى لكى يكون لدينا نوع من الاثارة اللذيذه التى
لا يمكن أن تتوافر فى مجتمع كله رجال أو فى مجتمع كله إناث .. لا بد من
الجاذبيه الجنسيه بين الطرفين .

ومن المؤكد أن الحياه تصبح أجمل وأروع لو استخدم كل جنس أسلحته
فى اجتذاب الجنس الآخر . وليس أعظم من بيت يصنع فيه السعاده اثنان .
ويقتسمه اثنان وبينه اثنان . ولا بد أن يكون هناك اثنان هما مصدر الحب
والسعاده والحياه لأطفال آخرين ..

أما إذا حاول كل جنس أن يبدو كالآخر ، فالمرأه كالرجل ، والرجل
كالمرأه ، لخسرنا الرجوله والأنوثة وخلقنا جنسا ثالثا . إن كل الاتجاهات الحديثه
فى الفكر الأوروبى ترحب بالجنس الثالث .. وتهتف بحياه الجنس الثالث .. ولكن
من المؤكد أنه لن يبقى إلا الجنس الأول والجنس الثانى .. هذان جنسان يختلفان
ويلتقيان ويتعانقان .. بشرط أن يكون للجنسين نفس الحقوق ولكن لهما
واجبات مختلفه ..

في القرن الواحد والعشرين

- ٧ -

لن يكون هناك فارق كبير بين زوجتك يوم ١٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠٠ وبينها يوم أول يناير سنة ٢٠٠١ أى في اليوم الأول من القرن الواحد والعشرين . وربما كانت مرهقة بعض الشيء بسبب الضحك المفتعل الذي أطلقتته من أعماقها كأنها تريد أن تقتلع الماضي في نفسها .. أو كأنها تريد أن تقتلعك أنت وقرفك من تاريخها ..

وربما كان الضحك والإرهاق وهذه المحاولة العنيفة قد هدت حيلها وجعلتها أهدأ جسميا ونفسيا ، وقد تتوهم أن القرن الواحد والعشرين قد بدأ والعالم كله لا يدري بنهاية قرن وبداية قرن آخر .. وفي استطاعتك أن تقوم بتجربة واحدة لا تخطئ : امتدح أية واحدة كانت بالقرب منك يوم رأس السنة .. وإذا حاولت زوجتك أن تتظاهر بأنها لم تسمع بوضوح .. فقل لها بوضوح .. وهذا الوضوح من جانبك سيفرغ الزوجة بأن تكون أوضح ، وسوف تستعين زوجتك على توضيح وجهة نظرها بيديها وعينيها في معظم الاحيان ، فإذا وضعت يديها في خصرها وأمام كل الناس فهي تريد بذلك أن تكون واضحة مرئية للجميع ، الذي يراها يريد أن يسمعها أيضا ، وسوف تقول بالحرف الواحد « أنت فاكر نفسك إيه .. أنا أتيت بك من الشارع وعلمتك كيف تسكن البيوت النظيفة .

أنت لم تكن تعرف غير الجرايع من مثل هذه السيدة . ولكنك الآن تعرف أحسن الناس . أنت لم تكن تعرف معنى الطعام النظيف والملابس النظيفة والنوم الهادئ « . ولا داعي لأن تنفعل بالمرّة . ولا تشعر مطلقاً بأن زوجتك قد افتتحت القرن الواحد والعشرين بفضيحة . لا تغضب فسوف يتصرف جميع الأزواج من تلقاء أنفسهم والزوجات أيضاً .

فقد حدث ذلك في كل بيت في نفس اليوم أو قبل ذلك بأيام . وما دام قد حدث في القرن الواحد والعشرين فسوف يظل إلى نهاية القرن . إن طبيعة المرأة لم تتغير . ولن تتغير . وسوف تشعر المرأة دائماً أنها محكوم عليها بأن تظل مرتبطة بالرجل ، وأن تعلن هذا الارتباط .. ولذلك لا تجد متعة في الارتباط ولا تجد مفراً منه .

ولو خرجت أمام البيت الذى أمضيت فيه رأس السنة يوم ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠٠ لوجدت اثنين من المتسولين : رجلاً وامرأة ولسمعت هذا الحوار بالحرف الواحد ، كما رواه لنا الأديب اليابانى الفائز بجائزة نوبل فى العام الماضى .. تقول زوجة الشحاذ : كنت لا تجرؤ على الجلوس أمام العمارات أما الآن فأنت تجلس .. بل أنت تبصق على الأرض أمامها . وتمسح قدميك فى جدرانها .. كيف الحال الآن ..

- لا أفهم .

- أنت عادة لا تفهم ما يضايقك ..

- لا أفهم أيضاً ..

- لأنك لا تفهم أى شىء على الإطلاق أنا لا أعرف كيف كنت تعيش .. لا أنت تفكر فى شىء .. لا فى نفسك .. ولا فى غيرك .. ولا مستقبلك .. من الذى جعلك تفكر فى كل شىء .. من ؟ قلها ! ولو مرة واحدة ! قلها ! .
- أنت ..

- وتقولها من تحت الضرس .. صعب عليك أن تعترف لى ولو مرة واحدة
بأننى نقلتك من الحوارى إلى أرقى الأحياء .. حتى ولو ألقى القبض عليك
الآن .. فلن يقول أحد إنك شحاذ .. سيقولون إنك متشرد فقط .. ومعظم
الناس متشردون ..

- ولكنك لست متشردة ..

- هل أتشرد وأنت على قيد الحياة . أين الرجولة .. أين التضحية .. لو
كنت رجلا لركبت سيارة ومددت يدي للناس .. ولكنى امرأة كل ما تملكه هو
قلب يحس .. ويحب رجلا لا يدرى به ..

- وهل للشحاذ قلب .. قلب الشحاذ فى معدته ..

- أنت وحدك الذى لك قلب فى معدتك .. اننى أعرف شحاذين يتناولون
طعامهم المتواضع فى ظلال الأشجار فى الليالى المقمرة ..
- لأنهم وجدوا الخبز أثناء ظهور القمر فى السماء .

- أنت لا ترى القمر .. أنت لا ترى غير رجال البوليس .. ومع ذلك فأنت
لم تعد تخافهم .. أنا شددت ساعدك وجمدت قلبك .. ولكنك تنسى .. وحتى
إذا أخذك رجال البوليس وضربوك بالكرباج فهذا أفضل لأنهم فى الأحياء
الفقيرة يضربون الناس أمثالك بالجزمة . ألا تقل لى كلمة شكر واحدة .. كلمة
واحدة .

- بل أجد أكثر من كلمة : ألف شكر يزوجتى العزيزة .. ويجب أن نعود
إلى الحوارى ..

- إلى الحوارى ؟ .. عد وحدك .

- وأنت سوف تعودين .. لأنك هنا تتكلمين كثيرا وتصدين نفسى عن
التسول .. فإما أن تسكتى أو نموت جوعا ..

.. الخ هذه القصة التي تؤكد أنه حتى زوجة الشحاذ تذكر فضلها عليه لأنها ارتفعت بمستواه من حارة إلى شارع .. ومن الضروري أن يذكر لها زوجها هذا كله بالامتنان .. ولو أدى ذلك إلى موته جوعا ، أما هي فلن تموت وإنما سوف تبكى عليه . وفي بكائها إثارة لشفقة الناس .. وعلى شفقة الناس ، وعلى جثة الزوج تعيش من جديد ..

وسوف تبقى المرأة عاملة في القرن ٢١ فالعمل قد أعطى للمرأة أهمية وجعل لها شخصية ، وأدخلها في بروج اجتماعي . فلها ساعات عمل . ولها صفة ، ولها مرتب ، وهي في ذلك تتساوى بزوجها ، ولم تعد مجرد ست بيت .. أوست في البيت ..

وإن كانت المرأة العاملة تتمنى لو استطاعت أن تشعر بأمومتها معظم الوقت وكثير من العاملات يندمن على أنهن لم يمضين وقتا كافيا مع الأولاد . وإن كنا نجد أمهات عندما يذهبن إلى مكان العمل يحمدن الله بصوت مرتفع : فلا أطفال ولا دوشة ..

وأحيانا : ولا أطفال ولا زوج ولا قرف ..

والأرقام تؤكد أن الزوجات العاملات يتمنين لو كانت عندهن امكانيات العناية بالطفل . وهذه مشكلة سوف تقوى في القرن ٢١ ، فإذا كانت الأم قد اعتادت الآن أن تنجب أطفالا حسب الطلب . فشكلة هؤلاء الأطفال المرغوبين أنهم لا يجدون الأم ولا يجدون الأب : أي لا يجدون النموذج والقُدوة الحسنة . وإذا كان القرن العشرون قد عانى كثيرا بسبب هؤلاء غير المرغوب فيهم من الأطفال ، فسوف يتعذب القرن التالي من الأطفال الذين دعاهم آباؤهم إلى الحياة فلما جاءوا لم يجدوا أصحاب الدعوة .

صحيح أن الفتاة تفضل وهي دون العشرين أن تكون جذابة للرجل . ولأن المرأة لا تريد أن تكبر وأن تظل صغيرة ، فهي تحب أن تكون جذابة أطول وقت

ممکن . وهذا یضیع علیها فرصة أن تكون زوجة وأن تكون أما ولكن إذا أصبحت أما فإنها تحب أن تكون أما محبة لأطفالها ، ولا توجد أم تفضل أن يكون لها طفل واحد ولا اثنان . أكثر الأمهات يفضلن أن يكون لديهن ثلاثة من الأطفال على الأقل . في القرن الماضي كان من المألوف أن تجد الأم ووراءها سبعة أو تسعة من الأطفال ..

وإذا اشتغلت المرأة ، في هذا القرن أو القرن المقبل فن الضرورى أن تجيب عن هذه الأسئلة الثلاثة : ما أثر العمل على الزوج ؟ وما أثره على الأطفال ؟ ثم ما أثره في الحياة الزوجية نفسها ؟ .

كثير من الأزواج يفضلون أن تعمل الزوجة . لأن العمل يريحها نفسيا أو لأن العمل يستغرق فراغها . أو لأن العمل يجعلها تعرف كيف يتعب الرجل أو كيف يحصل على القرش الذي تتخلص منه الزوجة بلا تعب .. أو لأن الرجل يريد أن تذوق زوجته معنى المساواة في التعب والعرق والحرقان من البيت والأطفال ، ولكن المرأة تفضل أن تعمل وسوف تعمل وسوف تدفع الثمن من راحتها ومن أنوثتها أيضا .

وبعض الرجال يفضلون أن تعمل الزوجة ، لأنها تساعد في نفقات الحياة . وفي الكتاب المقدس جعل الله العمل عقوبة للرجل وجعل الولادة عقوبة للمرأة ، ولكن أقسى العقوبات أن يعمل الرجل ولا تقدر المرأة تعب الرجل . فالعمل مرهق وسوء التقدير عذاب آخر . وأقسى من هذا العذاب أن يجد الرجل نفسه مربوطا من عنقه بامرأة تحرص على أن تسيء إليه وإلى عمله .. وأن تحول بأصابعها الساحرة كل ما جاء من ذهب إلى تراب . وإذا وجدت يدها خالية حولت الرجل أيضا إلى تراب .. ومشت على الجميع ؟ ..

ولكن المجتمع الحديث ينظر باحترام واشفاق أيضا إلى أصحاب الياقات البيضاء .. أى العاملين من الرجال والنساء .. ولكن الاحترام الاجتماعى

شيء .. والحياة الاجتماعية شيء آخر .. وإذا كان الناس يريدون الاحترام
الممكن أن يحصل عليه الإنسان بالصمت .. أى بالامتناع عن الكلام .. ول
الحياة شيء آخر . ولذلك عندما ينفرد الزوجان في بيت واحد فليست ه
ياقات بيضاء ولا مجتمع ولا احترام المجتمع ولذلك يحس الزوجان أن المجت
أرحم لأنه أوسع وأكثر تنوعاً وأقل تضيقاً وقيوداً . وهناك مثل أمريكي معرو
يقول : إن الإنسان لا يكون في نظافة الياقة البيضاء التي يضعها أمام الناس
ومن الأمثال أيضاً قول الحماة : بل أريد أن أراه من غير ياقة بيضاء -
تريد أن ترى العريس على طبيعته ..

ولابد أن يكون لعمل الزوجة أثر على أطفالها . وأثر على حياتها الزو-
نفسها طبعاً . ومن المناظر المألوفة في المدن الأمريكية أن نجد (أطف
المفاتيح) - أى الأطفال الذين تعلقت المفاتيح في أعناقهم - يدخلون البي
ويخرجون كما يريدون دون أن يكون هناك أحد ، لأن الأم تعمل والأب أيضاً
ويمكن أن يقال إن الرجل نفسه في القرن ٢١ لن يكون حمشاً ولن تكون
عضلات مخيفة . فالعلم الحديث قد وفر على الرجل عضلاته فهو لا يمشى ،
القاهرة إلى الإسكندرية إنه يركب المواصلات وهو لا يقطع الصخور . الآلا
تفعل ذلك ، وهو لا يحمل أثاث بيته على كتفيه ، السيارات تنقل ذلك ..
توجد فرص للرجل لكي يظهر عضلاته وقوته . وهنا تجد المرأة التي انتظر
طويلاً فرصة مناسبة . فهي بلا عضلات ، ولكن عضلات المرأة أعصابها
وقوة المرأة احتمالها وعمر المرأة صبرها .

ولن يطرأ أى تغيير على الرجل فسوف يبقى محكوماً بالعمل ، وسوف يستغر
العمل حتى يغرقه . فإذا أغرقه العمل أرهقه وهد حيله ، ولكن المرأة تنت
منتعشة ولا ترى إلا رجلاً مهتماً ، والمرأة لن تضيق وقتها في الرثاء لحال الرج
والبكاء على شبابه . فهذا شأنه وهو الذي اختار وهو الذي يجب أن يبكى

حاله وأن يمشی فی جنازة نفسه . وان يترحم على حياته الغالية وهو على قيد الحياة ، أما المرأة فيجب أن تستدرك ما فاتها مئات السنين ، وأن تعيش .. فالحياة للأصلح . والمرأة أم الحياة وأصلح للحياة من الرجل . والمرأة قادرة على أن تعيش . ولكن الرجل قادر على أن يخلق أساليب المعيشة : يشق الطريق ولا يمشی فيه . يصنع الطعام ولا يذوقه . يضيء لغيره ويموت ليعيش غيره .. وغيره هو المرأة دائما ..

ولكن المرأة لا تتسلط على الرجل - عادة - إلا إذا كان ضعيفا .. ضعيف الجسم أو ضعيف الشخصية أو فقيرا ..

ومن المشاهد الجميلة في تعبيرها في إحدى قصص دستوفسكي أن زوجة تلقت في يوم واحد أن زوجها فصل من عمله ، وانكسرت ساقه ، وأحرقت النيران بعض مذكراته . وأصبحت الزوجة ببرود شديد .. وعجزت عن البكاء لأول مرة . وأخيرا نهضت تقول لزوجها : هل من الضروري أن أدعو أقاربك ليشهدوا هذه النهاية ؟ .

ولم يفهم الزوج . فعادت تقول له : إن لم تكن تعرف أنك مت فعلا .. فمتى تعرف ذلك ..

وقامت الزوجة ولفت الزوج في ملابسه .. وكومتها على رأسه وطلبت إليه : تستطيع الآن أن تموت في هدوء . فقد كان يوما قاسيا عليك .. لقد قتلوك أكثر من مرة .

وسألها الزوج ساخرا : وإلى أين تذهبين ..

قالت الزوجة : لا أخفي عنك .. فأنت الآن على فراش الموت . فلا أنت تكذب ولا أنا .. سأذهب إلى ابن عمتي لقد انتظرني طول عمره .. هل نسيت ..

وخرجت . ولم يعترض الزوج ، وظل في مكانه ينتظر الموت الذ
« فرضته » الزوجة على زوجها .

فهل سيبقى الجنس ضرورة أيضا ؟ .

والجواب أن الجنس إحدى الضرورات ، ولكنه لم يكن الضرور
الوحيدة .. فهناك ضرورات : الطعام والشراب والأمن والجنس والتقد
والعمل .

وفرويد كان يقول : إن الحضارة لم تتقدم إلا على أساس من التضحي
بالضروريات .. ومن الضروريات الجنس . فقد تسامت الحضارة بالجنس
واتجهت الغريزة الجنسية إلى أنواع مختلفة من النشاط : الحب وحب الجيا
والموسيقى والغناء والرياضة .

والأديب همنجواي يقول : إن الجنس قوة خطيرة ولكنها قوة تدمر الابدأ
الإنساني أيضا . ولذلك على الذى يبدع أن يربط نزعاته ويحبسها في داخله .

ويقول كامى : إن أعظم ينابيع الحياة قد فجرها الإنسان في السرير وتركه
هناك . وعاد أخف وزنا وأقل قلقا وأقصر جناحا ..

ولكن الحب هو وحده القادر على أن يجمع بين طرفين من الناس . وأ
يديهما بالجنس . وأن يذيب المسافات الباردة - العزلة - بين الناس ، وبعد أ
تدوب المسافات . يتجمد الناس على مسافة واحدة أو تتجمد المسافات ب
الناس .

وكان العالم الكبير اشتراسمان يقول : إنه كلما كبر صدر المرأة صغر عقلها
وكلما كبر عقلها صغر صدرها .

وقد جاءت هذه النظرية تنويجا لدراسة شاملة على مئات النساء اللائي
لاينجن .

غير أن هذه النظرية التي هزت الفكر الإنساني في أوائل القرن العشرين ليست دقيقة ، فهناك سيدات ممتازات عقلا وجسما أيضا . وهناك سيدات عظيمات أمهات أيضا . ولكن من الصعب أن يكون للمرأة صدر وتفكر بعقلها . ومن الصعب على الرجل أن يرى ساقين جميلتين ويستمتع إلى ما تقوله المرأة .

ولن يكون الزواج هو بر الأمان في القرن ٢١ ، لن يكون الزواج هو المنقذ من الضلال ، ومبعوث العناية الإلهية .. ولن تكون الزوجة أيضا هي منحة السماء والملاك الحارس . وإنما سيكون لكل شيء حجمه ووزنه . فالزوجة : امرأة . والزوج : رجل . وشاءت الصدفة أن ترمى بالاثنين في مكان واحد . وشاءت صدفة أخرى أن تقرب ذبابة من وجه المرأة فأخرجت منديلها بسرعة من شنطتها وسقطت الشنطة عند قدمي رجل كان يلعب في شعره .. والتقت عينان ، وخرجت بسرعة من فمها كلمة : شكرا .. ومن فم كلمة : عفوا .. وكانت كلمة المرأة (سنارة) متواضعة جدا .. وتعلق فيها الرجل الطويل العربة وشاءت المرأة بذكائها وخبثها أن يسبقها الرجل وهو مربوط في السنارة ليتصور أنه هو الذي يسحبها ورائه .. وسحبها إلى البيت .. وعلق السنارة على الحائط رمزا لانتصاره في عالم الصيد ..

وسوف يكون الطلاق أمرا سهلا .. لأن الزواج كان سهلا .. وسوف يتخذ الزواج شكل الأعمال التجارية شكل الشركات .. التي تكون لها شروط .. قابلة للفسخ إذا قرر أحد الطرفين ذلك . وبذلك لا يكون الزواج نعمة ولا يكون الطلاق نقمة . وإنما هي علاقات حرة . تظل ما دامت ضرورية . وتنفك عندما لاتكون لها أى ضرورة وفي ذلك أمان وضمان للمرأة . وقد كان الزواج - فيما مضى - هو الضمان الوحيد للمرأة فأصبح العمل والاستقلال الاقتصادى والاعتماد على النفس هو الأمان الوحيد عند المرأة ..

وفي أمريكا اتجاهات علمية للتخفيف من أعباء الحياة الزوجية أو الزواج نفسه. وذلك بأن يكون للزوجين الحق في أن يتعاقدا لمدة سنتين فإذا نجحت هذه العلاقة لمدة سنتين كان في إمكان الزوجين أن يتعاقدا مرة أخرى على الاستمرار في الزواج . فإذا فشل الاثنان في السنتين الأوليين كان من حقها أن ينفصل كل منهما عن الآخر..

أما العلاقات بين الجنسين في القرن ٢١ فسوف تكون لها أشكال مختلفة :

- ١ - الزوجة الواحدة .. أى يكون للرجل زوجة واحدة دائما .. لا زوجة واحدة حتى الموت .. ولكن من حين إلى حين . أى أكثر من زوجة ..
- ٢ - وعلاقات زوجية أو جنسية بلا مسئولية . وهذه العلاقات موجودة الآن في كثير من الطبقات الفقيرة وربما كانت هذه هي العلاقة التي سوف تنتشر في القرن ٢١ ، أى علاقات ثابتة غير زوجية .
- ٣ - وعلاقات متعددة للرجل وللمرأة أيضا .. أى تكون هناك واحدة للحب وواحدة للفسحة وواحدة للأطفال وواحدة لللوس .. ونفس العدد للزوجة أيضا . ومن حق الزوجين أن يتساءلا أيضا : ولماذا الزواج ؟ .
- ٤ - وسوف يعرف الناس أبوة بلا زواج .. وأمومة بلا زواج .. وهذا منتشر جدا في السويد . من المؤلف في السويد أن تجد الفتاة أما لأربعة من الأطفال : كل واحد له لون وله أب .. والأم لم تتزوج قط .. ومن الممكن أن يكون هناك أب دون أن تكون له زوجة . كأن تكون الأم قد ماتت . أو اختلفت مع الزوج وتركت له الأطفال لأنهم صورة منه . وهى لا تريد لا الصورة ولا الأصل .
- ٥ - وتقول العالمة الأمريكية الكبيرة مرجريت ميد : إن المستقبل سوف

يعرف الأسر التي تنجب الأطفال فقط . والأسر التي لا تنجب الأطفال .

وأن الأطباء والعلماء هم الذين سيقروا أن بعض السيدات أقدر على الأمومة من غيرهن .

٦ - العلاقات الشائعة .. أو علاقات المشاع كالتى بين شباب الهيبز الآن . فهم يعيشون فى أماكن محددة : الشبان والشابات معا .. ينامون معا ويأكلون معا .. إلى آخره .. إلى آخره .

٧ - تعدد الزوجات شرعا .. فقد لوحظ فى أوائل هذا القرن أن عددا كبيرا من الأرامل قد تجاوزن الستين وأنهن غير قادرات على الحياة . ففكر عدد من الرجال الطاعنين فى السن القادرين ماليا ، على الزواج من أكثر من واحدة . واستنكرت الكنيسة ذلك ، ولكن أمام إصرار العواجيز والشيوخ وحسن النية ، سكتت .. وسوف يحدث ذلك فى المستقبل دون أن يعترض أحد ..

٨ - وسوف يحلم الناس فى القرن ٢١ بحياة ممثلى الشاشة الذين يتزوجون وينفصلون بسهولة ؟ وعلى الرغم من هذه الحرية التى يستمتع بها الممثلون ، فلهم علاقات أخرى .. ومع ذلك لا يستنكر الناس المعجبون بهم ، هذه العلاقات الخارجة على القانون والتقاليد والأخلاق والدين .

أما الزواج نفسه فهو فى معظم الأحيان مقامرة .. والقمار فى معظم الأحيان جنون .. والزواج الطويل ليس معناه الزواج الناجح ولكن سوف يبقى الزواج إطارا تتحرك وتتحرق فيه العلاقات الإنسانية .. وسوف تجد المرأة حرمتها فى هذه القيود الزوجية ..

وسوف يجد الرجل في قيود العمل حرته .. وسوف تتصارع حرية المرأة
وحرية الرجل في ميدان واحد ضيق هو البيت .. وسوف تتطير شظايا تصيب
الاثنين أو الصغار .

ورغم هذا كله فسوف يبقى الزواج لأن الإنسانية لم تجد شكلا أحسن منه :
ولا إطارا أقوى منه ، ولا قيودا يتحداه الرجل ويستسلم له في النهاية . أما المرأة
فسوف تظل تنفج على الرجل وتبكيه . وتبكي عليه .. وعلى نفسها أكثر ..
ولكن الدموع لم تفرق أحدا ولا شيئا .. ولذلك بقي الحب وعاش الزواج ومات
الأزواج أولا .. والزوجات بعد ذلك .. واستأنف الأطفال لعبة الحب التي
هدفها الوحيد : الزواج ..

أَجْمَلُ وَأَقْسَى مَا خَلَقَ اللَّهُ

النساء شياطيناً وراحين خلقن لنا

- ١ -

المرأة أقل من رجل وأكبر من طفل .

إنها باب جهنم ..

لم يخلقها الله من رأس آدم حتى لا تسرف في طموحها ، ولم يخلقها من قدميه حتى لا تمرغ كرامتها في الأرض ، خلقها من ضلعه لتكون قريبة من قلبه .

أسهل جدا أن تمشى وراء أسد من أن تمشى وراء امرأة .

ليس أسوأ من امرأة ، ولو كانت طيبة .

وعبارات أخرى التصقت في عيني الرجل وهو ينظر إلى المرأة

من خلال منظار متلون اسمه : رغباته الملتهبة .

وإذا مسح الرجل هذه العبارات من ذاكرته ونظر إلى الشارع .. أى شارع .. فن السهل جدا أن يرى أن الإنسانية مكونة من جنسين مختلفين في الشكل والملامح والأزياء والوظيفة والهموم : رجل وامرأة . وليس من الصعب أن يلاحظ أن هناك ميلا خفيا بين الجنسين . وأن كل واحد منهما يحاول أن يخفي هذا الميل أو يتفنن في إخفاء ما يريد أو في إظهار ما لا يريد .

وإذا اقترب من المرأة أكثر فإنه يجد أن المرأة تشعر بشيء من « الحرج » من وجودها « مع » الرجل في مكان واحد .. أى مكان . ولذلك فهي تحاول أن

تبذل جهدا كبيرا لتبدو طبيعية . كأن أحدا آخر ليس موجودا . ومن بين محاولات المرأة في أن تكون طبيعية كأى رجل . حرصها على أن تستعير بعض أساليب الرجل في الكلام والحركة وبعض العادات . بعض النساء يحاولن أن يستخدمن عضلاتهن وكثيرا لا يفلحن .

هناك أدبية معروفة غضبت من أنهم وضعوا صورتها بين مجموعة من الأدبيات .. وطالبت بأن تكون صورتها بين الأدباء .. ولم يستمع أحد إليها . فاستعانت بنفوذ زوجها ! فكأنها وحدها لم تستطع .. وهى وحدها عاجزة عن أن تفعل شيئا . وهذا ما يضايق المرأة كثيرا .

كما أن المرأة التى تحاول أن تقلد الرجال لاتلقى احتراما من الرجال ومن النساء .

ولكن احساس المرأة دائما أنها أقل من رجل ، يضايقها . ولا تعرف ما الذى تفعله لكى تبدو مساوية للرجل . إن الكتب التى تدرسها المرأة تؤكد لها دائما ، أنها أقل . وأنها تعتمد عليه . أنها شىء يضاف إليه .. أنها من « متعلقات » الرجل .. أنها ضمن عالمه .. وليس لها عالم خاص ولا يمكن أن يكون لها عالم خاص ..

فالمرأة تقرأ أن الفيلسوف أرسطو يقول : إن المرأة رجل ناقص التكوين ..

وتقرأ أن القديس توماس يصفها بأن خلقها لم يتم ..

والكتاب المقدس يقول : إن الله خلقها من ضلع آدم ..

أى أنها أقل من الرجل أو جزء منه ..

والحديث النبوى يقول : إنهن ناقصات عقل ودين ..

ما الذى تصنعه المرأة أمام هذا « الموقف » ؟ ..

إن المرأة ليست ضعيفة . ولا هى أقلية . فعدد النساء مثل عدد الرجال .

ولكن النساء لسن طبقة . أو لسن عنصرا . فلسن كالتبقة العاملة مثلا التي تريد التحرر من الاستغلال . ولسن مثل الزنوج ..

والنساء ليس لهن تاريخ خاص بهن وليس لهن دين خاص بهن . وإنما النساء مبعثرات في دنيا الرجل . لاتربطن أية رابطة واحدة تجعلهن قدرات على التحرر من الرجل . ومن قيود الرجال .. ومن عالم ولدن فيه ورببن وكبرن وثرن عليه اسمه : دنيا الرجال .

والنساء في دنيا الرجال كل واحدة مرتبطة أو مربوطة من رجل : أبيها أو أخيها أو زوجها أو ولدها .

إن المرأة إذن ليست حرة تماما .

وفي كل تاريخ المرأة لم نجد لها قد اكتسبت حقا جديدا . وإنما أخذت المرأة ما أعطاه الرجل من حقوق . فكانت المرأة لم تفز بحق . وإنما فقط تسلمت حقا من حقوقها .

وعلى الرغم من أن علاقة المرأة بالرجل كانت - زمنا طويلا جدا - علاقة السيد بالخدوم .. أو علاقة الحر بالعبد . فإن المرأة لم تستغل ضعف الرجل أمامها .. احتياجه الشديد لها . وإنما ازدادت حقوق السيد ولم تزد حقوق العبد . والسيد يضيف إلى حاشيته مزيدا من الحرير ولكن الحرير لا يصفن إليهن مزيدا من الرجال ..

والأساطير الاغريقية تحدثنا عن هرقل الذي مرض . فحكمت عليه الآلهة بأن يعرض نفسه للبيع في سوق العبيد . ففي ذلك شفاء له . واشترته الملكة « أمفال » وأحبته . وأنجبت منه طفلا . وكانت تجد متعة في أن تجعله يجلس بين النساء يمسك لها الخيوط وهي تغزل . وكانت تجد متعة في أن ترتدى هي ملابسها ويرتدى هو ملابسها . وكانت تجد لذتها الكبرى في أن تضربه بالكرباج وبالجزمة وكانت تجد متعة أكبر في أن يفعل بها ذلك ..

ولكن « أمفال » هذه لم تستطع أن تتحكم في هذا البطل هرقل بسبب حبه الشديد لها .. إنها أعطت نفسها وكانت نشوتها الكبرى في أن تذوب بين ذراعى الرجل الذى تحبه .

وقصة ميديا التى أحبت جانسون . وكانت تعلم أنه يجب أولاده . وخانها فانتقمت منه بأن ذبحت أولاده أمام عينيه . وكان فى استطاعتها أن تتحكم فيه بسبب حبه الشديد لأولاده . ولكنها لم تفعل .

والفنان العظيم اريستوفانس يروى فى إحدى مسرحياته كيف أن النساء انتقمن من الرجال . وذلك بأن سيطن عليهم تماما . أى أن النساء تحكمن فى الرجال . ولكن هذه السيطرة لم تظهر إلا على المسرح فقط .

كما حاولت نساء مقاطعة ساين أن يعذبن الرجال فأضرن عن الحب والقبلات والحمل والولادة .. ولكن هذا العناد لم يستمر طويلا .. فقد تهاوت قلوب النساء واحدا بعد واحد .

ولم يحدث قط أن تحررت المرأة من قيود الرجل عن طريق التحكم فى رغباته وشهواته - أى عن طريق التحكم فى الجنس وانجاب الأولاد .

وعلى الرغم من أن فرص المرأة فى الحياة أكثر من أى وقت مضى عليها ، فإن هناك صعوبات وعقبات كثيرة فلا يزال الرجل يحتكر المراكز الكبرى ويحصل على أكبر أجر . ولا يزال هو السيد المطلق فى عالم السياسة والصناعة . صحيح أن المرأة قد احتكرت مهنة التدريس للأطفال . ولكن ما الذى تقوله للأطفال ؟ إنها تلقنهم تاريخ الإنسانية . وتاريخ الإنسانية هو تاريخ الرجل . أما الذى تقوله المرأة أيضا للفتاة الصغيرة فهو تاريخ الرجل أيضا . وإذا كانت المرأة هى التى تعلم المرأة ، كان الزواج هو هدفها النهائى والزواج هو حصن الأمان للمرأة فى ديار الرجال .

ولكن ماذا يحدث لو أنكرت المرأة هذه التقاليد والعادات التي سبقتها إلى الوجود ؟ .

إن المرأة قبل أن تولد سبقتها إلى الدنيا قواعد ثابتة . وقوانين وأصول . كلها من صنع الرجل لحماية الرجل وربط المرأة به . فالرجال من اليهود في دعائهم في صلاة الصبح يقولون : شكرا لله فقد خلقتنا رجالا ولم تخلقنا نساء . أما النساء اليهود فيقلن : شكرا لله فقد خلقتنا كما شاءت إرادتك .

وكان أفلاطون الفيلسوف الاغريقي يقول : شكرا للآلهة مرتين .. مرة لأنهم خلقوني حرا .. ومرة لأنهم خلقوني رجلا .

وكان يكنى لأفلاطون أن يقول إنه رجل . فالرجل هو الذى عنده الحرية . فالرجولة حرية والأنوثة قيد .

أما الذى يفعله الرجال بحرياتهم ، فإنهم يجعلون رغباتهم قانونا ويجعلون هذه القوانين مبادئ الطبيعة نفسها . أى أنه من قانون الطبيعة أن يكون الرجل سيدا . وتكون المرأة عبدا .

فإذا حاولت المرأة أن تصطدم بهذه القوانين وحاولت أن تنكرها كان عقابها أليما . فالمجتمع أقوى منها . والمجتمع هو الرجل . فإما أن تطيع أو تموت - وليتها تفعل ذلك ! .

ومنذ أقدم العصور نجد الأدباء والشعراء يصورون المرأة إنسانا غامضا خبيثا . وإن كانت المرأة معذورة تماما فى أن تدور حول القيود الحديدية فلا يملك الضعيف إلا أن يلف ويدور .. ولكن لم يحدث أن استطاعت النساء أن يتآمرن أو يقمن بثورة على الرجال .

وهذا العدا بين الرجل والمرأة . أو بين جنس الرجل والجنس الآخر أصبح تقليديا . وإذا كان بعض الرجال يصفون هذا العدا بأنه تافه فلأن الرجال

حولوا الخلاف بين الجنسين إلى نوع من « الخنافة » . فإذا تحولت قضية المرأة إلى خناقة أصبحت شيئا تافها . مع أنها ليست كذلك . فهي عميقة في جذور تاريخ العلاقات الجنسية والاجتماعية .

ولم ينظر الرجال إلى المرأة بوضوح إلا في القرن الثامن عشر . في هذا القرن فقط ترددت عبارات ونظريات تقول : بل هما متساويان تماما . وعلم التشريح يؤكد ذلك . والوظائف تقطع بذلك . فإذا كانت للمرأة غدد وهرمونات فللرجل أيضا . لاخلاف من الناحية العلمية . ولكن التاريخ يكذب ذلك .

فالرجل عندما يقول : نحن الرجال - فهو يجلس على عرش صنعه من قبله كبار الفلاسفة والعلماء والساسة والشعراء والعباقرة فالرجل وريث لمجد طويل عريض أكيد . ولكن عندما تقول المرأة : نحن النساء فلا بد من أن تجيء عبارات أخرى للدلالة على الظلم والاضطهاد وأنها طعام يشتهي الرجل ويخطفه ويجرده من إنسانيته ويجعله مجرد شيء .

وفي القرن التاسع عشر عادت مشكلة الجنسين . والخلافات بينها وجاءت الثورة الصناعية فأخرجت المرأة من البيت وألقت بها في المصانع إلى جوار الرجل . منافسا خطيرا له وفي القرن التاسع عشر تمسك الرجل بالأسرة .. أى بسحب المرأة من المصنع إلى البيت . إذا كانت الطبقة المتوسطة لا تملك الأرض ، فإنها تملك شيئا جديدا اسمه « كيان الأسرة » . أما الطبقة العاملة فقد ضاقت بالمرأة لأن المرأة إذا عملت فإنها تقبل أجرا أقل . وفي ذلك خطورة على الرجال العاملين .

ويبدو أن العلماء عندما وصفوا الجنسين بأنها متشابهان تماما ، قد أعلنوا هذه العبارة العلمية ووضعوا لها شرطا اجتماعيا هو : انها متشابهان في كل شيء ، بشرط أن يبقيا منفصلين .

وهذا يشبه بالضبط القانون الذى وضعته أمريكا للزواج : لافرق بين أبيض

وأسود في الحقوق والواجبات بشرط أن يظل الاثنان منفصلين تماما .

إذن ماهو الحل ؟ .

هذا السؤال ليس معناه أن هناك مشكلة وأن هذه المشكلة لها حل . وأن من الواجب أن يكون لها حل .. وأن هذا الحل طبعاً في صالح المرأة . فالظلم كله واقع عليها . ثم إن المرأة مرتبطة تماماً بظالمها وقاهرها وسيدها .

وقبل التساؤل عن الحل ، هناك سؤال آخر : ماهو موقف المرأة ؟ ماهو وضعها ؟ .

إن برنارد شو يقول : إن الأمريكيان يطلبون من الزوج أن يمسحوا الأحذية ، ثم يقولون إن الزوج لا يصلحون إلا لمسح الأحذية .

وكذلك المرأة حين تقول إنها ضعيفة وإنها مسلوبة الحقوق وإنها مظلومة . هذا صحيح . ولكن ليس معنى ذلك أنه من الواجب أن تكون هذه حالتها وإنما يجب أن نتساءل : ولماذا كانت المرأة كذلك ؟ من فعلها ؟ من ظلمها ؟

إن هناك رجالاً يحبون المرأة ويمتدحونها . ولكن رجالاً آخرين يلعنونها . هناك رجال يقولون : إن الله خلق آدم أولاً .. وخلق حواء بعد ذلك ، فأدم هو الطبعة الأولى وحواء هي الطبعة الثانية . ولذلك كانت أجمل .

وهناك من يقول : إن الله جعل أنبياءه من الرجال . لأنه من الضروري أن يكون النبي متواضعاً .

من إذن الذى محتكم إليه في قضية المرأة ! .

هل نحتكم إلى الرجل ، فيكون قاضياً والقاضى عليها أيضاً ؟ .

هل نحتكم إلى المرأة فتكون هي القاضى والمحامى والمتهم ؟ ..

هل نحتكم إلى كائنات « خنثى » - أى تجمع بين صفات الرجل وصفات

المرأة - وبذلك نضمن الحياد في الحكم للمرأة أو عليها .. إن مثل هذه الكائنات ليست هي المعادلة الصعبة بين الرجال والنساء ، وإما هي كائنات ينقصها أن تكون رجلا أو تكون أنثى . إنها حاقدة على الاثنين لأنها تشويه للاثنين .
وليس باستطاعتنا أن نحتكم إلى الملائكة ..

وعيوب الكتب التي أصدرها الرجل عن المرأة أنها كتب مغرضة .. أنها تشبه تماما القصة العربية المعروفة التي نسبت إلى كثيرين يقال إن رجلا أحب فتاة جميلة . ووعدته أن يلتقيا . وذهب إلى لقائها فلم يجدها فكتب على بابها :
إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين
ويقول إنه بعد أن كتب هذا البيت رآها مسرعة إلى لقائه فأعاد تصحيح البيت
هكذا :

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهي شم الرياحين
والمرأة دائحة منذ مئات السنين بين السرعة التي تتحول بها الشياطين إلى
رياحين .. وبالعكس ..

ولكن من المؤكد أن المرأة أقدر على فهم عالم المرأة من الرجل . وأقدر في الدفاع عنها .. وعن نفسها .. ولكن عيب الكتب أو الروايات التي تؤلفها عن المرأة أنها تطالب بحقوقها دائما . فقط تسجل ظلم الرجل لها . ثم تتقدم بشكوى وفي الشكوى شهود من الرجال ثم تبكى وتثير شفقة الآخرين عليها . ولكن المرأة لاتوضح قضيتها . ولا تعرضها بصورة تقنع المرأة أولا ثم تقنع الرجل أن هذا لم يحدث إلا نادرا .. ومن الحالات النادرة لذلك كتاب « الجنس الثاني » بجزأيه للأديبة الفرنسية سيمون دي بوفوار . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد صدر من حوالى عشرين عاما ، فإنه مايزال الكتاب رقم واحد في تاريخ المرأة الحديثة . فالأديبة الفرنسية لاتعرض قضية فقط . إنها تعرضها وتلطف عنها . وتتلقت إلى

الحضور فإذا بهم يتحولون إلى شهود اثبات أما القضاة فقد ألقوا عليها بالورود ..
وفي نهاية الجزء الثاني يصدر الحكم لصالح المرأة منتهى الأدب من الرجال .
وأعظم تحية للأدب والفكر الجميل .

ولاتزال قضية المرأة بكل ملفاتها ودوسيتها وحديثاتها معروضة . حتى المؤلفة
الفرنسية نفسها لم تشأ أن تتزوج ، وتخضع بذلك لتقاليد المجتمع التي ترفضها ..
وعلى الرغم من حرصها على ذلك واعتزازها بهذا الموقف ، فإنها عندما تلتفت
وراءها تجد أن الطابور الذي وقفت على رأسه له رأس وليس له ذيل .. فهي
وحدها التي قررت أن تحرر نفسها من قيود الزوج .. لا من قيود الرجل ..

ولا يزال كتابها « الجنس الثاني » هو أروع ما كتبه امرأة عن امرأة .. في كل
تاريخ المرأة ، الخادمة والعاملة والمتمردة .

المحبون ليس لهم قوام مشدود

- ٢ -

هناك أسطورة يونانية قديمة تقول : إن الآلهة خلقت ثلاث أنواع من الكائنات : الرجل والمرأة و « الخنثى » - أى التى تجمع صفات الرجل والمرأة معا .. و خلقت الآلهة لكل واحد من هذه الكائنات رأسين وأربع أذرع وأربع سيقان . ثم شطرت كل كائن منهما قسمين .. ثم « لخبطت » هذه الأطراف وبعثتها .

ومنذ ذلك اليوم يحاول كل كائن أن يبحث عن النصف الآخر . وهذا البحث ليس عقليا ، وإنما هو بحث عاطفى حار ملتهب مضطرب ومن النادر أن يجد الإنسان نصفه الآخر وإنما يجد فى كثير من الأحيان نصفا « آخر » .. وليس نصفه « الآخر » .. ولذلك يتعذب الناس فى الحب وبالحب وبسبب الحب . ويتساءلون من أوف السنين إن كانت هناك طرق أخرى يعثر بها الإنسان على النصف المناسب له .. عن النصف المكمل له ..

وهذه الأسطورة إهانة للمرأة .. إهانة قديمة . لأن الرجال هم الذين يشكون عادة من أنهم لم يجدوا النصف المناسب . ولأن الرجال هم الذين يقولون ويحكمون ويعلمون .. لأن صوتهم هو المسموع دائما . ولكن أحدا لم يسأل المرأة إن كانت قد وجدت نصفها الآخر ؟ .

ومن المؤكد أن للمرأة شكوى مماثلة ولكنها ليست مسموعة لا لأن المرأة لا تقول . ولكن لأنها تقول .. أما الذين يسمعونها فلا يرددون شكواها .. وإنما يكتبون فقط بسماعها .. واستنكارها أى القضاء عليها فى حينها . والمرأة هى التى تشجع الرجل على ذلك . إذ يكفى أن يقبلها فتموت بين الشفاه وعلى الشفاه أعظم شكايات المرأة وأوجاعها .

وأسطورة أخرى عن خلق المرأة لاتقل اهانة وهوانا للمرأة .. يقال إن آلهة الاغريق عندما خلقوا أول « حواء » جعلوها من الطين . ثم عرضوها على الآلهة واحدا واحدا . فأعطاه كل واحد منهم موهبة : الجمال والدلال والسحر والفصاحة والرشاقة والأناقة والخبث ..

ولم يكن الآلهة مشغولين بخلق حواء وإنما كانوا يريدون أن ينتقموا من أحد الآلهة فأرسلوها إليه . ولكنه كان يشك فى زملائه الآلهة . فرفضها . وأرسلتها الآلهة إلى أخيه . وتزوجها . وكان الآلهة قد أهدها صندوقا نادرا . ووضعوا فى هذا الصندوق كل شرور الإنسانية : المرض والفقر والجهل واليأس . وجاءت حواء وقدمت هذا الصندوق لزوجها الذى أعجب بها وأحبها . وفتح الصندوق وخرجت كل الشرور . ولكنه أقفل الصندوق فى آخر لحظة .. أقفل الصندوق على شيء : الأمل .. الأمل فى القضاء على الفقر والجهل والمرض واليأس .. والقضاء على حواء أيضا ..

وحواء هذه اهانة لحواء نفسها . فقد خلقتها الآلهة مجردة من كل صفة وتصدقوا عليها بالصفات ثم وضعوا فى يديها كل الشرور . وقدمت هذه الشرور للرجل الذى تزوجها .. فحواء بهذه الصورة مقلب .. أو مصيدة لمن يجربها .. ولن لا يجربها أيضا .

ولم يتغير هذا المعنى منذ آلاف السنين ، وحتى إذا تغيرت أقلام الأدباء

والمفكرين ، يظل هذا المعنى هو اللون الواحد الثابت في أشعارهم ورواياتهم .

وفي الأدب العالمي ، وفي كل أدب ، أمثلة كثيرة للمفكرين الذين فرضوا على الرجال وعلى النساء فلسفتهم الخاصة .. رأيهم في المرأة التي تصوروها . وأثروا بذلك في كل الصور والأحلام التي عاشت في عقول الملايين بعد ذلك ..

واحد من بين هؤلاء المفكرين : الأديب المعاصر مونترلان . إنه نموذج غريب عنيف لأعدى أعداء المرأة . وعنده أسباب وجيهة لأن يكره المرأة في صورتين : الأم والعشيقة .

هذا الرجل - يؤكد أنه رجل إلى حد ما - يرى أن المرأة باختصار شديد : ليل وفوضى . أو فوضى الليل . أو ليالي الفوضى .

فليس صحيحا أن المرأة تحب النظام . وإنما تحب النظام والدقة والنظافة من أجل أن تعجب شخصا أو إنسانا يهتما فقط . ولو تركت وحدها لمزقت ثيابها ونكشت شعرها وتركت أظافرها صفراء وأسنانها أيضا .

أما في الليل فهي إحدى متوحشات الليل . والليل يهتما جدا لأنه يساعدها على القيام بدور حيوان متوحش يمتص الرجال . وهي عندما تفعل ذلك تكون في أكمل صورة للأنوثة عندما توهمك بأنها تعطيك ، مع أنها في الحقيقة تأخذ منك أكثر .

ولاشك أن غباوة الرجل هي التي جعلت للمرأة قيمة خاصة . وغباوته هي التي جعلته يقول عن المرأة : أنها مرهفة الحس . إن لها حاسة سادسة . ذكية . تفهمها وهي طائفة . وقبل أن تطير أيضا . مع أنه من الأصح أن يقال إن المرأة لامنطق لها . وإنما جاهلة . وعنيدة .. وليست لديها قدرة على الملاحظة . وعلى

تعمق ما تراه أو تحسه . وليس لدى المرأة ما تعطيه للرجل بصدق وإخلاص ..
سوى الألم .

ولابد أن يكون حب الأم لأولادها أحد أسباب تعويق تطورهم وتقديمهم في
هذه الحياة . فالأم تمسك أولادها وتشدهم إليها حتى لا يبعدوا عنها : أم لا تريد
لأولادها أن يكبروا .. وأن يعملوا من أجل المجتمع . أو لأن يعملوا لغيرها من
الناس . والأم التي يطلب منها ابنها أن يشترك في لعبة رياضية وتمنعه ، هي لا تريد
له الصحة الجسمية أو النفسية ليظل معتمدا عليها . مستنلا إليها .

وأسوأ من هذه الأم امرأة أخرى هي : العشيقة . فالعشيقة لا تريد من الرجل
سوى الرجل . فقط الرجل . حياته .. بل حيويته لا تحب أن يكون رجلا عظيما .
وإنما رجل فقط . وإذا كانت المرأة هي وسيلة الحياة نفسها لكي تستمر . فإن
العشيقة هي الحياة نفسها وقد قررت ألا تستمر . فقط حياة مهتزة مضطربة دون أن
تكون لها ثمرة . معظم العشيقات يفضلن ألا يكون لهن أولاد .. أى يفضلن أن
تتوقف عندهن وفيهن الحياة فقط . والعشيقات يفضلن أيضا أن يكون العشيقي
نهاية حياة . لحياته هو يسبح في اللذة حتى يغرق . موجة تدوب في موجة . وتجيء
بعدها موجة أخرى لرجل آخر .

ولا يستريح الأديب مونترلان إلى عبارة قالتها أرملة تولستوى : عشت فيه من
أجله ، وأريده كذلك - إنها تريد أن تقول إنها أفنت حياتها من أجل تولستوى
فأنجبت له ١٣ ولدا .. ولكن الحقيقة غير ذلك . لعل تولستوى لا يعطى أرضه
للفلاحين ويتركها لأولاده . ولعله يحمل معها هموم تربية الأطفال وينصرف عن
الأدب . وتنصرف عنه المعجبات .. أو لعله يمرض فيلتف حوله أولاده ، فيعرف
أن زوجته قد خلقت له أصدق جمهور في أضييق نطاق .. فليس صحيحا أنها
عاشت فيه ، وإنما الصحيح أنها عاشت به أملا في أن تقضى عليه . فالزواج قاتل

للعبقرية .. لأنه يقضى على « العزلة الرائعة » للأبطال . فالعزلة ضرورية للمفكر .
ولا شيء يفسدها أكثر من زوجة . لأنها تقضى على حرите .. حرته في أن يعمل
أى شيء . أو لا يعمل أى شيء .

والأديب مونترلان يقول عن نفسه : كنت مشتغلا .. فأخمدتني . كنت أمشي
على الماء فأغرقتني . إن الأسد العظيم يخاف من ذبابة لأنها أنثى - ومعه حق ! .
إلى آخر عشرات المثات من الصفحات التي كتبها الأديب مونترلان عن هذه
المرأة .

وخلاصة فلسفته : أن الرجل من حقه أن يتعالى ويسمو . أما المرأة فليست لها
موهبة خاصة . وإذا كانت ضرورية ، فهناك أشياء كثيرة ضرورية . ولكن ليس
معنى ذلك أن ترقى إلى مستوى الرجل . فالرجل ليس أحد في مستواه غير الرجل .
والرجل على مائدة المرأة يجد أمامه طعاما واحدا عليه أن يأكله بشهية مفتوحة :
احتقاره لها .

ولكن إذا كانت المرأة بهذه الصفات أو بلا صفات ، فكيف أصبحت لها كل
هذه القوة ؟ كيف تسلطت على أفكار مثل هذا الرجل ؟ وإذا كانت المرأة تافهة ،
فلماذا كل هذا الاهتمام كأنها شيء لا يمكن الاستغناء عنه ؟ وإذا كانت ذبابة ، فلماذا
يخاف منها الأسد ؟ هل هو أضعف من ذبابة وهي أقوى من أسد ؟ .

لا بد أن يكون هناك عيب في فكر الأديب مونترلان . وهناك عيوب بالفعل .
فهو يرى أن الرجولة في ذاتها ميزة كبرى . ولأنه رجل فهو قوى . عضلاته
وذكاؤه . وله مستقبل وله ماض . ولكن يمكن أن يقال إن الأنوثة نفسها ميزة .
وقوة . وهو أول من يقول إن الأنوثة قوة . وهو يكره الأنوثة لأن الإنسان يكره
القوى . ولا يحب الذي يخيفه . والمرأة تخيفه لأنها تهدد كيانه : رجولته وحرته .

وهو لا يمشى على الماء كما يقول . ولكنه يتخيل ذلك . وهو يفضل أن يتخيل المشى على الماء . ولا يفكر فى المشى على الأرض . لأن المشى على الأرض أصعب . وهو كذلك يتخيل المرأة فى أسوأ حالتها . ويعاقبها فى خياله . فى رواياته .. وهذا أهون وأسهل من أن يعايش المرأة أو يرتبط بها . فى روايات مونترلان نجد أن المرأة العاملة مهلهلة الثياب ، منكوشة الشعر ، طويلة الأظافر واللسان معا . جاهلة فقيرة . والمرأة بهذه الصورة تجعل الرجل ينفر منها . فكأن مونترلان يريد أن يعاقب المرأة لأنها تحاول أن تعمل . تحاول أن تكون شيئا آخر غير مجرد أنثى . فهو يجعلها فقيرة لكى تضعف أمام المال .. ويلعنها .. ويجعلها سيئة المظهر لكى تفكر فى الفساتين ، فإذا حصلت عليها من رجل غنى ، لعنها .. ويجعلها جاهلة حتى إذا أرادت أن تكون شيئا وقف الجهل فى طريقها . وفى هذه الحالة يتهمها بأنها أوزة تريد أن تكون صقرا - مع أنه هو الذى جعل ريشها قصيرا وجسمها كبيرا .

إنه - إذن - قرر أن يلعنها . ولذلك اختار الأسباب الوجيبة لذلك . وليس مخطئا إذا وصفها بعد ذلك بقوله : إنها فشلت فى أن تكون رجلا .

والرد على ذلك : إنه هو فشل فى أن يجعلها امرأة ..

وهو مثل كثير من الرجال ينظرون إلى المرأة على أنها : جسد . متعة . أنثى . مثل كل نساء « ألف ليلة وليلة » وهى تنشده الجسم والجنس . فصراحة الفتاة الراعية شولوميت فى سفر « نشيد الأناشيد » .. وهو يصف لنا فتاة عربية اسمها راضية بأنها : حيوان الحب الهادئ الذى يعب المال ويلتهم الحيوية . إن مونترلان هذا نموذج للرجل الذى يريد أن يأخذ بلا مجهود والذى لا يريد أن يقول إن هذا الذى أخذه ضرورى . وإنه لم يأخذ وإنما هو أعطى . وحتى إذا أخذ ، فهو قد تفضل على المرأة بذلك . إنه يجب أن يقوم بدور « الأمير المتوحش » .. يلتهم المرأة ويجردها من كرامة الأنثى و ينتظر من المرأة أن تشكره على

ذلك .. لأنه بعد أن انتهى من مهمته المتوحشة ، جلس على عرش الملك .. وأمام الملك يجب أن تنحني المرأة بشرط أن تنسى أنه هو نفس الحيوان المتوحش قبل ذلك بساعة أو ساعات .

ولابد أن تكون هذه القصة التي يرويها مونترلان عن نفسه صحيحة . ولها دلالة واضحة . يقول إنه وهو طفل كان يأتي بكوب الماء ثم يلتقي به على النمل . وكان يجد متعة هائلة في ذلك .. فهو في استطاعته أن يميت النمل غرقا . وفي استطاعته أن يعطيه الحياة ولا يوجد أى منطق لذلك .. إنها ارادته . أو هي نزواته ..

ويبدو أن الذى كان يفعله مع النمل هو بالضبط ما يفعله مع المرأة . يهبها الحياة والكرامة . ويغرقها في العار إذا أراد - وهذا صحيح .. ولكن من هي هذه المرأة التي يجيئها ويميتها؟ إنها المرأة التي في خياله . المرأة التي في رواياته فقط . وهو - ككل إنسان - ملك إذا جلس وحده . ولكنه ليس كذلك إذا انفتح الباب ودخل إلى غرفته ألف رجل أو ألف امرأة .. أو إذا هو نزل إلى المجتمع ولذلك فهذا الأديب قد حبس نفسه في نفسه .. أو في غرفة من المرايا .. لا يرى إلا نفسه . مالا نهاية له من المرات .. فهو وحده لاشريك له .. من النساء أو من الرجال .. بل إن روايات مونترلان ليس فيها رجال يقفون وجها لوجه .. لا صراع .. لا معركة بين الرجال وإنما فقط : الكثير من التعالي والاحتقار للمرأة ..

وهذا الاسراف في التعالي ، هو اسراف في الخوف من المرأة . أو الخوف من قوة المرأة . أو من ضعفه أمام المرأة . ولذلك هو يكره ما يخيفه .. وبدلا من أن يحتقر ضعفه أمامها .. يحتقر قوتها .. إن نظرتة إلى المرأة كنتظرتنا لإنسان في يده مسدس .. ويهددنا بإطلاق الرصاص . إن أحدا لا يستطيع أن يقصد المسدس ولا أن يبارك البارود في هذه اللحظة .

ومع أن المرأة ، حياة وخيالا . يصف مونترلان نفسه قائلا : أنا ثور يدور في ساقية شرقية .. أدور وأدوخ وأخطو على خطواتي .. ولا أرفع ماء جديدا إلى سطح الأرض .

ولابد أن هذه الصورة قد اسعدت المرأة ، فلم تشأ أن ترثي لحاله ولا أن تناقشه .. واكتفت بأن نظرت إلى هذه النهاية التي اختارها لنفسه : بأن يكون ثورا في ساقية المرأة .

وهناك نموذج آخر للمفكرين في العالم : الأديب الفرنسي استندال . إنه واقعي . ولكن الواقع جميل . وإذا لم نر الواقع جميلا . فأين نجد الجمال .. إن الذي يجب هو وحده القادر على أن يتذوق الجمال ويبحث عنه .. ولا جمال بلا سعادة . بل إن السعادة نفسها قبة من قمم الجمال . فالذي يجب .. هو الذي يهزه جمال الجسم وجمال الأثم .. وهو الذي يبحث عن سعادة تذيبه وهو الجمال في إطار واحد أو فراش واحد ..

واستندال كان يحلم بأن تحبه - ولو مرة واحدة - فتاة جميلة .. تائهة ضائعة تعيسة . ثم يتشلها .. ويرفعها .. ويحبها .. ويكون حبه لها نوعا من الاعتراف بالجمال . ويكون حبه له نوعا من العرفان بالجميل . والسعادة هي عناق الجمال والجميل .

وفي إحدى المرات عندما ذهب استندال إلى البحر اكتشف نفسه . وعرف كلمة السرف في هذا الكون ، يقول : رأيت الصخور عارية كفتاة جميلة .. ورأيت الماء يضرها . كأنه لص يستدرجها إلى كهف بعيد ورأيت الشمس من وراء السحاب سعيدة بذلك .. وتمنيت أن أكون الماء والرمل تحت الصخور والشمس أيضا .

اكتشف استندال أن المرأة هي العالم . هي الدنيا .. وأنه بها وعن طريقها ومن أجلها يدرك جمال الدنيا .. وروعة الحياة .. وأمام المرأة يجب الإنسان أن يكون رقيقا . لأن الرقة لغتها .. ويجب أن يكون أنيقا .. لأن الأناقة أسلوبها ..

ولكن هذا الرجل العاشق للمرأة لا يؤمن بأنوثة المرأة .. ولا سحرها .. وإنما هو يحب المرأة كما هي .. كائن حي مختلف عنا . ولكنه جميل .. ويملك مفاتيح المشاعر القوية الموجودة في الرجل .. والمرأة ليست لغزا .. وإنما يجب أن نجها كما هي .. وإذا أتينا برجل قروى وجعلناه يمشى في شوارع المدينة كل يوم .. فهو معذور إذا تصور أن الشوارع مرصوفة بطبيعتها .. وهو معذور إذا رأى أشجار الحدائق مهذبة .. فاستنتج أن الأشجار في المدن تنمو مهذبة .. مع أن الحقيقة غير ذلك .. فالساذج هو الذي يتصور أن المرأة رقيقة كما نراها في بعض الأحيان .. أنيقة دائما . مهذبة دائما .. إن المرأة كالرجل مهذبة أحيانا .. أنيقة أحيانا .. وأنها حريصة على أن تكون جميلة .. ونحن حريصون على أن نكون أذكاء .

فليست المرأة ساحرة باهرة محيرة دائما .. وإنما هي أحيانا كذلك ونحن أيضا .

والمرأة ليست في حاجة إلى العقل – هذا ما نقوله – ولكن المرأة معذورة في ذلك لأنها لا تقوم بأعمال كبرى تحتاج إلى مسئوليات ضخمة : ولكن إذا كانت أهم الأعمال أن تظل طوال اليوم أمام المرأة أو تتحدث إلى جاراتها .. أو تروى قصص أطفالها .. أو كوارث زوجها .. فإنها لا تحتاج إلى أكثر من لسان وأذنين ..

ولكن من الذى نلومه ؟ إننا يجب أن نلوم أسلوب التربية والتعليم الذى يجعل المرأة تافهة في دنيا الرجل .. فالذى تتعلمه المرأة هو تمجيد مستمر للرجل .. وتأکید لأنها بلا عبقرية .. وإذا ظهرت لها عبقرية فشيء نادر .. لأن المرأة ممنوعة من التعبير كما تحب .. فلا يزال الرجل هو الذى يحتكر التعبير إذا كانت المرأة هي مصدره ..

ولذلك ليس غريبا أن المرأة إذا كبرت طال شعرها وأظافرها ولسانها وقصر ريشها وطموحها .

ولو أننا نظرنا إلى الأطفال لوجدناها في سن العاشرة أذكى من الرجل في هذه السن .. ولكن في العشرين نجدها تخاف من الصرصار ونجد الولد مثلها أيضا .. ولكن الطريق مفتوح أمامه .. وعلى بابه تقف عربة يجرها حصان المستقبل .. أما عربة المرأة فهي عادة تنتظر الحصان الذى هو الزوج دائما ..

وكثيرا ما يكون الحصان من اختيار والدها .. ومعنى ذلك أن المرأة تعيش مع رجل رغم ارادتها واحساسها .. وبعد ذلك مطلوب من هذه المرأة التى لاتعرف الحرية أن تعلم أبناءها معنى الحرية وقداسة الحرية .. وتقديس الرجل الذى هو قاهرها وكاسرها . فى بيت أبيها وفى بيت الزوجية ..

إنك فى حاجة إلى تجربة صغيرة لتعرف ما الذى تفعله المرأة فى حياتنا .. دون أن نحتاج إلى أن نصفها بالسحر .. إن المرأة عندما تدخل فى حياتنا تجعلنا نهتم بكل ما هو رقيق .. وما هو جميل .. ونهتم بالألوان والعطور .. ونهتم بالزمن .. وبمظهرنا ومستقبلنا .. فما الذى حدث ؟ ان المرأة تثير الحب .. والحب يثير فينا الاحساس بالحياة .. ويدفعنا من الحياة وحدنا إلى الحياة معا . والحياة معا رغبة عميقة فى نفوسنا .. ولكننا ننجل منها .. لأننا تصورنا دائما أن الاستقلال معناه : ألا يعتمد الإنسان على أحد . ولكن كيف يعيش الإنسان دون حاجة إلى أحد .. إن الاستقلال هو أن نكون أحرارا فى الاعتماد على من نحب .. والذى يمشى على ساق واحدة يعرج .

والذى يمشى على ساقين لا يمكن أن يقال إنه ليس مستقلا .. وإنما يقال هو مستقل تماما لأنه يعتمد على ذراعيه وساقيه وعينيه وأذنيه .. على نصفيه : الرجل والمرأة .

وإذا كان مونترلان عندما ينظر إلى اثنين من المحبين يمشيان في الطريق يصفق سعيدا لأنه اكتشف حقيقة المرأة في حياة الرجل . فإن استندال يصفق أيضا لأنه اكتشف في هذا المشهد شيئا آخر .. إن مونترلان يقول : إن الرجل إذا مشى إلى جوار المرأة وتعلقت هي بذراعه فمن الصعب أن يكون مشدود القوام .. إنه ينحني قليلا .. وفي ذلك دليل على أن المرأة تحنى الرجل وتكسر ظهره أولا بأول .

ولكن استندال يقول : بل إنها ينحنيان معا كل منهما للآخر .. والاثنان ينحنيان لشيء نبيل أعظم وأبقى منهما : لحكمة الحياة .. التي تبدأ بالحب وتنتهى بحياة جديدة ليبدأ حب جديد .. وإلى الأبد ١ .

ومن الذى يعجب الأطفال؟

- ٣ -

عندما اكتشف الفيلسوف اليونانى ديوجين أن الناس تحولوا إلى وحوش ، أمسك مصباحه وراح يبحث فى النهار عن إنسان . ولم يجد الإنسان .. ولما رأى سفالة الأبناء والبنات أمسك مصباحه وراح يبحث فى ضوء النهار أيضا عن أب . ولم يجد الأب . وفى يوم سمع طفلا يحلف بالله العظيم ثلاثا أن يقول الحق .. فاقترب منه وسأله عن أبيه .. وأشار الطفل إلى أبيه فانهال الفيلسوف ضربا على الأب وهو يقول : أنت كذاب وتعلم ابنك أن يكذب أيضا .

والفيلسوف على حق ، فالآباء والأمهات هم الذين يعلمون الطفل أن يكذب وأن يقول الحق .

بل المجتمع كله الذى يعلم الطفل أنه ذكر وأنه أفضل ، ويعلم الطفلة أنها أنثى وأنها دون ذلك . فالطفلة لا تولد امرأة ، وإنما تصبح امرأة . ولا يوجد أى فارق جسمى أو وظيفى أو نفسى بين جميع الأطفال الذكور والإناث .

ولو قدر لطفلة أنثى أن تعيش وحدها فإنها لن تشعر بأنها أقل من طفل ذكر وإنما هى كائن حى ، وأنها إنسان ، وكل الأطفال لهم نفس المواقف فى حياتهم : يجدون متعة فى الرضاعة .. وراحة فى الحضانة ، ويجدون لذة فى التبرز ، ثم إن

كل طفل يدرك العالم عن طريق جسمه ، فجسمه هو وسيلته الوحيدة إلى الدنيا : يراه بعينه ويلمسه بيديه ويسمعه بأذنيه . والطفل يستطلع جسمه بلذة ودهشة وإذا كان هناك شيء يثيره جنسيا فلامسته لجسم أمه : الناعم الطرى والطفلة أيضا : تحب القبلات واللمسات وتمسح في أمها . وكل الأطفال يشعرون بالغيرة بنفس الدرجة فيكون الغضب وتكون لهم مصاعب في التبول ، ثم انهم جميعا يحاولون كسب عطف الأم .

وحتى سن الثانية عشرة فإننا نجد الفتاة في قوة الفتى ، الجسمية والعقلية . ولا يوجد أى شيء يمنعها من منافسته وإذا بدت لنا الفتاة في مرحلة المراهقة أو قبلها ، قد تحدد جنسها بوضوح فليس سبب ذلك أن شيئا سحريا قد حدث في جسمها ، وإنما الذى حدث هو أن الآخرين قد نهوها إلى ذلك والآخرون هم الأم والأب والأخوة والمجتمع كله يقول للفتاة : أنت بنت أما هو فولد .

ومعنى ذلك أن الأنوثة يفرسها الآخرون في الفتاة في سن مبكرة جدا ..

والطفل - ذكرا أو أنثى - يعيش في (حضن) كبير : . حضن الأسرة وحضن الأم في دفء وحنان ولا يستطيع الطفل أن ينفصل عن هذا الحضن . وحتى عندما يحاول الطفل أن ينفصل عن هذا الحضن خصوصا في الشهر السادس نجده يحاول أن يعود إليه ، ففي هذا الشهر السادس يميز الطفل بين نفسه وبين غيره ، وبذلك يحاول أن يجذب إليه الآخرون .. بحركاته وضحكاته وهنا فقط ينحنى عليه العالم الخارجى .. وكلما اهتم به الآخرون تحول الطفل الصغير إلى بهلوان : تضحك له الأسرة كلها . وبذلك يصبح للبهلوان الصغير جمهور احضان كثيرة تحرص عليه وتدنو منه وبذلك ينجح الطفل في أن يظل فترة أطول في حضن الجميع .

وكل مشاكل الطفل - ذكرا أو أنثى - تبدأ في هذه المرحلة : مرحلة الرضاعة

والفطام ، والرضاعة هي الاتصال الحيوى بالآخرين والفطام بداية الانفصال عن الآخرين . وهي مرحلة دقيقة جدا .

ولاشك أن الإنسان يخاف من العزلة يخاف أن يكون وحده . ولا يمكن أن ينظر الإنسان إلى عزلته بلا قلق أو فزع . وربما كان حرص الإنسان على أن يعود إلى احضان الآخرين هو الذى يدفعه : إلى النوم والاشتياق والموت والجنون أيضا .

ولكن عندما تتجه إلى الطفل (نظرات) الآخرين يدرك أنه إنسان آخر .. أنه بعيد .. أنه (موضع نظر) .. وأنه لذلك مختلف عن غيره .. متميز .. ويجد نفسه مرة أخرى عندما يقلد والديه .. يرتبط بهما .. ويرتبطان به .. والطفل لا يجد نفسه ولا يشعر بوجوده إلا عندما ينظر إليه الآخرون .

ومن الغريب أن الطفل هنا يتخذ موقفين : فهو يرفض الانفصال ولذلك يسارع بالعودة إلى حضن الأم والتمسك به .. وفى نفس الوقت يحاول إرضاء الآخرين ، وإرضاء الآخرين هو نوع من الامتتان الطبيعى للذين يعطونه الاحساس بوجوده لأنهم نظروا إليه . وتحدثوا إليه .. وداعبوه .. وهو ينظر إلى الآخرين على أنهم أقوى منه .. على أنهم قوة كبرى لأن مجرد نظراتهم إليه تمنحه الوجود ، وهم يصفونه أحيانا بأنه ملاك طاهر أو شيطان رجيم . فإذا أثار الطفل اهتمام الآخرين لقي منهم الشكر على ذلك بالقبلات ، ومعنى ذلك أن الطفل فى هذه المرحلة المبكرة يعيش فى حالة سلبية سعيدة بين أحضان الأم .

ولافرق بين سلوك كل الأطفال فى السنوات الثلاث الأولى ، فهم جميعا حريصون على إرضاء الكبار وإضحاحهم وحريصون أيضا على أن ينالوا إعجاب الجميع ..

وكلما كبر الطفل أحس الآباء أنه لم يعد شيئا ممتعا ، وإنما هو كائن متعب ، ويقولون له ذلك ، وكثير من الأطفال لا يحبون أن يكبروا بل يرون أن عالم الكبار

يخيف ، والأديب التشيكي كافكا كان يقول : كلما كبرت كبرت مخاوفي أيضا ،
وعندما كنت صغيرا كان أبي أكبر من كل المخاوف والهموم .

ولذلك يخاف الأطفال أن يكبروا لأنهم لن يجدوا حنان الأب ، بل يخشى
الأطفال أن يناموا وحدهم ، ويدرك الأطفال أن الابتعاد عن صدر الأم يجعلهم
يشعرون بقسوة العزلة والانفصال . وهو شعور لا يمكن أن يعانيه الإنسان بلا قلق .

هنا فقط تشعر الأنثى بأنها أحسن حالا ، لأن الطفل الذكر يصاب بفطام
آخر .. وهو الابتعاد عن حضن الأم الذي يجعله يشعر بقسوة العزلة عن قبلات
الآخرين بالتدريج ، أما الطفلة فتظل تتلقى القبلات مدى حياتها ، ويجلسها أبوها
على حجره ويلعب في شعرها . ودموعها مقبولة ، والكبار يبديون إعجابهم
بدلالها ، وهذا الحنان يعفيها من القلق .. أما الطفل الذكر فممنوع من الدلع
والبكاء ، ويقال له دائما : أنت رجل .. يجب ألا يقبلك أحد .. الرجل لا يقف
أمام المرأة .. الرجل لا يبكي .. أنت رجل صغير الآن ..

ويجب أن يكون الطفل الذكر ذا شخصية مستقلة حتى عن الرجال ، وإذا
كان يسعد الآخرين بلعبه وهو صغير ، فليس من الضروري أن يسعد الآخرين على
حساب شخصيته ورجولته يجب أن يكون مختلفا حتى عن الرجال .

وهذا العالم الغريب الذي يدخله الطفل عندما يستقل عن الأم يخيف
الأطفال ، واكثرهم يتمنى لو كان بنتا . وبعض الأطفال يبكي عندما يخلعون عنه
ملابس الفتيات ويحشرونه في البنطلونات .. ويقصون شعره . وبعض الأطفال
يرفضون الانتقال إلى الجنس الآخر هذا الرفض إذا استمر طويلا كان بداية
الشذوذ الجنسي ، أى التعلق بنفس الجنس .

يقول الأديب موريس ساكس عن نفسه : كم تمنيت أن أكون بنتا .
ورفضت أن أكون ذكرا لدرجة أنني كنت أتبول وأنا جالس .

وإذا كان الطفل الذكر لا يلقى من العناية ما تلقاه الطفلة ، فلأن الأسرة والمجتمع يدخر له مزايا أخرى كثيرة .

ففي سن صغيرة جدا نجد أن الأم تنظر إلى ابنها نظرة فيها تقدير زائد وهذه النظرة هي بالضبط نظرة الأم إلى زوجها وأبيها وأخيها .. وفي سن مبكرة يشعر الطفل أن لديه شيئا (أزيد) من الطفلة ، يكفي أنه يستطيع أن يتبول وهو واقف - وهناك نظريات لكبار علماء النفس في تفسير هذه المقدرة عند الطفل الذكر ، وتعميقها وجعلها الأساس لكل الخلافات النفسية والاجتماعية والتاريخية عند الرجل والمرأة.. أما الذي تطلبه الأم من الطفلة الأنثى فهو فقط أن تغطي نفسها تلمس جسمها .. وتذكر الطفلة الصغيرة أنها (دون) أخيها الطفل الذكر ، وتذكر الطفلة الصغيرة أنها لكي تتبول يجب أن تجلس وأن تغطي وأن تتواري .. وهذا كله يجعلها تشعر بالخجل من نفسها ومن هذا الخلف الغريب الذي بينها وبين أخيها الذكر .. وفي كثير من الأحيان تفاجأ الطفلة بأنها بلت نفسها ، إذا ماضحكت بشدة ، وكل هذا يضاعف خجلها .. ويعمق شعورها بالنقص .. وبعض النساء يجدن لذة في رى الحداثق بخرطوم المياه .. وليس من الضروري أن تكون لهذه اللذة أى تفسير جنسى .

وإنما تفسيرها أن اندفاع الماء إلى أعلى هو نوع من اللعب بقانون الجاذبية .. أو نوع من الانتصار الصغير على قوانين الطبيعة التي تحتم أن يهبط الماء إلى الأرض ، بدلا من أن يندفع إلى أعلى .

ولهذا الشعور بالنقص عند الفتاة الصغيرة يعطونها (العروسة) كنوع من التعويض وهذه العروسة التي تلعب بها الطفلة هي نموذج لإنسان آخر ، تتحدث إليه الطفلة . وتداعبها وتأمرها وتضربها وترضعها وتنظر إليها الطفلة على أنها شيء رائع . وهنا تتدخل الأم لتقول لابنتها الصغيرة : يجب أن تكوني كهذه العروسة ..

جميلة ونظيفة - وسلبية أيضا . ومن المألوف في هذه السن أن نجد الطفلة تنظر إلى نفسها في المرآة وتقلد الأميرات والملكات .. والملائكة أيضا .

وتقول أديبة روسيا ماريا بشكرتسف عن نفسها عندما بلغت الخامسة من عمرها : ارتديت ملابس أمي ووضعت الزهور في شعري ، ورحت أرقص والأسرة كلها تتفرج على الابنة الصغيرة .

واهتمام الفتاة بنفسها سيلعب دورا عميقا بليغا في حياة المرأة بعد ذلك .

كما أن هذه السلبية التي تتصف بها الأنثى لم تولد معها ، وإنما غرست فيها عن طريق الأم والأخوات والحالات والعلماء .. أما الطفل الذكر فهو أكثر حركة ، وأكثر حرية ، فمن حقه أن يتشاجر ، يضرب وينضرب ، ومن حقه أن يتسلق الأشجار ، وأن يفخر بعضلاته ، وبجنسه ، ويتعلم كل دروس العنف ويغامر .. فعن طريق العمل يحقق الذكر وجوده ، فحياته هي عمله ، ورجولته هي عمله ، وعمله هو جوهر حرته ، وحرته هي طريق إيجابيته .

أما الطفلة الأنثى فهي شيء آخر منذ البداية . يعلمونها أنها لكي تدخل السرور على الآخرين يجب أن تبذل جهدا ، ولكي تسر الغير يجب أن تعطى نفسها للغير . يجب أن تبذل نفسها يجب أن تكون كالعروسة : جميلة ونظيفة وسلبية . ولكن الطفلة الأنثى ليست لها حرية ، ومطلوب منها ، رغم ذلك ، أن تؤكد وجودها ، مع أن الفتاة إذا أعطيت لها الحرية فإنها ستكون قادرة على العمل وعلى تحمل الصعاب كأي ولد ، وهذا يحدث فقط عندما تنشأ الطفلة في بيئة من الذكور . وهذا بالضبط ما يريد الأب أن يعلمه لابنته ، ولكن العادات والتقاليد ترفض إرادة الأب .

فالأم تحس أن ابنتها نسخة منها ، وهي لذلك تحبها وتضيق بها . تحبها لأنها مثلها ، أو صورة منها ، وتضيق بها لأنها نسخة أخرى من ضعفها . تماما كما يشعر

المقامر والنصاب والسكير أنهم جميعا من طينة واحدة وفي نفس الوقت يحتقرون هذه الطينة ولذلك فالأم عندما ترزق بطفلة فإنها بسرعة تدخلها في عالم المرأة : بالتربية والنصائح والتدبير ، لكي تكون أنثى ، فتعلمها الطبخ والحياطة والكنس والغسل وتمنعها من الرياضة العنيفة وتمنعها من المشاجرة مع الأولاد ، وتنصحها دائما : لا تكوني ولدا .. ولا تمشي كالبطة منفرجة الساقين .

أما الآن فقد أصبح من الطبيعي أن تدخل الفتاة المدرسة والجامعة وأن تعمل ، وأن تشارك في الرياضة أيضا . ولكن إذا لم تنجح فالمجتمع يغفر لها هذا الفشل ، وفي ذلك موافقة صريحة على أن النجاح للرجل فقط .

والطفلة مشغولة بداخلها ، مشغولة بجسمها ، وبطها ، وهي تتساءل من أين يجيء الأطفال ، ثم لاتصدق بعد ذلك أن الأطباء هم الذين يأتون بالأطفال في حقائبهم ، ولا تعرف الطفلة ماهو دور الأب بالضبط ، وكثيرا ماتتصور الطفلة أن أمها تحمل وتلد بسبب تناولها لبعض الأطعمة .

وانشغال الطفلة بأعمال البيت ، يجعلها تستشعر الهموم في سن مبكرة أى يجعلها تحس بأنها نوع من الرقيق وأن حياتها المقبلة سوف تكون عبثا بلا ملذات ، ولكن رغم ذلك فإن الطفلة أو الفتاة تشعر بأنها مثل الكبار وأنها تستطيع أن تتكلم مع أمها بدرجة متساوية . أما الابن فلا يعرف بالضبط ما هذا العمل الذي يؤديه أبوه ، فأبوه يقضى يومه خارج البيت . ولذلك فمن السهل أن تصبح الفتاة امرأة صغيرة ، وفي سن مبكرة ، ولأن الأنوثة نوع من الطفولة ، فالطفلة أنثى في كل سن . ولذلك تجد الفتاة الصغيرة أكثر فها لأشياء كثيرة في البيت ، ولذلك تحس بأنها أقوى من إخوتها الذكور وكثيرا ما تتعالى عليهم .

وعلى الرغم من كل هذه المزايا ، فان الفتاة لاتقبل مصيرها دون أسف على ذلك . وكلما كبرت حسدت الأولاد على قوتهم ، وكثيرا ما تسمع من والديها

أنهما كانا يفضلان أن تكون ولدا لا بنتا .. ولذلك يعاملان الذكور معاملة خاصة ، فلهم كل الحقوق . أما الفتيات فلا يلقين إلا القيود والسدود والاحتقار ، ويرفض الأبوان أن تشترك البنت في اللعب مع الأولاد ولا توجد أسباب واضحة عند البنت لهذا المنع الشديد ..

وفي المدارس المشتركة نجد أيضا شللا للذكور وأخرى للإناث .. وإذا حاولت فتاة أن تدافع عن حقها أمام الذكور ، فإن الناظرة تمنعها من ذلك والفتيات يحقدن على الفتيان مرتين .. مرة لأن لديهن الرغبة في عرض وفرض قوتهن على العالم ، ولأنهن في حالة احتجاج على هذا العجز والوضع المنحط الذى وجدت فيه الفتاة نفسها .

وبعض علماء النفس يفسرون رغبة الشبان الصغار في تسلق الأشجار بأن الذكر يريد أن يعلو ويتعالى .. وأن يكون فوق لينفوق .. وهذه رغبات عميقة عند الذكور .. أما الفتاة فإذا جلست عند جذر الشجر فمن المؤكد أنها سوف تشعر بأنها شيء آخر .. لا يعلو ولا يتعالى ولا ينفوق .. وإنما شاء المجتمع أن يجعلها تحت .. الخ ! .

ثم تدرك الفتاة شيئا آخر هاما وهو أن ارتباطها بالأم لا يعطيها الكثير من الانتصار على الولد ، وإذا كانت الفتاة قد قبلت أن تكون أنثى أول الأمر ، فلكى تتحكم في الرجل بعد ذلك . ولذلك فالفتاة تريد أن تكون أما - أى مثل أمها - لأن الأم أحسن حالا من الفتاة . وعندما تدرس الفتاة وتعلم وتعمل تتأكد الفتاة أن الرجال لا الأمهات ، هم الذين يحكمون العالم . وهنا فقط تغير الفتاة رأيها في أمها . وأن الأب إله - هذا هو شعور الطفل الصغير عندما يرفعه أبوه إلى أعلى بين ذراعيه ، ويظل هذا هو شعوره وقتا طويلا ، ولكن الطفلة ترى أن أباها له سلطة ، وأنه هو الذى يعمل خارج البيت ، وأنه هو الذى

يربط الأسرة بالعالم الخارجى ، وأنه مختلف ، وأنه أقوى .. وان الفتاة لاتستطيع أن تكون رجلا ..

هنا تسقط الأم من عرشها .. تماما كما اسقط الإله رع أيزيس عن عرشها .. ولكن إذا لم تفر الفتاة برضا أبيها وارتياحه فإنها تشعر بأنها مذنبه .. بأنها خارجة . منسقة .. ولكن فى نفس الوقت تبحث الفتاة عن بديل للأب .. عن شخص آخر . فإذا وجدت الشخص اتخذت من أبيها موقفا معاديا . فليس الأب وحده هو الذى يمسك مفتاح الحياة .. وإنما هناك رجال آخرون . بل كل الرجال الأخوة والأصدقاء والزملاء . والحياة اليومية تقول ذلك . والحياة اليومية من ألوف السنين اسمها التاريخ .. أعظم استعراض لعظمة الرجال وسفالتهم أيضا ..

والطفلة الصغيرة لا تولد أنثى ولا امرأة .. وإنما تولد عجينة .. والمجتمع هو الذى « يخبزها » رغيفا أو كعكة .. ويقول لها : أنت جنس آخر .. جنس ثان ..

أما الجنس الأول والأصيل فهو الرجل ..

إذا وجدت في الملة حبالاً فلا تخافى

- ٤ -

من الذى فعلها؟ اسم سلسلة من الحلقات فى الاذاعة والتلفزيون وكلها عن الجريمة . ويمكن استعارة هذا الاسم ليكون عنوانا لكل شىء فى عالم المرأة . ويكون الجواب واحدا فى جميع الحالات : إنه الرجل ا .

فى عالم الفتاة الصغيرة تجد كل شىء من صنع الرجل . فى الثقافة والأدب والأغاني . فالرجل هو الذى اكتشف وهو الذى اخترع وهو الذى حكم - وما يزال . وفى الأساطير لا نجد إلا بطولات الرجل وإلا غروره .

ومعنى ذلك أن الطفلة الصغيرة عندما كانت فى بطن أمها ، كان المجتمع قد أعد لها منظارا من صنع الرجل ، لترى به الدنيا ، ولتقرأ به ما كتب الرجل عن الرجل ، فكل الأنبياء والخلفاء وأبطال الأساطير من الرجال . وإذا ظهرت هناك امرأة مشهورة حرص الرجال على أن يجعلوا لها عيوباً صارخة لكي يشوهوا عظمتها فى عيون الرجال والنساء أيضا . فإذا ظهرت شجرة الدر أجلسوها على هرم من القباقيب : نصفه استخدمته فى قتل زوجها ، ونصفه الآخر دفنوها تحته . وإذا ظهرت كليوباترة جعلوها غانية فاجرة وإذا أرادت كليوباترة أن تتحرك كأبطال الرجال ، جعلوا موتها نوعا من الاستعراض الجنسى المثير.. حتى الملكة

حتشبسوت التي حكمت مصر اهتم المؤرخون بأنها أول امرأة صنعت لحية مستعارة في التاريخ - لقد حاولت أن تكون رجلا فاستعارت لحية رجل ، ويقال قطعة من جلد خروف مقدس .

وأكثر من ذلك فإن الرجال يصورون النساء العظيمات على أنهن غايات يتمددن في شمس رجل عظيم ، أي انهن يعشن على « فضلة » خير و « بقشيش » من عظمته .

حتى أمنا حواء لم يخلقها الله إلا لكي تكون في خدمة رجل ، ولا بد أن الحياة كانت قاسية على آدم وحده حتى ولو كان ذلك في الجنة ، ولذلك خرجت منه حواء .. وقيل في تفسير ذلك الكثير : قيل إنها خرجت من قلبه .. وقيل خرجت من عينيه .. وقيل إنها خرجت من ضلعه لكي تحطم الضلوع الباقية .. وقيل إنها خلقت لكي تظهر الخطيئة في الدنيا ويعاقب عليها آدم بالهبوط .. إلى الأرض وتحت الأرض ..

وأساطير الاغريق تقول بينا كان البطل بروفيسوس يحتج على الآلهة ويسرق منهم النار ليعطيها للإنسان ، كانت « بانديورا » تلعب في صندوقها ومن الصندوق خرجت شرور البشرية .. ليس كل الشرور ، فأعظم الشرور لم تخرج من الصندوق : حواء نفسها .. فهي الشر الأكبر الذي يطلق على الناس شرورا أخرى .. وهي أكبر من أن يحتويها صندوق ا .

والطفلة الصغيرة تقرأ في قصص المغامرات : أن الولد هو الذي يغامر ويقاوم ، ويصبر ، وينتصر ، وهو الذي يقوم بالرحلات في البحر والجبل والغابات ، فكل الأعمال يقوم بها الأطفال الذكور ، وليس على المرأة إلا أن تصفق للبطل .. أي هي التي تقف عند النهاية دائما ، ومطلوب منها أن تصفق ، وهو موقف سلبي ، حتى إذا كان ضروريا لرفع معنويات البطل فإنه موقف سلبي ،

وإذا قرأت الفتاة الصغيرة الصحف والمجلات وجدتها تتحدث عن الرجال أيضا ، فهم الذين يكتبون ، وهم الذين يحكمون .

ومعنى ذلك أن الرجل هو الذى يشغلها ويملاً خيالها .

وعلى الرغم من أن الفتاة أكثر تمسكا بالدين من الرجل فإن عالم الدين ملئ بالرجال أيضا ، فالله - سبحانه وتعالى - اسم مذكر ، والأنبياء كلهم من الرجال والخلفاء والصحابة والأولياء والقديسون حتى الملائكة الذين لا جنس لهم ، أسماؤهم رجال . والمرأة فى صلواتها تتوجه إلى الله ، وكأنها تتحدث إلى رجل ، والمرأة المتصوفة تخاطب الله وكأنها تخاطب معشوقا . ورابعة العدوية تقول : أحبك حبين : حب الهوى .. وحباً لأنك أهل لذلك .. وتقول : يا حبيبي خذنى إليك .. ضمنى إلى صدرك .. إلى جوارك .. لعل أفنى فيك .

والقديسة تريزة تقول : يا حبيبي .. يا أعز من أحب قلبي .. إلى متى تتركنى وحدى فى ليالى الشتاء .. من غير حنانك أموت .. ومن غير حرارتك أتجمد .. أريد أن أذوب فيك .. فأكون أنا وأنت ..

والأغنية المصرية تقول : ولا عارف بكره من امبارح ولا دقة قلبك من قلبي ..

وفاطمة بنت برى التى أحبت السيد البدوى كانت تقول له : ياسيدى ومولاي .. خذنى تراب نعليك .. وسعادتى فى ظلك .. ونعيمى فى عذابك .

وليس من الضرورى أن يكون هناك أى معنى جنسى فى هذه الدعوات الصوفية ، ولكن عن طريق الدين أيضا تتلقى الفتاة الصغيرة : عبادة الرجل .. عشق بطولته والاتجاه إليه دائما . وعن طريق الدين تتلقى أول طعم للقداسة .. لقداسة الرجل .. والرجال .

وكلما كبرت الفتاة عرفت شيئا آخر : لكى تكون سعيدة ، يجب أن يحبها هذا

المعشوق .. هذا المعبود أيضا ، ولكن إذا أحبته هي ، فهذا ضرورى وطبيعى ..
والسعادة تصبح كاملة إذا هو أحبها أيضا ، وإذا قدر للفتاة الصغيرة أن تختار بين
رجل تحبه ، ورجل يحبها ، فإنها تختار الرجل الذى تحبه هي .. وتصبح السعادة
كاملة إذا كان الحب من طرفين .

واعتادت الفتاة أن تكون هي «الجمال النائم» أى الجميلة التى تنتظر دائما .
ويجىء الفتى عبر الجبال والأهوال ، على حصان أبيض .. ومن نافذتها تطل على
رجولته وشهامته وعرقه ودموعه .. أما هي فمربوطة إلى شجرة الأسرة ، مشدودة
بسلاسل التقاليد والعادات ، وعلى الشاب من جديد أن يتعذب من أجلها لتصفق
له فى النهاية ، فقط تصفق .

والأغاني الأوربية تقول : فى يوم من الأيام .. بعد يوم .. بعد شهر .. بعد
سنة .. يجىء الأمير ويخطبنى .

والأغنية العربية تقول : خذنى لحنانك خذنى ..: عن الوجود وابدنى .. بعيد
لوحدينا .. بعيد أنا وأنت ..

ومطلوب من الفتاة الصغيرة ألا تضع وقتها فى الانتظار ، وإنما انتظارها يجب
أن يكون فى الاستعداد للقائه . وعلى المرأة أن تتسلح بكل ما أعطتها الطبيعة من
وسائل الاغراء ، ولذلك فالمرأة يجب أن تنتظر الرجل وهي جميلة ، وجالها هو
الذى يجذب الرجل ، يشد رمش عينه ويسحب رجليه ويفصل يديه عن ذراعيه
ليتقدم إليها خطوة ويخطفها . ومن هنا كان من الضرورى أن تهتم الفتاة بجسمها ،
فمن طريق جمالها تفوز بالرجل .. بأحسن الرجال الذين يبذلون كل ما يستطيعون
من أجل أن يفوزوا بها فى النهاية ..

والقصص والأفلام تحدثنا أن السعادة من نصيب الجميلات أما الدميات
فالويل لهن .

وتتعلم الفتاة أنه عن طريق الاستسلام للرجل تستطيع أن تكون أقوى منه . فالرجل يتعب من أجل أن يفوز بها ، فإذا فاز بها ضعف . وهنا يجب أن تأخذ المرأة الكرة من رجله وتسدها إلى الهدف : إن نابليون كان إذا تمدد على فراشه لا يقول لزوجته : لا . ولذلك كانت تطلب منه أن يحقق لها رغباتها ومؤامراتها وهو نائم في الفراش .. فالرجل عندما يحقق رغباته يضعف ، وهنا يجب أن تقوى المرأة . فقوتها عندما يضعف الرجل .

تقول كاتبة المذكرات الشهيرة مدام دي نواي : وأنا صغيرة أردت أن أخيف الرجال وأن أعذبهم وأن أجعلهم ينقدونني لموت في أحضانهم بعد ذلك .

وتقول مدام لوهاردان في مذكراتها : كنت أحبه .. وكنت أتخيله يضرني لأتفه الأسباب ، وعندما يحدثني يتولاني الفرع ، وعندما أخاف أقبل يديه وأطلب الرحمة ، وعندما يمزق قلبي وأحس أقصى العذاب أشعر أيضا بأسمى درجات السعادة : عندما يلتقي أقصى عذاب بأعمق لذة .

فالاستسلام هو سعادتها التامة في النهاية .

وعندما تبلغ الفتاة العاشرة من عمرها تحس أنها كبرت ، وأنها قادرة على الحب ، ولذلك تسوى شعرها . وتجميل وجهها وشفثها وحاجبيها ، وترتدى ملابس أمها . ولكنها في هذه السن لا تفكر في الجنس ، وإذا كانت الفتاة تشترك في اللعب مع الأولاد الذكور ، وخصوصا تلك المباريات التي تقتضي بفتيش الملابس ، فسبب ذلك أن لديها نوعا من الاستطلاع الجنسي .

وهناك لعبة مشهورة عند كل أطفال العالم : لعبة الدكتور والعروسة المريضة .. هذه اللعبة يقوم فيها الولد بدور الطبيب ويكشف على العروسة . ويقلبها ويتحسسها .. وليس هناك أي احساس جنسى عند الاثنتين ، ولكن لديها رغبة خفية في أن يلمس كل منها الآخر .. نوع من التعارف البريء .

والفتاة في هذه السن تحلم بشباب آخر أو برجل سواء كان له وجود حقيقي ، أو وجود في خيالها ، ولكنها لا تفكر في هؤلاء الأطفال الذكور الذين يلعبون معها .

وبعض الفتيات في هذه السن وبعدها تتمنى أن يكون حبيبها في خطر ، وتقوم هي بإنقاذه ، أو يصاب في حادث وتبكي من أجله .. أو حتى يموت لترتدى عليه ملابس الحداد طول عمرها . أو هكذا تتخيل .

وفي هذه السن أيضا تتمرد الفتاة على أمها ، لأنها لا تريد أن تكون مثل أمها مربوطة في البيت ، ست بيت ، محبوسة ، قعيدة . نهاية الخط . ثم إن الأم كثيرا ما تشكو من هذا المصير الأسود : أن تكون امرأة . ومن الغريب أن الأم تطلب من ابنتها أن تكون مثلها : امرأة ، وزوجة ، وأما ، وست بيت .. أما الابنة فإن تمردا يتخذ شكلا عمليا وذلك بأن تعجب بالمثلثات والراقصات والأديبات والرياضيات والمدرسات .. أى بهذا النوع من النساء اللاتي لا يجلسن في البيت ، واللاتي يعملن مثل الرجال .. أى اللاتي يختلفن تماما عن أمها ، وعن الصورة التي رسمتها الأم لابنتها . ولذلك نلاحظ أن الفتاة في هذه السن تحب الجلوس إلى الأولاد ، والاشتراك في المناقشات معهم ، وتقليدهم ، واستنكار الفتيات ، واحتقار الأنوثة ، وكرهية الزواج ، ولذلك تجد الفتيات الصغيرات يلعبن الألعاب العنيفة ، ويتسلقن الأشجار ، دون أن تهتم الفتاة الصغيرة بما يظهر من جسمها .. إلى أن ينهها أحد إلى ذلك .

فبعض الفتيات الصغيرات يرتدين البنطلونات القصيرة ، أو يمزقن الملابس عند فتحة الصدر كما يفعل الأولاد .. وخصوصا أثناء المشاجرات الحامية .

ولابد أن تكون للفتاة صديقة . واحدة أخرى غير أمها . وغير أختها الكبرى ، واحدة تعترف أمامها بكل شيء ، ويكون بينهما سر ورموز ، وغالبا

يكون هناك طرف ثالث ، هذا الطرف الثالث هو أخو الصديقة . ففي رواية «الحرب والسلام» لتولستوى نجد أن للبطل صديقة ، وللصديقة أخت ، هو الطرف الثالث ، وتكون هناك أسرار أعمق ، وتكون هناك اتهامات جنسية ، وتكون الفتاة سعيدة إذا عاملها الشبان بدرجة متساوية ، وإذا قدروها ، وكل هذا يغري الفتاة الصغيرة بالابتعاد عن بنات جنسها .. وعن جنسها ، وتكره ملابسها التي تميزها عن الأولاد . وتكره أنوثتها ، وتلعنها ، وتعرض على هذا الهوان : أن تكون امرأة .

وهناك بنات يكرهن أن يكن بنات .

ويقول العالم الكبير هافيلوك أليس إن ١٪ من الأولاد كانوا يتمنون أن يكونوا بنات .. و ٧٥٪ من البنات يتمنين أن يكن أولادا .. ويذكرون السبب لذلك بأن الأولاد أكثر حرية ثم إن ملابسهم لا تضايقهم .

وفي سن الثانية عشرة لا تضيق الفتاة بأنوثتها بعد ، ولكن بعد ذلك تدرك الفوارق بين الجنسين في كل مكان وفي كل موقف .

والفتاة لأن عالمها محدود ، ونشاطها محسوب ، فإن حيويتها الشديدة تتحول إلى سلوك عصبي ، فالأعمال لا تستنفذ قوتها ، ولذلك تشعر بالملل ، ومن الشعور بالملل تدرك الفتاة أنها دون الأولاد ولذلك تهرب من الواقع إلى أحلام اليقظة وفي الرومانسية الحزينة ، وتعشق الخيال . وبدلاً من أن تقوم الفتاة بأى عمل ، فإنها تبدد نشاطها في الكلام .. في التثرثرة .. ثم تستسلم للانفعالات الشديدة ، وتحس الفتاة أنها في المؤخرة .. أنها على رصيف المحطة .. وأن القطار قام وتركها .. وأنها أهملت وهذا الشعور بأنها أهملت يتحول في داخلها إلى صورة تعويضية أخرى .. صورة فيها رد اعتبار لها

فتعجب بنفسها ، وترثى لحالها أيضا ، ولا توجد امرأة في الدنيا لا تعجب بنفسها ، ولا تبكى على ما أصابها من الظلم .. وهذه التعاسة تظهر في عصبية المرأة ، وفي دموعها ، وليس صحيحا أن دموع المرأة تضايقها ، إنها تجد لذة في البكاء . فالبكاء يريحها وينعشها ويفتح شهيتها لمزيد من النشاط ، والشئ الوحيد الذى تحتفظ به المرأة في كل سن : هو البكاء . لماذا ؟ لأن المرأة تحب أن تلعب دور الضحية في حياة الرجل ، وهذا الشعور هو استمرار لاحتجاجها على أنها أنثى ، وفي نفس الوقت تؤكد حرصها على أن تثير شفقة الرجل واهتمامه بها ، والمرأة وهى تبكى تشبه الشمس من وراء السحب .. فهى ترقب وتنتظر وتتحفز من وراء الدموع .

والفتاة الصغيرة تنظر إلى نفسها في المرآة وهى تبكى ، وكلما نظرت إلى نفسها بكت أكثر .. إن منظرها يثير شفقتها على نفسها ، ومعنى ذلك أن الفتاة لا تبحث عن طريقة لكى تكف عن الدموع ، وإنما تبحث عن الذى يضاعف دموعها ..

وفي كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني يحدثنا عن المطرب المسمى بالفريض . هذا المطرب استمع إليه عدد من النساء وأعجبن به وطلبن إليه أن يسمعهن وهن يندبن ويبكين ، وأن يحفظ كلمات الندب والبكاء .. ثم يطلبن إليه أن يغنى الندب بصوته الجميل .. لماذا ؟ لكى يتأثرن ويبكين ويمزقن ثيابهن من شدة الحزن .. فهن لا يبحثن عن مناديل تجفف الدموع .. وإنما يبحثن عن الذى يهز القلب ويعصر العيون .

وإذا حاولت الفتاة الصغيرة أن تعبر عن مشاعرها في أعمال أدبية ، فإنها تتحدث عادة عن العلاقة التى تربطها بأمرها ، وكيف تمنى أن تتمزق هذه

العلاقة ، أى أنها تتخذ موقفا عدائيا من أمها وتؤكد حاجتها إلى من يحميها ، وتتمنى لو كانت هى وحدها التى تحب أباهما ، وكان هو يحميها وحدها ، ولذلك تغار على الأب وتخاف على حبه لها ، وكثيرا ما قرأنا قصصا لفتيات صغيرات يتخيلن أن الأب ليس أباهن الحقيقى ، وإنما هى طفلة تبنتها الأسرة .

ومن خلال ما تقرأه وما تسمعه وما تتخيله تجد الفتاة نفسها وراء حوائط كثيرة ، وسقف واحد ، الحوائط تقرب وتبتعد ، أما السقف فقريب جدا : لأن الفتاة مهما تعلمت وتقدمت فلن ترتفع .. وإنما عالم الرجل عالم بلا سقف وبلا جدران أيضا .. كل شىء واسع عريض عال عميق .. وموقف الفتاة مفهوم ليس فريدا ، فالزواج فى أمريكا يشعرون مثلها ، مهما تقدموا وتعلموا فهم سود فى عالم البيض . وكذلك الفتاة تحس أنها سوداء فى عالم البيض .. أى فى عالم الأقوياء من الرجال ، ولذلك فستقبلها محدود . طريق مسدود . عالمها مقفل عليها منذ ولادتها حتى الموت .

ومن المؤكد أن انشغال الفتاة بجسمها وجنسها أكثر من الأولاد ، فالفتاة تعرف أن جسمها هذا يتغير بصورة عنيفة كل شهر ، وتعرف أنها سوف تكون زوجة : تحمل وتلد وترضع وتحمل وتلد . ولذلك يجب أن تعرف ماذا سيحدث لها ولماذا ، وكيف ، ومن المهم جدا أن تعرف معنى الزوجية ، والحياة الزوجية ، بينما تجد الأولاد لا يهتمون بالزواج ولا بمشاكل الجنس .. ولا بالأمومة ولا الأبوة ، ومن المؤكد أن الفتاة تخاف مما سيحدث لها ، تخاف من الأمومة وتخاف مما يسبق الأمومة ، ومن الزواج ، ومن الحياة مع رجل فى فراش واحد وتحت غطاء واحد عاريين ..

والفتاة عندما تقول : لن أتزوج فلأن معلوماتها عن الجنس تصيبها بالقرع ، ولأنها تخاف مما يصيب جسمها ، ولذلك فهى تسأل فى سن مبكرة : من أين

جاءت .. وكيف ولدت .. وكيف دخلت بطن أمها .. وكيف خرجت ..
ولا تتصور لحظة واحدة أن والديها يفعلات ذلك الشيء الكريه الذى سمعت عنه
من زميلاتها فى المدرسة أو من الخادمة .. وعندما تقول إنها لن تتزوج فهى تريد أن
تعلن أنه مها حدث لها فلن تصل إلى هذه الدرجة من الهوان النفسى والقذارة
الجسمية والجنسية ..

ولكن هذه الأنوثة التى تبرز فى الفتاة - وخصوصا صدرها - ليس شيئا
يضايقها دائما ، فعندما يبرز صدرها تشعر الفتاة بالكبرياء وبالعار معا .. فهى
سعيدة بأنها كبرت ، وهى تتفرج على صدرها فى المرأة ، وتلمسه بدهشة
وذ هول .. وفى نفس الوقت تشعر بالحجل لأنه بارز ولأنه جذاب .. ولأنه يؤكد
اختلافها التام عن الشبان ، ثم إنها لا تكشف صدرها لأمها أو أختها . ولكن
لسبب لا تعرفه كان لها نفس مصير الأم والأخت ..

ولكن بروز صدرها هذا يلفت إليها الأنظار . لأنه غريب ، عجيب ،
لقد أصبح لها جسم ، لقد أصبحت جسما ، ولذلك تحب الفتاة فى هذه السن
أن تكون نحيفة ، أى تريد أن تختفى هذه المعالم التى تميزها والتى تبرزها ، والتى
تلفت إليها العيون ، والفتاة لا تنسى هذه العيون التى نظرت إليها بجرأة ووقاحة
ورغبة أيضا ، لذلك إذا نظرت إلى نفسها فى المرأة للمرة الألف فسوف تجد
فى المرأة وجوها وعيونا لرجال .. وحتى إذا أغمضت عينيها ، فلن تختفى عيون
الرجال من عينيها .. لأنهم سيكونون هناك دائما .. فى المرأة ومن غير المرأة ..
إنها تعيش فى عالم من صنعهم ، وعليها أن تسايرهم وأن تقاومهم ، وأن
تقلدهم وأن تختلف عنهم .. وأن تستسلم وتتحكم أيضا ..

المحطة التي يسهونها: أموت في نفسي

- ٥ -

من أسباب الدوخة التي يعانها الرجل مع المرأة ، أنه لا يفهم هذا الكائن الغريب الشديد الحساسية الكثير الدموع الهائل القلب . فلا الرجل عنده وقت لكي يفهم المرأة . ولا المرأة عندها فرصة لكي تفهم نفسها .

ولذلك يلتقي الرجل والمرأة وكلاهما لا يفهم الآخر ، ومن المفروض بعد ذلك أن يتسع وقت الاثنین لكي يتفاهما .. ومن النادر أن يحدث ذلك .

فالمرأة وهي صغيرة - تسمع معنى واحدا : غدا يجيء ابن الحلال ، بعد غد ربنا يرزقك بابن الحلال الذي يريح بالك ، ويسعد حالك .. أو ابن الحلال الذي « يشكك » ويعلمك كيف تمشين على الصراط المستقيم . إنها في انتظار دائم « لابن الحلال » - والرجل عادة « ابن حلال » - سواء كان هو بالفعل كذلك أو لم يكن . ومعنى ذلك أن الفتاة في سن صغيرة تسمع التقديس المستمر للرجل الذي سوف يجيء ، وتسمع أنها يجب أن تنتظر ، فحياتها انتظار مستمر له .

وقبل أن يجيء ابن الحلال أو فتى الأحلام أو « الأمير الساحر » أو « الفارس المغوار على حصان أبيض » تكون الفتاة قد أصيبت في جسمها بتغيرات تفرعها ،

هذه التغيرات ضرورية لها ولابن الحلال هذا . ففي مرحلة المراهقة تشعر الفتاة بأن شيئاً مخيفاً يحدث في جسمها ، ويصبح جسمها هو مصدر فزع لها ، ففيه تغيرات ، وفيه أشياء برزت في صدرها وتتجه الفتاة إلى جسمها ، إلى مراقبته وملاحظته ، والخوف منه ، والخوف عليه أكثر . بينما نجد أن الشاب ليست له مشاكل في المراهقة فهو ينتقل من الطفولة إلى المراهقة إلى الرجولة بلا خوف . فالطريق مفتوح أمامه ، وكل علامات المرور خضراء . بينما لا تعرف الفتاة إلا العلامات الحمراء معظم الوقت ، وتكون أمها هي عسكري المرور دائما .

والفتاة تحلم بالشاب . ولكن الشاب إذا حلم بالفتاة ، فلأنها جزء من حياته ، ولكن ليست كل حياته ، إنها أحد عناصر حياته .. ولكن الفتاة تنظر إلى الشاب على أنه حياتها : مصيرها .. قدرها .. بنحتها أو « ميلة بنحتها » ..

والفتاة في كل مراحل حياتها تنظر إلى الرجل على أنه وسيلة من وسائل الهرب من حياتها في البيت .. فهو الذي يخطفها ، وتتمنى ذلك .. وهو الذي يحررها من قيود الأم وتكشيرة الأب وفضيحة الأخ .. وهو وحده الذي يحررها ثم يحميها .. أو هو الذي يحميها أثناء الهرب من البيت .. والفتاة تجد عند الرجل كل مفاتيح السعادة .. وكل صهامات الأمان .. وتجد الصدر الحنون ، مثل صدر أبيها .. وتجد الذراعين القويتين تماما كأبيها .. فالفتاة مؤمنة منذ الطفولة بقدره الرجل وتفوقه ، وتفوقه حقيقة اجتماعية واقتصادية ، فالرجال هم سادة العالم ، ولذلك فالفتاة تصبح ناجحة فالحة إذا نظر إليها الرجال وأعجبوا بها ، وفي المدارس الأمريكية نجد أن الفتاة الجذابة هي التي لها أكبر عدد من الأصدقاء بشرط أن يكون هؤلاء الأصدقاء على علاقات منتظمة بها .

فإذا فازت الفتاة برجل وتزوجته كانت هذه نهاية سعيدة ، أو على الأصح نهاية محترمة ، وليس من الضروري أن تكون النهاية المحترمة سعيدة ، ولا أن تكون النهاية السعيدة محترمة أيضا . ولكن أكثر العلاقات الاجتماعية احتراما هي

الزواج ، وهى علاقة أهون وأسهل من علاقات أخرى بين الرجل والمرأة ، ففي الزواج تجد المرأة احتراماً اجتماعياً ، وتجد راحة عاطفية ، لأنها محبوبة وأم ، وهذا ما يقوله كل الذين حولها ويشجعونها على أن تؤمن بذلك وأن تهدف إليه وتحرص عليه . فأهم حدث فى حياة المرأة هو أن تجد زوجاً ، وهى لا تصل إلى الزواج عن طريق الغزو والانتصار وإنما عن طريق العطاء والاستسلام الرقيق المحترم ، وهذا الاستسلام ليس سببه : التربية فى الأسرة والتقاليد الاجتماعية ، فكلها تقول للبنات : انتظري حتى يجيء ، فإذا جاء فكونى له ..

ولاشك أن مرحلة المراهقة عند الفتاة تضايقها ، وتجعلها عصبية أياماً كل شهر ، وأحياناً تصل إلى حالة من الجنون ، وصدرها يضايقها ، وخصوصاً عندما تشترك فى الألعاب الرياضية ، وتشعر الفتاة بأنها غريبة عن الأولاد ، وغريبة عن الدنيا كلها . ففي سن ١٣ يبدأ الشبان فى الرياضات العنيفة ، وتبدأ الفتيات فى التوقف عن العنف ، وبين الشبان منافسات حادة ، ولكن بين الفتيات لا توجد منافسات وإنما توجد مقارنات فقط . والرياضة العنيفة لا تستهوى المرأة ، فهى لا تستطيع أولاً .. نوثانيا لا دور لها فى المنافسة والمسابقة ، وأنها تترك ذلك كله للرجل .. وفى أمريكا نجد أن الزوج ممنوعون من استخدام العنف مع البيض . ولا تزال المرأة لها «الروح السوداء» كأنها أحد الزوج فى عالم البيض .

والرجل يحتل مكانه بالقوة والغزو أما المرأة فهى تحتل مكاناً قد أعد لها من قبل ، ولذلك فدورها يجيء فى الدرجة الثانية ، أما الرجل فدوره فى المقام الأول ، إنه هو الذى يغزو ويتقدم ويحتل ، ثم يترك ذلك للمرأة من بعده .

إذا فكرت الفتاة فى أن تلعب فى الشارع ، فهى مطالبة دائماً بالألا تحدث صوتاً ، والألا تعرى جسمها ، فلو خرجت بعض الفتيات إلى الشارع وحاولن أن يمشين بسرعة وأن يتحدثن بصوت مرتفع أو يضحكن لكان ذلك مثيراً للاهتمام ، وربما تساقطت عليهن الشتائم واللعنات ، ومن الطبيعى أن يطاردن الشبان . ولو

رآهن أحد رجال الدين لرفع يديه إلى السماء طالبا من الله الرحمة بعباده .. ومع أن هذا المشهد يتكرر من الشبان كل يوم ومن ألوف السنين ، وقد سجلت المقابر الفرعونية شبابا يلعبون في الحارة وأحد الملوك يبارك الطوبة التي ألقاها الشبان فأصابت الملك في التاج على رأسه .

فالفتاة مطلوب منها أن تضبط نفسها ، وأن تمتنع عن الحركة التي تعريها ، وأن تمتنع عن رفع صوتها وعن النظر ، وعن اختلاس النظر والسمع ، وممنوعة أن تقول ما تريد وأن تقول ما تعتقد ، وهذه الفرامل الكثيرة والشديدة ، تقضى على انطلاقها وعلى أن يكون لها رأى خاص وذوق خاص وموقف خاص . والنتيجة طبعاً : أن تكون الفتاة عصبية معظم الوقت ، وأن تكون في حالة ملل مستمر ..

ويصبح هذا الملل عنيفا أليما إذا عاشت الفتاة باستمرار في عالم النساء ، فالفتاة تمل الفتاة بسرعة ، فحياتها متشابهة ، وحديثها شكوى ، ولذلك كان الولد ضروريا في مجتمع الفتيات . وهذا معناه أن حياة الفتاة سخيطة مملة إلى أن يظهر فيها فتى . ومعنى ذلك أيضا أن الفتى هو وحدة القادر على أن ينقذها من بنات جنسها وأن ينقذها من الملل ومن القرف اليومي وأنه هو وحده القادر على أن يجعلها شيئا .. : لأن الرجل شيء هام ، والمرأة تعلم أنها لن تفوز بالرجل لأن لها أحلاما ، ولكن لأنها تحقق أحلامه هو ، فهي تستعير أحلامه ، ثم تعمل على تحقيقها له ، وهذا ما يعجب الاثنين : هو يعجبه أن يغزو خيالها وينتصر عليها ، وهي يسعددها أن تحقق أحلامه وتعطى نفسها له .

وقبل أن تحقق الفتاة أحلام الرجل هناك نصائح هامة وضرورية من الأم ، فالأم تنصح ابنتها بأن تكون صاحبة الخطوة الأولى أو الكلمة الأولى ، لا مانع من أن تكون لها النظرة الأولى ، فالنظرة الأولى هي « طعم » في سنارة غرامها ، وإذا التقط الرجل الطعم ووقع في الشبكة فعلى الفتاة ان تفهمه أنها هي التي وقعت وليس هو .. فالرجل يجب أن يكون هو الذى « صاد » وليس هو الذى وقع في

المصيدة .. والفتاة يسعدها أن تكون «الصيد» لا أن تكون الصياد .. وفي المصيدة يشعر الاثنان بأنها سعيدان ولأسباب مختلفة .

ولذلك يجب أن تؤهل الفتاة لكي تكون جذابة .. أى لكي تكون مصيدة جميلة . وهذا الجمال هو جمال جسمها فى الدرجة الأولى ، ولذلك يجب أن تهتم الفتاة بإظهار أنوثتها ، فتقف أمام المرأة كثيرا تسرح شعرها وتدرس ابتسامتها ونظراتها . فمن طريق جسمها ستكون النهاية السعيدة ، فجسمها هو كثرها وهو سلاحها أيضا . ففى جسمها كل ما تملك ، وهذا الجسم هو العيار النارى الذى تطلقه على الرجل وقبل أن يسقط على الأرض تنهار إلى جواره .

وكثيرا ما وقفت الفتاة أمام المرأة تتأمل كتفها المستديرة الناعمة وتقبلها ثم ينظر إلى صدرها باهتمام وعناية ثم إلى ساقها وتمضى فى أحلامها وكل شيء فيها يقول : أنا أحب جسمى ..

والفتاة تريد أن تكون جذابة لكي تلفت الرجل ، فإذا تلفت الرجل إليها تأكدت من أنها فعلا جذابة أو جميلة ، فإذا تأكدت من ذلك فلا نهاية لأحلامها ، ولا نهاية لأبطال أحلامها : أبطال لهم وجود أو أبطال لا وجود لهم ..

وأعنف صورة لأحلام اليقظة هى حياة الأديبة الروسية الشابة المعذبة ماريا بشكرتسف (١٨٦٠ - ١٨٨٤) التى توفيت عن ٢٤ عاما فى أحد المستشفيات العقلية ، فقد كانت فتاة شديدة الذكاء ، شديدة الاضطراب ، تنام فى سريرها بالسنوات لا تتحدث إلى أحد ، وإذا تحدثت فهى تتعالى على كل الناس ، وقد وصفت نفسها فى أحد المرات بأنها ملكة أسبانيا ، وأعلنت كثيرا أن لها عشاقا .. مع أن هذا ليس صحيحا ، وأن لها أطفالا منهم ، وأنها عندما تخلع ملابسها تلتقى بعشرات من عشاقها .. وليس هذا صحيحا ، وكثيرا ما أعلنت أن لها أكثر من

حياة ، وفي كل حياة لها دور ، وهو دور البطولة عادة ، وهي أكثر من بطلنة ..
وقصص كثيرة أخرى تتحدث عن سحرها ، وعن الذى يفعله جسمها بالرجال .

والفتاة عادة تحس أن الحياة حولها غير حقيقية .. حياة غير ممكنة أيضا . حياة
كلها ممنوعات ومخاوف ولذلك تهرب الفتاة إلى الأحلام ، وفي أحلامها تفعل
ما تشاء مع من تشاء من الناس ولكن هذه الأحلام لا تكفى ، لا تشبعها
ولا ترويه ، لأنه من الضرورى أن يحس بها أحد من الناس ، فتجد عن طريقه
المعنى الحقيقى لجسمها ولنفسها ، ولوضعها فى الحياة ، ولذلك يجب أن تعيش
الآخرين ، وأن تعيش بهم ومعهم وضدهم ، وعلى صلة بالعالم الذى حولها ..

أما عالم الفتيات فهو عالم «الفرجة» على الرجال وانتظارهم ، وهو عالم
المقارنات السلبية ، فالفتاة تقارن جسمها بجسم غيرها . وكثيرا ماتعرت الفتيات
وراحت كل منهن تقارن صدرها بصدر الأخرى ، وكذلك خط الوسط واستدارة
الأرداف ، وهذا دليل على أن الفتاة تقدر أنوثتها .

وقد حدثتنا أديبة فرنسا مدام كوليت فى قصة «كلودين فى المدرسة» عن
تقدیس الفتاة لجسمها ، لسلاحها ، لأنوثتها ، تلك المصيدة الناعمة لعين
الرجل ، والرجل بعد ذلك .

ولأن هدف الرجل أن يجد الجنس الآخر ، تفرق الرجال كل واحد إلى
سبيل . يولكن الفتيات يتقاربن . فيبينن مشاكل وأحاديث وأسرار ومذكرات
خاصة ومعلومات عن الجنس الآخر . ولذلك كانت الصداقة بين الفتيات أقوى
من الصداقة بين الأولاد وكثيرا ما كانت خطابات غرامية بين الفتيات . هذه
الصداقة لا ضرر منها ولا خوف . والفتاة إذا أحببت صديقة لها ، كان هذا الحب
نوعا من تكرار حب الفتاة لنفسها . وعشقها لجسمها . وكثيرا ما اتجهت الفتاة فى
حبها إلى واحدة من بنات جنسها تكون لها بعض مزايا الرجال . كأن تكون

موظفة . مدرسة . تكسب عيشها . ولها قيمة اجتماعية . وتفضل الفتاة أن تكون المدرسة التي تحبها غير متزوجة ، أى لا تخضع لسيطرة رجل . فالمدرسة المتزوجة تضايقها .

ولكى يكون للفتاة حب لا يخيفها ، فإنها تميل إلى نجوم السينما أو الأدب أو الفن . وتضع صورته إلى جوار سريرها . وهى آمنة . لأنها ليست رجلا من لحم ودم تخاف أن تقترب منه . بل إنها تجرده من رجولته وتحتفظ له فقط باللمعان والشهرة . فهو رجل ولكنه فى نفس الوقت ليس رجلا . إنه حب لا يخيف . وحب بلا أمل . إنه نوع من المستحيل . فهو المستحيل الذى لا يخيفها على جسمها . وحتى إذا أحببت الفتاة رجلا حقيقيا فإنها تختار رجلا عجوزا - رجلا ولكنه لا يخيف . وفى مثل هذا النوع من الحب يكون عند الفتاة نوع من : الأمل والحنين والمرارة . وهى بذلك تتفادى التجربة المباشرة . أو الصلة المباشرة وهى شىء مخيف .

وتظل الفتاة تحلم بالعمالة ، ولكنها لا تجد فى حياتها غير الأرقام ..

كثير من الفتيات فى مرحلة المراهقة يكتبن خطابات إلى فتي الأحلام أو رجل الأحلام ، ثم لا يبعثن بها . بل يكتبن ردا على هذه الخطابات أيضا .. ولكن هذه الصور مختلفة عن أحلام اليقظة . أى الهرب من الواقع الذى لا يريح ، إلى واقع يريح ولكنه لا يشبع ولا يروى . ولا بد من الهرب منه . فالأحلام لحظات عابرة ، ويجب أن تكون كذلك .

ومن المألوف فى هذه المرحلة أن تحب الفتاة أو تحلم بالرجل الدون جوان ، صاحب المغامرات والغراميات الذى لا يحتفظ بالنساء طويلا . فهى مغامرة . وهى فرصة لكى تثبت لنفسها قدرتها . وفى نفس الوقت بأن تصلحه . وأن تجعله يتوب عن النساء ويكتفى بها . وهى تعلم أيضا أن هذه مغامرة وأنها سوف تفشل .

وهذا الفشل هو الذى يغريها أكثر..؛ لأن الفشل معناه أن هذه العلاقة لن تستمر. وأن هذا الرجل سوف يبعد عنها . وهى تريده أن يبعد عنها حتى لا تكون هناك تجربة مباشرة . ولذلك فهى تفضل هذه العلاقة المستحيلة التحقيق وأن تعيش فى حلم مستحيل أى أن تنشغل بهذا الدون جوان دون أن تقترب منه.. ولو حاول هذا الدون جوان أن يقترب منها ، فإنها تقرف منه. وتقرف من هذه العلاقة. لأنها تنظر إليه على أنه بطل أو نصف إله . ولا تريده أن يكون «مثل كل الرجال» .. فإذا حاول أن يكون «رجلا ككل الرجال» فإنها تصاب بصدمة عنيفة . فهى فى هذه المرحلة تحب البعيد العالى المستحيل – لأن هذا حب لا يخيف .

والرجال يندهشون لتصرفات المرأة . فهى تشد صدرها وتبرزه وتكشفه . ثم تعرى ساقها . وتختق وسطها . وتضغط على أردافها وترسم شفيتها وعينيها . وتخرج إلى الشارع . هى تريد أن ينظر إليها الناس . وفى نفس الوقت تضيق بعيون الناس . لماذا هى تقول إن الناس لهم عيون جريئة . وأنهم يذهبون إلى بعيد ولا يفهم الرجل هذا الموقف المتناقض من المرأة : فهى تعرض نفسها فى أجمل إطار لكى يراها الناس ، ثم لا تريد أن يراها الناس .

والفتاة تريد أن يراها الرجل . فنظرته تحية لها . ولكن النظرات الجريئة للرجل تنجلها .

والمرأة تريد أن «تلهب» الرجل ، فإذا شممت المرأة رائحة «شياط» فى عيني الرجل تضايقت وكرهت الرجل . ولكن تعود فى نفس اليوم إلى الخروج إلى الشارع ومراقبة كل عيون الرجال والاستماع بعناية شديدة إلى كل تعليق يرضى غرورها . ولا توجد امرأة لا تحتفظ فى أذنيها بعشرين تعليقا على جمالها ودلالها وهى أنها .. خسارة – أى خسارة فى أهلها وزوجها – خسارة ألا تكون له أو تكون لآى انسان آخر. فإذا كانت تمشى على الأرض ، فهى خسارة ألا تكون لها سيارة .

وإذا كانت لها سيارة صغيرة فحسارة ألا تكون لها سيارة كاديلاك .. ومن الغريب أن النساء ، في كل سن وكل ثقافة ، يصدقن هذه العبارات الكاذبة التي يلقيها الرجال في الطريق كأعقاب السجائر .. ولكن غرور المرأة واحتياجها إلى الرجل وإيمانها بعظمته وذوقه ، هو الذي يحول أعقاب السجائر إلى خراطيش سجائر أمريكية تحتفظ بها المرأة في أعماق أعماقها .

ولا توجد امرأة في أى سن وعلى أية درجة من الثقافة ، لا ترى في نفسها شبيهة بإحدى كواكب السينا .. أى شبيهة بذلك النوع من النساء الذى يعجب الرجال . فعلى الأقل شفتاها أو عيناها أو مشيتها أو ساقاها .. ولو قامت بعمل استفتاء في العمارة التي تسكنها لوجدت شبيهات لكل نجوم السينا .

ومن المشاكل التي تحير الرجل والمرأة أيضا ، أن المرأة في سن المراهقة في حالة احتجاج مستمر . فلا هي تريد أن تكون طفلة ، ولا هي تريد أن تكون أنثى كاملة الأنوثة .. فهي لم تعد طفلة : جسمها يصرخ بذلك . وهي لا تريد أن تكون أنثى . فهي تكره هذا المصير المفروض عليها . تكره أن تكون محبوسة . بقيدة تقطع عمرها كله تنتظر واحدا لا يبيء . فإذا جاء فهو ليس الذى تحلم به . وإذا جاء الذى تحلم به فليس هو الذى كانت تتصوره .. إنه « حيوان » آخر .. ومن مظاهر احتجاج الفتاة في هذه السن : الضحكة العالية .. والفتاة في سن المراهقة لها ضحكات ساخرة .. فهي تضحك على المحبين وعلى العشاق . وهي تضحك على الشبان . وتحرص على أن يسمع الشبان ضحكتها العالية ، بل الفتيات في هذه السن يجدن متعة كبرى في أن يتقرين من الرجال والنساء في الحدائق العامة أو في دور السينما . ثم يضحكن بصوت مرتفع . هذا النوع من الضحك هو نوع من الاحتجاج الصارخ أو السخط العالى . والفتاة تحتج على مصيرها . أو على ما سوف يحدث لها في المستقبل . وفي هذه السن أيضا نجد الفتيات الصغيرات يستخدمن عبارات جريئة . وأحيانا ألفاظا نابية تصدم الأم والأب وتجعل وجه

الأخوة يحمر خجلا .. وهذه العبارات ، كالضحكات الساخرة نوع من الاحتجاج على الوضع . على وضعها كفتاة . وكثيرا ما لجأت الفتاة أيضا إلى تناول أطعمة غريبة تماما كأنها « تتوحم » .. وأحيانا تحب الأشياء القدرية . كأنها تريد أن تقول : ولا يهمنى . ماذا يحدث لى . إذا كانت أمراضى الشهريّة كامرأة هى أن يسيل دمي . وهذا شيء كرهه . فإننى أقبله ولا أستكرهه . وأقبل ما هو أسوأ من ذلك أيضا .

وأسوأ من ذلك هو قدرها كامرأة فى عالم الرجال . وكأنها تريد أن تقول : إن الرجل الذى سوف يكون زوجى فى المستقبل ، لن يستطيع أن يعذبنى أو يضايقنى أكثر مما أفعل بنفسى .

وكانت الفتاة ماريا بشكرتسيف تقول : إذا كانت قبضة الرجل يمكن أن تخدش أصبعى ، فأنا سأقطع ذراعى حتى لا يتوهم أننى عاجزة عن احتمال الألم .. فأنا قد قبلت حياتى معه . وليست حياته معى مصيرا محتوما .

والفتاة تقاوم أو على الأصح « تفلص » ، ولكنها لا تستطيع أن تتخلص من الرجل تماما .. ولذلك يمكن أن يقال إن المرأة تكافح الرجل وهى فى داخل القفص . ولكنها لا تفكر فى تحطيم القفص أو الخروج منه ..

حريتها مثل ضفيريتهما : تقصيرها ونبكي عليها

- ٦ -

الدموع والصرخات والتقلبات العاطفية عند الفتاة المراهقة ليس سببها أنها ضعيفة جسميا . ولكن سببها أنها غير قادرة على التوافق في البيت أو خارج البيت .

ومن مظاهر عدم التوافق احساسها بأنها لا هي طفلة ولا هي فتاة ناضجة . يومفروض أنها الاثنتان معا ، ولكنها لا تعرف متى تتصرف كطفلة ، ومتى تتصرف كفتاة .. وإن كانت تتعجل أن تكون زوجة لتتخلص من أعباء الطفولة والشباب في نفس الوقت ، ولذلك تتمرد على هذه القوالب والقيود التي تضعها الأسرة والمجتمع ، أما هذه القوالب فهي أن : تكون الفتاة في حالة انتظار ، وأن تخفي أفكارها وأن تربط مصيرها بشباب أو رجل لا تعرف عنه أى شيء .

وأحيانا نجد الفتاة في سن المراهقة تصاب بجنون السرقة ، تسرق أى شيء دون أن تكون في حاجة إليه ، وهذه السرقة هي نوع من تحطيم القيود أو القضاء على «الممنوع» وبذلك تؤكد استقلالها ، وقدرتها على أن تفعل شيئا ضد الآخرين ، ومن الغريب أن الفتاة التي تثور على أنها مجرد «شيء» في الأسرة لا حيلة له .. تتحول بعد هذه الفضيحة «شيء» لا حيلة له .. شيء مفضوح يستحق العقوبة .

وربما كان حرص الفتاة على أن تحطم القيود يعادله حرصها على أن تتعذب أيضا .
إنها لذة التعذب مرة أخرى .

أما لعبة المراهقة المتكررة فهي أن الفتاة تريد أن تأخذ دون أن يأخذها أحد ،
فلا تكون ضحية لعمل قامت به ولذلك نجد بعض الفتيات يبعثن بخطابات مجهولة
إلى أناس بقصد ازعاجهم أو افساد حياتهم الزوجية ، وأحيانا يجترعن قصصا
وهمية عن بيوت بها عفاريت أو عن رؤية عفاريت .. هذا معناه أن الفتاة في سن
المراهقة تريد أن تؤكد لنفسها أنها تستطيع أن تفعل شيئا ، أن تزعج أحدا ، أى
أنها قادرة على فعل شيء مخيف ، وليس صحيحا أنها لا تقدر على شيء ..

ولكن بعد أن تفعل الفتاة ما تريد فإنها تعود مرة أخرى إلى أن تكون « شيئا
عاجزا » وإلى أن تتحكم فيها الأسرة مرة أخرى .. فكأن الحالة التي تهرب منها تعود
إليها ، ولكن عن طريق آخر .

وقد تضيق الفتاة بقيود الأم ، فتخرج من البيت ، بلا هدف تمشي
ساعات ، وأحيانا تختفي أياما ، ثم تعود إلى البيت ، ولو حاول انسان أن يقنعها
بالعدول نهائيا عن العودة إلى البيت لرفضت ، فكأن الفتاة ترفض البيت وتقبله ،
وكأنها ترفض القيود وترفضها ، فالهرب نوع من المهزلة . فهي ليست جادة لأنها
تريد أن تهرب وفي نفس الوقت لا تريد ذلك .

ولأن الفتاة تعيش معظم الوقت بنجياها تحلم وتنطلق إلى المستقبل البعيد ، ولأن
الاحساس بالواقع أقل فإن الفتاة تتصور أنها عندما تخرج من البيت قد أصبحت
حرة . وأن حررتها معناها تحطيم قيود الأم والأب نهائيا ، وقد تتخيل أيضا أن في
استطاعتها أن تعطى نفسها لأى انسان مجانا . وفي هذا العطاء المجانى اهدار لكل
مقدسات الأم ، فكأن الذى يعنى الفتاة هو أن تتحرر من أمها فقط .. وليست
الحرية كأسلوب أو هدف للحياة كلها ..

ومعنى هذا كله أن الفتاة إذا تمردت فهي داخل اطار ، فهي « عفريت » في داخل زجاجة .. فهي دائما عفريت ودائما في داخل الزجاجة .. أى أنها ترفض عالمها وتقبله دائما ..

ومرة أخرى إذا كان حاضرها لا يرضيها ، فإن مستقبلها أيضا لا يرضيها ، ولذلك تريد أن تقفز من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الأنوثة الناضجة . ولكن رغم أهمية هذا الانتقال عندها ، فإنها لا تفعل شيئا جوهريا ، فالفتاة دائما مشغولة ، ولكنها ليست مشغولة بشيء ، فهي لا تفعل أى شيء ، ولذلك فهي لا تساوى أى شيء ، ومن الواجب أن تكون شيئا . لذلك يجب أن تفعل شيئا ، وهذا الشيء الذى تفعله هو الذى يجررها من البيت .. من الأسرة ، ومن هنا كان العمل ضروريا للفتاة .

وبعد أن تعمل الفتاة إلى جانب الرجل ، يلاحظ الرجل أنها مختلفة تماما عنه ، كاذبة ، فشارة ، وأنه لا يفهمها ، ولا يعرف متى يتمكن من ذلك . ولكن الفتاة وصلت إلى هذه الحالة لأسباب خاصة بها ، فهي محكوم عليها أن تخفى أسرارها ، أن تكذب أيضا ، فبذ السادسة عشرة من عمرها تحدث في جسمها تغيرات أساسية لا بد من أن تخفيها عن عيون الشبان والرجال ، فالمراهقة عذاب والمرض الشهرى لعنة ، واليقظة الجنسية والرغبات الأولية والتحذيرات الكثيرة التى تصبها الأم فى أذنيها ليلا ونهارا ، كلها تحتم على الفتاة أن تخفى حالها ، وأن تستر على ظروفها الغريبة . ولذلك اعتادت الفتاة أن تقفل على نفسها الأبواب والنوافذ وأن تمحو آثار كل ما بقى فى وجهها أو فى جسمها أو فى ملابسها ..

وقد صدر أخيرا فى أمريكا كتاب عنوانه « الأخلاقيات القديمة » لمؤرخ معروف اسمه بورتر . يتحدثنا عن فتيات أمريكا سنة ١٩٠٠ ، هؤلاء الفتيات كن يأكلن الأطعمة الغارقة فى الملح والليمون حتى يتأخر المرض الشهرى بعض الوقت

لنتمكن الفتيات من الرقص مع الشبان دون أن يتمكن الشبان من ملاحظة شيء بمجرد لمس اليدين أو النظر في العينين أو رائحة الملابس .. ومن الصعب طبعاً أن تكون الفتاة أميرة للأحلام وجميلة وعندها احساس بأنها مريضة أو بسبيل أن تكون كذلك .

وموقف الفتاة من جسمها هذا معناه أنها ترفض هذا الجسم ، وهذا الرفض نوع من النفاق . لأنها لا تستطيع أن ترفض ما تعيش به وما تعيش عليه .. وإذا رفضته فإن أحدا لا يصدقها .. إنها هي لا تصدق نفسها إذا توهمت ذلك .. وكيف تتوهم الفتاة أن جسمها هذا شيء تنكره أو تستنكره ، والدنيا تطالبها بأن تكون جميلة ، أو « شيئاً جميلاً » ، وجمال المرأة هو الذى يبنى عليها ، لأنه يدخلها فى تهمة أخرى : أنها كاذبة . بالمكياج والباروكة والسوتيان والكورسيه والكعب العالى والرموش والأظافر كلها أنواع مختلفة من الكذب ، وهذا الكذب معناه أن الفتاة ترسم كل ملاحظتها ، ويصبح هذا الرسم له معنى واحد : أن كل شيء ينتظر . وكل ابتسامة : دعوة ، وأنها هي من أولها لآخرها زهرة أو ثمرة تنتظر من يقطفها ..

وإذا كان التجميل نوعاً من الكذب فالرجل شريك المرأة فيه ، لأن الرجل يطلب من المرأة أن تطارده وتلاحقه لتوقعه فى شباكها .. لتصيده فى النهاية ! وهو الذى يطلب المرأة أيضاً أن تقوم بدور الفريسة المستسلمة له ، وأن تكون دائماً هذا الكائن المحكوم عليه بالاغراء والانتظار . فإذا سقط الرجل من مصيدة المرأة ، اتهمها مرة أخرى بأنها غادرة وأنها خائنة ، وأنها هي التى خدعته والتى استدرجته .. جرجرته .. أدخلته المصيدة التى هي الحب أو هي بيت الزوجية .. فكأن الرجل يريد من المرأة أن تكون مصيدة ، بشرط ألا يقع فيها .

وإذا اتهم الرجل المرأة بالخداع والغدر فهو على حق ، لأن المرأة تعلم من

البداية أن مصيرها هو: الرجل.. وأن الرجل يجب أن يغزو وأن ينتصر والمرأة تتمكن من هذا الشعور ، فإذا انتصر وجد نفسه مهزوما ، ثار على المرأة . ولكن هذه الثورة لا معنى لها . لأن الثورة على المرأة معناها أن الرجل قد نسي شروط اللعبة . فليس من المعقول أن تلقى المرأة بنفسها عند رجله . إنه يرفضها . وليس من الممكن أن تقاوم المرأة حتى النهاية لتكون : الشهيدة العذراء . فالمرأة التي تقاوم المجتمع والرجل تموت أو تصاب بالجنون ، فهي لا تضيع وقتها في الانتظار ، وإنما هو انتظار مدروس محسوب .

ويختار الرجل مرة أخرى في فهم الفتاة ، فهي دائما مترددة ، ليست متأكدة ، وسبب ذلك أن الفتاة تعتمد في كل شيء على غيرها ، رأيها في نفسها ليس إلا صدى لرأي الآخرين ، كلمة من هنا ، وكلمة من هناك ، وهؤلاء الذين يقولون الكلمات هم الناس .. هم الرجال ، هم الأب والزوج والأخ ، هم الذين يحكمون الدنيا .. دنياها وذنبا كل النساء ، ولذلك فهي لا تعرف بالضبط : من هي ؟ ولا ما هي صفاتها ؟ ومن أجل هذا كانت شديدة الحساسية : كلمة تأخذها وكلمة تعيدها ، كلمة مدح تطير بها .. وكلمة نقد تنسفها . فالفتاة تستمد قيمتها من اتفاقها مع الرغبات والمزاج والمثل العليا عند الآخرين . وفي هذه المرحلة تجدد الفتاة المراهقة أن زميلاتها أعداء لها ، ومناقسات خطيرات ، وباسم الغيرة تتخلص منهن واحدة بعد الأخرى .

والفتاة معذورة في هذه المرحلة ، يكفي أن تتصور أن الفتاة في سن الحياة والإقبال على الحياة والفتح ليست لها إرادة مستقلة ، وإنما عندها فقط رغبات متقلبة . وفي نفس الوقت نجد الشاب له إرادة وله حياة وله مستقبل ، وأن مستقبلها من أوله لآخره يتوقف على ضرورة إسعاد رجل - أو على الأصح - على ضرورة « امتاع » رجل ، أيا كان هذا الرجل .

وتجىء الدموع والصرخات أسلوبا في التعبير عن ضيقها وقرقها وتمردا ..
ولكن رغم هذه الدموع ، ورغم أسبابها فإن حياتها النفسية أغنى وأكثر تنوعا من
حياة أخيها ، لأنها مشغولة طول الوقت بإحساساتها ، وتأملاتها واسترجاعها .
ولذلك لديها قدرة على الفهم ، وقدرة على التفرقة بين المشاعر المختلفة .. وتذوق
الكلام الجميل : في الشعر والأغاني ، هي أيضا تحب مشاهد الطبيعة ، لأن
الطبيعة مثلها : جميلة مفتوحة الصدر والذراعين .. وتنتظر من يقطفها .

والمرأة تعلم في هذه السن ، أنها لكي تكون مقبولة من الرجال ، يجب أن
تعمل وتفكر كالرجال ، وفي نفس الوقت ألا تكون كالرجال . لأنه من الضروري
أن تكون أنثى دائما ، والمرأة تعرف قيود الأنوثة الناعمة المتينة ، وهذا ما شكت
منه الأديبة العربية «مى» عندما بعثت بخطاب إلى الشاعر جبران خليل في سنة
١٩١٢ تقول له : آه .. إنها تلك القيود الحريية الدقيقة كنسبج العنكبوت ،
المتينة كأسلاك الذهب ..

والأديبة الانجليزية الكبيرة فرجينيا وولف تحدثنا عن أدق مشاعر المرأة عندما
تقول : عن طريق اغرائي للرجال وإطراء الرجال لي يصبح لي طموح .

ومعنى ذلك أن المرأة لم تعد ترتجف لنظرات الرجال وتكتفي بهذا القدر ، وإنما
تذهب إلى أبعد من ذلك في خيالها . إنها تراقب وتدرس وتحسب وتتخيل
انتصارها في النهاية .

وتقول فرجينيا وولف أيضا : نظروا إلى .. ونظرت إليهم ، ونظروا ..
وانتظرت ، وأحسست بأن لي جذورا .. : وأحسست أنني راسخة ، ولكنني في
نفس الوقت أطفو على وجه الدنيا من شدة الفرح .

وكلما كبرت الفتاة زادت توصيات الأم ونصائحها ، وزادت هموم الفتاة
أيضا ، فإذا عملت الفتاة في البيت ، ضايقها ذلك ، لأنها لا تريد أن تظل عضوا

في هذه الأسرة تعمل من أجل أمها وأخواتها ، وإنما تريد أن تعمل لنفسها .. لبيتها وأولادها ، وإذا رزقت أمها بأولاد ، فإن الفتاة « تسمت » في أمها وتقول في نفسها : اعملى الآن من أجل أسرتك الخاصة .

وإذا اشتغلت الفتاة خارج البيت فإنها تكره العودة إلى البيت ، لأنها في البيت يعاملونها كما لو كانت طفلة في حين يعاملونها خارج البيت على أنها شخصية مستقلة ذات سيادة ، ولذلك تفكر الفتاة في الزواج .

ومن المألوف أن تفكر الفتاة في الحب لا في الزواج في مرحلة المراهقة وتفكر في الزواج لا في الحب بعد ذلك . ولكن قيود البيت هي التي تفرض على الفتاة أن تهرب بالزواج . وفي هذه الحالة لا تنظر إلى الزوج على أنه كائن مقدس ، وإنما فقط على أنه كمسارى « أتوبيس الحرية » من قيود البيت ، وسلاسل الأب والأم والإخوة . وفي هذا الوقت يطرأ شيء غريب على الفتاة فهي تتخلص من كل صديقات الدراسة .. فالصديقة التي أصبحت ست بيت تضايقها ، والصديقة الجميلة تخيفها وتشعل الغيرة في قلبها .

واحتياج الفتاة إلى الزوج ، والبحث عنه ، يجعل عالمها ضيقا ، وأفكارها محدودة ، وهدفها مركزا ، فإذا لم يأت الزوج أصابتها المرارة والأرق .

والمرأة العاملة لها مشكلة : هي أنها تريد أن تنجح وفي نفس الوقت أن تكون أنثى ، أى تكون جميلة ، وهذا يرهقها ، ويبدد قدراتها ، وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في عدم تفوق المرأة في كثير من مجالات العمل . وإذا اضطرت المرأة إلى أن تختار بين العمل أو الدراسة وبين الزواج فإنها تختار الزواج . ولا تشعر

المرأة بأنها خسرت كثيرا ، لأن الذى بذلته من مجهود في هذا النشاط الخارجى ليس شيئا كبيرا ، فهي لم تخسر عندما تركته ، ولم تكسب عندما حرصت عليه ، ولكن الزواج يعطى للمرأة وضعاً اجتماعياً ووزناً وقيمة ، فالمجتمع هو الذى كافأ

المرأة على جمالها جسما ونفسا بالزواج . فالزواج بطاقة شخصية وجواز سفر ودلالة القبول والامتنان . والمرأة تعلم أنها لا تستطيع أن تحقق شيئا من الاحترام التام إلا بالزواج .

وإذا كانت الفتاة تشكو من قيود الأم ، وتريد أن تتحرر بالزواج ، فإن الزواج قيود أخرى .. وإذا قررت المرأة أن تتحرر من قيود الزواج ، فإن هذا يعذبها أيضا ، فحرية المرأة مثل صفاتها تقصها وتبكي على ذلك ، فهي تنتقل من قيود إلى قيود أخرى .. وليست هي وحدها ، ولكن الرجل أيضا ، لأنه لا توجد حرية مطلقة .. وإنما الحرية هي اختيار أكثر القيود خفة ومتعة وفائدة لنا جميعا .

كانوا بزواجونها أصبحت هي التي تتزوج

- ٧ -

كل فتاة تتمنى الزواج .. وكل زوجة تدم عليه .
ولكن الزواج ، رغم ذلك ، ضرورى للمرأة . أما رأيها فى
الزواج بعد ذلك ، فهو مثل رأيها فى الأزواج ، يتغير حسب
الأحوال وحسب مراحل العمر المختلفة . ولكن سوف يبقى الزواج
درعا حيويا لها .: يحميها من المجتمع .

والمجتمع هو الذى فرض عليها هذه العلاقة ، فالمرأة لا يكتمل
وضعها النفسى والاجتماعى والاقتصادى إلا إذا تزوجت .

ولذلك فالفتاة ليست مخطئة إذا سئلت عن مشاريعها للمستقبل فقالت :
أريد أن أتزوج أولا .

أى أنها تريد أن تتزوج أولا وبعد ذلك يكون أى شىء آخر . ومن بين الأشياء
الأخرى قد يكون تخلصها من الزواج نفسه .. ولكن لابد أن تتزوج أولا ..

وفى المجتمعات القديمة كان الرجل لابد أن يجد الزوجة .. يخطفها أو
يشترىها .. أو يبادل عليها بالأبقار والجواميس أو ثمار الغابة .. وكانت المرأة
ضرورية لأنه يريد أولادا . ولا توجد وسيلة أخرى - حتى الآن - للحصول على
أطفال من غير المرأة ، وإن كان العلم الحديث يحاول ذلك .

وعلى الرغم من أن الزواج أصبح عقدا بين رجل وامرأة ، على مسمع من الدولة - أو على الأصح - بضمان الدولة ، فإن الرجل والمرأة ليسا متساويين في الحقوق والواجبات . فلا يزال الرجل في وضع أحسن . ليس في الشرق فقط ، بل وفي الغرب أيضا . فلا يزال الزواج هو الوسيلة الوحيدة للمرأة في أن تكون في « المسار » الصحيح . وأن يكون لها وزن اجتماعي . وأن تكون « مأمونة » تستطيع أن تدخل كل بيت وأن تنتقل من مكان إلى مكان دون خوف .. ومن الممكن أن تجد الزوجة نفسها تقول : أنا زوجة فلان وهي تقصد بذلك أنها الزوجة وأنها سيدة محترمة .. وهي في نفس الوقت لا تحترم الزوج ولا تراه شيئا هاما . وإنما هي فقط تجعل من زوجها سلاحا تشهره في وجه الناس سلاحا تخيف به ولا تحترمه .. ورغم ذلك فهو السلاح الوحيد الذي يمكنها أن تستخدمه أو تعتمد عليه .

وإذا كان الزواج عقدا ، فالخيانة الزوجية اخلال بهذا العقد . والطلاق فسخ للعقد .

ولأن المجتمع هو الذي يغرى الفتاة بأن تتزوج ، فالمجتمع هو الذي ضمن للفتاة حقوقها . وضمان هذه الحقوق مكافأة للفتاة على أنها تزوجت . فالمجتمع يحتم أن يكون هناك مهر ومقدم ومؤخر ونفقة إذا تم الطلاق . وبذلك لا تخاف الفتاة إذا تزوجت ولا تخاف إذا طلقت .

والمجتمع يشجع الزواج لأنه لا بد أن يكون هناك أطفال . أى لا بد أن يستمر . ولا يحدث أن يتدخل المجتمع في إنجاب الأطفال إلا قليلا : في أيام اسبرطة القديمة ، وفي ظل النازية في ألمانيا . فالدولة هي التي تختار الأمهات القادرات على الولادة وهي التي تحدد عدد الأولاد .

والمجتمع يرى أن الزواج ضروري لأنه لا بد أن يكون للفتاة زوج . أى أن المجتمع لا يفضل أن يكون هناك فتيات آנסات عانسات . ففي زواجهن تعديل

للقيم وانكماش للذيلة . وليس معنى ذلك أنه لم تكن هناك رذيلة في كل العصور . كانت هناك رذيلة وما تزال وسوف تبقى . وكانت هناك دعارة وما تزال وسوف تبقى أيضا . وكان للرجال صديقات . ولكن ظل المجتمع يحترم العلاقة الزوجية . ويطالب باحترامها أيضا . وإذا أساء الرجل إلى زوجته ، فإن المجتمع يعطيها الحق في أن تعود إلى أهلها .. وقد أسرف الفراعنة في تعويض المرأة عن خسائرها تماما كما يفعل الأمريكيان اليوم .

والزواج عبء على الاثنين ، ومنفعة لهما .. والزواج كالولادة : فيه أعظم لذة وأكبر ألم .

وكل اجتهادات العلماء هي في كيف تبقى اللذة مدة أطول من الألم . ولا بد أن استمرار الزواج حتى الآن دليل على أن أكثر الناس لم يفقدوا الأمل .

وما يزال المجتمع ينظر إلى الفتاة التي لم تتزوج على أنها فتاة « ضائعة » .. أو « بائرة » . وهي اهانة للفتاة لأن معنى ذلك أن أحدا لم ينظر إليها .. وأن الذين نظروا إليها ووضعوها في عيونهم سقطت هي من عيونهم .. فهي لم تملأ العين لأن بها عيوباً جوهرية . ولذلك فالفتاة تحب أن تتزوج . وأمها تعلم ذلك وتشجعها .

ومنذ أقدم العصور نجد الأمهات يدفعن البنات إلى طريق ابن الحلال وبأشكال مختلفة . ومن النقوش السومرية القديمة في العراق نجد امرأة تمسك ابنتها .. والأم بعين واحدة .. أو على الأصح بعين مقفلة والأخرى مفتوحة . ويقال في تفسير هذه العين الواحدة أن الأم تغمز لابنتها عند مرور أحد الشبان .

وفي إحدى روايات الأديب الفرنسي زولا يصور لنا ماذا جرى عندما زار الأسرة شاب غني . وكان عشاء وكان رقص . وجاءت الأم تسأل ابنتها : لاحظت أنك ترقصين معه كأنك لوح خشب .

وقالت الابنة : كيف أرقص مع رجل غريب ؟ .

وقالت الأم : بعد أن أمسك يدك ، ظل غريبا .. وبعد أن اقترب وجهه من وجهك .. وبعد أن رأيت لمعانا غريبا في عينيه .. ألم تلاحظي أن يده ترتجف .. وأن هناك قطرات من العرق على جبينه .. كل ذلك يدل على أنه ليس غريبا .. وإنما على أن في داخله عمليات كيميائية .. هذه العمليات هي الشيء القصروري .. هي الدليل على أن قلبه قد تحرك .. فماذا فعلت ؟ .

قالت الابنة : لم ألاحظ ذلك ..

قالت الأم : ولكني لاحظت أنه اقترب منك أكثر وأكثر .. ثم وقعنا أنتما الاثنان في ركن من الغرفة .. ماذا حدث .. ؟ .

فقالت الابنة : حاول أن يقبلني فألقيت به على أحد المقاعد .

قالت الأم : على أحد المقاعد .. تريدان أن تكسري المقاعد الجديدة . وهل تظنين أن والدك يتعب ويتعذب ليلا ونهارا لكي تحطمي هذه المقاعد .. لماذا لا تتظاهرين بأنك لا تفهمين ماذا يقصد . وأن هذه القبلة جاءت مفاجأة لك . إن هذا يؤكد سناجحتك وبراءتك .. ولا شيء يغري الرجل ويوقعه أكثر من فتاة ساذجة .. وفي سناجحة الفتاة أعظم الخبث واللؤم .. هل تعرفين كيف تزوجت أباك .. إنه ما يزال يتحدث حتى الآن على خيبيتي .. وكيف أنني لا أعرف معنى أن ينام زوجان في فراش واحد .. وهكذا تصور .. وهكذا جعلته يتصور .. وهو سعيد وأنا أيضا .. وكان لنا من هذه العلاقة السعيدة ، ابنة تعيسة مثلك .. الخ .

فهذه الأم تريد أن تلتقي بابنتها في أحضان رجل ، أمام عينيها ، ويعلمها من أجل الوصول إلى نتيجة مؤكدة : الزواج .. لأن الزواج ، بكل عيوبه ، أهون من بقاء الفتاة في البيت .

فالزواج يعطى الفتاة ضمانات قانونية ضد نزوات الرجل . ولكن في نفس الوقت يجعلها الزواج تابعة للرجل . تأخذ اسمه في الدول الأوربية - وتحاول أن

تفعل ذلك في الدول الشرقية .. وتنتقل إلى أسرته وتصبح « نصف » الرجل . أو نصفه الآخر . وتذهب إلى أى مكان يذهب إليه . وإذا عمل الاثنان في مكانين مختلفين ، فإنها تنتقل بعملها إلى حيث يعمل الرجل أيضا ، وتعطيه نفسها وجسمها .. وبذلك تفقد بعض حقوق المرأة غير المتزوجة .

والزواج مفروض على الفتاة ، وليس مفروضا على الفتي . فالفتاة إذا لم تتزوج فإنها تظل خادمة في البيت ، أو تابعة لأخيها الأكبر . أو لزوجة الأخ . أما إذا تزوجت تحررت واكتسبت حقوقا جديدة . وكثيرا ما فضلت الفتاة الزواج على العمل خصوصا إذا كان الزوج له وضع اقتصادى أفضل ، أو سوف يحقق نجاحا أكثر من نجاحها .. فالزواج أحسن من وظيفتها .

وما يزال المجتمع ينظر بنصف عين إلى الفتاة المتحررة . وأكثر المجتمعات تقاوم هذه الفتاة . صحيح في فرنسا لا يوجد نص قانونى يعاقب على الخيانة الزوجية ، ولكن مع ذلك هناك في كثير من الريف الفرنسى قيود شديدة على الفتاة . بل أن هناك مراسم وتقاليد صعبة وخصوصا في ليلة الزفاف . وهناك دخلة وهناك مراسم لإعلان أن الفتاة كانت عذراء وأن هذا هو مصدر فخر الأب والأم وأن هذا في الريف فقط ، بعض الريف .. أما في أمريكا فالفتاة حرة . ولكن الفتاة لا ترى نفسها طبيعية إلا إذا تزوجت مرة .. فإذا كانت مطلقة عاودها القلق من جديد . فلا بد أن تتزوج وأن تبقى زوجة أيا كان رأيها في الزوج وفي الزواج . فإذا كانت الفتاة أما بلا زواج ، فهذه مشكلة لها ولطفلها .. وفي المجتمع الأمريكى يوجد أناس محافظون إلى أقصى درجة . بل إن كثيرا من العائلات الأمريكية الريفية تبعث بالبشرى إلى أقاربهم في أوروبا إن ابنتهم عندما تزوجت كانت عذراء .. أمام شهادة الشهود .

والمشكلة الصعبة هي أن كل الفتيات يردن أن يتزوجن ، وكل الشبان

لا يريدون ذلك . ولكن يتم الزواج رغم ذلك وينتشر ، وليس ذلك دليلا على أن الفتاة قادرة على تحقيق أحلامها ، وأن الفتى عاجز .. ولكن على أنه رباط ضرورى ، والإنسان أمام الضرورة يحاول أن يؤكد لنفسه أنه ليس مضطرا ، وإنما هو اختار ذلك ، ولهذا يتحدث عن الزواج كـرغبة وأمل وحلم ورباط واستكمال الوجهة الاجتماعية والأخلاقية . والحقيقة أنه ضرورة ، وأن الإنسان يضع على الضرورة ورودا : يزينها ويخفيها فى نفس الوقت ..

والشباب لا يرى أن الزواج مشروع كبير ، وأنه مستقبل ، وأن من الضرورى أن ينجح الزواج ، فالزواج أحد مشروعات الرجل ، إحدى المحطات فى حياته .. وليس الزواج حياة الرجل ولا هو مستقبله ولا الفشل فيه فشل عام . على عكس الفتاة . والحياة الحديثة قد سهلت للرجل الكثير ، وهونت عليه الكثير أيضا . فهو يستطيع أن يجد المسكن والمأكل وغير ذلك دون أن يكون زوجا ، ودون أن يحتاج إلى زوجة ، ولكن الزواج يعطيه البيت الخاص والمزاج الخاص ، والأمان والأطفال وهذا مالا يستطيع أن يجده بغير زواج ..

وليس الزواج تقريبا لوجهات نظر مختلفة بين الرجل والمرأة ، وإنما الزواج هو تقريب رجل وامرأة فقط . وقد تبقى وجهات النظر متباعدة ، كما يجلس اثنان متجاورين وقد نظر كل منهما إلى ناحية .. أو كما يجلس انسان فى المقعد الأمامى للسيارة ، أحدهما يقود والآخر يتفرج ، فهما متجاوران فى المكان ، وليس فى الهم والاهتمام .

وعندما سئل أديب فرنسا بلزك عن دور المرأة فى الحياة الزوجية قال : المرأة هى الشجرة والرجل هو الماء والهواء ، ومعنى ذلك أنها ضرورية . وليس هذا هو رأى الزوجين عادة ، فلا أحد بالذات ضرورى للآخر ، لأنه من الممكن أن يكون للزوجة أى رجل آخر ، وأن يكون للرجل أية زوجة أخرى فالضرورى فقط هو :

اثنان .. أى اثنين ، لتكون حياة ، أية حياة . وليكن أولاد .. أى عدد .
وفي العصور الوسطى وقعت قصة مشهورة بين رجل وامرأة ، وكان الخلاف
على ولد ، وأيهما أحق به من الآخر . وقالت الأم : أنا أول وجه رآه .. وأنا
وحدى الذى أستطيع أن أقول إنه ابنى .
ولم يكن لدى الرجل ما يقوله : فلا هو رآه .. ولا هو قادر على أن يقول إنه
ابنها أو ابن غيرها .
وعلى الرغم من تفاهة هذه الأسباب فقد حكم القاضى للأم بأن تحتضن
طفلها .

وفي الأدب العربى حادثة مشهورة فقد اختلف أبو الأسود الدؤلى هو وزوجته
على حضانة طفل فى السابعة من عمره . ودار بينهما حوار عنيف أمام القاضى .
قالت الزوجة : هو ابنى ، كان بطنى وعاءه ، وحجرى وقاءه ، وثدياى
سقاءه ، أرعاه إذا نام وأحفظه إذا قام .. سبعة أعوام .

وقال الزوج : أنا حملته قبل أن تحمليه ، ووضعتة قبل أن تضعيه ، وأمنحه
اليوم علمى وحلمى ..

وقالت الزوجة : أنت حملته خفيفا وأنا حملته ثقيلًا ، وأنت وضعتة فى
لذة ، وأنا وضعتة فى ألم .

ومن الطبيعى أن يحكم القاضى للأم .

ومن الطبيعى أن يظل هذا الخلاف قائما بين الرجل والمرأة على أهمية الدور
الذى يؤديه الواحد فى حياة الآخر .. ربما كان دور الاثنين تافها ولكن من المؤكد
أنهما يؤديان دورا هاما للمجتمع وللطفل .

وهذا هو الذى يعبر عنه الأديب بلزك بقوله : الطفل هو : دقائق من اللذة وشهور من الألم .

والزواج قديما هو الشرف ، بمعنى أن الزوجة يجب أن تحافظ على شرف الزوج مقابل ما يقدمه لها من طعام وشراب وهدايا ، فهو يصونها وهي تصونه ، وعلى الرغم من أن هذا المعنى يبدو عنيفا ، فإنه ليس بعيدا عن الحقيقة ، فالزواج شركة اقتصادية كل واحد يدفع ما يقدر عليه ، وعندما يفض الزوجان هذه الشركة يكون السبب عادة : أن كل واحد منهما لا يدفع نصيبه المتفق عليه .

والزواج غير الحب ، فمن الممكن أن يكون زواج بلا حب ، ومن الممكن أن يكون حب بلا زواج ، ولكى يلتقى الحب بالزواج يحتاج الإنسان إلى معجزة . أو شيء كالمعجزة ، والفيلسوف الوجودى المؤمن كيركجورد يقول : الحب تلقائى والزواج إرادة .

أو بعبارة أخرى : أن الحب ينطلق من القلب دون أن تكون لنا إرادة ، أما الزواج فقرار يتخذه العقل . أو بعبارة أسهل : الحب كماء الينابيع ، والزواج كماء الحنفية .

ويقول الفيلسوف كيركجورد : الله وحده هو القادر على أن يجعل الزواج يجلس عند صدر الحب ويرضع لبن الحياة الدائمة .

أما الفيلسوف نفسه فقد تخلى عنه الله .. ولم يفلح الفيلسوف أن يتزوج محبوبته ، لقد تركته ، لماذا ؟ لأن الزواج أسهل مما تتصور ، فقد كان ينتظر المعجزة ، أما هي فلا صبر لها على انتظار المعجزات ، وإنما تقدم لها شاب آخر أكثر ثراء ، وأصح جسما وعقلا ، وقال لها : ما رأيك فى أن نتزوج ، كان ردها : لا مانع .. وقال لها : ولكنك كنت مخطوبة للفيلسوف ؟ وقالت : هذا صحيح ولكن لم أفهم منه أننا سوف نتزوج ..

ومعنى ذلك أنها تزوجت الذى لم يخطبها ، ولم تتزوج الذى خطبها ..
وأهم من هذه القوانين بين الرجل والمرأة فى النظر إلى الزواج : أن الزواج لا يعطل الرجل ، ومن الأفضل ألا يعطله ، ولذلك فالرجل حياته خارج البيت . عمله . مستقبله . قدرته على التغيير والتطوير ، ولذلك فستقبل الرجل بلا نهاية .. وللرجل أهمية اجتماعية تاريخية ، لأنه مربوط بالتقدم وبالحضارة الإنسانية كلها .. ولكن الزواج يربط المرأة بالبيت ، وحتى لو كانت عاملة فإنها فى النهاية تعود إلى البيت ، وفى البيت يصبح عالمها أصغر . أضيق . وتصبح مشغولة بالرجل وأولاد الرجل ، وتبدأ المعركة التى لا تنتصر فيها أبدا : معركتها مع النظافة ، فهى تعمل كل يوم على ترتيب البيت وتنظيمه وتنظيفه .. فلا التراب ينجنى ، ولا المقشات ، ولا أمل فى النصر على القدارة ، ولكثرة انشغال المرأة بالتراب تتخيل فى بعض الأحيان أن كل شيء فى الدنيا تراب ، وأنه من الممكن تنظيفه وغسله .. وفى إحدى روايات الأديب الفرنسى مونترلان يدخل الزوج فلا يجد زوجته وإنما يجد ابنته الصغيرة تمسك فوطة وتمسح بها المقاعد ، ويضحك الأب لرؤيته ابنته الصغيرة ويقول لها : فى هذه السن المبكرة تصابين بجنون النظافة ؟ ويكون رد الطفلة : إننى مثل ماما .. ويكون رد الأب : تماما .. أنت تقلدين الجنون . وتقول الطفلة بدكاء وخبث : ماما مجنونة ؟ ويضحك الأب قائلا : فعلا مجنونة .

وتقول الطفلة بخبث أشد : هل هى مجنونة لأنها تقول إن كل شيء يمكن غسله إلا أبالك .

والطفلة أصابت قلب أبيها .. وقلب الحقيقة برصاصة واحدة ! .
وعلى الرغم من أن الزواج لقاء بين اثنين .. أو خلاف بين اثنين ، فإن هذا الرباط لم يكن عادلا دائما ، فلا يزال الرجل صاحب الكفة الراجحة .. ولا يزال فى كل مكان يظلم المرأة ، حتى فى أكثر المجتمعات تقدما ، ولكن من المؤكد أن هناك

تغييرات جوهرية قد حدثت في كل المجالات ، فلم يعد الزواج حفرة في الأرض تسقط فيها الفتاة ، وينهال عليها الرجل ، ولم يعد الزواج مصيدة تدخلها الفتاة عمياء .. وإنما أتاحت للفتاة فرص كثيرة لأن تفهم ولأن تختار ولأن تذاكر دوره في التمثيل على أهلها في « اختيار » الزوج ، الذي اختارته واتفقت معه على الزواج قبل أن يتقدم لأهلها .. وإذا كان آباؤها يزوجونها قبل ذلك ، فإنها هي التي تختار زوجها ، ولا بد أن يكون هذا هو الأسلوب في الزواج ، فقط الأسلوب . أما بعد الزواج فقصة أخرى ومسئوليتها وحدها ، أو مسئوليتها المشتركة ..

ومنذ أكثر من ألف سنة أشفق الكاتب العربي الجاحظ من هذه الخلافات التي بين الرجل والمرأة ، وراح يحصى المزايا والعيوب عند الرجل والمرأة ، ولكنه كان أميل إلى تحرير المرأة من قيود الرجل ومن ظلم الرجل أيضا ، ففي كتاب له اسم « النساء » يندهش كيف أن الرجل يأخذ حقوق أمه ويعطيها لأبيه .. وحقوق عماته وخالاته ويعطيها لأعمامه وأخواله ، ويندهش أكثر من أن الرجل يسمى عمليا الأخذ الظالم والعطاء الأحمق نوعا من العدل الانساني .

والأديب بلزك يقول : ليس لأن المرأة قد طال لسانها أكثر من اللازم نختصر بقية أطرافها عقابا لها على ذلك .

وعبارة بلزك حكيمة وبلغية لولا أن أطراف المرأة ، مثل عمرها طويلا أيضا ..

الزوجة من صنع الرجل : نظرة قديمة

- ٨ -

الأديب الروسي تولستوى : أسوأ زوج تعيش في تاريخ الأدب .

فقد كان أميرا غنيا . وكان شابا . وكان أديبا . وأحبته فتاة صغيرة . وجلست عند قدميه وسمعتة يقرأ مقالاته . وانهارت وذابت . وأحبها . وتم الزواج . ومع الزواج ولدت التعاسة والجنون . أما هو فرجل دميم الخلقه - أقبح قليلا من الفيلسوف سقراط أتعس الأزواج في العصور القديمة كلها .

وكان تولستوى يخون زوجته مع كل فلاحه تقترب منه وكانت زوجته تعلم ذلك . وربما كان هذا هو السبب في حرصها على أن تحمل وتلد له عشرين ولدا . فقد أصيبت الزوجة بجنون الحمل والولادة . كأنها تريد أن تؤكد لعشرات الفلاحات أنها ماتزال على صلة بالزوج . وأنها هي وأولادها سوف يرثون الأرض .. حتى الأرض قد وزعها تولستوى على الفلاحين ، فلم ترث زوجته إلا المرض والجنون والهوان والفقير . وعندما ذهبت الزوجة إلى القيصر تشكو زوجها ، سجل الزوج هذه الفضيحة في إحدى قصصه . ولما أحس تولستوى أنه سوف يموت هرب حتى لا يكون وجه الزوجة هو آخر لعنة يراها قبل أن يموت .

ولحسن حظ المرأة ، أنه لا يوجد في الدنيا رجال كثيرون مثل تولستوى وأنه

ليس من الضروري إذا وجد مثل تولستوى أن تحمل المرأة كل هذا الهوان معه.. ففى استطاعتها أن تتركه . وفى استطاعتها أن تتزوج غيره . وليس من الضروري أن يكون لها من كل زوج عدد من الأولاد . يربطونها به .

وهذه الحياة التى عاشها تولستوى قد سجلها فى قصة «الحرب والسلام» فقصة الفتاة ناتاشا وزوجها بيير هى قصة حياة تولستوى نفسه . وعندما حاولت زوجة تولستوى أن تدافع عن نفسها ، كتبت «يوميات» وقد ظلمت نفسها كثيرا . وأساءت إلى عواطفها . فقد كان تولستوى أذكى وأخبت وأعمق عندما صورها بصورة جميلة ظالمة ، وصورتها العادية لم تكن جميلة .

وزوجة الأديب راسين لم تكن تهتم كثيرا بعمله ، قدر اهتمامها بشجيرات الحديقة ..

والأديب بلزك يقول : ليس من الضروري أن يكون اهتمام المرأة بعمل زوجها مصدر سعادة له . فالمرأة عندما تهتم بالرجل يكون موقفها كرجل البوليس يبحث عن آثار جريمة ، أو مبررات جريمة . إنها تهتم لكى تهتم .

والأديبة مدام شاربيير كانت زوجة لرجل ذكى عاقل ، عالم ، ولكنه مشغول عنها . ولذلك عندما كتبت رواياتها وصفت التعاسة الزوجية . وقالت : إن يكون اثنان معا ، وليست بينها صلة . فكل شىء يؤكد انها اثنان منفصلان . وتقول مدام شاربيير أيضا : لقد اعتدت على وجود زوجى فى البيت .. كما اعتدت على رؤية السحاب فى السماء .. أو على رؤية هذه الجبال .

وقالت الأديبة كوليت عن زوجها : له مزايا كثيرة .. ومن أهم مزاياه أنه يعطينى شيئا من الارتياح عندما يقفل الباب وراءه ويخرج صباحا ويعود مع الفجر . تلك لذة لا أشعر بها لأحد من الناس .

وتقول عنه أيضا : عندما مرض انزعجت . فقد أحسست أن راحتي عند

خروجه من البيت سوف تضيع منى . فتمسكت به .. تمسكت بهذا الضيف
الدائم الذى لا يذيقنى طعم الراحة إلا قليلا . لعل الله يشفيه ويخرج من
البيت .

ولكن لأن هؤلاء جميعا صناعتهم الكلام والخيال ، ولأنهم على درجة
شديدة من الحساسية فإنهم يبالغون فى تصوير مشاعرهم . ولا يهمهم مدى
انطباقها على واقع حياتهم . وإنما يهمهم فقط هذا الاطار الفنى وما يضعون
فيه من صور فنية .. صادقة أو كاذبة . ولا بد أن الله لطيف بالرجال والنساء
جميعا عندما لم يجعل من بينهم عددا كبيرا من المهتمين والمهتمات بالأدب
والفن .. وإلا تحولت الدنيا إلى قطعة رائحة من جهنم .

ومع ذلك فالبيت - أو الحياة الزوجية - فيها كل أنواع اللذة والألم .
صحيح تغيرت اللذة والألم . ولكنها دائما هناك . لقد اتسعت الدنيا أمام الفتاة
الآن . ولم تعد مثل جدتها مربوطة فى البيت إلى جوار النافذة ويدها على
خدها تنتظر السيد المطاع : الزوج . ولم تعد الفتاة تضع كل همها وغلها أيضا
فى شغل البيت . تكنس وتغسل . وفى عمليات الكنس والغسل رفض للبيت
وللحياة فى البيت . ولم تعد المرأة تجد كل راحتها فى أن تعبر عن ضيقها
باستخدام المقشاة وغلى الماء واحراق الأخشاب وكأنها فى معركة . تحرق عدوا
أو ميكروبا أو عفريتة فى البيت . وفى هذا كله تعبير عن رغبتها فى الانتقام
والتحرر من قيود البيت وصاحب البيت وسلطات المجتمع . وأصبحت الأجهزة
الحديثة تتولى هذه الأعمال بالنيابة عن المرأة ، وبدون غيظ أو شعور بالانتقام من
الرجل .

ومن الغريب أن المرأة التى تهتم جدا بالبيت وبنظام البيت وترتيب البيت
ليست هى دائما السعيدة فى حياتها . كأنها تعوض السعادة بشغل البيت . ولكن
لا بد أن يكون الفراغ الهائل فى حياة المرأة هو الذى يجعلها تشغله بهذا العمل المستمر

في إدارة البيت .. فن الملاحظ أن نساء هولندا أنظف نساء العالم . ومن المؤكد أنهن أقل النساء ميلا إلى الجنس .. ونساء البحر الأبيض المتوسط أقل اهتماما بنظافة البيت ، ولكنهن أكثر النساء اهتماما بالجنس . ومع الاهتمام الشديد بالجنس يحتاج الاهتمام بالنظافة والعطور .. وهناك نظرية تقول : إن الاسراف في نظافة البيت دليل على أن صاحبة البيت عصبية . وأن مزاجها العصبي هو الذي يجعلها لا تطيق القدرة أو الإهمال . بل إنها تفرض على أهل البيت نظاما دقيقا . ولذلك كانت هناك بيوت يعيش فيها أهلها بصعوبة ١ . لأن كل شيء في البيت يصرخ قائلا : لا تلمسني .

وأعجب من ذلك أن البيوت النظيفة جدا ، أى التى يعمل فيها الخدم ، نجد أن هؤلاء الخدم مطالبون ألا يلمسوا شيئا هم أيضا - مع أنهم هم الذين غسلوا وكنسوا ونظفوا .

ولكن المرأة عند زواجها ، تخرج من الفراغ بأن تشغل نفسها بالرياضة أو العمل في الجمعيات .. أو بالعمل .. أو بالكلام في التليفون أو بتربية الأطفال . ولكن من أهم ملذات المرأة أن تذهب لشراء شيء . إن عالم الشراء متعة ، اكتشاف ، اختراع . فالمرأة ترى وجوها وتقابل أناسا ، وتسمع وتعود إلى البيت وقد امتلأت عيناها بالمنظر وأذناها بالقصص وشنطها بالبضائع . وليس من المهم أن تكون مشترياتها ضرورية ليس هذا هو المهم . وإنما الذى يسعدها أنها تتصور أنها ضحكت على أحد الباعة . واشترت منه سلعة بثمن أرخص . أى أنها حققت شعارا هاما في حياتها : الأحسن والأرخص . ولكن من الممكن أن يكون الذى اشترته ليس ضروريا ، ولكن الضرورى أنها ضحكت على البائع . مثلا : لو فرض أنها ذهبت لشراء شنطة يد بعشرين جنيها ، في حين أنها كانت معروضة للبيع باثنين وعشرين جنيها . فهي قد اشترتها بثمن أرخص . وقالت له وقال لها .

وناقشته وغلبته وضحكت عليه . والنتيجة أنها اشترت شنطة غير ضرورية ،
وفى نفس الوقت غالية ..

ولكن البيت وحياة البيت والعمل فى البيت ، كل ذلك نشاط مغلق .
نشاط ليس له مستقبل . فالبيت لا يؤدي إلى تطور الحياة العامة . ولا يساعد
الحضارة على تقدمها . ولذلك فالمرأة فى البيت عائق لقدراتها ومضيعة
لنشاطها ودورها فى الحياة . ولذلك فالمرأة عندما تحررت من البيت ، فتحت
لنفسها بابا على المستقبل . وجعلت البيت جانبا من حياتها .

ولا يمكن أن تتحرر المرأة ولا أن تحقق شيئا إذا كان الزواج هو قدرها
النهائى الوحيد . ربما كان ذلك أحسن وأهدأ . ولكن العمل خارج البيت
واعتمادها على نفسها ، يعطيها الحرية والتعاسة معا .

ولاشك أن حياة البيت فقط مقبرة لمتعة الحياة ووهج الشباب .. ولكن
لا يمكن أن يحصل الانسان على كل ما يريد بلا مقابل . فكل شيء له ثمن .
والثمن ندفعه عادة من راحتنا وسعادتنا .

وقد تتصور أن العشرة الزوجية تؤدي إلى الفهم . أو التفاهم . فمن الممكن
أن يتعاش أناس غير متفاهمين ويظلوا على ذلك حتى يجمع الموت بينهم فى
وفاق تام تحت الأرض . وكثيرا ما أقام رجل وامرأته فى بيت دون أن يسأل
الواحد الآخر عن متاعبه ومشاكله ! دون أن يعرف إن كان طعم الحياة حلوا .
أو كانت هناك حلاوة فى أية لمسة أو همسة أو إن كانت غرفة النوم هى غرفة
تحضير أرواح الفاشلين فى الحياة الزوجية . وتمضى الحياة وكل منهما قد ابتلع
حكمة قديمة تقول : الصبر والصمت : مقبرة كل شيء جميل فى هذه الدنيا .

وليس غريبا أن تردد المرأة ما قاله الأديب بلزك : إنها تتزوج شاعرا ،
وعندما تعيش معه تكتشف أنه يسمح شفقيه بيديه .

أو بعبارة حديثة جدا : إنها تتزوج نجما سينائيا ، وبعد أيام تكتشف أنه لا يشد السيون وراءه .

وهناك نقطة لا يفهمها الرجل ولا النساء عادة لنفرض أن الزوج مهندس أو طبيب أو أديب أو مأمور ضرائب هذا الرجل له اهتمامات خاصة . ولا يستطيع أن يشرك زوجته في اهتماماته هذه . ويشعر الزوج أنه وحده . وأن له حياة خاصة . أو مشاغل من نوع خاص . هذه المشاغل تجعله على صلة بآخرين من الرجال يتحدثونه في همومه ويشاركونه . ويخففون عنه . فلا بد أن يكون على صلة يومية بهم .. ولكن الزوجة لا تستطيع أن تكون طرفا . ثم إنها لم تتعلم أن تكون طرفا في حياة طبيب أو أديب أو مهندس . لأنها عندما تزوجته ، فوجئت به فهو رجل غريب عليها . وحتى بعد أن عرفته ، لم تعرف كل شيء عنه . فلا وقته يتسع ولا صدرها ولا العمر كله يتسع لذلك .. ومع ذلك فمن الممكن أن يظل هذا الرجل شاعرا أو نجما سينائيا ممتازا . حتى لو نسي أن يشد السيون وراءه أو يقفل الحنفية أو الشباك .. أو فه .

وهذه الصعوبات في الحياة الزوجية معروفة وطبيعية . ولكن المشكلة دائما أن الفتاة تواجهها وحدها . وهي جديدة بالنسبة لها . وتريد أن تزيلها أو تعتاد عليها .. ومن الصعب أن يعتاد الانسان على الصعوبات . وأصعب من ذلك أن تزيلها بسهولة . ولهذا تفضل بعض الفتيات أن يتركن المشاكل للزوج يتولى هو حلها . وإذا كان الزوج نفسه مشكلة فمن الذى يصفق للحل السعيد؟

كانت جداتنا يتركن أنفسهن للزوج تطبيقا للقاعدة التي تقول : الرجل لعبته المرأة . وعلى المرأة أن تعتاد على اللعبة الجديدة . هل الزوج يريد كرة قدم أو كرة سلة أو كرة ماء .. المهم أن تكون كرة عند قدميه أو يديه . فالزوج هو الذى يصنعها أما هي فعجينة في يده إن شاء أكلها نيئة وإن شاء أحرقها

بنار الفرن . وتعلمت المرأة أن تستسلم للرجل وفي نفس الوقت تكون على حذر .. أن تكون عند قدميه وفي خيالها أن يكون هو أيضا . أن تستسلم له وهي غالبية . وأن تقع بين يديه متصرة .

ولكن هذه الصورة تغيرت أيضا .. فلم يعد الرجل هو الذى يلعب بالمرأة . وإنما الحياة الزوجية لعبة الاثنين . لا غالب ولا مغلوب . مباراة بلا أهداف ولا كأس ولا دورى . فليس من أهدافها أن يخرج أحد من الملعب أو من الدورى . وإنما أن يتظاهر الاثنان بأنها حكمان . ويتظاهر الاثنان بأنها مقامران . ويكسب كل منهما الآخر . والذى يكسبانه ينقلانه من جيب إلى جيب ومن شبكة إلى شبكة .. فهي مباراة ودية ، وإن كانت لها حماسة الخصومة .

ومن المؤكد أن المرأة أقرب إلى البيت . والبيت أحب إليها من الكتب . والرجل يجارها في ذلك .. أو يوهمها بذلك أو توهم نفسها بأنها فعلت به ذلك .. ولكن لا تزال طبيعة الرجل مختلفة .. فالرجل يريد المرأة على كل لون وكل طعم .. تكون عندما يريد وعندما لا يريد .. حارة وباردة .. مقبلة عليه ونافرة منه .. قريبة بعيدة . أن تكون له ولا يكون لها .. أن تضعه في مكان ثابت من عالمها . وأن تتركه هناك وحده حرا .. وأن تحتفظ له بالنظام اليومي في حياته ، ولا تكون مملة .. أن يكونا اثنين ، وفي نفس الوقت يظل واحدا وحيدا .. إن تريحه وأن تسمح له بحق الشكوى منها أو من غيرها .. أن تكون في حياته ، جوهر حياته ، وتفاهتها أيضا .. أن تتزوجه وأن تشعر أنه ليس زوجها ، وأنه حبيب .. عشيق .. أنه أعزب .

والمرأة تحتاج إلى كثير من العقل والتجربة لتقوم بدور البهلوان في سيرك الحياة الزوجية .. والذى ينظر إلى الصورة من بعيد ، يحس أنه لا توجد امرأة

في العالم تستطيع أن تكون هذه الساحرة القادرة على تحويل النمر إلى قط ..
والقط إلى فأر .. والفأر إلى المصيدة وتعلق على المصيدة ورقة مكتوب عليها :
نهاية زوج ؟ .

ولكن الذي لا تعرفه المرأة أنها قادرة على ذلك وأكثر من ذلك .. وأنه
ما من أسد إلا تحول على يديها إلى أرنب .. وما من غابة إلا تحولت على يديها
إلى زهرية ورد .. ولا يوجد وحش لم تروضه امرأة صغيرة أو كبيرة ..

والذي يقرأ قصة زواج الشاعر العربي امرئ القيس من فتاة صغيرة يعرف
ما الذي تستطيعه فتاة . لقد بعثت له بفوازير .. وأجاب عنها .. وأطعمته
وقلبته في الماء والنار والشمس .. حتى عرفت كل شيء عنه ثم تزوجته .. وبعد
أن قطع لها الصحارى والليالي وسقط في الآبار ومرض وكاد يموت .. وكانت
دون العشرين بكثير .. لم تكن سوى فتاة صغيرة عاشت في الصحراء منذ
أكثر من أربعة عشر قرناً . ولكن كان لديها خبث ودهاء بنت القرن
العشرين !

إنها تستطيع لو أرادت .. وهي تريد . 'وبذلك فلا خوف عليها من
الرجل . بل الخوف عليه اليوم ، وكل يوم ! .

الأمومة مثل الحب ولكن بالإمقابل

- ٩ -

بعد أن ارتكب آدم وحواء أول خطيئة ، هبطا إلى الأرض . وقالت التوراة : ستلدين في ألم وتشتاقين إلى زوجك الذى يتسلط عليك . ومعنى ذلك أن حواء عوقبت بالشوق إلى الرجل وهذا الرجل يتسلط عليها . ومن هذا الشوق تحمل وتلد وتتعب . أما آدم فقد كان عقابه بالإضافة إلى حواء هذه ، أن يأكل فى تعب وعرق .

منذ ذلك اليوم وكل من آدم وحواء يسف التراب لكى يعيش ، وكلاهما تراب الآخر . حياته ومماته ، بيته ومقبرته . وتلك هى حكمة الحياة : إن الذى نعيش به ، نموت به أيضا .

أما المرأة فتكتمل أنوثتها إذا حملت وولدت ، تماما كأنها شجرة أزهرت وأثمرت ، وبعد ذلك تزهر وتثمر من جديد ، والمرأة تتمنى أن تكون أما ، ولكن أمنيتها هذه بشروط يحددها المجتمع ، وهى أن تكون أما لرجل يعرفه القانون والقانون لا يهتم كثيرا بمدى موافقة الرجل لطباع المرأة أو أحلامها وإنما الرجل ضرورى لاستيفاء الاجراءات فقط ، وعلى المرأة أن تختار ، أو يختاروا لها الزوج القادر على تحقيق رغباتها وأحلامها .

ولذلك فمن الضروري أن يكون «حمل» المرأة شرعيا. أما إذا حملت بصورة غير شرعية ، فالمجتمع يطالبها فوراً بأن تتخلص من هذا الجنين ، ومن مئات السنين كانت الفتاة تنتحر أو يتولى أهلها قتلها ، ولكن في العصر الحديث أباحت بعض الدول الإجهاض ، أو اخترعت لها حبوب منع الحمل ، وبذلك لا تحمل فلا يعرف أحد من الناس ماذا جرى لها ، وكثير من الدول تحرم الاجهاض ، وبعض الدول تراه جريمة ، وهي جريمة لا يقدر عليها إلا الأغنياء فقط ، أما الفقراء فالخطيئة هي الموت ، والحمل هو مبرر الموت السريع أو العار الذي يؤدي إلى الموت ..

والمجتمع موقفه غريب من الجنين ، فعلى الرغم من أن الدول تترفق بالجنين فإن موقفها من الجنين إذا ولد ليس رحيماً ، فالابن غير الشرعي يلاقى عذاباً شديداً هو وأمه .

ومن المؤلفين أن نجد بعض الأدباء يصفون عمليات الولادة ، ولكن من النادر أن نجد أدبياً يصف ما تعانيه الأم إذا ولدت ابناً غير شرعي ، مع أن الولادة واحدة ، وربما كان العذاب في الولادة غير الشرعية أقسى على الأم ، ولكن المعنى الأخلاقي أقوى وأقسى .. حتى الأدبيات لم يستطعن أن يصفن هذه الحالة التي تعانيها واحدة منهن وفي ظروف شديدة القسوة . إذن فالمجتمع أقوى من الألم ، والأخلاق أقسى من الولادة .

ولم تكن المرأة من مئات السنين تعرف ما الذي تستطيع أن تفعله لتحديد أطفالها ، إنها تلد ، والرجل يضيق بالزوجة التي لا تكف عن الولادة : ويضيق أكثر بالاحتياجات التي يتخذها الاثنان ولكن النتيجة واحدة دائماً : المزيد من الأولاد .

ومن المعروف أن دخول المياه الجارية - مياه الحنفيات ودورات المياه .

هو الذى ساعد المرأة الفقيرة على التخلص فوراً من مبررات الحمل - وعلى الرغم من كل آلام الحمل والولادة فإن المرأة تنسى ذلك مع كل حمل جديد حتى لقد تصور الرجال أن المرأة «تمثل» عليهم ، وأنه ليس صحيحاً أنها تتعذب أو تتألم ، ولكن الولادة هي الحادث الخطير في حياة المرأة الذى يلتقى فيه أعظم لذة بأعظم ألم ، وعندما اخترع الإنسان البنج والمواد المخدرة رفضت بعض النساء استخدام البنج ، وكانت حجة المرأة أن الطفل الذى لا تتألم في ولادته ، ليس ولدها ، وقد هاجم رجال الدين البنج لأنه يتنافى مع ما جاء في التوراة من أن المرأة يجب أن تلد في ألم .. فكيف تلد بلا ألم ؟ مع أن الرجال الذين يحرمون البنج لم يحرموا على أنفسهم أنهم يأكلون بلا تعب : ويرثون أموالهم بلا عرق ..

وإذا حملت المرأة ، دون رغبة منها فإنها تقع في حيرة : إنها لا تريد الطفل وفي نفس الوقت تريده ، تريده لأنه جزء منها ، ولأنها لا تستطيع أن تقتل طفلها ، ولدها ، قطعة من كبدها .. من قلبها ، وفي نفس الوقت لا تريده أن يتعذب ولا أن يجوع ولا أن يكون سبباً في خلاف مع الرجل الذى تحبه . والمرأة إذا أحببت زوجها ، فإنها تحقق له ما يريد ، ولو كان أسمى شيء : ألا تنجب أطفالاً ، ولكن إذا كرهت المرأة زوجها ، فإنها لا تهتم كثيراً أن تحدد نسلها ، وإنما ترى في زيادة عدد الأطفال مبرراً قوياً للعن الزوج والحياة معه .. وقد وصفت لنا زوجة الأديب تولستوى في مذكراتها : كيف أنها كرهت الحياة ونفسها وجسمها في كل مرة حملت فيها ، إنها تحتفظ لزوجها بأسوأ ذكرى لأسوأ شهر عسل .. الليلة الأولى من شهر العسل .

وبعد أن تتخلص الأم من الجنين ، فإنها لا تنسى هذا الحادث أبداً ، بل أن الكاتبة الكبيرة هيلين دويتش تحدثنا عن حالة مرضية لسيدة كانت تعالجها ، هذه السيدة تخلصت من الحمل ، وعرفت أنها تخلصت من

توأمين ، فأقامت السيدة قبرين لها ، مع أنها قد أنجبت بعد ذلك عددا كبيرا من الأطفال ، فالمرأة لا تنسى أنها قتلت بيديها طفلا .. طفلها .

وتروى لنا الكاتبة هيلين دويتش أيضا أن فتاة تخلصت من الجنين حتى لا تهدم مستقبل حبيبها ، وبعد أن تخلصت من الجنين ، لم تستطع أن ترى هذا الحبيب لأنه هو الذى أرغمها على ارتكاب هذه الجريمة .

والرجال لا يعرفون - عادة - معنى أن تحمل المرأة وأن تلد ويكون لها طفل . لأنهم لا يعرفون معنى الوحدة والملل والمرض والشعور بالنقص الذى تحس به المرأة التى لم تلد .. والرجال لا يعرفون أيضا معنى عذاب الولادة والحضانة والتربية ، ولا يعرفون أن هذا العذاب نفسه هو الذى يجعل المرأة تكره أنها أنثى ، وتكره الجنس ، وتكره العلاقة التى تربطها بالرجل وينفرد الرجل باللذة ، وتنفرد المرأة بالألم .. إن المرأة تكره الجنس فى أحيان كثيرة ، أى تكره جنس الرجل ولذلك أحيانا تتجه المرأة إلى بنات جنسها ، إلى الصداقة الشديدة التى هى أرحم من صداقة الرجل .

ومن التناقض والنفاق عند الرجال أنهم يرفضون الاجهاض ويرفضون حبوب منع الحمل عموما .. ولكن إذا وقع الواحد منهم فى كارثة فهو أول من يتحمس ويطلب بضرورة الاجهاض وضرورة حبوب منع الحمل .

والمرأة تحتاج دائما إلى من يساعدها فى حالة الحمل والولادة ، وكذلك إناث الحيوانات التى استأنسها الانسان ، وإن كانت هناك نساء يستطعن أن يلدن وحدهن دون مساعدة أحد ، وقد لجأت المرأة إلى ذلك فى بعض الأحيان خوفا من الفضيحة ، فماتت ومعها طفلها أيضا .

وإذا كانت الولادة ضرورية للمرأة ، أو للأنوثة ، فاحتفاظ المرأة بجهاها وجمال جسمها ضرورى أيضا ، والمرأة التى تحرص على أن يكون جسمها

سليما ، ولا يتشوه بالحمل أو الولادة ، فلا يترهل وتتدلى الأثداء ، وإنما تظل
البشرة مشدودة ، ولذلك فهذه ترفض أن تكون أما كثيرا أو أما على
الاطلاق .

وفي رواية «الحرب والسلام» لتولستوى يقول : إن المرأة تنظر إلى الولادة
على أنها حكم بالاعدام ثم لا يتم الاعدام - مع الأسف ..

وفي إحدى روايات مدام فرناى نجد زوجة قد عرفت أن الرجل الذى
طلقها تزوج امرأة أخرى ، وقيل إن وجهها دميم ، ولكن الزوجة لم تصدق ،
وأصرت على أن ترى الزوجة الجديدة وكان وجهها دميما . فقالت : لا بد أن
لها مزايا أخرى ، واستمعت إليها دون أن تدري ، فوجدت أن عقلها أكثر
قبحا من وجهها . واتفقت مع خادمتها على أن تراها عارية مقابل مبلغ من
المال . ورأتها عارية تماما ولم تجد مبررا لأن يتزوجها ، فذهبت إليه وسألته
فقال : إنها تريد أن تكون أما لأولادى مائة مرة - إذا أنا أردت ..

وفي التاريخ العربى يقال إن امرأة اسمها رملة بنت عبد الله قررت أن ترى
الزوجة الثانية لزوجها واسمها عائشة بنت طلحة . فاتفقت مع خادمة عائشة
على أن تراها عريانة مقابل مبلغ من المال ، وذهبت الخادمة وأخبرت
سيدتها ، ووافقت عائشة بشرط ألا تعلن الخادمة ذلك ، وقامت عائشة
ونزعت ثيابها وراحت وجاءت ، ورأتها الزوجة الأولى وتأملتها ، وقالت
للخادمة : كنت أفضل أن أعطيك ضعف هذا المبلغ ولا أراها .

فقد كانت جميلة جدا ، وقال عنها زوجها : إنها ليست زوجة واحدة ..
إنها حريم ..

ولكى تكون المرأة «حريما» للرجال فأنها تحرص على معالم الأنوثة ..
كلها ..

وكما أن الحب ضرورى للمرأة ، فالأمومة ضرورة أيضا ..

غير أن هناك فارقا بين الحالتين ، ففي الحب تجد المرأة من يبادلها الحب ، من يحاول معها ، وتحاول أن تهرب منه ، أو تشده إليها ، هناك معركة ، ثم اتفاق . ثم استسلام . ثم حرص على حالة الاستسلام ، وهناك تفكير وعقل ومنطق وقيم ومبادئ ، ولكن عندما تحب المرأة طفلها الصغير ، فهو حب بلا مقابل ، فالأمومة هنا بلا ثمن . الأم هي التي تتعب وهي التي تجد الثمن من متعة تحس بها ، أو أوهام تملأ رأسها ، فالطفل الصغير ليس طرفا ولا عاقلا ولا متحدثا ، ولا توجد هناك قيم ولا مبادئ ، إنه كائن صغير ولد ليعيش ، ومعه مبرراته ، ومعه حقه في البقاء ، هذا الحق لم يكتسبه بتعب ، وإنما ولد به ومعه ، والأم تعلم أن هذا الطفل الذى يعتمد عليها يجب أن تعلمه وهو جالس على حجرها ألا يجلس على حجرها ، وهو يرضع ثديها ألا يفعل ذلك ، وهو نائم في حضنها أن يبحث عن حضن امرأة أخرى ؟ .

وأعجب من ذلك أن الأم المعذبة المعقدة الفاشلة المحرومة من حنان الزوج ، يجب أن تعلم ابنتها معنى الحرية ومعنى حب الحياة ، وتقول الأم لابنتها عندما تكبر: لا تصدق كلام الرجل . امشى دوغرى . لا تتلفتى ورائك ، الرجال مخادعون كذابون . اسألينى أنا .

وتسأل الفتاة : إن كانت لأمها أية تجارب ..

ويكون رد الأم : طبعا لا ...

ومعنى ذلك أن تجربتها الوحيدة كانت مع زوجها ، وهو أبو هذه الفتاة فالفضل بسبب هذا الرجل والكذب والخداع والخيبة كلها صدرت عن هذا الأب الذى يعيش مع الأم والابنة في بيت واحد ، ويضحكون ويأكلون ويشربون وينامون تحت سقف واحد .

فإذا ارتفعت يد الأم ونزلت على خد الفتاة لأى سبب ، فالأم معذورة
فهي لم تضرب ابنتها ، وإنما تنتقم من زوجها .. أى أنها لا تضرب الابنة وإنما
تضرب الأب ، وإذا انحرفت يد الأم ونزلت على خد الخادمة كان المقصود
هو خد الابنة ، وخذ الابنة لم يكن مقصودا ، وإنما هو الأب الذى تقصده
الأم .. ولكنها أخطأت الطريق إليه فتوجعت الخادمة بالنيابة عن الجميع ..
وكان يقال دائما إن زوجة الأب هى التى تقسو على أولاد زوجها والحقيقة
أن زوجة الأب عندما تقسو على أولاد الزوج ، فإنما تريد أن تقسو على الزوج
فلا تستطيع ، فتضرب أولاده من الزوجة الأخرى .

ومعنى ذلك أن الأم لا تضرب طفلها وإنما تضربه بالنيابة عن الآخرين ..
وأسوأ من الأم التى تقسو على طفلها ، تلك الأم التى تحب طفلها أكثر مما
يجب ، فلا تعطى لأولادها حرية المشى أو الأكل أو النوم ، إن هذه الأم قد
اعتقلت أولادها فى حنانها ، وجعلت نفسها أقدامهم وأيديهم وعيونهم
وشفاههم .. وقررت أن تعيش بالنيابة عنهم ، إن هذا الحب نوع من القسوة
والأم بهذه الصورة تجعل من أولادها عبيدا لها ، وتجعل من نفسها عبدا لهم ،
فهم مجموعة من العبيد فى حالة من الالتصاق الشديد ، من الاحتكاك
الشديد ، من الحب الخائق ، أو القبلات المميته .

وفى جميع الحالات تجد المرأة متعة كبرى فى أن تقوم بدور الضحية :
الأم التى يعذبها أولادها .. فتقسو عليهم ، أو تحنو عليهم .

وكثيرا ما أحسست الأم بأن الأمومة لعنة ، كالأنوثة تماما ، ولذلك تبعد
أطفالها عن البيئة التى تعيش فيها ، فتبعث بأطفالها إلى المدارس الداخلية أو
إلى مدارس الراهبات .. أو إلى التعليم فى الخارج . معظم بنات الليل يفعلن
ذلك ، معظم الراقصات .. وأكثر كواكب السينما . ومعنى ذلك أن هؤلاء

الأمهات جميعا يرين أن حياتهن متعفنة ، وأن أولادهن يجب أن يعيشوا في هواء أنظف .. وأخلاقيات اسمى .. وفي ذلك اعتراف من كل أم ، بأنها ليست الأم المناسبة لأطفالها ، وأن أطفالها يجب ألا يروا حياتها . وألا يكونوا على مقربة منها .. وإنما يعيشوا بعيدا عن العيون التي تراها والآذان التي تسمعها ، والأيدى التي تمتد إليها .. وبذلك يكون هؤلاء الأطفال غرباء عن الأمومة وعن بيئة الأم .. وأن يشاركوا أهمهم أيضا في احتقار حياتها وبيئتها . وفي ذلك منتهى التعذيب للأم . فكأنها تربي أطفالها على احتقارها ، واستنكارها والتنكر لها .

وفي رواية «الاختناق» من تأليف ترفاني نجد الأم تقول لابنتها : اياك والرجال . أنت ترين أمك ، إنها ضحية لواحد منهم ، فسدت حياتها وتخطم قلبها ، فاجعلى قلبك حديدا .. وتهتكت أعصابها ، فضعى أعصابك في الجليد .. إن فعلت مثل أمك ، أنكرتك .. برئت منك ..

وهذه الأم قد علمت ابنتها أن تتبرأ منها وأن تنكرها منذ اللحظة الأولى .. وتنكرها مرة أخرى لأن هذه الفتاة سوف تعيش وسوف تنظر إلى الرجال وتهمس وتلمس وتغمز وتحب ..

وعلى الرغم من أن المرأة تلحن أنوثتها في كثير من الأحيان فإن رجالا كثيرين كانوا يتمنون أن تعطى للمرأة فرصة أن تحكم العالم .. المفكر الفرنسي مونتسكيو يقول : أعطوها فرصة ، إنها ليست أقل عقلا ولا ذكاء من الرجل ، ثم إنها أقدر على التنظيم وعلى الصبر منه ..

والفيلسوف مونتسكيو يرى الأمومة هي أعظم رسالة تقوم بها المرأة ويعجز عنها الرجل . لتربية المواطن تقوم هي بمهمة : المدرسة والمستشفى والمعبد

والشارع وأجهزة الإعلام والشككات والملاعب .. كل هذه المهام تقوم بها الأم وحدها دون مساعدة من أحد .

ولذلك يقول نابليون : أنا أساوى ما صنعته أمى ، فأنا أحد تماثيلها .
ويقول الرئيس لنكولن : ما أعلمه وما أعمله وما أحلم به .. كل ذلك من صنع أمى .

ويقول هيجو : إن الطفل يقول : ماما .. لأنه لم يتعلم بعد أن ينطق كلمة . الله .

ويقول شوبنهاور : اذهب إلى المستشفيات .. واجعل طريقك على السجون ، وأنت ترى ما الذى فعلته المرأة .. الزوجة والأم ، وخصوصا الأم . إنها هى التى علمت ابنها الجبن ، فكان وحشا ، وهى التى علمت ابنها الانحناء الكاذب فكان مغرورا متغطرسا .. وهى التى أرضعت ابنها اللبن ، لينتقم منها فلا يشرب إلا الخمر وإلا دماء البشر .. إنها أملك .. وأمى .

أما إنها أمه هو فهذا صحيح ، فقد كانت أمه فى غاية القسوة ، وكانت تغار منه وكانت تحسده على عبقريته المبكرة ، وكانت تستضيف فى بيتها كل الفلاسفة والأدباء فى عصرها ، وكانت تقفل الباب فى وجه ابنها . وفى يوم التقي بأمه على السلم وركلته برجلها ، وتماسك الابن ليقول لها : سوف تعيشين وتموتين ولن يعرفك الناس إلا على أنك أم شوبنهاور .

وهذا ما حدث ، فأمه هو تستحق منه أكثر مما قال .. وفعل ..

أشياء تقدمها المرأة ولا تجد من يراها

- ١٠ -

أمل الرجل : الشهرة .

أمل المرأة : الحب .

الحب عند الرجل أن يأخذ الكثير . وعند المرأة أن تعطى بلا

حساب ..

الحب عند الرجل أن « يضم » المرأة إليه . وعند المرأة أن

يضمها الرجل إليه .

الزواج ينطبق عليه المثل الشعبي : لاقيني ولا تغديني .. أى أن

اللقاء أروع من الغداء .. أى أن الحب أروع من الزواج نفسه .

ولكن لم يتوقف الناس عن الزواج ، ولن يتوقفوا عن الحب .

والرجل يرى الحب مصيدة دخلها .. والمرأة ترى الحب مذبحا

تضحى فيه بجسمها وروحها وهي راضية . وهذه التضحية ليست

موتا . لأن الموت هو ألا تحب المرأة . ولكن إذا ماتت المرأة فى

الرجل . فهذا ليس موتا . لأن الموت هو ألا تحب المرأة . ولكن

إذا ماتت المرأة فى الرجل . فهذه هى الحياة . وإذا فئيت المرأة فى

رجل . فهذا هو البقاء . وإذا ذابت المرأة فى رجل فهذا هو

التماسك . وإذا فقدت المرأة عقلها وقلها في حزن رجل ، فهذا هو الوجود .

ولذلك فلا يوجد رجل يمكن أن يوصف بأنه عاشق عظيم . وإنما توجد عاشقات عظيمات في التاريخ . لأن الحب : عطاء . والمرأة أقدر على العطاء من الرجل . لأن المرأة لا تعرف حدود العطاء . فإنها تعطي نفسها . ولا تعرف ما الذى أعطته . وما الذى أبقتة لنفسها .. بل إن نفسها هى أول ما تعطي للرجل الذى تحبه . والحب عند المرأة نوع من الدين . أو هو دينها الوحيد .. بينما الرجل عندما يحب امرأة فإنه يريد أن تحبه هو أكثر .

والمرأة تعلم أنها من غير رجل تحبه ، باقة ورد متناثرة .. حبات عقد بلا خيط .. عربة بلا حصان .. سماء بلا شمس .. أرض بلا زرع ..

ومادامت المرأة تعتمد في حياتها على الرجل : الأب والأخ والزوج والحبيب . فإنها لا بد أن ترضيه ولكي ترضيه لا بد أن تعطيه . ولكي تعطيه لا بد أن تستسلم له . والمرأة تحب أن تستسلم للرجل الذى تحبه بل ترى أن الاستسلام هو أقصى درجات الاستقلال . وترى سيادتها في ذلها له . وليس من الضروري أن يكون الذل ركوعا ، وإنما يكفي فقط أن يركع قلبها في صدرها . هذا هو منتهى الحب .

ومن الممكن أن يهتز قلب المرأة . وأن يهتز قلب الرجل . ولكن ليس هذا هو الحب الكبير . الحب الكبير زلزال يجعل الرأس العالى ينحني ، والقلب الجامد يغلى . والمرأة تفضل الحبيب مهما كان ظلما ، على الأب والأخ والابن والزوج أيضا .

وبعض علماء النفس يقولون إن المرأة تختار الرجل القوي . لأنها تبحث عن الأب .. هذا صحيح . ولكنها تختار الرجل دائما . وأحيانا تختار الرجل العنيف .

لأنها تحب أن ترى القسوة في عيني الرجل . بل أحيانا تطلب إلى الرجل أن يشترك في معارك مع غيره من الرجال لترى قوته وسيطرته على الرجال أيضا . فهي تريده قويا . لأن قوته تملأ جسمها بالعرشة . هذه العرشة هي متعة كبرى ..

والحب لا يشغل وقتا كبيرا في حياة المرأة كما يتصور الرجال . إنه هام جدا . ولكن مشاغلها اليومية تأخذها وتستغرقها : البيت والعمل والزيارات والواجبات الاجتماعية .. ومستقبلها أيضا يشغلها عن الحب . وأحيانا تضحي المرأة بالحب من أجل أن يكون لها وضع اجتماعي يوقفها على رجليها في مجتمع الرجال ..

ولكن لا توجد امرأة لم تحلم بحب عظيم ..

حب يهد حيلها .. ويهز كيائها . ويحطمها ويعجنها ويصبها في قالب من حديد . والحديد من صنع رجل والرجل يملك فرنا من الشوق والوهج . وهذا الفرن يصب فيه المرأة التي تحبه لتكون على صورته .. على هواه . على مثاله . لكي تعجبه فقط . ولا يهتمها هي أبدا ما الذي يعجبها هي . فالذي يعجبها قد تركته . وعاشت من أجل الذي يعجب الرجل . وأغلب النساء اللاتي يحملن بالعشق الكبير فاشلات في حياتهن . أو أنهن نساء لم يتجاوزن مرحلة المراهقة . ولذلك تحلم الواحدة بأن تلتق بحياتها هذه عند قدمي رجل .

فقد جرت المرأة حياة السلبية والأمان في بيت الأسرة . وهي تحن إلى هذه السلبية الآمنة في أحضان رجل . وهذا الحب العظيم يحقق للمرأة كل شيء . فهي تحس بأنها « أم » لحبيبها .. وتحس أنه أبوها أيضا .. وبذلك تتكون أسرة عاطفية من أب وأم وطفل وطفلة .

فكان المرأة عندما تحب تريد أن تجد السقف الذى يحميها ، والجدران التى تلمها من الضياع ، والباب الذى له قفل ، مفتاحه فى جيب سجانها وسيدها وابنها وأبيها وحببيها : الرجل .

والحب عذاب أيضا للمرأة .. إنه يخنقها . ويقيدها . ويربطها ويشدها . ويحبسها . ويجعل عينيها غير قادرتين على الرؤية وأذنيها عاجزتين عن السمع . أنها حددت كل أشكال الدنيا وأحجامها وألوانها وأصواتها : كلها فى شخص واحد .

وفى احدى قصص الكاتب الدنمركى اندرسن نرى عروس البحر وهى سمكة كبيرة تقف على ذيلها . وقد حول الحب ذيلها إلى ساقين جميلتين .. وعندما نبت لها الساقان جف ماء البحر وتحول إلى أرض ملتهبة .

والمرأة ترى فى العذاب ضرورة .. فالحب الذى لايعرف العذاب ليس حبا .. إنه يشبه ولادة بلا ألم .

وأروع ما كتبه الأديبة الفرنسية كوليت : إننى أحسد مريم المجدلية التى أحبت المسيح .. إنها سارت وراءه .. فى ظله .. تشم ترابه .. وتموت ولكنه فى قلبها حى لايموت .

والمرأة عندما تعطى نفسها لرجل . أو لحب عظيم ، فإنها ترى أن هذا الحب يرد لها اعتبارها . يعطيها وزنها واسمها وأثمها وجسمها ورسمها . ويلسعها ويكويها ويشويها .. ولكنه لايحرقها وإنما ينضجها فقط . فحرارة الحب . مثل الاحمرار فى خد التفاحة .. نار لا تحرق .

والمرأة لا تطيق أبدا أن يتجاهلها الرجل . ولا تطيق ألا تكون تحت نظره .. ونظراته الملتهبة . بل المرأة تتمنى أن يتحسسها الرجل بعينه . وأن يتعمقها وأن تتساقط رموشه على منحدراتها ومنحنياتها وأن يتأنى فى ذلك . وهى فى غاية

النشوة .. وأقسى أنواع العذاب الذى يستخدمه رجل مع امرأة هو ألا ينظر إليها . فإذا نظر إليها تفادها . كأنها لا تعترض نظرتة . كأنها لا تستوقفه . كأنها لا شىء ولا شىء فيها يعجبه . فإذا أعجب الرجل بعيني المرأة ، وضعت المرأة فى كل ركن من بيتها مرآة .. لترى نفسها .. أى ترى عينيها اللذين تعجبانه .. وتكون سعيدة لأنها ترى عينيه فى عينيها وتسمع رأيه ألف مرة فى اليوم .. فهى لا ترى ما ترى .. وإنما ترى ما يراه هو ..

قالت الأديبة كاترين مانسفيلد : أمس اشترت ملابس داخلية جميلة انيقة زاهية ودامية .. ولكن وأسفاه لن يراها أحد .

فهى لم ترتد هذه الملابس لأنها تعجبها .. ولكن لعل أحدا غيرها يعجب بها .. أى يعجب بها أكثر إذا رآها عليها .. وإذا رآها غيرها ..

وأسوأ شعور فى الدنيا ، وأقسى عذاب هو أن تحس المرأة أنها زهرة لا يراها أحد . وعطر لا يشمه أحد ، ونعومة لا يلمسها أحد ، وحرارة لا يشتهاها أحد . ويبدو أن الرجل يعرف ذلك أحيانا .

وفى إحدى مسرحيات الأديب الأمريكى تنسى وليامز يدور مثل هذا الحوار :

يقول الرجل : متى عدت .. فقد كنت نائما لم أتنبه إلى صوتك وأنت تفتحين الباب وتخلعين حذاءك .. وتقفلين باب الثلجة بعنف . كما هى عادتك .

وهجمت الزوجة على زوجها تقبله بعنف . وحاول أن يبعدها عنه .. ولكن طال العناق . فقد عرفت الزوجة أن زوجها لم يم . وأنه كان يتظاهر بالنوم . فهى دخلت وفتحت الباب بعنف وألقت بحذاءها وكان للحذاء صوت . وكذلك

باب الثلاثية .. فهو لم يطق أن ينام . ثم إنه عندما عانقها وقبلها اكتشف أنها لم تدخن سيجارة واحدة . ومعنى ذلك أن السجائر التي كانت موضوع الخلاف بينهما . قد انتهت . فقد قررت ألا تدخن أرضاء له .

وقبل أن تطفىء الزوجة المصباح وتخلع ملابسها سألته ؟ وما رأيك في فستانى ؟ .

فأجاب الزوج ضاحكا : إنه ليس جديدا .

وكان على حق . فلأول مرة يدرك الزوج أن هذا الفستان ليس جديدا . مع أنه في كل مرة تسأله زوجته عن فستانها يقول لها : رائع . مناسب . وتختفي الزوجة دموعها في منديلها وهي تمسح أنفها .. لأن الفستان قديم جدا . وقد ارتدته عشرات المرات .

وإذا كانت المرأة قادرة على الحب العظيم ، فهناك رجال لديهم هذه القدرة أيضا . فراقصة البالية ايزادوره دنكان تصف الشاعر الإيطالي داننسيو: إنه أقدر إنسان على أن يجعل المرأة التي تجلس إليه تحس أنها مركز الكون . وأن الله خلق السماء من أجلها والأرض أيضا . وأنها خلاصة الزهور والطيور والعطور . وتقول عنه أيضا : ولكن عندما تنتهى نزوة هذا الشاعر يترك المرأة تسقط . تماما كما سقطت حواء التي شجعته على الخطيئة كلمات هامسة من أفعى مثلها في الجنة .

وإذا ما كان هناك حب عنيف . كانت هناك غيرة أكثر عنفا . فالغيرة أساسها شعور بالخوف على الرجل الذي تحبه . فإذا غارت المرأة فالنساء جميعا أعداؤها . وكل نظرة عين وحركة أصبع وكل كلمة يقولها الرجل . يصبح لها معنى خاص آخر .. وكل امرأة أخرى ينظر إليها الرجل ، كانت هذه النظرة

مسروقة منها . كل اهتمام آخر . حتى عمل الرجل يضايق المرأة . لأنه يأخذه منها . يخطفه . وإذا أطال النظر في كتاب أو في صورة أو استمع إلى أغنية وتأثر ، كل ذلك يثير المرأة بحركتها ضده - ولذلك لا استبعد أن تكون امرأة هي التي حرقت مكتبة الإسكندرية - زوجة بواب المكتبة عندما ضبطته يتعلم القراءة والكتابة . والرجل من الممكن أن ينشغل عن المرأة تماما ، ولكنه يظل يجها . ولكن المرأة لا تستطيع أن تنشغل عن الرجل الذي تحبه . وإذا انشغلت عنه ، فإنها لا تسامح نفسها على ذلك . ولا تتصور أنها سوف تنشغل عنه . فإذا حدث أن انشغلت عنه انزعجت . وتشاءمت . وأحست أن خطرا يوشك أن يقع . وأنه من الأفضل أن تعود إلى حضن الرجل ، كما تذهب السفينة إلى الميناء خوفا من العاصفة .

وهنا يختار الرجل . لأنه يجد امرأة في حضنه خائفة كطفلة صغيرة . ويتساءل الرجل : هذا الوحش الجميل خائف ؟ هذه التي دوختني تحتمى بين ذراعي ؟ .

هذه هي المرأة مخيفة خائفة . تعطى الأمان الذي لا تجده . تحطف القلب بمنتهى العقل . وتفقد القلب بلا عقل .

وعبقرية المرأة في انتظارها . فعندها قدرة خارقة على الانتظار . وقد عاشت ألوف السنين تنتظر . ولم تضيع وقتها أثناء الانتظار . وإنما سمعت وعرفت . وتلقت حكمة الجنس والاحتفاظ بالزوج والطفل . فإذا جاء الزوج كانت هي أكثر مرونة منه . وأقدر على ارضائه وامتناعه وتعذيبه .

وجولييت دوريه عشيقة الشاعر الفرنسي فيكتور هيجو أحسن نموذج لذلك . إن، هذه العشيقة قد أحببت الأمير دوميدوف الذي كان ينفق عليها بعد أن فشلت كممثلة مسرحية - وهذه نهاية الجميلات جدا . ولكن عندما أحبها

فيكتور هيجو حبسها في شقة من غرفتين ضيقتين . وظلت محبوسة إحدى عشرة سنة لا تخرج من هذا البيت . بل إن الشاعر حرم عليها الظهور تماما حتى لا تلتقي بواحد من عشاقها القدامى . ورضيت بالانتظار . ولم يكن الشاعر يراها إلا قليلا . وكانت له عشيقة أخرى . ولكن جوليت هذه أرسلت للشاعر ثلاثين ألف خطاب ، أى بمعدل ثلاثة خطابات كل يوم وبانتظام . وهذه الخطابات دليل على الصبر الطويل ، والحرارة التي لم تحمد ، والمرارة التي ملأت قلبها . ولكنها ظلت تحبه حتى الموت .

وعلى الرغم من أن الرجل يعرف أن الكلام الذي يسمعه كل ليلة من فوق الخدة المجاورة لا يستطيع أن يصدقه كله ، ولا أن يرفضه كله .. فإن هذا هو الحب ، لا يستطيع أن يرفضه ولا يستطيع أن يقبله .. هذا هو منطق الرجل . أما منطق المرأة فهو أن تقبله مهما كان الثمن .. فإما الحب أو الموت .. ويكفي أن تحب مرة واحدة ، وتقول : عشت في حياتي مرة واحدة .. أما بقية العمر فذكرى لأيام جميلة .

قرود في كل مكان

أنا... وأنت!

- ١ -

وكنت أفضل أن تكون الصفحات التالية في أول هذا الكتاب .. فهي تصف الحيوان وسلوكه دون تحفظ .. أى دون قيود عليه ..

والحيوان حر .. هو بالضبط ما يتمنى أن يفعله الإنسان . ولكن الحضارة تجيء وتقيّد الإنسان وتضع الفرامل والضوابط والقواعد والحلال والحرام واللائق وغير اللائق على كل مشاعره الحيوانية والإنسانية ..

ولكن بعد أن عرفنا جوانب من حياة الإنسان يمكننا أن نعرفها أعمق وأوضح إذا عدنا عشرات الألوف من السنين .. أو إذا ذهبنا إلى حديقة الحيوان .. ففي الحديقة نجد الإنسان متخفياً وراء جلد الحيوان ..

ولكن الحيوان أكثر صراحة ..

لأن الحيوانات لم تتعلم الكذب بعد ..

ولذلك فهذه الحيوانات هي دليلنا الذى لا يخطئ! إلى فهم الإنسان مرة أخرى ..

فإن كان قد فاتك الإنسان من مئات الصفحات السابقة ، فهذه هي فرصتك فى أن تستدرك ما فات وأن تفهم غيرك ونفسك ..

فإذا شعرت بالخجل فلأن الحيوانات لا تحق ما تشعر به هي .. وما تشعر به أنت ! .

* * *

وإذا ذهبت إلى حديقة الحيوانات . وسمعت من يصرخ وراءك ويقول : يا حيوان فلا داعي لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث .. فكل ما في الحديقة حيوانات : التي في الأقفاص .. والذين خارجها .

وإذا وقفت أمام قفص القرود ورأيت القردة تفلّي ابنتها الصغيرة فلا تضحك .. فلنا أجداد يفعلون ذلك في الريف . أما في المدينة فالكوافير يقوم بهذا العمل أيضا مستخدما أحدث ما وصل إليه عقل الإنسان .

وإذا أنت ألقيت ببعض السوداني وتزاحمت عليه القرود وضحك طفلك الصغير ، فأظن أنه لا داعي لأن تضحك أنت . لأنك قد فعلت شيئا من ذلك في المكتب أو الدكان أو المصنع الذي تعمل فيه . فكان العمل هو قفص أقمى من قفص القرود . وأنت محكوم في داخل القفص بقوانين ولوائح وقواعد ومخاوف .. وإذا أشار رئيسك في العمل بالعلاوات أو الأرباح فإنك تقفز مثل هذا القرد وأكثر .. وليست العلاوات إلا أنواعا من الفول السوداني الذي يلتقي لنوع آخر من القرود ..

وإذا رأيت القرد - أمام كل الناس - يركب ظهر الأنثى . فليس القرد قليل الأدب ، ولا نفسه افتتحت لمجرد رؤيتك . ولكنه في حالة خوف . والخوف يثير الحيوان والإنسان أيضا . والناس في جو الخوف يتعاقبون .. إنهم يواجهون الموت بالقبلات ، ويواجهون الموت بغريزة حب البقاء .. والبقاء عن طريق الجنس ..

وإذا كان القرد ليس له مستقبل في أن يكون إنسانا . فمن المؤكد أن الإنسان له ماض . وهذا الماضي ما تزال حروفه الغامضة يمكن قراءتها في جبلاية القروود .. فإذا لم يكن هذا القرد جدنا البعيد .. فهو قريب من جدنا البعيد . وإذا كان الإنسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الألوف من السنين .. فإن العادات القديمة التي عاش بها من ملايين السنين ما تزال مصنونة مكنونة في أقفاص القروود ..

ولهذه الأسباب كان الكتاب الممتع الصعب أيضا الذي كتبه العالم دزموند موريس وعنوانه « القرد العريان » من أروع الكتب التي صدرت أخيرا في العالم بلغات متعددة .

وإذا كان هذا الكتاب لم يلق التأييد الكامل من علماء الحياة والدراسات الإنسانية والحيوان ، فإنهم - عادة - لا يتفقون على رأى واحد .. ولكنهم أمام هذا الكتاب اتفقوا على أنه خلاصة دراسات وتأملات عميقة ومثيرة أيضا . وأن به نظريات جريئة وجديدة ولا بد أن تدير آلافا من الأدمغة يمينا وشمالا .. وبعد ذلك في امكانها أن تتساقط من التعب أو اليأس .

هناك ١٩٣ نوعا من القروود من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر : وهذا القرد العريان له صفات غريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا عن معنى سلوكه وتصرفاته .. ويمضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى . وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاقلا . والحقيقة أنه عاقل حقيقة ، ولكنه أكثر الحيوانات شراهة من الناحية الجنسية .. فالحيوانات كلها معتدلة ، وكل هذه الحيوانات تنجبل من الجنس ، ولذلك فالذكر عند العناق لا يواجه أنثاه ..

والحيوانات لها مواسم . والإنسان ليست له مواسم للقبلاات والحمل والرضاعة

والولادة .. فكل وقت عنده هو الوقت المناسب لأن يكون «حيوانا» ومن الضروري أن نعيد النظر في الحيوانات الأخرى ، وخصوصا الحيوانات الراقية مثل القردة لتعرف كيف عاش هذا الإنسان ومن أين جاءت عاداته كلها ، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التي تراها اليوم .. ولا تفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها ..

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أنه في إحدى حدائق الحيوانات يوجد «سنجاب» وهو حيوان صغير أليف يظهر في الحدائق ويلعب الأطفال . هذا الحيوان وضعوه في قفص على انفراد .. وكتبوا على القفص .. هذا السنجاب أفريقي نادر . ولا نعرف اسمه العلمي .. فنحن لم نر الآن سنجابا له قدم سوداء .. وأنف أحمر ..

وأمام هذا السنجاب النادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى ، لا بد أنه كان من سلالة انزلت من بقية الـ ٣٦٦ نوعا من السناجيب التي عاشت في العالم كله . ولا بد أن هذه الفصيلة النادرة قد انزلت تماما وأصبحت لها عادات خاصة ، ولها نداءات جنسية خاصة . ولا بد أنها مرت بظروف غريبة . وأنها توافقت مع هذه الظروف . وأصبحت لها ألوان وأشكال وعادات مختلفة عن بقية الأنواع الأخرى ..

نفس الموقف يجب أن نأخذه من الإنسان - هذا القرد العريان - نتساءل كيف عاش . ولماذا بقي . وكيف تطور .. وكيف تحول من مرحلة أكل فيها الحشرات إلى مرحلة أكل فيها أوراق الشجر . ثم الثمار .. ثم انتقل من الغابات إلى الأرض الواسعة .. ثم كيف تحول من التقاط الثمار إلى صيد الوحوش .. ثم إلى زراعة الأرض .. ثم كيف حاول الهرب . واستخدم رجله .. واستخدم يديه في صناعة أدوات حياته ..

وإن كان الإنسان مثل بقية الحيوانات الثديية التي يبلغ عدد أنواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناسبة في الحر والبرد .. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية - أي التي لها أئداء ترضع بها أطفالها - تعتمد على جلدها الغليظ وشعرها الكثيف في حفظ درجة الحرارة في الشتاء . والوقاية من حرارة الشمس في الصيف .. والوطواط وهو طائر ثديي عريان في معظم أماكن جسمه .. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه .. وهناك حيوانات أخرى مائية ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدراويل .. ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الإنسان ..

والإنسان في تاريخه الطويل فقد القدرة على الابصار . وفقد قوة السمع والشم . أما الحيوانات الأخرى وخصوصا آكلة اللحوم مثل الإنسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع والشم . ففي سنة ١٩٥٣ أجريت تجارب على قدرة الكلاب المتوحشة على الشم ، فأثبت العلماء أن قدرتها أقوى من الإنسان مليون ونصف مليون مرة ..

والإنسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم قاتل أيضا . وبعض الحيوانات لا تقتل مجرد القتل . وإنما لأسباب وجيهة : الجوع .. أو جوع صغارها ..

وحق الحيوانات التي استؤنست ما تزال عندها غريزة الصيد .. والإنسان أيضا . فالكلب الأليف يجب أن يخرج به سيده إلى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة .. وهي لعبة لأنها ليست خطيرة . وكذلك القط الذي تلقى إليه بالطعام فيداعبه كأنه فأر صغير .

وبعض الكلاب تحنى طعامها .

وبعض الضباع تحنى طعامها فوق الشجر ..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة في الصيد .. والأسود تبعث

واحدًا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب .. وإذا ما هربت وجدت أمامها عدداً آخر من الأسود . والدثاب تحاصر الفريسة .. أما الكلاب المتوحشة فإنها تمشي في طاوور طويل .. وتظل تهاجم الفريسة واحدًا واحدًا حتى تنزف الفريسة وتموت .

هناك خلاف هام بين هذا الإنسان وبين القروء الأخرى . هذا الخلاف هو أن طفل الإنسان يستمتع بفترة طفولة طويلة . هذه الفترة يعيش فيها مع أمه . ويتعلم منها الكثير . وفي نفس الوقت يكبر عقله وينضج . ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره . ويبلغ العقل نضجه التام في الثالثة والعشرين أما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة ..

والإنسان لم يستمتع بهذه الطفولة إلا بعد عادات أخرى اكتسبها .. وهي أن الرجل هو الذى انفرد بالصيد والقتال . لأن المرأة في حالة الحمل لا تقوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة في البيت مع أطفالها . والمرأة في البيت بلا خوف من هجمات الذكور الآخرين لأن هناك اتفاقاً روحياً بين الذكر والأنثى ، أن تبقى هذه الأنثى له وحده . وأن تبقى وفيه مخلصه له إذا ذهب للصيد في الغابات . هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى إلا بعد أن كان هناك حب بينهما . وهذا الحب أدى إلى الارتباط والارتباط أدى إلى قيام وحدة من رجل وامرأة وإنشاء أسرة أى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الأب والأم والأطفال .. وإذا كان من طبيعة الحيوانات الأخرى أن تتعاون فالإنسان أيضاً حيوان متعاون ولكنه حيوان متنافس أيضاً . وكثيراً ما أدى به التنافس إلى القضاء على الأسرة وعشرات الأسر .. وإذا كانت رغبة الإنسان في التعاون هي التي جعلته يخلق الأسرة ، فإن رغبته في التنافس هي التي جعلته يبتكر الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى .. وأكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة في الدفاع عن النفس وفي القتال .. وجعلته يشعل النار في عقله ويلقى بضوئه ودماثة على

الأجيال القادمة . تاريخ الإنسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الإنسان لأخيه الإنسان ..

أما لماذا سمي الإنسان بالقرود العريان فهناك آراء كثيرة . هناك رأى يقول إن طفل القرود عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما .. ثم ينبت له الشعر كلما كبر . والإنسان لأن طفولته طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر .. ثم أصبحت هذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين .

ومن المعروف أن الجنين في الشهر السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رأيت ذلك في الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان .. وبعد ذلك يختفي هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن .. وإن كانت هناك حالات نادرة معروفة في الكتب العلمية لأطفال ظل شعرهم طويلا يغطي معظم الجسم . كالقروود تماما ..

ويقال أيضا إن الحيوانات التي يتغذى جسمها بالشعر . تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة . وكان الإنسان يعيش في الكهوف .. ويقال لأن الإنسان قادر أن يستخدم يديه راح يتترع شعره ويحلقه .. لأن الإنسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه . على عكس الحيوانات الأخرى . وهناك نظرية تقول إن الإنسان عندما اخترع النار لم يعد في حاجة إلى أغطية من الشعر .. أو فروة من الشعر . وأنه قادر على أن يجد الدفء في ضوء الشمس نهارا . وأن يجد الدفء أمام النار ليلا .. وأن هذا الدفء هو الذى أغناه عن حاجته للشعر الذى يغطي جسمه كله .

ويقال إن الإنسان قد عاش مئات الألوف من السنين يتنقل بين البر والبحر وأنه كان يعيش على أكل السمك . وعندما كان يصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله . ولا يبقى إلا رأسه على سطح الماء .. ولذلك - مثل كل الحيوانات

الثديية الأخرى - أصبح جسمه خاليا من الشعر .. وكلها نظريات تجتهد في تفسير
خلو جسم الإنسان من الشعر ، أكثر من الحيوانات الأخرى ..

وربما كان للشعر تفسير جنسى آخر .. فن الملاحظ أن الذكور من الحيوانات
الثديية بها شعر أكثر من الإناث ولذلك أصبحت الأنثى الناعمة البشرة مثيرة من
الناحية الجنسية للرجل . وهي حريصة على أن تكون أنعم أيضا . بينما يحرص
الرجل على أن يكون أكثر خشونة .. ولذلك يطلق شاربه ولحيته .. ويترك الشعر
في صدره وتحت ابطه بينما تحرص الأنثى على أن تكون ملساء ..

وليس معنى ذلك أن الإنسان يجب البشرة الناعمة ، ولذلك زال الشعر من
جسم المرأة . ولا معنى ذلك أن المرأة أحب الشعر في جسم الرجل فظهر الشعر ..
ولكن معناه أن الإنسان أحب الواقع .

نعود مرة أخرى إلى قفص القرود الذى نقف أمامه في حديقة الحيوان .. إن
القرودة لم تذهب إلى حلاق ولا إلى صانع أحذية وإلى مصمم أزياء .. ولم تضع
الأحمر والأبيض والسوتيان .. والكورسيه والكعب العالى .. ولا الغمز بالعين ...

كل هذا يدل على أن الحضارة الإنسانية علمت الإنسان أن يكون شهوانيا ..
وأن يكون مشتعلا جنسيا . وأن يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود إليه ..
وبسبب الجنس يجب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون له أسرة
وأولاد .. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب ، الذى هو
اسم مهذب للجنس .. فهو يدور حول نفسه هاربا قلقا خائفا فى قفص محكم
معقد اسمه الغريزة الجنسية . واسمه تجارب التاريخ الذى طواه ملايين السنين
قطعتها القرود على الأشجار وتحتها وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت
ساقها .. وقاومت فتحركت يداها .. واهتز عقلها أيضا .. وسكنت الكهوف ..
واستقام ظهرها .. وكبر عقلها .

وأصبح انسانا لا يختلف كثيرا عن القرود وان كان هو يتوهم أنه مختلف عنها تماما .. ولكنه قرد يصنع الأقفاص لغيره .. ولنفسه .. ويجعل أقفاصه هو مكيفة الهواء إذا كانت على الأرض .. ومكيفة الهواء والضوء والضغط إذا كانت في طريقها إلى القمر .

والإنسان قاتل من يومه ..

كان يقتل بالحجارة والفأس والسيف . وما يزال يقتل . فقد أصبحت هذه الأسلحة أسماء جديدة : الصاروخ والطائرة والدبابة . فهو - اذن - لم يتغير .

والحضارة لم تطور رغبته في القتل . وإنما هذه الرغبة هي التي طورت الحضارة الإنسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر طريقها وأهدافها .. والإنسان - هذا القرد العريان - كان صيادا في الغابة ، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان والتوت . وما يزال . ولكنه يصيد تفاح الحدود ورمان النهود وتوت الشفاه .

فالحضارة الإنسانية لم تضع الفرامل على رغبات الإنسان . وإنما رغبات الإنسان هي التي أشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل معالم الحضارة الإنسانية . فلا يزال الإنسان أكثر الحيوانات الراقية شراهة جنسية : يجوع إليها ، وينشدها ويحدها ويطاردها ويعود إليها . ويبدأ الإنسان هذا الشوق الجنسي في سن مبكرة . ثم يعرف اللعب الجنسي . والمداعبة . والمطاردة . والصيد . والانتباه الجنسي والهياج الجنسي .. والأشباع ..

والإنسان حيوان شهواني أكثر من الحيوانات الأخرى ..

ولكن الإنسان هو أول حيوان يحرص على أن تكون له أسرة . أى تكون له امرأة واحدة . يحرص عليها ومن الضروري أن تحرص هي أيضا عليه . والإنسان كحيوان صياد كان يخرج من الكهف إلى الصيد في الغابة . ويبقى فترات طويلة .

ويترك وراءه أبنائه وأولاده . وهي بذلك تكون عرضة لعدوان الذكور الآخرين .
ولابد من حماية لها أثناء غيابه .

ولذلك عرف الإنسان الحب . وعرف العطف على الأنثى . وعرفت الأنثى
حماية الذكر . وهذا الحب كان ضروريا للإنسان . لأنه عقد غير مكتوب
وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق في أن يحتفظ بهذه الأنثى . ويصبح لهذه الأنثى
الحق في أن تعيش في كهف هذا الرجل ولهذا الرجل وألا تسلم نفسها للذكور
آخرين ..

ولكى يبقى هذا «العقد» محترما كان على الذكر أن يحترم عقود الآخرين .
وفي الوقت الذي بدأ فيه جسم الإنسان يضعف بدأ عقله ينمو وينضج .
ولذلك لم يعد هذا الإنسان في حاجة إلى عضلات الحيوانات وسرعتها في الجرى
والهرب . وإنما عقله هداه إلى أساليب أخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة . وهده
أيضا لاستخدام أسلحة أخرى للقتال والدفاع عن النفس .. وهده إلى وضع
حدود اجتماعية لتحميه وتحمي ذريته . وفي أثناء فترة الصيد هذه استطاع الإنسان
أن يحرك أصابع يديه . وهو وحده القادر على ذلك من كل الحيوانات الأخرى .
وهذه الأصابع هي التي مكنت الإنسان من أن يستخدم الأدوات وأن يصنعها
أيضا . وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الأخرى ..

ويمكن الإنسان - خلال مئات الألوف من السنين - أن يصلب عوده . وأن
يقف وتعلم الإنسان أن يكون له رفيقة واحدة . هذه الرفيقة هي الشريكة . أو
هي اللصيقة . أو التابعة .. فلم تظهر كلمة الزواج أو كلمة الزوج إلا فيما بعد ذلك
بالوف السنين .

وهناك اختلاف آخر بين الإنسان والقرود مثلا ..

ففي فترة الحمل عند القرود - أقرب الحيوانات إلينا - تقرف الأنثى من كل

صلة جنسية . بل إنها تبتعد تماما عن الذكور . فيما عدا الإنسان - هذا الشهواني - لا يقوى على الحرمان الجنسي طويلا . ولذلك فمن الممكن أن يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك أراد ألا تتجه زوجته إلى ذكر آخر . . . وكان الأنثى أرادت هي الأخرى ألا يتجه الذكر إلى أنثى أخرى . فأصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل .

وقد ورث الإنسان من مرحلة الصيد القديمة ، هذه النعومة في البشرة . . فهو إذا عانق المرأة التصقت بأكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان . وأصبح الجسم الإنساني شديد الحساسية للملامسة . وفي هذا الجسم الإنساني مراكز كثيرة قادرة على إشعال الحس . والإنسان اكتشفها واعتاد عليها ويلهبها كلما أراد ذلك . . ولذلك في استطاعة الإنسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصابعه على الجسم الإنساني العريان .

ومن الملامح الغريبة عند الإنسان : الشفتان . .

وقد أعلن كثير من العلماء أن الشفتين ليست لهما ضرورة خاصة . وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة . ولكن الإنسان هو الذى جعل للشفتين معنى خاصا . . ويقول علماء آخرون : إن شفتى الإنسان قد كبرت وتضخمتا لأن الإنسان له طفولة طويلة . أى أنه يرضع ثدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر .

ولكن الغريب في شكل الشفتين أنها مقلوبتان إلى الخارج . على خلاف شفتى القرد . . فإنها حادتان بلا طبقة شحمية . فإذا اقترب منك القرد وقبلك فإنه يطبع فكيه فقط على وجهك أعلى عنقك . ولكن القبلة من شفتى إنسان ملتصقة ومندمجة وعميقة أيضا . ففي استطاعة الإنسان أن يعانق الشفتين بالشفتين . .

وفي الشفتين خلايا عصبية كثيرة . ولذلك فالإنسان قد جعل هاتين الشفتين

ذراعين تتعانقان .. وتنقلان الحرارة والوهج الجنسي إلى كل الجسم بل إن هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات . ويسبب المعانى الكثيرة التى تعملها القبلة وتثيرها ، فإن تسليم الشفتين هو موافقة مبدئية بتسليم بقية الجسم الإنسانى .. وكما أن الطفل يرضع بشفتيه ، فإن الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانى عميقة ومثيرة .

وبعد الشفتين تجيء الأذنان ..

يقول بعض العلماء إن أذنى الإنسان كانتا طويلتين - كأذنى الحمار مثلا ثم ضمرت الأذنان بمرور الوقت حتى أصبح لها هذا الشكل الذى نراه .. وهناك شبه بين أذنى الإنسان وأذنى القرد .

ولكن هناك خلافا واضحا : هذه الشحمة التى تتدلى من الأذن .. من أين جاءت ؟ ولماذا كانت ؟ وما فائدتها ؟ ليست لها فائدة . ولكن الإنسان خلال مئات الألوف من السنين قد استخدم هاتين الأذنين فى الإثارة الجنسية .. أمسك الأذنين بأصابعه أثناء اللقاء الجنسي . واعتاد ذلك وأصبحت لهذه الشحمة هذه الدلالة الجنسية . وأصبحت جرسا يضغط عليه فإذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتنفث ..

أما النهدان فهما عند أنثى القرد العريان متضخمان .. وتتضخان عند الإثارة الجنسية أيضا .

ويقال إن النهدين مظهر من مظاهر الأمومة . وضرورة لها . ولكن أثناء القرود ليست فى ضخامة أثناء المرأة . على الرغم من أن أثناء القرود أكثر افرازا للبن . ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عند صغار القرود لم تؤد إلى تضخم ثديي القردة . ولكن أنثى الإنسان لها نهدان يتضخان وهذا التضخم ليس بسبب

الأمومة ، ولكن بسبب الأنوثة .. فالنهدان جهاز تنبيه جنسى أيضا . اعتاده الإنسان واستراح إليه وعليه .

والأنف يختلف عن كل الأنوف عند الحيوانات الأخرى . والخلايا والمراكز العصبية الموجودة فى الأنف كثيرة ، وإذا كانت خاصة الشم عند الإنسان قد ضعفت فإن هذه الحساسية تقوى عند العنق . ويصبح الأنف قادرا على أن يشم وعلى الاستمتاع بالشم ولذلك كانت الإثارة عن طريق العطور ورائحة الجسم الإنسانى نفسه .

هذه الاختلافات فى الهيئة والسلوك الإنسانى قد اكتسبناها من مئات الألوف من السنين .. واكتسبنا معها وبسببها هذا العقل الذى نمتاز به عن الحيوانات الأخرى ولكن ما الذى تغير فى الإنسان الآن .. هل ما يزال الإنسان كما كان من مئات الألوف من السنين .. هل نحن مختلفون عن أجدادنا فى الرغبة والاتجاه والأشباع ..

لم يتغير شىء .. وإنما الأسماء فقط هى التى تغيرت .. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد . والحب بدلا من السطو . والزواج بدلا من التزواج ..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها : القانون .. القواعد .. الأصول .. التقاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز . هذه الفواصل . هذه الأسلاك الشائكة . هذه العلامات البيضاء على الأرض . علامات المرور العاطفية . متى ظهرت . متى أصبحت لها هذه القوة ؟ ..

عندما ظهر الغرباء فى حياتنا ..
فبين الرجل وأثاه لا قيود . ولا تقاليد . ولا عادات . إلا ما اتفقنا عليه .
وهو حر فى بيته . وهى أيضا . وفى استطاعة الأنثى أن تمشى عارية . والرجل

أيضا . ولكن عندما يظهر شخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسم .
وتنزوى المرأة . ويبعد الرجل عن زوجته ..

وإذا كان الرجال معا يذهبون إلى الصيد ، ويتركون النساء وحدهن فقد
حدث كثيرا أن ذهبت النساء للصيد أيضا . هذا الاختلاط حتم إقامة الفوارق
والحدود . وعرفت الإنسانية معاني العيب والحرام والشرف . أى أن المرأة لا يحق
لها أن تعطى للغير ما ليس للغير .

وقد أسرف الرجال في وضع الحواجز وإقامة الجدران بين ما يخصهم وما يخص
غيرهم . وفي العصور الوسطى كان الرجل يضع «حزام العفة» حول زوجته .
ويضع على الحزام قفلا ويحتفظ بالمفتاح في جيبه .. عاما .. وعشرين عاما . ويترك
في الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط . وكان البعض من المتمرتين يضع الحزام
كالسد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يوم ! .

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن تكون له امرأة خاصة . وأن يكون
جسمها خاصا به . وأن يكون لها مكان خاص ينامان فيه . (وفي كل اللغات نجد
أن كلمة «نام» الرجل مع المرأة أى عاشرها كأنها زوجته) .. إذن لقد عرف
الإنسان الزوجة الخاصة . والبيت الخاص . وعرف السرية والخصوصية في كل
تصرفاته الجنسية والعاطفية .. بعيدا عن عيون الآخرين وعن أيديهم أيضا .

ولو نظرنا إلى مكان يزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هناك حرصا شديدا على
ألا يصطدم أحد بأحد .. أو يصطدم رجل بامرأة . لأن الملامسة لها معنى جنسى .
وإن كنا في حياتنا العادية لا نقول ذلك . وإنما فقط نقول : عيب أن نصطدم
بسيدة .

هذه قلة ذوق .. هذا سوء تربية .. ولكن المعنى الحقيقي أن جسم هذه السيدة
ليس مباحا . وإنما هو خاص . وليس من حقك أن تلمسه .. وإنما من حق

غيرك ، وإن كانت هذه الملامسة مسموحا بها في أماكن الزحام الشديد ، لأنه لا مفر من ذلك ، ومسموحا بها للحلاق والترزي والطبيب .. ولو فرضنا أن سيدة اصطدمت برجل في الزحام ، ولم يعتذر لها لقاتلته إنه قليل الأدب .. ولكن لو ذهبت إلى الطبيب نفسه للعلاج فإنها تنزع ملابسها أمامه . ويتحسس جسمها . ويولدها . ولا يتهمه أحد بسوء الأدب لأنه في المرة الأولى لم يكن له حق . وفي المرة الثانية له هذا الحق ! .

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء في كل مكان . كان من الضروري أن تخفي المرأة معالم جسمها . وقد دفعت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس ألوف السنين . ولكن عندما أصبح « العمل » ضرورة حيوية .. خرجت المرأة ، وأخفت ملامحها أيضا لأن كشف هذه المعالم والنظر إليها ولمسها بالعين أو باليد ليس من حق كل الناس ! .

ولذلك نحن نطلب إلى الطفلة الصغيرة إذا جلست أن تضم ساقها . وألا تفتحها حتى تعتاد على ذلك .. لأن فتح الساقين لا يليق أمام كل الناس .. وكذلك المرأة عندما تضحك فإنها تحاول ألا يكون صوتها عاليا . وأن تخفي ضحكها وراء يدها .. أو تنحني لتخفي ضحكها أيضا .

والسبب هو أن الضحك واللعب لها دلالة جنسية خاصة ، ويجب ألا تكون عامة !

ولكن ما الذي تفعله المرأة بملابسها الآن ؟

إن ملابس المرأة تخفي جسمها ولا تخفيه .. بل إن الملابس تبرز جسم المرأة أكثر مما تستر عليه . فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا ، ولكن السوتيان يشده ويبرزه وهذه الاستدارة والتضخم والبروز لها دلالة جنسية . فن المعروف أن النهدين يتضخان عند اللقاء الجنسي .

وكذلك أرداف المرأة . فهي حريصة أيضا على ابراز الردفين وتكبيرهما ..
ولذلك تستخدم الكورسيه .. وأحيانا، تستخدم الأرداف الصناعية المصنوعة من
القطن . وكما أن المرأة تحقن صدرها بالشمع . فإنها تحقن أردافها أيضا .

فكأن المرأة لا تخفى جسمها . وإنما هي تخفيه ليظهر أكثر . فلماذا ؟

نعود إلى جبلاية القروود : ففي عالم القروود نجد أن الخوف والزحام يدفعان
الحيوانات الضعيفة إلى الاستسلام للذكر القوي أو الأنثى القوية . وأول ما يفعله
القرود الضعيف أن يدير ظهره للحيوان الأقوى . ويعتليه الحيوان الأقوى . والخوف
في جبلاية القروود سببه الزحام على القوة . وعلى السلطة . وعلى الطعام وعلى
الأنثى . ولا يملك الضعيف في هذا الزحام الوحشى إلا أن يعطى نفسه لمن هو
أقوى منه . وليس لدى القروود إلا جسمها .. فتضعه أمام الذكر الأقوى !

وفي عالم الإنسان أيضا . فالمرأة عندما تخرج إلى الشارع . تحرص على أن
تكون جميلة ومثيرة فهذا الجمال والإثارة هما محاولة للفت نظر الرجل . وفي نفس
الوقت تدويب رغباته العدائية أو العدوانية .. إلى مجرد رغبة .. إلى اعجاب .. إلى
اشتهاء .. وبذلك تنجو المرأة من شر الرجل . وتنجو أيضا من الاعتداء عليها ..
ولولا خروج النساء إلى الشارع لانهدمت الحياة الزوجية وانهدمت الأسرة .
الإنسانية . فخروج المرأة إلى الشارع خفف حدة الرجال الآخرين الشبان
والمتزوجين .. فكأن المرأة عندما تخرج إلى الشارع جميلة أنيقة مثيرة عارية بارزة
النهدين والردفين تقول : من الممكن أن تحبني ولكنى بعيدة جدا ! .

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج إلى الشارع سوف تكون
موضع نظر الرجل .. أى رجل .. فهي لا تستطيع أن تسد عيون الناس . ولا أن
تسد أفواههم . ولكنها فقط عن طريق إشباع العيون تقطع أيديهم .. وإذا
كانت العين بصيرة ، فن المؤكد أن الأيدي ستكون قصيرة - وهذا هو
المطلوب !

فلماذا كل هذه المنوعات والقيود ، ولماذا هذه الاثارة في نفس الوقت ،
لماذا نفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل المدفأة في نفس الوقت ؟
لأن الرجل حيوان « بريالة » .. فإذا سال لعبه ، أصبح حيوانا ذلولاً ذليلاً ..
فكأن المرأة هي وحدها القادرة على تحويل النمر إلى قط وتحويل الذئب إلى كلب ..
إلى قرد عريان .. إلى عريان .. فكأن المرأة هي وحدها التي تقوم بترويض الرجل
الشرس في الشارع وفي البيت .. وهي وحدها القادرة على أن تحمي الحدود التي
وضعها الرجل .. وعلى ازالة الحدود وازالة الرجل أيضا ! .

وقد اعتاد الانسان شيئاً جديداً : اعتاد أن ينظر .. أن « يبص » وأن يجد متعة
في النظر والبصيرة .. واعتادت المرأة أن تكون منظورة .. ملفتة .. وتصبح المتعة
مشتركة بين الجميع .

ولذلك نجد متعة أيضا في مشاهدة الأفلام والمسرحيات حيث نجد أناسا
آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون .. إنهم يقومون بكل شيء بالنيابة
عنا .. إننا نشاركهم فقط بعض اللحظات . بل إننا نعلن عن الأفلام العاطفية
ياظهار البطل والبطلة في حالة عناق حار . ولا أحد يسأل نفسه : طيب هويعانقها
ويقبلها واحنا أخذنا إيه ؟ ..

لا شيء طبعاً . ولكن أثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطلة وننسى أن
الذي أمامنا هو تمثيل في تمثيل .. ولكن النظر متعة .. ولذلك عندما يتعانق
البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب .. وتتعالى آهات الحرمان .. آهات
صاحب العين البصيرة واليد القصيرة ! .

وفي الصحف والمجلات صور عارية .. وفي الروايات قصص عارية ..
وصفحات غرامية من نار .. كل هذا نبحت عنه . لأنه لذة . ومتعة . ومشاركة
بالعين فقط .. ! .

وفي هذه المناظر حامية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل إنسان أسرة أيضا ١
وفي البلاد التي يسمحون فيها بالدعارة .. نجد أن هذه الدعارة تحمي الأسرة
وفي البلاد التي يسمحون فيها بالدعارة .. نجد أن هذه الدعارة تحمي الأسرة
أيضا . فالرجل يذهب إلى إحدى الغانيات بلا حب ولا مقدمات فتمتد يده
دون أن يراها .. أى يكون طويل اليد قصير النظر.. ولذلك لا يفكر في أن
يتزوج غانية .. أو يترك زوجته وأولاده وبيته من أجل غانية .. أو من أجل
واحدة تملأ الذراعين وتسقط من العينين ! .

والدعارة هذا العفن الاجتماعي والأخلاقي - هو أحد السموم التي يحمون بها
الأسرة - أو كأنه أحد الأسمدة العضوية التي يستخدمونها لتغذية التربة ١٩ .

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائلية . أو التخفيف منها
تعيش الأسرة أقوى وأبقى علاقة اجتماعية . فقد حاول المفكرون أن يبحثوا عن
وسائل للحمل بدون أب معروف .. وحاولوا وضع الأطفال في مكان عام دون
حاجة إلى أم أو أب .. كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرأ الإنسان عنها
ولكن لم يتحمس لها . فما يزال الإنسان حيوانا اجتماعيا .. يريد الزوجة الواحدة
والطفل والبيت الخاص . وأن تكون له خصوصيات . وأن تكون هناك ، حدود
عليه وحدود له .. وأن يكون له أطفال . وأن يتولى هو تربية أطفاله وهذه هي
أحدى مشكلات الأسرة وأحد أعباء الزوجين .. والمجتمع والدولة .. وتربية
الطفل ليست مشكلة حيوانية .. فلا شكوى للقروود منها .. وإنما هي مشكلة
إنسانية جديدة ومتطورة كما سئى ! .

من قلوب الأمهات خرجت موسيقى الخافس

- ٢ -

عندما يولد القرد ، فإنه يمسك بأمه . يمسك بشعرها
وجلدتها . ويتعلق بها . كأنه تدرب على هذه العملية في بطن أمه
ومنذ وقت طويل .. ولا يستطيع الطفل الإنسانى أن يفعل ذلك
إلا بعد وقت طويل .

فالقرد الصغير لا يحتاج من أمه إلى تربية أو تدريب .. ثم إنه ليس عبثا
يصيبها بالقرف والغثيان وينخفض ضغط الدم عندها.. وينفخ صدرها ..
ويعتمد عليها .. أما الطفل الإنسانى فإنه عبء قبل أن يولد فلا تكاد أمه تحمل
فيه ٢٦٦ يوما حتى تطلق هذا الجنين كأنه قذيفة .. ولا بد أن تصرخ الأم بأعلى
صوتها . ولا بد أن يبكى الطفل . فإذا حدث ذلك تلفت الطيب يتلقى التهانى
من الأهل على أنه أبكى الأم وطفلها .

وينزل طفل القرد ومعه « خلاصه » هذا الخلاص تقوم أم القرد بقطعه ثم
ابتلاعه . وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذى يغرق جسم الطفل ثم تغسل جسمه
تماما .. أما الطفل الإنسانى فإنه يولد عاجزا تماما على فعل أى شىء .. وأمه
كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شىء لهذا المولود ..

ولابد أن قطع الخلاص على طريقة القروود كان أسلوب أجدادنا من ألوف السنين ، فيما عدا أنهم لا يأكلون الخلاص . ولابد أن حاجة الأم إلى مساعدة الآخرين في هذا الموقف ترجع إلى مئات الألوف من السنين عندما كان الإنسان صيادا يترك زوجته أياما حتى يعود إليها بالطعام . فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدها على ولادة الطفل والعناية به حتى تفيق الأم من آلام الولادة ..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الإنسانى يبدأ لبن الأم في السيولة النشطة . فإذا أعطت الأم ثديها لابنها ، ظل يرضع حوالى العشرين شهرا .. والرضاعة الحديثة تكتفى بسبعة أو تسعة شهور فقط .

وعندما تتوقف الأم عن ارضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح قادرة على الحمل من جديد .. ولذلك تعتبر الرضاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا .

والرضاعة عند القروود ليست مشكلة .. ولكنها عند الإنسان - هذا القرد العريان - مشكلة كبرى . فالطفل الإنسانى غير قادر على أن يطعم نفسه ، وعلى الأم أن تساعده فهي تحمله على صدرها . وهي تضع ثديها في فمه . وهذه مشكلة . فحلمة الثدي ليست ممدودة بدرجة كافية . وليس من السهل ادخالها في فم الرضيع . ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفثيه بحيث تكون حلمة الثدي بين سقف الفم وبين لسانه . ثم إنه يجب أن تكون الرضاعة سهلة في الأيام الخمسة الأولى ، وإذا فشلت الأم في ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك ..

وأحيانا تشعر الأم أن طفلها يرفض ثديها . وهي لاتدرى . ولكن عند

الطفل أسباب وجيهة جدا . كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها . فلا يعرف كيف يتنفس : ففمه الصغير مليان باللبن وأنفه الصغير ملتصق بصدرها .. ولذلك يجب أن تراعى الأم ذلك . وهذا يجعلنا نقول مرة أخرى إن صدر الأم - نهديها - ليس جهازا للأوممة . وإنما هو علامة من علامات الأنوثة .. والجنس . فهذه الاستدارة المرنة . وهذا البروز وهذه الحلمة غير الممدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل . ويكفي أن ننظر إلى زجاجات اللبن التي يرضع منها الطفل . فحلمة الزجاجاة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على الطفل أن يرضع منها . ولو عرف الزجاجاة لرفض ثدى الأم .. وتشبه هذه الزجاجاة النموذجية ثدى القردة .. فثدى القرد مترهل يسهل على الطفل أن يمسكه . كما أن حلمة الثدي طويلة ممدودة تدخل بين شفتيه بسهولة تامة . بينما الطفل الإنسانى يجد صعوبة فى وضع الحلمة فى فمه . ولا يقوى على إمساك الثدي بسهولة القروء .. فكان ثدى المرأة خلق للرجل وليس للطفل ..!

وهناك ملحوظة هامة وتحتاج إلى تفسير جديد . فقد دلت الأبحاث على أن ٨٠٪ من الأمهات يضعن أطفالهن الصغار أثناء الرضاعة على الذراع اليسرى .. وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتمد على الذراع اليمنى أكثر من الذراع اليسرى فتضع الأم طفلها على الذراع التي لاتستخدمها عادة .

ولكن لوحظ أيضا أن ٧٨٪ من الأمهات اللاتي يستخدمن الذراع اليسرى يضعن الطفل أثناء الرضاعة على هذه الذراع اليسرى أيضا !!

أما تفسير ذلك فهو أن القلب على الجانب الأيسر من الجسم . وأن الطفل وهو جنين قد اعتاد على سماع دقات قلب الأم . وعندما يولد الطفل عاجزا ضائعا فى هذا العالم الكبير فإن الأم تعيده إلى جنبها إلى حضنها كأنها تعيده إلى أحشائها فى ذلك المكان الأمين الذى يستمع فيه إلى دقات قلبها من جديد ..

ودقات قلب الأم هي الصوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن فبنام . والمرأة تفعل ذلك بالغريزة أو نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من السنين . وقد أجريت تجارب على أطفال صغار وضعوا فى غرفة واحدة فى الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب - أى ٧٢ دقة فى الدقيقة - فلو حظ أن الأطفال ينامون بسهولة . ولو حظ أيضا أن هؤلاء الأطفال يرضعون كثيرا . كما أن وزنهم قد زاد .. على عكس الأطفال الذين وضعوا معا بلا جهاز تسجيل فى غرفهم . فهؤلاء الأطفال يبكدون طاقتهم فى البكاء .

وأجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الأطفال : أطفال فى غرفة بها جهاز يذيق ٤٠ دقة فى الدقيقة .. وأطفال فى غرفة بها جهاز يذيق ٥٢ دقة فى الدقيقة .. والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل عليه دقات قلب حقيقى .. فلو حظ أن أطفال الغرفة الثالثة هم أسرع الجميع إلى الهدوء وإلى النوم .

ولابد أننا حين نتحدث عن أن الحب مصدره القلب وليس الرأس ، نشير إلى أن هذه الحقيقة التى عرفناها أثناء الطفولة .. فنحن نشير إلى الأمن والأمان إلى جوار الأم .

ولابد أن تكون « مرجحة » الطفل .. وهددهته حتى ينام .. سببها أن الطفل يستشعر خفقات قلب الأم .. ولابد أن هذا هو الذى يجعله ينام .. وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه يعيده إلى هدوئه عندما كان فى بطن أمه .. وهذا ما نفعله نحن الكبار .

فلا يكاد الإنسان يجلس إلى مقعده حتى يحاول أن يتأرجح به .. أو عندما نهز أرجلنا .. كل هذه محاولات لأن نهدي أنفسنا .. أو محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الأم .

وليس من الصدفة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التى يستريح إليها الشباب

هى موسيقى الدقات العالية .. دقات الطبول .. دقات القلوب المصنوعة من الجلد .. هذه الدقات تهز الأذن وتأرجح لها المشاعر .. وقد اختار الشبان فى العالم اسما لهذه الموسيقى هو : موسيقى الخفقان .. موسيقى دقات القلب . ومن الغرب أيضا أن الكثير من الشبان بعد حفلاتهم الموسيقية الصاخبة ينامون .. ولذلك يحرص هؤلاء الشبان على أن يناموا أثناء العزف الموسيقى .. ثم يصحون بعد ذلك بعد أن استراحت أجسامهم وأعصابهم أيضا .. إن هذه الموسيقى قد أعادتهم إلى طفولتهم .. إلى قلب الأم .. وإلى حنان النغم .. فناموا كأنهم أطفال صغار كأن موسيقى الخنافس قد صدرت من قلوب الأمهات ! .

وبعد ذلك يتوالى نمو الطفل : بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه إذا نام على الأرض . وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده إلى الأشياء . وبعد أربعة يستطيع أن يجلس فى حجر أمه . وفى الخامس يمكن وضعه فى مقعد . وفى السادس يمكن أن يجلس وحده وفى السابع يعتمد على أمه فى الوقوف . وفى الثامن يعتمد على أثاث الغرفة فى الوقوف . وفى التاسع يزحف . وفى العاشر تساعد أمه على المشى . وفى الحادى عشر يعتمد على أثاث الغرفة فى المشى . وفى الثانى عشر يستطيع أن يصعد السلم بيديه ورجليه وفى الثالث عشر يقف دون مساعدة . وفى الرابع عشر تجيء اللحظة الكبرى .

أنه يستطيع أن يمشى دون مساعدة ! وفى هذه الأثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات . ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفى السنة الثانية يعرف ٣٠٠ كلمة وفى الثالثة ٥٠٠ كلمة وفى الرابعة ١٦٠٠ كلمة . وفى الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الإنسان انفرادها عن كل الحيوانات الأخرى . وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القردة على الكلام .

فمثلا : أتوا بقرد وجعلوه يعيش فى نفس بيئة طفل إنسانى . وبعد سنتين لم

يستطيع القرد أن ينطق أكثر من بابا .. وماما .. كوب .. وإن كان الشمبانزى عنده مقدرة على تقليد الحركات ، فإنه عاجز تماما عن تقليد الأصوات . على الرغم من أن الأجهزة الصوتية عند الشمبانزى أقوى من أجهزة الإنسان .. ومعنى ذلك أن الجهاز الصوتى لا يكتفى .

ولكن العقل هو الفارق بين الإنسان والقرد . وهناك طيور أقدر من الشمبانزى على تقليد الأصوات .

فالببغاء يستطيع أن ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع أن يضيف كلمات أخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التى عنده .. ولكن هذه اللغة ضرورة عند الإنسان الذى كان يجب أن يخرج فى جماعات للصيد . وكان لابد أن توجد هناك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصيادين .. فاللغة ضرورة حيوية عند الإنسان ..

والطفل الإنسانى ككل أطفال الحيوانات الثديية له صرخة معروفة هذه الصرخة تدل على أنه يشكو من ألم . وبعض الطيور لها صرخات أيضا . والطفل الإنسانى عندما يتألم أو يجوع أو نتركه وحده أو إذا ظهر أمامه أو حوله شىء غير مألوف أو إذا سحبنا من تحته شيئا يستند عليه .. فإنه يصرخ .

فهو يصرخ إذن بسبب : التعب أو الخوف . وإذا صرخ الطفل الإنسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحميه . وفى هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهزه هو أو السرير الذى ينام عليه . وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الرأس ودموع فى العين ، وفتح للقم وسحب للشفتين إلى الخلف وتنفس مرتفع وعندما يكبر الطفل فإنه عندما يصرخ يتجه إلى أمه ويتعلق بها . وكل هذه معلومات معروفة . ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف أعرضها حالا .. مشكلة الابتسام والضحك .. فالابتسام له علاقة بالصراخ . فالصراخ نداء إلى شخص بعيد .

والابتسام حديث مع شخص قريب . وملامح الوجه عند الصراخ هي نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك : صراخ وفتح للقم وسحب للشفتين إلى الخلف وتقلص عضلى واحمرار فى الوجه .

وإذا استطاع الطفل أن يميز أبويه فى الشهر الثالث ، فإن البكاء يتحول إلى ضحك . فالطفل الضاحك هو الذى يعرف أباه ، والطفل العاقل هو الذى يعرف أمه . وعندما يعرف الطفل أمه فإنه يخاف من الآخرين .

والضحك معناه : أن الخطر ليس حقيقيا . وإذا عرف الطفل الضحك ، فإن الأم تستطيع أن تلعب معه دون أن يصرخ .

وهناك أناس كثيرون إذا ضحكوا لا تعرف إن كانوا يضحكون أو يبكون .. فلامح الوجه واحدة . والصوت نفسه واحد . وإذا كنا نقول عادة : إن فلانا ضحك حتى بكت عيناه ، فيمكن ان يقال عن الطفل : إنه بكى حتى ضحك .. فالطفل يبكى حتى ييىء أحد . فإذا جاء توقف عن البكاء . فإذا عرف هذا الذى جاء فإنه يتسم .. ثم يضحك .. وكثيرا ما يتوقف الطفل عن البكاء فجأة ويضحك .. نفس الملامح مع خلاف بسيط فى لمعان العينين .. وعندما يعرف الطفل كيف يضحك فإنه يصبح لعبة الأبوين والأقارب .. ويدخل الطفل مرحلة هامة من حياته .. مرحلة الكائن الاجتماعى الصغير ..

والشمانزى يتسم ويضحك ويلعب مع صغاره .. والشمانزى إذا ضحك فإنه يمد شفثيه إلى الأمام . وهى قريبة من الضحك الإنسانى وعندما يخاف الشمانزى فإنه يسحب شفثيه إلى الخلف ويكشف عن اسنانه . فالحيوانات تضحك وتلعب . والإنسان أبرع الحيوانات كلها فى اللعب وفى فنون اللعب .. وكلما كبر الإنسان اتسعت أمامه فرص اللعب بأنواعه المختلفة .. اللعب جسميا وعقليا وفنيا .

وإذا نحن نظرنا إلى الشبان عندما يستمعون إلى مطربهم المحبوب .. أو يتفرجون على العازفين الذين يعشقونهم . نجد أن هؤلاء الشبان يصرخون . ويشدون شعورهم ويدقون صدورهم ويمسك الواحد منهم الآخر .. إنهم يصرخون كأنهم يتألمون مع أنهم سعداء . ولكن الانفعال إذا ما كان بالغ الشدة فإنه يتحول إلى شعور بالألم .. فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد . وإنما صرخات بفصد تنبيه الآخرين إلى أن هذا هو شعورهم واحساسهم .. وأنهم في شدة السعادة التي بلغت أقصى درجات الألم ..

ولو أتينا بشاب أو شابة وأجلسناها مع المطرب الذي هو فنى أحلامها فإنها لا تصرخ ولا تشد شعرها ولا تدق صدرها .. فالصرخة ليس لها معنى هنا . لأن الصرخة نداء إلى الآخرين .. لأن الصرخة .. لغة .. عبارة .. كلام لا بد أن يسمعه إنسان آخر .. أو آخرون ! .

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ في الشهر الثالث فجأة . وسبب ذلك أن الطفل يكون قد عرف أمه . والأم الهادئة قادرة على تهدئة الطفل . والأم العصبية تجعل طفلها عصبيا أيضا ..

الأم التي تبسم لطفلها فإنها تهدئه . ولكن إذا فوجئ الطفل بأن أمه تضحك بصوت مرتفع على غير العادة ، فإنه يرتبك ويضطرب ولا يعرف ما الذى تقصده أمه .

وإذا الأم افتعلت ضحكة أو ابتسامة ، فإن الطفل يدرك ذلك أيضا ، ومن المستحيل خداع طفل صغير . وهذه حقيقة تعرفها الأمهات . وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة . وأنه إذا اعتاد على صوت ولهجة ونبرة وملامح الأم . فإذا تغيرت لأى سبب فإنه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة ! والابتسام تفاهم متبادل .

ومعناه : لاخوف . وعند الشمبانزى علامات تدل على المودة . ولكن الابتسام عند الإنسان ميزة خاصة . ولكن لماذا انفرد الإنسان بالابتسام ؟ سبب ذلك أن جلدنا ناعم .

عريان من الشعر . فالقرد الصغير عندما يولد فإنه يتعلق بأمه . ساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه . وعندما يتركها لأول مرة ، فإنه بسرعة يعود إليها ويمسك بها . فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول إلى منطقة الأمان حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده أمه فإنه يعود إلى صدرها يتعلق به والطفل الإنساني عندما يولد فإنه يكون عاجزا عن عمل شيء . وليس لديه شيء يمسكه أو يتعلق به . ولذلك لابد أن يعتمد على الأم نفسها . وعلى اقترابها منه ومعاملتها له . ويجب أن يصرخ حتى تجيء . والشمبانزى لا يحتاج إلى هذه الصرخات ، لأن أمه أمامه موجودة . أو لأنه يتعلق بها . ولذلك فالإنسان الصغير يحتاج إلى علامة إلى إشارة تدل على أنه في حاجة إلى معونة ومحتاج إلى إشارة أخرى فيقول إنه قد تحققت له المعونة وانه استراح إلى ذلك .. والابتسام هو المكافأة التي يمنحها الطفل لأمه .. فهو إذا ابتسم كأنه قال لها : شكرا .. وإذا ابتسمت هي فكأنها قالت له : عفوا ! .

وابتسامة الطفل في الأسابيع الأولى تكون غير مركزة .. إنها ابتسامة عامة .. ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز : على عيني الأم .. ولو قدمنا للطفل في هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينان .. لابتسم لها أيضا .. وفي الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم .. وفي الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه .. وابتداء من هذا الشهر ينطبع في نفس الطفل كل ماتفعله الأم حتى نهاية حياته .. إنه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسئوليتها الكبرى .

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع . وتقلص

اليدين والرجلين . وأحيانا يبصق الطفل ويخربش . تكون هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر .

وبعد ذلك تتركز على العدو .. أو الشخص الخيف . وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه وبقدراته .

وعندما يكون هناك أطفال كثيرون معا ، فإن استعدادهم للعدوان يكون أشد وأعنف .. ومهمة الأم هنا هي تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه . والطفل الإنسانى يتعلم بالتقليد والتلقين .. وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الأخرى .

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هي ثمرات لبذور غرست في الطفولة .

ولكننا ننسى ذلك .. كل ما يفعله الإنسان من تلقاء نفسه ويسمى ذلك سلوكا اخلاقيا ، ليس في الحقيقة إلا ما ترسب في نفسه منذ الطفولة .. ومن الصعب أن نغير آثار الطفولة وآثار الغريزة أيضا .. كما أنه من الصعب أن نغير التقاليد والعادات التي ترسبت في طفولة المجتمع الإنسانى . فإذا ظهرت أفكار جديدة تهز القديم ، فإن القديم يقاوم ويتحمس له الناس . لأن الجديد يريد أن يقتلعهم من طفولتهم أو يجردهم من تاريخهم .. ولكن الجديد يسود مع بقاء القديم أيضا ..

وهناك مجتمعات تجردت من كل القديم ، وتعلقت بالجديد .. هذه المجتمعات انهارت وانحلت وابتعدت عن الرواسب القوية الأخلاقية والاجتماعية . وهناك مجتمعات تجمدت طفولتها على ماضيها .. ولكن المجتمعات السعيدة - كالإنسان السعيد أيضا - هي التي تأخذ من الجديد ما ينفعها ، وتحفظ من القديم بما ينفعها أيضا .. أى المجتمعات التي اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين الماضى الكرم والمستقبل الباهر .. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة ..

كيف تغرس في نفس طفلها ما هو نافع له وللناس ، وتبعده عن الذي يضره
ويضر غيره ..

ولكن الإنسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو أدى ذلك إلى ضرره .. يريد
أن يعرف .. أن يمد عينيه ويده .. وخياله .. ويلعب أول الأمر ، ثم يحول
اللعب إلى فن : رسم . نحت .. تمثيل .. موسيقى !

القرود والسلسلة والقرديات

- ٣ -

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شديدة في أن تشمشم في كل ما تجده كأنها تريد أن تعرف : ما هذا ! ولماذا ! وهل الذى تجده شىء يصلح للأكل . والقرود هو أكثر هذه الحيوانات رغبة في الاستطلاع . أما الإنسان فهو أكثرها شراهة ويمكن أن يقال إن الإنسان حيوان « دباغ » أى يأكل أى شىء وفى أى وقت ..

وكلما أصبح الحيوان متخصصا فى طعام معين ، أصبح عالمه ضيقا محدودا وفى نفس الوقت خانقا أيضا .. فالحيوان الذى يأكل النمل لا يرى إلا هذه الحشرة . وتصبح الدنيا من أولها لآخرها لا معنى لها إلا إذا كانت على شكل نملة .. وإذا اختفى هذا النمل لأى سبب مات هذا الحيوان ! ..

ولأن بعض الحيوانات تخصصت فى بعض الطعام ، فإن الطبيعة قد أعطتها نوعا من الحماية . فحيوان القنفذ يستطيع أن يحدث أصواتا وضوضاء كما يحلوه وهو آمن تماما . لأن له درعا من الشوك يحميه من الأعداء .. لكن الحيوانات الأخرى التى ليست لها حماية يجب أن تكون فى حالة يقظة مستمرة .. فالإنسان يجب أن يبحث عن طعامه فى كل مكان ، وأن يكون البحث واعيا وإلا مات .

والقروود عندها حب استطلاع شديد . تماما كالإنسان ، ولكن عندما تكبر القروود ، فإن هذا الاستطلاع يتوقف ، ولا يتطور على عكس الإنسان الذى يقوده السؤال إلى جواب ثم إلى سؤال آخر وهكذا ..

وهناك نوعان من السلوك عند الإنسان : حب الجديد والخوف من الجديد .. فكل شىء جديد ربما كان خطرا .

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وان يتعد عنه باحتراس أيضا ، ولكن إذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعلم أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة ؟ هذه الرغبة فى أن نعرف هى التى تجعل ما ليس مألوفا شيئا مألوفا ، وبذلك نكتسب تجربة جديدة ، ونُدخرها ونختزنها ونتذكرها فيما بعد ..

فالطفل الإنسانى يريد أن يعرف ، يمد يده إلى كل شىء ، ويضع أذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله ، ويجرب ، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان .. ونحن نقول عادة عن هؤلاء الأطفال الذين يستطلعون كل شىء بشراهة : إنهم يتصرفون كالوحوش .. ولكن الأصح أن يقال : إن الوحوش هى التى تتصرف كالأطفال - أى عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقى بمعرفتها يختلط لديها الاندفاع بالاحتراس ..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الإنسان أيضا : اللعب ، فاللعب عند القروود يشبه اللعب عند الطفل الإنسانى ، فالصغار عموما يحبون الشىء الجديد . يمسكونه ، ويرموناه ويكسرونه ، ويخترعون أشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولا قدرة على أن ينقلوا إلى آباءهم معنى الألعاب أو الحركات التى اكتشفوها . أما الطفل الإنسانى فيستطيع إلى حد ما ، والفرق

بين القرد الصغيرة والأطفال الصغار : إن القرد كلما كبرت قويت عضلاتها
والأطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم ..

وإذا أعطينا القرد الصغير ورقة وقلم ، فإنه يمسك القلم ويرسم به على
الورق ، وعندما ينظر إلى ما أحدثه القلم على الورق يفرح به .. فهذه الخطوط
شئ جديد ، ويظل يرسم بالقلم على الورق ، وأحيانا يرسم دوائر ناقصة ..
وأحيانا خطوطا متقطعة .. أما الطفل الإنسانى فيتهدى إلى الدوائر والمربعات .
والأطفال والقرد يحبون الخطب والرقع .. أى يحبون أن يلعبوا بالأشياء التى
لها صوت ، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب أكثر .. يحبون
الجمب .. والبالونات ومسدسات الفل ..

والطفل الإنسانى عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة ،
ويرسم الوجه الإنسانى . وذلك بأن يجعل له عينين وفما وأذنين .. ثم يجعل
الذراعين والساقين تخرج من الرأس ..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف أيضا ، فالطفل يستكشف قدراته على
اللعب ، ويكتشف أنه قادر على أن يلعب ، ولكنه لا يقدر على أن ينقل هذا
الذى يمارسه إلى والديه فيقول لها ما الذى صنعه أو اهتدى إليه ، وإنما هو يرسم
فقط ! . إنه كالذى وجد قرشا على الأرض . وراح يلعب به فقط ولكن
لا يعرف إن كان هذا القرش له معنى آخر .. أو يستطيع أن يشتري به أى شئ ..
أو بعبارة أخرى : إن القرش لعبة ، أى أنه يساوى ثمنه لعبا ، أى أن اللعب لذة
مدفوعة الثمن فورا . فهو فى مرحلة اللعب لمجرد اللعب .

وفى عالم الأصوات : لانجد أن للقرد الصغير أو الكبير تجارب فى عالم
الصوت ، فهو غير قادر على أن يكتشف شيئا جديدا ، ولا أن يقوم بتركيب
كلمات أو حروف ، ولا هو قادر على التلاعب بالحروف والكلمات ، كما يفعل

الأطفال عندما يكتشفون قدرتهم على الكلام ، فإنهم يفرحون باختراع كلمات أخرى : أى بقلب الحروف وخطبتها .. إنها مهارة جديدة اكتشفوها في أنفسهم .. وإن كانت القروء لها أصوات معروفة ثابتة .

وإن كانت لها أيضا عادة دق الأرض بالأرجل والأيدى للتعبير عن الضيق أو الفرح ، ولكنها دقات معروفة محدودة ، كما أن القروء في بعض الأحيان تنفخ في الأجسام المفرغة الجوف .. ولكن القردة لم تستطع أن تجعل الشيء المفرغ عودا أو قيثارا ، ولم تجعل لهذه الأصوات قواعد ومعنى .

ولم تحاول القردة أن تجعل فرحتها منظمة .. أو حركاتها مدروسة كالرقص عند الإنسان . أو كالألعاب الرياضية .. فالرياضة هي حركات ذات إيقاع ، هذا الإيقاع متنوع من لعبة إلى لعبة ..

حتى الكتابة هي أيضا نوع من الرسم ، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضا .

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا إلى غيرنا ، ونقلنا أفكارنا من جيل إلى جيل ، وأصبح لنا تاريخ مشترك . ثم وضعنا لكل هذه الألعاب قواعد ..

ولاشيء جديد في عالم الحيوان .

ولكن الجديد في عالم الإنسان .

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به ، فإذا أصبح مألوفا اتجه إلى غيره ، ولو وقفنا عند الذى نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط في خطوط الأزياء والتسريحات والسيارات والأثاث ، ولكن الجديد في أسلوب التفكير

نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الإنسانية .. وهو الفارق بين الإنسان والقرد ، أو بين القرد العريان والقرد ..

وإذا رجعنا إلى لعب الأطفال لوجدناه موجها إلى الآباء في أول الأمر ، فالأب يلعب طفله ، والطفل يلعب والديه ، وعندما يكبر الطفل ، فإن اللعب يتجه إلى غيره من الأطفال .. أى يكون للطفل نشاط اجتماعي ، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معا ، وهذه مرحلة دقيقة جدا في حياة الطفل وسوف يكون لها أثر خطير في حياته ، فالطفل الذي يحاول أن يعزف على الآلات الموسيقية ويفشل وهو صغير ، سيجد صعوبة شديدة في محاولة ذلك عندما يكبر والطفل الذي يفشل في أن يكون له أصدقاء وهو صغير ، ستصبح الصداقة صعبة عليه عندما يكبر. وإذا كانت علاقة الطفل بالأشياء المادية كالليانوأوكالناى صعبة في الطفولة ، فإن علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب وأعقد .

والطفل الذى انزل عن مجتمع الأطفال ، أى الذى ليست له علاقات اجتماعية ، سيجد نفسه فى وضع سيئ وسوف تكون علاقاته الاجتماعية معقدة ومرهقة أيضا ..

ومن التجارب التى أجريت على القروء مثلا : أننا إذا عزلنا قردا من القروء الأخرى .. سنة وراء سنة ثم أتينا له بعد ذلك بقروء فإنه يظل عاجزا عن المشاركة معها فى اللعب أو اللهو حتى فى الجنس .. بل إنه يفقد رغبته الجنسية تماما ، وقد لاحظ العلماء أن القروء التى تنزل طويلا إذا وضعت فى مجتمع القروء فإنها تقف إلى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها .. وأحيانا تحفى وجهها بيديها .. كأنها فى حالة خوف أو خجل أو عجز عن الاشتراك فى أى عمل جماعى ..

وتربية الطفل لها جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية ، ولننظر ماذا يحدث في عالم القروود : فالأم تترك طفلها يتعلق بها ، فإذا خاف عاد إليها فالأم تحميه بحنانها وترضعه مكافأة على سلوكه الذي لا يضره ، وهذه هي مرحلة الأمان عن طريق الحنان ، أما عندما يكبر القرد فإن الأم تطرده بعيدا عنها ، لكي يشترك مع القروود الأخرى في اللعب فإذا عاد إليها فإنها تضربه وتقسو عليه .. كأنها تريد أن تقول له : إنك كبرت على حضن الأم ، فابحث لك عن حضن آخر .. وفي هذه المرحلة نجد الأم أقل حبا لطفلها . ولا تنطلق لحمايته إلا في حالة الخطر الشديد أما إذا لم يكن هناك خطر ، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فإنها تطرده وتضربه ، وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه ، وأن يدافع هو عن نفسه ..

وكذلك الطفل الإنساني تماما ، إذا لم تحسن الأم تربية طفلها في المرحلتين فإن النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية ..

والطفل الإنساني الذي يفقد الحنان وهو صغير ، ثم أصبحت له علاقات اجتماعية بعد ذلك ، فإنه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية ..

وإذا عرف الحنان في الطفولة وعرف الحماية الرائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه أن يجد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة ، وإنما سيظل كالطفل متعلقا بأمه ..

ولا يريد أحدا آخر غير الأم ، فإذا فقد الأم فإنه يظل يبحث عن الأم أو بديل عن الأم . وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس ، ولأنه ليس أما لأحد ..

والإنسان الذي يخاف من المجتمع يكون إنسانا انسحابيا أو هرويبا ، وهذا

الإنسان الهروبي لا يريد أن يعرف شيئا جديدا ، لأن الحديد مخيف وهو لا يريد أن يخاف .

فالذى يعرفه أحسن ، وهو لذلك ليس اجتماعيا ، ولا يجب أن يكون وقد يكون له نشاط جسمي ، ولكن نشاطه يجب أن يكون متكررا ، أى لا يأتي بحركات جديدة ، وإنما هو أسير العادة التى استراح إليها .

بل إننا نجد الكثيرين من الهروبيين لهم حركات ثابتة .. يهزون رءوسهم أو أيديهم أو أرجلهم بصورة متكررة أو يرضعون أصابعهم ، وتكون لكل واحد منهم « لازمة » .. لماذا ؟ لأن هؤلاء الهروبيين قد وجدوا البيئة مخيفة ، معادية ، لا ترحب بهم ، ولذلك وجدوا الراحة فى أن يجعلوا سلوكهم مألوفا ، مألوفا أكثر من اللازم . أى جعلوا أنفسهم مفهومين .. عاديين .. لا يخاف منهم أحد أو لا يلتفت إليهم .. ومن الممكن أن تلاحظ ذلك فى الناس الذين حولك . فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها فى الرد على كل شيء هو إنسان (عادى) - أى يجعل العادة تتحكم فيه . حتى أصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية ، لا يخيف أحدا ، ولا يخاف من أحد ، وهناك مثل شعبي يقول : آفتى : معرفتى ، وراحتى : ما اعرفش - ومعناه أنه لاشيء يخيف أكثر من المعرفة ، ولا شيء يريح أكثر من الجهل ! ..

ولابد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن يأتي بالأفعال الرتيبة .. مثل دقات القلب فدقات قلب الأم تريح الطفل . وكل عمل يكون متكررا على شكل دقات القلب هو شيء مريح أيضا . أو هو شيء يجعلنا نخفف من حدة التوتر .

وفى استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية أنه يدق بأصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه .. أو يتحرك فى الغرفة .. والطلاب أثناء الامتحان يضع القلم

فى فه .. أو يلعب بشاربه .. ويكون ذلك بإيقاع متكرر مثل دقات القلب ..
وهذه الحركات .. أو هذه (اللازمة) لها فائدة : فهى تساعدنا على احتمال
الشيء الجديد الذى ننتظره فى خوف .

وإذا نحن أسرفنا فى استخدام هذه (اللازمة) فإنها تصبح فكرة متسلطة
علينا .. أى أننا نضع القلم فى أفواهنا دون أن يكون هناك امتحان .. أو نروح
ونجىء فى الغرفة من غير مناسبة .. من غير أن تكون لنا قدرة ارادية على ضبط
هذه الحركات والتوقف عنها ! ..

وهذه (اللازمة) تولد من الملل .. وإذا ذهبنا إلى حديقة الحيوانات وجدنا
الحيوانات منغلة فى أقفاصها الحديدية .. وهى منغلة عن العالم الواسع . وعن
العلاقات الجماعية .. أى عن الاتصال بالحيوانات الأخرى ، فهى فى حالة
انسحاب وانزواء ، كأنها هربت من الحيوانات الأخرى ، أو هربت منها
الحيوانات الأخرى .

ومن الأفضل أن ننظر لأنفسنا ونحن نقف أمام أقفاص الحيوانات .. إن
هذه الأقفاص الحديدية تشبه الموانع النفسية الشديدة التى نحيط بها أنفسنا
وننسحب وراءها ، وننكش وندطوى ونتوقع ونجتز تجاربنا ولا نضيف إلى أنفسنا
شيئا اجتماعيا جديدا . وإنما نفرز من أنفسنا نسيج دودة القز وتوارى وراءها ..
أو نندفن ، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات : أنها تدور حول
نفسها وتثير نفسها جنسيا .. والإنسان يفعل ذلك أيضا فى المعسكرات والسجون
والمستشفيات والأقسام الداخلية للمدارس ، ونجد القروء تلعب فى أذنيها بأعواد
الشجر ، ونجد الفيل واقفا فى مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة ،
وبعض الحيوانات تشد شعرها ، أو تعض نفسها أو ترضع ثديها .
وقد يكون السبب أيضا هو التوتر الشديد أو تكون النشأة غير السليمة .

يمكننا أن نقوم بتجربة بسيطة وذلك بأن نلقى شيئاً في قفص قرد اعتاد أن
بنعزل فإن هذا القرد لا يحاول أن يتجه إلى هذا الشيء الذى ألقيناه فى قفصه ،
ومعنى ذلك أنه لاشيء يثيره أى لاشيء جديد يثيره .. وإذا كان الحيوان
لايلتفت إلى الشيء الجديد ، فلن يعرف شيئاً وإذا كان الإنسان لا يثيره الشيء
الجديد ، فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك أقرب إلى الحيوان .

وإذا ذهبنا إلى حديقة الحيوانات يجب أن نتذكر المدن الإنسانية التى نعيش
فيها ، إنها أيضاً مثل حدائق الحيوانات : كل إنسان له قفص ، هذا القفص من
أعواد حديدية ، هذه الأعواد هى الممنوعات النفسية والاجتماعية وهى تحصرنا
وتعصرنا ..

والصحة النفسية والاجتماعية إنما تتحقق إذا ما نحن ركبنا عربة يجرها
حصانان : أحدهما حب الجديد والآخر الخوف من الجديد .. والعقل الإنسانى
قد علمنا أن نتيجة إلى الجديد ، بخوف .. أو على الأصح باحتراس . وإذا كان
الإنسان قد مات بسبب رغبته فى المعرفة . فإن الإنسان حى لأن بعض الناس
مات من أجل أن يعيش غيره ليعرف أكثر وأكثر ..

وإذا نحن نظرنا إلى (القرداتى) فماذا نجد ؟ نجد قرداً مربوطاً فى سلسلة وإذا
وقف القرداتى ونحن أيضاً ، وجدنا القرد يأتى بحركات من الشقلبة والرقص ،
ومعنى ذلك أن القرداتى قد علم القرد أن يأتى بهذه الحركات . أى أن القرد
مربوط بسلسلة أخرى هى : العادة على إتيان هذه الحركات ..

فكأن القرد مشدود بسلسلتين واحدة تراها وواحدة أخرى لاتراها ولكن
هناك سلسلة أخرى تشد القرداتى إلى القرد : فهذا الرجل يعيش فى عالم
محدود ، عالم القرد ، ويمشى فى أماكن محدودة . ويعود إلى بيته ويجلس إلى
جوار الحائط ولاينام إلا والقرد إلى جواره وإلا على صوته ، ولو قطع القرد

السلسلة وهرب لأحس الرجل أن قلبه هو الذى انقطع .. فأى الاثنين هو القرد؟ أيهما هو المربوط بالآخر.. من المؤكد أن القرد هو المربوط فى الرجل . ومن المؤكد أيضا أن هذا الرجل العاقل مربوط من القرد .. وبالقرد .. فليست الحيوانات هى وحدها المحبوسة فى أقفاص ، وليس الإنسان هو الذى يذهب إلى الحديقة ليتفرج على القروء .. إنها أيضا تتفرج عليه وعلى قيوده التى لا يدرى بها ! ..

فكما/ أن هذا الرجل اسمه (قردانى) فهذا القرد اسمه « انسانانى » !
وكلنا كذلك !! ..

لولا سلامك سبق لسلامك

- ٤ -

لسبب يعتدى حيوان على آخر : دفاعا عن الأرض التي يعيش عليها ، أو حرصا على السلطة التي يتمتع بها في القبيلة أي أنه يدافع عن السلطة أو عن اللقمة .

وهناك حيوانات تدافع عن الأرض ولا تهمها السلطة .. وحيوانات تدافع عن مركزها ولا تهمها الأرض . أما الإنسان فإنه يدافع عن الأرض والعرض والسلطة .

وفي جبلاية القروود نجد أن القرد الأقوى هو الذي يسيطر . أما قوته فهي في عضلاته أو في حيويته . فإذا كانت حيويته هي مصدر قوته فإنه يعتلى كل الاناث وكل الذكور أيضا . ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه لغيره من ضعاف الجبلاية !

وكما تطور الإنسان في علاقاته الجنسية فأصبحت له أنثى واحدة، تطور أيضا ، ممتلكاته . فكل واحد له شيء يملكه : أرض أو بيت . وقد وصل الإنسان إلى هذا الوضع منذ كان الأقوياء من الرجال يسافرون بعيدا للصيد . وكانوا يتركون

بيوتهم وأولادهم . ولذلك كان لابد أن يتفوقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عندما يغيب القوى . إذا كان القانون يحمي الضعيف من القوى ، فكأنه يحمي الأقوياء - وهم أقلية - من الضعفاء وهم الأغلبية الساحقة ..

وعندما يشعر الحيوان برغبة في العدوان فإن تغيرات هائلة تجرى في داخله . هذه التغيرات هي نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين : قوة تدفعه إلى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة أخرى تقول : حاسب ! .

ومن هذا الصراع في داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهاى الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الادرنالين في الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والأحشاء إلى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويحذف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الأمعاء . ويصعب على الحيوان أن يتبول . ثم إن الكبد تفرز السكر في الدم . وينشط الجهاز التنفسي . ويقف الشعر ويتبلل بالعرق . وبسرعة السحري يحتفى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من أجل البقاء . والدم يندفع إلى الأماكن التي تحتاج إليه . وإلى المخ لكي يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما أن سرعة التجلط معناها أن أى جرح سوف يحف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا . ونشاط الرئتين معناها أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأوكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذي يقوم بتبريد هذا الجسم الملتهب . ولذلك لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التي يصل إليها ! .

وكلما ارتقت الحيوانات أصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس في التهديد .
للحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحني . وهذه الحركات تبين كيف استعد
الحيوان للمعركة ، وهى فى نفس الوقت تخفف من حدة الحيوان .. وكثيرا ما
نتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد !

وإذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال أو بقتال ، استعاد جسمه نشاطه
لعادى .. فريقه يجرى وبوله أيضا ! .

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات : فالتبول دليل على أن
مذه المنطقة التى يتبول فيها خاصة به . فهو يترك أثره فيها . والكلاب عندما ترفع
جلها عند أحد أعمدة النور، فهذا هو المعنى . وإذا كانت الكلاب تفعل ذلك
إسراف فى المدن ، فلأن فى المدن عددا كبيرا من الكلاب . وهذا يثيرها
ويدفعها إلى أن يحدد كل كلب مكانه وأرضه ! وقد اكتسب السيد قشطة عادة
خرى : فله ذيل عريض ، وهذا الذيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته
على أوسع نطاق ممكن . وبذلك يحدد الأرض التى تخصه . وبعض الحيوانات
لما غدد تفرز رائحة كريهة . هذه الروائح هى انذار لكل الحيوانات الأخرى .
هذه أرض تخص حيوانا آخر .. فاحترس ! .

وقد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات : النباح والعواء
بالفحيح والزئير .. وأحيانا الانتفاخ : عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل
حجمها أكبر وشكلها مخيفا ! .

وهناك اشارات للتفاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان
لآخر أن هناك خطرا .

ولذلك فالديك له عرف والأسد له معرفة تجعل الرأس أكبر . وكذلك
لعرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية ..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا أما التغيرات الظاهرة فهي أن عضلات الحيوانات تكون في غاية القوة والمرونة فالحيوان يروح ويحيى ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس في الرقص .

رقصة القتال . أو رقصة الحرب .

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر . وحول نفسه . وهذا الدوران معناه أن هناك توازنا بين رغبته في العدوان وبين رغبته في الامتناع عن ذلك .. وخصوصا عندما يلوى جسمه ويحنى رأسه ويدق الأرض بقدميه ا .

وأحيانا نرى نوعا من التراجع أو المراجعة . ولذلك يقوم الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان قد وضع « غله في شيء آخر » فيأكل مثلا أو يهرش في جسمه .. أو ينظف فروته أو يجمع الأعشاب أو الأخشاب كأنه يبني عشا وهما . وبعض الحيوانات تنام فجأة .. أو تتشاءب وتمدد ..

بعض العلماء يقول : إن الحيوان إذا أكل فهو جائع حتما . وإذا هرش فإن حشرة تلسعه . ومن الطبيعي أن يحوج الحيوان عندما تتبدد طاقته الهائلة في حالة التعب أو العدوان ! .

ولكن هذه الحركات التي يأتيها الحيوان ليست إلا محاولة لتخفيف درجة التوتر . أو ليست إلا نوعا من الانسحاب . وقد ينتهي الموقف هكذا . وينصرف كل حيوان إلى سبيله .. ولكن إذا فشلت هذه الحركات في تهدئة الحيوانات كأن تكون قطعانا كبيرة . وكأن يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة استخدمت الحيوانات أنيابها وأظفارها وقرونها .. وذيلها يكون كالكرياج .

ولكن من النادر أن يقتل الحيوان حيوانا آخر . ومن النادر أن يفعل حيوان ما يفعله مع فريسته . فالأسد إذا التقى بأسد فإنه يضربه ويجرحه ولا يقتله ولا يأكله .. أى أن الأسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته من الغزلان .. فإذا

انتصر الأسد القوى على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر . وتركه . أما المهزم فعليه أن يؤكد أنه انهزم ! وعليه أن يهزب إذا استطاع .

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات : من بينها أن ينكمش المهزوم وأن ينام على الأرض ويحني رأسه ويغمض عينيه ولا يزار .. وأحيانا نجد الحيوان المهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر . كأن يقدم له إحدى يديه .. وقد يتقض الحيوان المنتصر فيعض يد خصمه . أو يضربها . أو يكتفى بهذا الاستسلام .

وبين القرد نجد الشمبانزى يمد يده كأنه يتسول .. وخصوصا الاناث ، والاناث تعطى نفسها للذكر . وفي هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينحسم الموقف والذكور الضعاف تفعل ذلك أيضا ! .

وهذا هو قانون الغابة : الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله . وإذا استسلم له تركه . وانتهى الخلاف ..

وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للانسان . مع فارق أن كل هذه الاضطرابات تبدو على وجهه . وهذه مزايا القرد العريان - أى .. الانسان . فوجهه يصفر ويحمر .. من الغضب ومن الحجل . أما شعر الانسان فلا يقف .. رغم أننا نستخدم هذا التعبير ! .

وعند الغضب تنحني الذراع وتجتمع أصابع اليد على شكل قبضة وهذا استعداد من بعيد . أو تهديد من بعيد . وأحيانا نضرب المنضدة أو الحائط أو نضرب رءوسنا . ولكن ما نزال على مسافة من الخصم .

وكثيرا ما نوجه هذا الغضب إلى الشخص الذى جاء يخلصنا .

ولذلك نقول : ما ينوب المخلص إلا تقطيع هدومه .. والسيدة التى تكسر الأطباق فى حالة غضب مع زوجها ، لم تقصد تحطيم هذه الآنية وإنما هى

تقصد أن تحطم رأس زوجها ! وهذا بالضبط ما تفعله القرود فهي في حالة الغضب تحطم الأغصان والثمار وجدران القفص ! .

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام . فالذى كان في نيته أن يضرب بيده يجردها بفرودة . وأصابعه متراخية . وهي عملية تحويل الغضب إلى تهدئة .. وهدوء . وكذلك « الطبطبة » على الكتف تهدئة أيضا . وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك عندما ينخفض « عرفه » والأسد عندما ينخفض شعر رأسه .. وخلع البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان أقل طولا ، وأقل صلابة .. على خلاف ما يحدث عند العدوان أو القتل . وعند العدوان نبهلق في الخصم . فإذا أغمضنا العين أو نظرنا إلى الأرض كنا بذلك نهدي أنفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد في حاجة إلى الحذر والترقب . ونحن في حديثنا العادى لا ننظر إلى الذين نتحدث إليهم طوال الوقت ، وإنما فقط في نهاية كل جملة لنعرف وقع لكلام ..

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو متربصين أو عدوانيين . ولذلك فالذى ينظر إلينا من وراء منظار يجعلنا نشعر بأنه ليس وديا .. فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين بلا أجفان ولا رموش !

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات .. أو مثل هذه العيون نجد أن العيون مرسومة على أجنحة الحشرات . فإذا أحست خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة رهيبة تخيف أعداءها ! .

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور . ونحن نستخدم الأقنعة ذات العيون . وبعض شركات السيارات تجعل المصابيح الأمامية ذات أشكال مخيفة . وهذا ضرورى في الزحام في المدن .

بل إن الشركات لم تكثف بهذه « العيون المخيفة » وإنما جعلت للسيارات أسماء مخيفة أيضا .

ولذلك فالسلام باليد هو اعلان وقف اطلاق النار من العينين ونجىء القبلات بعد السلام .. كما نفع مع رجال الدين أو الآباء ، أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر : فالرغبة العدوانية الجنسية قد تحولت إلى مجرد لمس اليد باليد وبالشفتين - أى الحد الأدنى من تحقيق رغباتنا الخفية .

ومن الغريب أن الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا « طفوليا » .. فيتحول الرجل إلى طفل .. أو يقول كلاما مثل كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة . أى أنه يحول نزعاته العدوانية إلى نزعات استسلامية أو سلامية .. ويتحول الرجل والمرأة إلى أسلوب الحمام . فيشرب الواحد من كوب الآخر .. أو يمسك الواحد بمنقار الآخر : وهذا نوع من التقبيل .

والمثل الذى يقول : لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح .

أما « الطبطبة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القروذ أن القرد الذى انهزم أو استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه » .. وهذه « التفلية » تهدئ أعصابه . وكذلك الطبطبة هى نوع من الاقتراب البريء .. وقبول لهذا الاقتراب . فلا خوف ولا عدوان !

وفي مواجهة العدوان أو الغضب نقوم نحن بأعمال أخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان . مثلا نشعل سيجارة . أو نمسح النظارة . أو نلعب فى شواربنا أو ننظر إلى الساعة أو نحرك عقاربها . أو نرتب الأوراق التى أمامنا أو ننظر من النافذة . أو نطلب أى رقم فى التليفون . أو نقضم أظافرنا بأسناننا أو نطقق أصابعنا . ونحن قادرون على الكذب بملاحتنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا أ

بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم . وهناك أناس كذابون محترفون :
الممثلون . مهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة
أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والإنسان لأنه يحرص على أن تكون له أرض خاصة وبيت خاص وزوجة
خاصة . وأن يكون خاصا فى كل مكان يشغله ، نجده يضع صورة أولاده على
مكتبه أو صورة زوجته . وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوعا من
العرائس أو الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى .. ملايين
السيارات الأخرى التى تشبهها . وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته
من الخلف ومن الجوانب . إنه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى ..
وإذا سأله لماذا ؟ قال لك : إنها هكذا ألطف وأجمل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا . وإنما الصحيح أنه يريد أن يجعلها
مختلفة . يريد أن يجعلها خاصة به .. ومن الضرورى أن نتذكر هنا ما تفعله
الكلاب على أعمدة النور . نفس الموقف وإن كان الأسلوب مختلفا فكلاهما -
كلانا نحن والكلاب - يريد أن يؤكد أنه هنا - وأن هذا المكان خاص به
وحده . وأنه مضطر أن يفعل ذلك فى مواجهة الزحام الشديد بين الناس
والكلاب !

وهناك تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور .. مثلا عندما
نكسر إشارة المرور . ويدركنا عسكري المرور . فما الذى نفعله ؟ الأفضل أن
تتحدث إلى عسكري المرور وأنت فى سيارتك . أى فى مكانك . فى أرضك .
فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة . وفى هذه الحالة يحسن أن تجعل
أسلوبك متوسطا لطيفا . سوف يجه العسكرى إليك .. أى إلى حدود
مملكته .. وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى إلى اقتراب ودى .
وبذلك تكون وديا وهو أيضا . ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك . ولكن

نزلت من سيارتك ، أى تركت أرضك . وذهبت إلى أرضه . فالموقف فى
، . وهو سيده .. والنتيجة ضدك عادة ! .

وقد تطورت وسائل الاقتراب من أرض أعدائنا .. ومن أعدائنا فكان لابد
يقترب الانسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال ،
صيح فى الامكان قتله عن بعد .. والآن تحولت السهام إلى صواريخ وقنابل
، هذه الحالة نحن لا نصيب العدو وإنما نقتله .. أما الحيوانات فهى تهزم
-وها فقط ..

المحتويات

الصفحة

٥	أحبك .. أحبك ..
٣٣	الذى طعمه شديد المرارة ..
٣٤	الذى بين الناس ..
٤٩	الجنة الزائفة : ل . س . د .
٥٧	كلمات معقولة وأفواه مجنونة ..
٦٨	وأنت جميل تحب الجمال ..
٨١	مرارة العسل ..
٩٥	مغامرات تاريخية ..
٩٦	على الطريقة الإيطالية ..
١٠٩	الحب له تاريخ والمحبون لهم جغرافيا ..
١٢٠	فارس فوق حصان يحترق ! ..
١٣١	وراء كل عظيم : فتاة مراهقة ..
١٤٥	وثيقة زواجه كانت أعجب ! ..
١٥١	هدية لكل امرأة عندها طموح ! ..
١٦٥	هل اختفى الحرم ؟ ..
١٦٦	كان للسلطان حريم .. أصبح للحريم سلطان ..

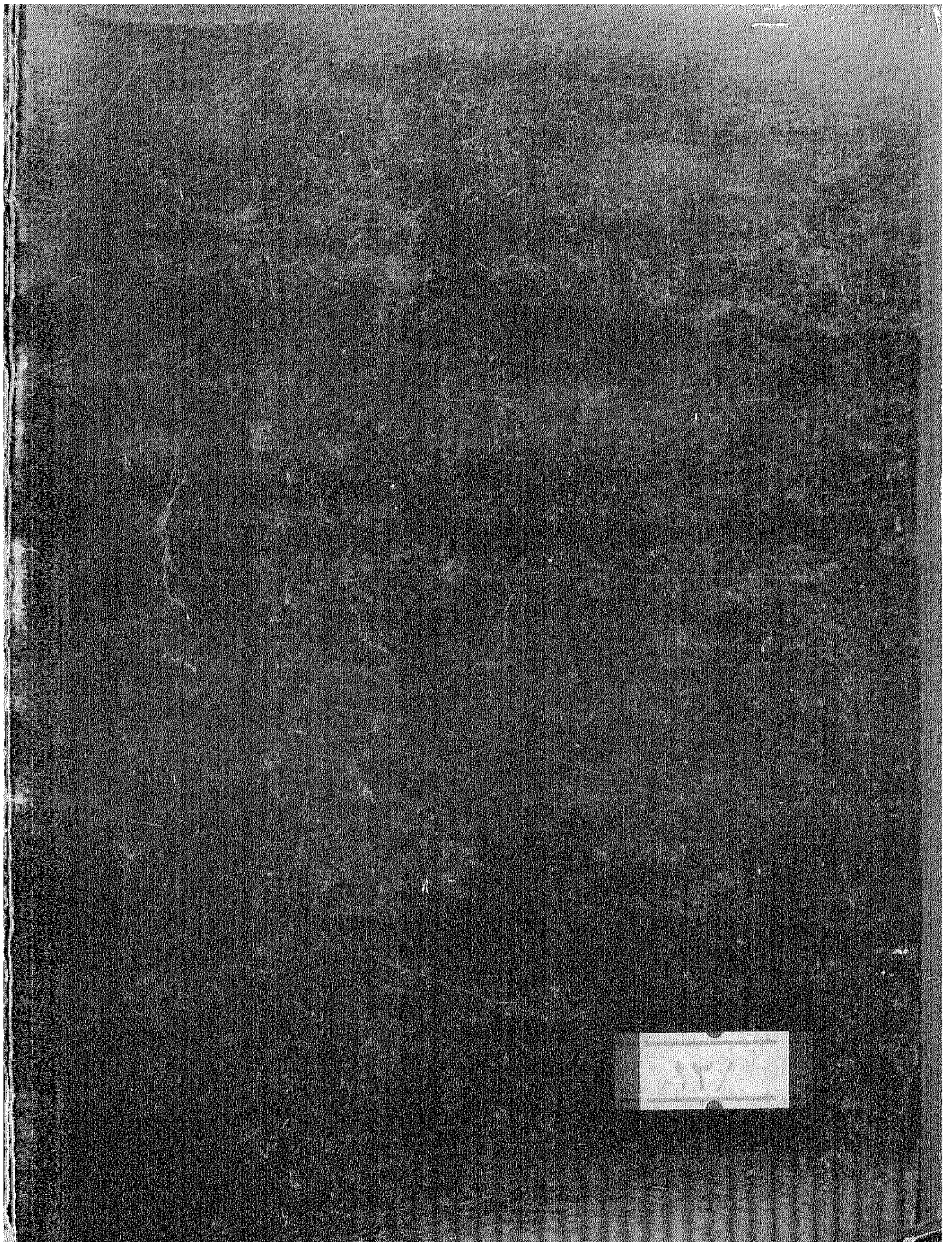
١٧٧	كيف خلقها الله ؟
١٧٨	بدون المرأة الحياة صعبة .. مع المرأة الحياة أصعب ا
١٩١	ثلاثة ألوان من الحب
١٩٢	الذين أحبوا حتى الموت
٢٠٢	العربة والحصان والحب ا
٢٠٩	يوميات كارمن واخوتها ا
١٢١	من الحب إلى الزواج
٢٢٢	ظروف يصنعها الآباء ويلومون عليها الأبناء
٢٣٦	عصر ترى فيه الفتاة أمها ولا تسمعها
٢٤٨	مكتوب على الفستان والجزمة : تاريخ المرأة
٢٦٠	العلاقة التي يمسكونها بأوراق الورد
٢٧٢	السويد : قاع الحرية
٢٨٧	مرحباً أيها الجنس الثالث
٢٩٧	في القرن الواحد والعشرين
٣٠٩	أجمل وأقسى ما خلق الله
٣١٠	النساء شياطين أو رياحين خلقن لنا
٣١٩	المحبون ليس لهم قوام مشدود
٣٣٠	ومن الذي يعجن الأطفال ؟
٣٣٩	إذا وجدت في المرأة رجلاً فلا تخافى
٣٤٩	المرحلة التي يسمونها : أموت في نفسى
٣٥٩	حريتها مثل ضفيريها : تقصها وتبكي عليها
٣٦٧	كانوا يزوجونها أصبحت هى التي تتزوج
٣٧٧	الزوجة من صنع الرجل : نظرية قديمة

- الأمومة مثل الحب ولكن بلا مقابل ٣٨٥
أشياء تصنعها المرأة ولا تجد من يراها ٣٩٤
قروود في كل مكان ٤٠٣
أنا .. وأنت ٤٠٤
من قلوب الأمهات خرجت موسيقى الخنافس ٤٢٢
القرود والسلسلة والقردياتي ٤٣٣
لولا سلامك سبق كلامك ٤٤٣

رقم الإيداع . ٨٩/٤٦٧٣
التزيم الدولي : ١ - ٣٧٨ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروقة

القاهرة. ١٦ شارع جواد حسن- هاتف ٠٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣



To: www.al-mostafa.com